.148

2258.148
al-Basir
Fi al-adab al-'Abbasi

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY PAIR>
32101 031721184

محمد مهدي البصير

في الأدب العباسي

(الطبعة الثانية)

جميع الحقوق محفوظة لوزارة المعارف العراقية
وكل نسخة ليست مختومة بختمها تعد مزورة

مطبعة السعدي - بغداد
١٩٥٥

al-Baṣīr, Muḥammad Mahdī

محمد مهدي البصير

في الأدب العباسي

Fī al-adab al-ʿAbbāsī

(الطبعة الثانية)

جميع الحقوق محفوظة لوزارة المعارف العراقية
وكل نسخة ليست مختومة بختمها تعد مزورة

مطبعة السعدي - بغداد

١٩٥٥

مقدمة

كان لصدور «عصر القرآن» أثره الحسن في تنفيذ المنهج الذي نسير عليه في دار المعلمين العالية ، فقد جنَّبنا ما كنا نعاني من الصعوبات التي تنشأ عادة عن إملاء الدروس على الطلبة ، وأتاح لنا الوقت الكافي للقيام بكثير من العمل لم يكن القيام به ميسوراً فيما مضى .

وقد صارحتك في مقدمة «عصر القرآن» بأني لا أضع بين يديك موسوعة تستوعب أدب ذلك العصر درساً واستقصاء وتستوفيه عرضاً وتسجيلاً ، وإنما أرجو أن أضع بين يديك مجموعة فصول تحتوي على المادة المقرر تدريسها في دار المعلمين العالية من أدب ذلك العصر وأصارحك الآن بأني لا أضع بين يديك موسوعة في الأدب العباسي العتيد ، وإنما أضع بين يديك سفراً يحتوي على ما أتولى تدريسه من هذا الأدب .

على أني لا أظن ، من جهة أخرى ، أني أزوي عنك أكبر جزء من الأدب العباسي إذا كنت أحدثك عن ابن المقفع والجاحظ والخوارزمي وبديع الزمان والهمذاني والحريري من الكتاب ، وعن بشار وأبي نواس وأبي تمام والبحتري وابن الرومي وابن المعتز والمتنبي وأبي فراس الحمداني والشريف الرضي ومهيار من الشعراء .

هذا إلى أني أحب أن ألفتك إلى اتباعي في تبويب هذا الكتاب طريقة غير الطريقة التي اتبعتها في تبويب عصر القرآن وسبب ذلك أن مجرى الأدب تغيرٌ كثيراً في هذا العصر ، فقد انقرضت المدارس الشعرية العتيدة التي يعتنق كل منها مذهباً خاصاً في صناعة القريض كمدرسة أوس ومدرسة آل ثابت ،

3-29-61
University of Baghdad
2258
148

واختفت الطوائف الأدبية التي كان يجتمع كل منها حول مبدأ من المبادىء السياسية أو الاجتماعية أو الأدبية كشعراء العلويين وشعراء الخوارج وشعراء الغزل العفيف وشعراء الغزل الاباحي . وقام بتمام ذلك كله نبوغ الشخصيات الأدبية القوية المستقلة التي لا تنتمي إلى مدرسة ما كبشار وأبي تمام والمتنبي والشريف الرضي ، فهؤلاء كلهم شعراء كبار ، ولكنّ أحداً منهم لا ينتمي إلى مدرسة ذات طابع خاص . وقل مثل ذلك عن أكثر الكتاب كالجاحظ وأبي بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني ومع ذلك فقد رأيت أن أفرق بين الشعراء والكُتّاب من ناحية التصنيف والتبويب ، فقسمت الكُتّاب إلى قسمين يتألف أحدهما من الكُتّاب المترسّلين وثانيهما من كُتّاب السجع والمقامات ، وأفردت لكل من هذين القسمين باباً خاصاً .

أما الشعراء ، فقد رأيت أن أجمع بينهم بطريق الزمن ، فدرست بشاراً وأبا نؤاس مثلاً على أنهما أكبر شعراء القرن الثاني للهجرة ، وأبا تمام والبحتري وابن الرومي وابن المعتز على أنهم أكبر شعراء القرن الثالث للهجرة ، وهكذا .

وشيء آخر أحب أن أقوله لك ، وهو أني لم أخضع بحثي لطريقة عامة معينة وإنما عالجت كل موضوع بالشكل الذي بدا لي أنه يلائمه فقد أتحدث عن لغة المترجم وأسلوبه وقد لا أتحدث ، وقد أتحدث عن رأيه في الدين والسياسة وقد لا أتحدث ، كل ذلك تبعاً لطبيعة البحث ودرجة الحاجة ومبلغ الفائدة .

وعلى الاجمال بذلت كل ما في وسعي لجعل هذه الفصول وافية بالغرض كفيلة بما أهدف إليه من خدمة الأدب وتأريخه ، ومن الله التوفيق ؟

محمد مهدي البصير

السبت ١١ أيلول ١٩٤٨

الباب الاول

فى الكُتّاب المترسلين

تمهيد في تأثر النثر العباسي بمذاهب القرآن وأساليبه

ينقسم الكُتّاب العباسيون من حيث مذاهبهم في الآداء وأساليبهم في الكتابة إلى معسكرين يتألف أحدهما من المترسلين وثانيهما من كُتّاب السجع . والمترسلون هم الذين لا يلتزمون السجع ولا يتقيدون بالأزدواج ولكنهم يرسلون أنفسهم على سجيتها ويطلقون أعنة أقلامهم في ميادين الأنشاء فتجول كما تشاء . وكُتّاب السجع على النقيض من ذلك فانهم يؤثرون أن تكون جملهم مقفّاة أو شبه مقفّاة وأريد بالمقفاة تلك التي يلتزم في اثنتين منها أو أكثر حرف واحد كما في قوله تعالى « ب س . إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم » فان الميم الملتزمة في آخر كل من هاتين الآيتين تجعل منهما كلاماً مسجوعاً وبشبه المقفاة تلك التي تتشابه أواخرها في الوزن ولا يلتزم في أواخرها حرف ما كما في قوله تعالى «ب س . إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة » فكلمتا واقعة . وكاذبة اللتان تختم بهما هاتان الآيتان تتفقان وزناً ولكنهما تختلفان في الحرف الآخر وهذا ما يسمى بالازدواج .

وليس لأي من المعسكرين فضل الابتكار في شيء فقد سبق القرآن إلى كل هذا فالتزم السجع وراعى هندسة الجمل ونظر إلى عدد الكلمات في عدد كبير من سوره وصرف النظر عن السجع وتحلل من قيوده وأهمل هندسة الجمل ولم ينظر إلى عدد الكلمات في عدد كبير آخر من سوره وقلده الراشدون وكبار الصحابة في خطبهم وكتبهم وقد فصلنا ذلك في الفصلين الثانى والثالث من

الباب الأول من عصر القرآن . واذاً فليس لابن المقفع ولا لغيره من المترسلين وليس للصاحب بن عباد ولا لغيره من كتّاب السجع أن يفخروا بأنهم أصحاب مذاهب جديدة في صناعة الأنشاء لأنهم جميعاً متبعون غير مبتدعين ومقلدون غير مخترعين والقرآن هو أستاذهم وإمامهم الذي عنه أخذوا وعليه تخرجوا شاؤا أم أبوا .

نعم إن كُتّاب الأسجاع تطرفوا فى التزام مذهبهم ففرضوا السجع على أنفسهم سواء أكان سهلاً سمحاً مستساغاً أم نافراً أبياً مستكرهاً وأفرطوا فى استعمال المجانسات والمطابقات وما إليها من الزخارف البيانية التي سبق القرآن إلى استعمالها جميعاً ولكنه فعل ذلك باعتدال وبدون تكلف . وما أظن أن التطرف فى اصطناع مذهب من المذاهب أو أسلوب من الأساليب يعد ابتكاراً .

وكُتّاب الدولة العباسية من مترسلين وأصحاب سجع كثيرون جداً وقد كتبت الأسفار العديدة الضخمة فى تأريخ حياتهم ودراسة آثارهم ولكني قد لا أخطيء إذا لاحظت أن ابن المقفع والجاحظ والخوارزمي والهمذانى والحريري أطولهم باعاً وأعلاهم كعباً فى صناعة الانشاء على اختلاف طرقهم ومذاهبهم فيه أو من أطولهم باعاً وأعلاهم كعباً فى هذه الصناعة على أقل تقدير وعلى هذا سأقتصر هنا على تراجم هؤلاء الخمسة ودراسة آثارهم مبتدئاً بابن المقفع كما يقتضي ذلك الترتيب الزمني .

الفصل الأول

ابن المقفع

أ ـ حياته : اسمه وكنيته ونسبه . سبب تلقيب والده بالمقفع . مولده . تعليمه . ماتقلب فيه من اعمال . إسلامه . حقيقته . مقتله . أسبابه . عرض قضيته على المنصور . سعي أبي أيوب الموريانى فى إهدار دمه .

ب ـ أخلاقه : طائفة من الأخبار التي تتعلق بها . رفضها . أثر الدعاية الشعوبية فى صنع هذه الاخبار .

جـ ـ آثاره : الأدب الصغير . حسناته وسيئاته . الأدب الكبير . ما يستحسن منه وما يعاب عليه . كليلة ودمنة . أصله فى السنسكريتية . تصرف ابن المقفع فى ترجمته . كيف أناقشه . محاسنه . مساوئه . فجاجة أحكامه فى كثير من القضايا التي يعالجها . تناقض ما ينطوي عليه من أقوال واعمال . اشتماله على كلام لا معنى له مطلقاً . سوء تأليفه على أنه كتاب . نظرة فى رسالة الصحابة .

لغة ابن المقفع وأسلوبه :

غموضه . تكراره فى غير ما مسوغ . إستعماله الألفاظ فى غير ما وضعت له . عجمة كثير من ألفاظه وتعابيره .

د ـ لماذا أدرسه ؟ !

هـ ـ مصدر شهرته .

و ـ خاتمة : الفصل في أمره .

أ ـ حياته :

هو رَوْزَبة وكنيته أبو عمرو في المجوسية ، وعبدالله وكنيته أبو محمد في الاسلام . ووالده داذويه وقيل المبارك ، ولعل المبارك لقب له . وهو من أهل جور ، التي ينسب اليها الورد الجوري ، إحدى مدن جنوبي فارس ، وله ولاء في بني الأهتم بالبصرة ، وهم أهل فصاحة ولسن . ما المقنَّع فانه لقب أطلق عليه ، قيل في سبب تلقيبه به إنه كان عاملا للحجاج على الخراج ، فاختلس شيئاً منه ، فضربه الحجاج حتى تقنَّعت يده — أي تشنَّجت — فلقَّب بالمقنَّع .

ومسقط رأس المترجم وتاريخ ولادته مجهولان . ولكن يغلب على الظن أنه ولد في البصرة نظراً لولاء أبيه في بني الأهتم ، ويغلب على الظن كذلك أنه ولد في أوائل العقد التاسع من القرن الاول للهجرة لأنه كتب لعمر ابن هبيرة في كرمان ، وقد عزل عمر هذا عن العراق والمشرق سنة (١٠٥) للهجرة ، ومن المستبعد كثيراً أن يستخدم عمر صاحبنا ويأتمنه على اسراره ولما يبلغ الخامسة والعشرين . ويضيف الأستاذ محمد كُرد علي صاحب هذا الفرض إلى ما تقدم أن كثرة إنتاج ابن المقنَّع تدل على أنه قُتل وهو في نحو الستين من عمره . وقد قتل سنة (١٤٢) أو (١٤٣) للهجرة ، "١" وهو رأي معقول ايضاً .

وكما يجهل الرواة مسقط رأس عبدالله وتأريخ ولادته يجهلون كذلك أمر تربيته وتعليمه . ولكن يخيل إليَّ ان والده تولى ذلك منه ، فلقَّنه حكم الفرس

« ١ » أمراء البيان الطبعة الأولى ج ١ ص ١٠٣

وآدابهم وسيرهم واخبارهم ، وعلمه الحساب وسائر ما يلزم لخدمة الديوان الذي يظهر أنه أعدَّه له إعداداً محكماً . وسواء أكان والده هو الذي تولىَّ أمر تربيته وتعليمه أم غيره فانه مما لا شك فيه أن ثقافته فارسية بحتة "١" ، يدلك على ذلك رأيه في خدمة السلطان فانه مما لا يقول به رجل متأثر بالأدب العربي . وغلوَّه في كل ما ذهب إليه ودعا الى العمل به ، ومن امثلة ذلك رأيه في الصديق والمرأة ، فانه على جانب كبير من الغلو والاسراف ، ولغته التي طالما استعملت فيها الألفاظ للدلالة على غير ما وضعت له والتي تظهر فيها العجمة ظهوراً لا يقبل الجدل ، وسأشرح هذا شرحاً كافياً عند الكلام في لغته واسلوبه .

اما علاقته بأبي جاموس ثور الذي كان يقدم البصرة على آل سليمان بن علي فانها ان صحت ، بعيدة كل البعد عن ان تكون ذات اثر قوي في تكوينه ، لأنها حدثت في دورٍ نضج فيه أدبه واستحكمت ثقافته . وانه لمن الغريب حقاً ان يذهب معظم مؤرخي أدبنا الى ان ابن المقفَّع اخذ الفصاحة عن أبي جاموس ثور هذا في اثناء زياراته للبصرة ، كأنَّ مشافهة اعرابي من حين لآخر تكفي لخلق رجل فصيح يترك الآثار التي تدرس على مر العصور والاجيال .

وكتب صاحبنا لجماعة من الولاة وكبار العمال في العهدين الاموي والعباسي ، منهم عمر بن هبيرة والمسيح بن حواري في العهد الأموي ، وسليمان وعيسى

« ١ » يرى بعض مؤرخي الأدب أنه حفظ القرآن وقرأ الشعر الجاهلي وعرف الشيء الكثير من خطب علي بن أبي طالب عليه السلام ، ولكن يخيل الي أن هذا الرأي مما يصعب اثباته ، لأن شيئاً ما من آثار ابن المقفع لا يدل دلالة واضحة على أنه ذو الزام قوي بالأدب العربي .

ابنا علي بن عبدالله بن عباس في العهد العباسي . وعهد اليه اسماعيل بن علي تأديب طائفة من اولاده .

وكان اسلامه على يد عيسى بن علي . وهنا لا بد ان نسأل : أكان اسلامه حقيقةً أم مجرد خدعة ؟

لا اريد ان اركن فى الاجابة على هذا السؤال الى هذه الروايات العديدة التي تتظافر على اتهامه بالزندقة ، فتزعم إحداها انه عارض القرآن ، وتزعم اخرى انه ترجم كتب زنادقة الفرس الى العربية عملا على افساد المسلمين ، وتزعم ثالثة انه مر ببيت النار بعد اسلامه فتمثل بقول الأحوص :

يا بيتَ عاتكةَ الذي أتعزَّلُ حذرَ العدى وبه الفؤاد موكل
انى لامنحك الصدود وانني قسماً اليك مع الصدود لأميل

وتزعم رابعة انه كان صديق حماد عجرد ووالبة بن الحباب ومطيع بن إياس وسائر اخوانهم من خلعاء الكوفة ، يسامرهم ويعاشرهم ويعاقرهم الخمر وكلهم متهم في دينه . لا اريد ان اركن الى هذه الروايات فى الاجابة على سؤالي الآنف ذكرُه لأنى اعلم ان الاتهام بالزندقة هو الستار البراق الذي كان يسدله ولاة الامور في صدر الدولة العباسية على كل جريمة يحلو لهم اقترافها ، فكل من خالفهم في السياسة او اي شأن من الشؤون التي تهمهم زنديق يجب قتله ولا يحل الابقاء على حياته . وقد قتل عبدالله بن المقفع باشارة من المنصور او بدسيسة من وزيره ابي ايوب المورياني . إذن فهو زنديق ، وهو داعية مخيف من دعاة الضلال والالحاد . ولكني ، اذ اطرح هذه الروايات جانباً ، لا احفل كثيراً باسلام الرجل ، اذ الغالب على ظني انه فكّر فى مركزه فرأى ان ولاة الامور يقدمونه ويقربونه ويحبونه ويعجبون به لأدبه ، ولكنهم لا يتجاوزون

به حدود الكتابة نظراً لمجوسيته ، فلو اسلم كما اسلم آل برمك لأصبح من الممكن ان يكون وزيراً تفوّض له امور المملكة او والياً تلقى له مقاليد الحكم في اقليم كبير ، وعلى هذا ترك دينه القديم وانتحل الاسلام . على انه من الممكن تماماً ان يكون اسلامه ثمرة تفكير سديد ونتيجة درس موفق . وقد قلت لك انه قتل باشارة من المنصور او بدسيسة من وزيره ابي ايوب الموريانى ، فأروي لك الآن تفاصيل هذا الحادث .

ما كاد المنصور — ثاني خلفاء بني العباس — يرتقي عرش الخلافة سنة (١٣٦) للهجرة حتى ثار عليه عمه عبدالله بن علي ، وكان هذا يأمل ان تؤول اليه الخلافة يوماً ما لأنه بطل معركة الزاب الفاصلة ولأنه قاطع دابر بني أمية في الشام . ولكن السفاح خيّبَ أمله ، فقد عقد الخلافة لأخيه المنصور على ان يليها عيسى بن موسى من بعده . وقد حدت هذه الخيبة بعبدالله الى شق عصا الطاعة والخروج على ابن اخيه المنصور ، ورماه هذا بأبي مسلم الخراساني فهزمه وقضى على فتنته . ولجأ عبدالله الى اخويه سليمان وعيسى اللذين كانا في البصرة ، وكان اولهما والياً عليها . فقبلاه ومنحاه حمايتهما وطلبا الى المنصور ان يؤمنه فقبل ، ولكنهما تشددا في الأمان خشية ان يغدر المنصور بأخيهما ، ودارت بينهما وبينه رسائلٌ كثيرة بهذا الشأن . وأخيراً عهدا الى عبدالله بن المقفع كاتب عيسى بن علي ان يضع نص الأمان على ان يشدّد فيه اعظم التشديد ويحتاط ما وسعه الاحتياط . فكتب لهما أماناً جاء فيه مايلي : « .. وان انا نلت عبدالله بن علي او احداً ممن اقدمه معه بصغير من المكروه او كبير ، او اوصلت الى احد منهم ضرراً سرّاً او علانية على الوجوه والأسباب كلها ، تصريحاً او كناية

او بحيلة من الحيل ، فأنا نفي "١" من محمد بن علي بن عبدالله ومولود لغير رشدة "٢" وقد حلّ لجميع أمة محمد خلعي وحربي والبراءة مني ، ولا بيعة لي في رقاب المسلمين ولا عهد ولا ذمة ، وقد وجب عليهم الخروج من طاعتي واعانة من ناوأني من جميع الخلق ولا موالاة بيني وبين احد من المسلمين الخ "٣" » "*" .

وثملت هذه الصيغة على المنصور ولا سيما ما يتعلق منها بالبيعة ، وسأل عمن كتبها فقيل له : عبدالله بن المقنع كاتب عيسى بن علي : فقال : « فما احد يكفينيه ؟ » وسمم ابو الخصيب احد رجال حاشية المنصور هذه الكلمة فكتب بها الى سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب الذي خلف سليمان بن علي في ولاية البصرة عندما آوى اخاه عبدالله وكان سفيان هذا يعادي عبدالله ويتحين الفرص للانتقام به لإحن قديمة بينهما ، منها ان المسيح بن حواري كان حاكماً لنيسابور وكان عبدالله على ديوانه ، فحدث ان عُزل المسيح وعيّن سفيان المتقدم ذكره خلفاً له ، فحاول المسيح اولاً ان يتخلص منه بالمال ، ثم ناجزه وفشل في هذا كله ، ولكن كانت معونة عبدالله له في تنفيذ محاولاته صادقة وفعالة . ومنها ان عبدالله كان يهزأ كثيراً بسفيان ويسأله عن الشيء بعد الشيء فاذا اجابه خطّأه وسخر منه ، وبلغ من تحامله عليه ان شتم عرض أمه ذات يوم شتماً قبيحاً ، ولهذا كان يتربص به الدوائر ليثأر لنفسه منه . ويظهر ان ابا الخصيب كان صديقاً له ، فهيأ له هذه الفرصة الذهبية ليشفي غليله من المترجم . وفي ذات

« ١ » نفيّ : كغني الولد ينفيه أبوه

« ٢ » لغير رشدة : أي ولد زنى .

« ٣ » الوزراء والكتاب للجهشياري الطبعة الأولى ص ١٠٤

« * » كانت نتيجة هذا التحفظ الشديد اهدار دم ابن المقفع ، أما عبدالله بن علي فقد قتله المنصور أشنع قتلة ، وذلك بأن سجنه في بيت بناه على أسس من الملح ثم سلط عليه الماء فدفن عبدالله تحت انقاضه .

يوم أرسل عيسى بن علي صاحب الترجمة برسالة الى سفيان ، فقال له انه يخافه على نفسه ، واشار بارسال جعفر بن جبلة الكندي بدلا منه . فأصر عيسى على رأيه ظناً منه ان سفيان لا ينال ابن المقفع بسوء لمكانه منه . واحتاط عبدالله لنفسه ، فأخذ جعفر المشار اليه وذهبا معاً الي سفيان . فلما صارا ببابه واعلماه مكانهما اذن اولاً لجعفر ، ثم اذن بعد فترة وجيزة لعبدالله ، فلما سلك هذا سبيله اليه أُعدل به الى مقصورة لقي فيها حتفه .

والرواة مختلفون في كيفية قتله ، ولا سبيل الى تحقيق شيء من اقوالهم في هذا الباب ولكن الذي لا نزاع فيه هو ان سفيان قتل عبدالله اشنع قتلة يتصورها بشر . ورفع عيسى بن علي قضية كاتبه الى المنصور ، فأرسل هذا الى البصرة من جاءه بسفيان مقيَّداً ، فلما قدم الكوفة لقي بعض أقاربه أبا أيوب المورياني وقالوا له : انهم يحملونه تبعة ما يصيب صاحبهم لأنه يقدر على انقاذه . ولقيه سفيان فقال له مثل هذا . فخاف أبو أيوب مغبة هذا التهديد وسعى في اهدار دم ابن المقفع لدى المنصور فكان ذلك . وعلم عيسى أن أبا أيوب يعمل على اهدار دم كاتبه فكف عن المطالبة به . أما حماد عجرد وهو صديق حميم لابن المقفع فانه يقول ان أبا أيوب المورياني هو الذي دبّر مقتل عبدالله بن المقفع لأنه كان يعرف اعجاب المنصور به واكباره لفضله وأدبه ويخشى ان يخلفه يوماً ما في منصبه . وهكذا ذهب ذلك الكاتب المسكين فريسة الضغائن والاحقاد وضحية الدسائس والاغراض .

ب ـ أخلاقه :

وكما تفنّن خصوم ابن المقفع في اختلاق الأكاذيب والصاقها به من الناحية

الدينية تنتن انصاره كذلك في اختلاق الأكاذيب والتطبيل والتزمير بها له من الناحية الأخلاقية . وما اريد ان أنفي انه كان « سرياً سخياً يطعم الطعام ويتسع على كل من احتاج اليه » ولكني أقف موقف الشاك المرتاب من هذه الأخبار التي ترفعه الى مصاف أجواد الملوك والأمراء والتي أروي لك مثلاً منها فيما يلي :

زعموا أنه أفاد مالاً لما كان يكتب لعمر بن هبيرة في كرمان ، فأبى عليه طبعه ، إلا ان يجري على جماعة من اهل البصرة والكوفة مرتّبات تتراوح بين خمسمائة وألفي درهم في كل شهر . ورووا ان عمارة بن حمزة الكاتب كان صديقاً لابن المقفع ، فورد عليه في يوم من ايام اقامته بالكوفة كتاب من وكيله بالبصرة يعلمه فيه ان ضيعة مجاورة لضيعته تباع ، وان ضيعته لا تصلح ان يملكها غيره ، وان اهلها قد بذلوا له ثلاثين ألف درهم وانه ان لم يبتعها فالوجه ان يبيع ضيعته . فقرأ عمارة الكتاب وابن المقفع عنده وقال : ما اعجب هذا ! وكيلنا يشير علينا بالابتياع مع الاضافة والاملاق ، ونحن إلى البيع احوج ؛ ثم كتب الى وكيله يأمره ببيع ضيعته والانصراف إليه . فلم يقل ابن المقفع شيئاً . ولكنه ذهب الى منزله وبعث سفتجة "١" الى الوكيل بثلاثين ألف درهم ، وكتب اليه على لسان عمارة : « إني كنت قد كتبت اليك ببيع ضيعتي ، ثم حضرني مال وقد أنفذت اليك سفتجة فابتع الضيعة المجاورة ولا تبع ضيعتي ، وأقم مكانك وأنفذ الكتاب بالابتياع الى » . ووجّه الكتاب اليه مع رسول خاص ، فورد الكتاب على الوكيل وقد باع الضيعة ، ففسخ البيع وابتاع الضيعة المجاورة ، وكتب الى عمارة يعلمه ذلك . فلما قرأ عمارة الكتاب عجب أشد العجب وسأل

« ١ » السفتجة : الحوالة .

عمّن حضره وقت ورود الكتاب وقراءته فقيل له ابن المقنع ، فعلم انه هو الذي بعث بالمال وأمر بشراء الضيعة . وزار ابن المقنع عمارة بعد أيام فقال له : « بعثت بتلك الثلاثين ألف درهم الى الوكيل وكنا اليها ها هنا أحوج » . فقال له : « فان عندنا فضلاً . » وبعث إليه بثلاثين ألفاً أخرى

وزعموا أن ابن المقنع حضر مجلس غناء كان فيه معن بن زائدة المشهور ، فغنّت جاريةٌ معناً فاعطاها ألف دينار ، وغنت أخرى عبدالله بن المقنع فأعطاها مئة ألف درهم ، أي عشرة آلاف دينار ، فقال معن : « لله درّ النمارسي ، فقد برّز علينا . » فواضح ان هذه الأخبار مما يصعب بل يستحيل تصديقه ، لأنها لا تتفق وما نعرف من احوال ابن المقنع في كثير ولا قليل .

إننا نعلم أن والد المترجم كان عاملاً من عمال بني أمية على الخراج ، وانه اختلس شيئاً من مال السلطان فضربه الوالي حتى تقفعّت يده ، ونعلم كذلك أن المترجم عمل كاتباً مرة ومؤدّباً تارة طلباً للرزق ، ونعلم زيادة على ما تقدم انه صاحب لهوٍ وشراب . أفتتسع حال كاتب او مؤدّب كثير النفقات لمثل هذا الكرم الفياض ؟؟ واذا قيل انه من الجائز أن تكون له ثروة شخصية تمكنه من اغداق هذه العطايا على الناس ، قلنا أفلا يكون خيراً له وأولى به أن يترك خدمة الدواوين وتعليم الصبيان كائنة منزلة هؤلاء ما كانت ، وان يضع نفسه حيث وضعها الله بين أولي الثراء الواسع والعطاء الجم ؟؟ أليس من حقنا ان نلاحظ أن هذه الأخبار من صنع دعاية شعوبية مغرضة تريد أن تخلق من عبدالله بن المقنع خليفة محسناً في صورة كاتب او ملكاً كريماً في مركز أديب .

ـ آثاره :

لأبن المقفع آثار عدة ، ذهب بعضها وبقى غير قليل منها . أما ما بقي فهو عبارة عن « الادب الصغير » و « الادب الكبير او الدرة اليتيمة » و « كليلة ودمنة » المعروف ورسائل اهمها « رسالة الصحابة » المشهورة ، وكلمات قصيرة لبعضها صبغة سياسية واجتماعية وبعضها شخصي بحت ، واحدثك فيمايلي عن هذه الآثار مبتدئاً بالادب الصغير وهو مجموعة عضات ونصائح نقلها المترجم عن الفارسية كما ينص على ذلك هو في مقدمتها واقتبس بعضها من الحديث النبوي وكلام الامام علي وقد أغفل الاشارة الى هذا وربما اضاف اليها شيئاً من عنده او حور جانباً منها تحويراً يتفق وطبيعة تفكيره ان صح هذا التعبير .

وليس من شك في ان الادب الصغير يحتوي على نصائح قيمة بعضها ديني وبعضها سياسي وبعضها اجتماعي . فمن ذلك نصح المؤلف قارئه ان يقسم وقته اربعة اقسام يفرغ في احدها لدينه وفي الثاني لمحاسبة نفسه وفي الثالث لمجالسة اخوانه ومعاشرتهم وفى الرابع لما يحل ويجمل من متع الحياة ولذات العيش "١" . ومنه وصية المؤلف بالنظر الي ما قيل دون نظر الى من قال ، وهو يشبه الحكمة الناصعة باللؤلؤة الثمينة يجب ان تلتقط حيثما وجدت . ومن هذا القبيل إغاضته في النهي ...

« ١ » على ان هذه النصيحة مأخوذة في أكثرها من قول الامام علي « المؤمن ثلاث ساعات ، فساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يرم معاشه ، وساعة يخلي بين نفسه وبين لذتها فيما يحل ويجمل .

نهج البلاغة ج ٢ ص ٢٩٩ طبع مطبعة دار الكتب الكبرى بمصر .

عن الكذب الذي هو في رأيه منشأ كل رذيلة ومصدر كل نقيصة . أما إذا كان القاريء من ذوي السلطان فان ابن المقفع يوصيه في هذه الرسالة بانتخاب عماله انتخاباً حسناً وتزويدهم بالارشادات والايضاحات الكافية ومراقبة أعمالهم مراقبة دقيقة ومكافأة المحسن منهم على احسانه ومعاقبة المسيء على إساءته . وفي ثنايا الرسالة نصائح أخرى عديدة حسنة من هذا القبيل .

ولكن إلى جانب هذه النصائح الحسنة وصايا أخرى كثيرة أقل ما يقال فيها إنها على جانب كبير من الشذوذ والغرابة . فمن ذلك أن المؤلف يوصي قارئه أن لا يعتمد على نفسه في تثقيف عقله وتقويم أخلاقه وتوسيع دائرة معارفه ومداركه ، وأن يكل هذا كله من أمره الى من يسميهم المؤلف بـ (ذوي الألباب) ... وبأية طريقة ؟ ! ! ان المؤلف يطلب الى قارئه (أن يؤنس ذوي الألباب بنفسه ويجرئهم عليها) أي أن يكون أضحوكة لهم وهم يعلمونه نظير هذا ويثقفونه ويبصّرونه بما يهمه من أمور دينه ودنياه ، فهو يقول في ذلك : (وعلى العاقل أن يؤنس ذوي الألباب بنفسه ويجرئهم عليها حتى يصيروا حراساً على سمعه وبصره ورأيه فيستنيم الى ذلك ويريح له قلبه ويعلم أنهم لا يغفلون عنه اذا هو غفل عن نفسه) "١" .

ومن هذا القبيل ما يوصي به المؤلف قارئه من أن يكون شديد الانقباض شديد التحفظ في صلاته مع العامة شديد الانبساط شديد الاسترسال في صلاته مع الخاصة ، أي أنه يوصيه ان يكون دجالاً إذا لم أخطيء في فهم كلامه .

« ١ » رسائل البلغاء طبع مطبعة دار الكتب العربية الكبرى سنة ١٩١٣ ص ٢٩ .

وأنا أروي لك كلامه في هذا الشأن بنصه لتفهمه كما تشاء . قال : « وعلى العاقل ان يجعل الناس طبقتين متباينتين ويلبس لهم لباسين مختلفين ، فطبقة من العامة يلبس لهم لباس انقباض وانحجاز وتحرز وتحفظ في كل كلمة وخطوة ، وطبقة من الخاصة يخلع عندهم لباس التشدد ويلبس لباس الأنسة واللطف والبذلة والمفاوضة ، ولا يدخل في هذه الطبقة إلا واحد من ألف » «١» «*» . ومن هذه النصائح الشاذة ما يذهب إليه المؤلف من أن العاقل ينبغي أن يجبن عن إبداء رأيه إذا شعر أن أحداً لا يوافقه عليه . وإليك ما يقوله في هذا الشأن : (وعلى العاقل أن يجبن عن الرأي الذي لا يجد عليه موافقاً وإن ظن أنه على اليقين) « » ومن هذا القبيل تفريق المؤلف بين الدين والرأي واعتداده بأنه ليس لأحد أن يفكر في أمر دينه وأن يكوّن له فيه رأياً وأن كل ما عليه في هذا الشأن هو أن يؤمن وكفى ، وهو يقول في هذا ما نصه : (فصل ما بين الدين والرأي أن الدين يسلم بالايمان وأن الرأي يثبت بالخصومة «٣» فمن جعل الدين خصومة فقد جعل الدين رأياً ومن جعل الدين رأياً فقد صار شارعاً ومن كان هو يشرع لنفسه الدين فلا دين له) «٤» . ومن غريب أو فظيع ما يوصي به المؤلف قارئه

« ١ » رسائل البلغاء ص ٢٩ — ٣٠ .

« * » أما أن يكون للرجل عدد قليل من الاخوان يأنس بهم ويأنسون به ويطمئن اليهم ويطمئنون اليه فهذا طبيعي بل ضروري . ولكن الذي ننكره على ابن المقفع هو ما يوصي به من « انقباض وانحجاز وتحرز وتحفظ في كل كلمة وخطوة » بالنسبة الى العامة ، اذ ان ذلك رياء ما بعده رياء .

« ٢ » المصدر نفسه ص ٣٠ .

« ٣ » أظن أن المؤلف يريد « بالخصومة » التمحيص ، وهو تعبير غريب .

« ٤ » المصدر نفسه ص ٢٨ .

هو أن يستمتع بما آتاه الله من خير دون ان يحفل بما يصيب غيره من شر ، فهو يقول في هذا ما نصه : (وأنفع العقل أن تحسن المعيشة فيما أوتيت من خير وألا تكترث من الشر بما لا يصيبك)«١» .

ومن هذه العجائب التي يحفل بها الأدب الصغير استدلال المؤلف على عظم شأن الدين بثناء الجهال عليه ، استمع اليه يقول : « الدين أفضل المواهب التي وصلت من الله تعالى الى خلقه وأعظمها منفعة وأحمدها في كل حكمة . فقد بلغ من فضل الدين والحكمة أن مُدحا على ألسنة الجهال على جهالتهم بهما وعماهم عنهما)«٢» ومنها كذلك اعتقاد الكاتب أن دين المرء لا يثبت على حالة واحدة وأنه زائد مرة وناقص تارة ، وهو يسجل هذا بقوله : لا يثبت دين المرء على حالة واحدة أبداً ولكنه لا يزال إما زائداً وإما ناقصاً)«٣» ولكن ـ اذا لم يخطيء ظني ـ فان شذوذ المؤلف في أدبه « الصغير » هذا يبلغ أشده في هذه الحكم الغالية التي يقول فيها : (من نزل به الفقر والحاقة لم يجد بداً من ترك الحياء ، ومن ذهب حياؤه ذهب سروره ، ومن ذهب سروره مُقت ، ومن مقت أوذي ، ومن أوذي حزن ، ومن حزن ذهب عقله ! !)«٤» «*» . . وبعد ، أتصح هذه المقدمات وتلك النتائج في رأي أحد من الناس ؟ . أصحيح أن الأصل في الرجل الفقير أن يكون رجلا لا حياء له ؟ . وأن من لا حياء له لا سرور له ، وأن من لا سرور له ممقوت لدى الناس ؟ . أصحيح أن من حزن قلبه لأمر من

« ١ » المصدر نفسه ص ٤٢ .

« ٢ » رسائل البلغاء ص ٣٧ .

« ٣ » المصدر نفسه ص ٤٣ .

« ٤ » المصدر نفسه ص ٥٢

« * » يخيل الي ان ابن المقفع يجاري بكلامه هذا كلاماً بليغاً للامام علي هذا نصه « من كثر كلامه كثر خطؤه ومن كثر خطؤه قل حياؤه ومن قل حياؤه قل ورعه ومن قل ورعه مات قلبه ومن مات قلبه دخل النار » نهج البلاغة ج ص ٨٤ طبع لمطبعة العربية الكبرى بمصر . ولكن كم بين كلام الامام علي وهذر ابن المقفع من فرق .

الأمور ذهب عقله ؟ أيكتب هذا أم يقوله رجل يملك مثقال ذرة من العقل ؟ ! أنا لا أطلب الى ابن المقفع أن يصطنع منطق « ديكارت » في دراسة مشاكل الكون ولا براعة « ستندال » في تحليل النفوس والعقول ولا لباقة « أناتول فرانس » في معالجة شؤون السياسة والاجتماع . وكل ما أطلب اليه هو أن يفهم الأشياء فهماً طبيعياً وأن يحكم عليها أحكاماً تتفق ومنطق القرن الثاني للهجرة أو منطق أي قرن من القرون . أفترانى واجداً عنده ما أطلب ؟ ؟

أما الأدب الكبير أو « الدرة اليتيمة » فانه صورة مكبرة للادب الصغير في محاسنه ومساوئه وكونه منقولا على الاكثر عن اللغة الفارسية ومتأثراً بتفكير ابن المقفع في مواطن عديدة .

فمن محاسنه أنه يوصي بالاعتدال في كل شيء ، ولا يرى بأساً في الاستزادة من كريم الخصال كالشجاعة والسخاء ويوصي بالوفاء للصديق والمبالغة في إكرامه ومواساته إن نزلت به نائبة من نوائب الزمن ، ومن طريف ما يوصي به المؤلف في هذا الكتاب التمسك بأدب الحديث ، فهو يدعوك الى أن تصغي لمن يحدثك وأن تحترس من أية بادرة تدل على انك عالم بما يقول او راغب في مقاطعته الي غير ذلك مما يقتضيه ادب الحديث . اما اذا كنت ذا ولاية فان المقفع يوصيك ان تتحرز من المدح لأن حب الثناء موطن ضعف كبير في ولاة الأمور قد يؤدي بهم الى الاخلال بواجباتهم والتقصير في إنجاز اعمالهم على أتم وجه . هذا الى انه يعرضهم الي سخرية الساخرين وغيبة المغتابين ولعل اثمن نصيحة يسديها اليك المؤلف ، اذا كنت من ولاة الأمور ، قوله :

(لتكن حاجتك في الولاية الى ثلاث خصال ، رضى ربك ورضى سلطانك إن كان فوقك ورضى صالح من تلي عليه)«١» . ولا يفوتني ان اروي لك قوله في كبح جماح الغضب : (استعن بالصمت على اطفاء الغضب)«٢» . وقوله في الدعوة الى الاحتراس من مصائب الزمن ومكايد الناس : (الضعيف المحترس من العداوة اقرب الى السلامة من القوي المغتر »«٣» .

ولكن الى جانب هذه الأقوال الحكيمة اقوال اخرى لا ابالغ اذا قلت انها سقيمة . منها قول الكاتب منوّهاً بالقدماء في مقدمة كتابه هذا : (وجدنا الناس قبلنا كانوا اعظم اجساداً واوفر مع اجسادهم احلاماً واشد قوة واحسن بقوتهم للأمور اتقاناً واطول اعماراً وافضل بأعمارهم للاشياء اختباراً . فكان صاحب الدين منهم ابلغ في امر الدين علماً وعملاً من صاحب الدين منا«٤» وكان صاحب الدنيا على مثل ذلك من البلاغة والفضل ، ووجدناهم لم يرضوا بما فازوا به من الفضل لأنفسهم حتى اشركونا معهم فيما ادركوا من علم الأولى والآخرة فكتبوا به الكتب الباقية وكفونا مؤنة التجارب والفطن)«٥» وقوله في الدعوة الى مسايرة الحكام : (اياك ان يقع في قلبك تعتب على الوالي او استزادة له ، فانه ان أنست ان يقع في قلبك بدا

« ١ » رسائل البلغاء ص ٦٠

« ٢ » المصدر نفسه ص ١٩ .

« ٣ » المصدر نفسه ص ١٢٠

« ٤ » كان هؤلاء القدماء الذين يبالغ ابن المقفع في اطرائهم ويفضل صاحب الدين منهم على صاحب الدين من معاصريه مجوساً ، فكيف يفضلهم ابن المقفع من الناحية الدينية على معاصريه وهم مسلمون ؟

« ٥ » رسائل البلغاء ص ٥٥

في وجهك ان كنت حليماً وبدا علي لسانك ان كنت سفيهاً)«١» وقوله في الموضوع نفسه : (ولا تعدّن شتم الوالي شتماً ولا اغلاظه اغلاظاً فان ريح العز قد تبسط اللسان بألفاظ في غير سخط ولا بأس)«٢» وقوله : (ذلل نفسك بالصبر علي جار السوء وعشير السوء وجليس السوء فان ذلك مالا يكاد يخطئك)«٣» وقوله : (ووطن نفسك على انه لا سبيل لك الى قطيعة اخيك وان ظهر لك منه ما تكره ، فانه ليس كالمرأة التي تطلقها اذا شئت . ولكنه عرضك ومروءتك فانما مروءة الرجل اخوانه واخدانه)«٤» وقوله : (ومن تمام حسن الخلق والأدب ان تسخو نفسك لأخيك بما انتحل من كلامك ورأيك)«٥» وقوله : (اذا كانت لك عند احد صنيعة أو كان لك عليه طول فالتمس احياء ذلك باماتته وتعظيمه بالتصغير له)«٦» . فواضح ان المثال الاول يكشف عن سذاجة منقطعة النظير في عبادة القديم وتعظيم القدماء والتعويل عليهم في كل شيء والنزول عن كل ما يلزم الرجل العامل من درس وتفكير واختبار ، لأن القدماء فعلوا من ذلك ما يكفيهم ويكفي من يأتي بعدهم وان الأمثلة الثاني والثالث والرابع دعوة الى عبودية تشمئز منها النفوس وتقشعر الجلود ، وان المثال الخامس يقضي باحلال صلة الرجل بصديقه فوق كل شيء

« ١ » المصدر نفسه ص ٧٣

« ٢ » المصدر نفسه ص ٧٤

« ٣ » رسائل البلغاء ص ٩٢

« ٤ » المصدر نفسه ص ٨٨

« ٥ » المصدر نفسه ص ٨٣

« ٦ » المصدر نفسه ص ٩١

وصلته بزوجته دون كل شيء . وهـذا ما لا يقول به عاقل مطلقاً ، وأن المثال السادس تمرين على الضعة ونصيحة باصطفاء الاخوان من أراذل الناس ، وان المثـال السابع حث على التواضع المكذوب والكرم المصطنع وحض على اقتناص الثناء والاطراء بالمكر والحيـلة . وفي الكتاب نصائح اخرى كثيرة توصي بالتقليد والخنوع والجبن والعبودية والشعوذة وما الى ذلك رأيت ان اضرب عنها صفحاً .

أما كليلة ودمنة ، وهو خير ما نقل ابن المقفع عن الفارسية الى العربية ، فانه مجموعة قصص وحكايات وضع معظمها على ألسن الطيور والبهائم ما أظن ان لغة تخلو من امثالها . وما أحسب ان له اصلا في السنسكريتية كما زعم ابن المقفع وغيره من مترجميه لأنه لو كان كذلك لحفظته لنا خزائن الملوك التي قيل انهـا كانت تحتفظ به كما لو كان كنزاً من أثمن الكنوز ، أو لأشارت اليه المصادر السنسكريتية القديمة على أقل تقدير اشارة واضحة ، ولكن شيئاً من هذا لم يكن . وأكبر ظني ان برزويه منـدوب كسرى أنوشروان الى الهند ترجم لسيده قصصاً متفرقة في اللغة السنسكريتية جمعها هو في كتاب أطلق عليه هذا الاسم .

وقد تصرّف ابن المقفع في قصص كليلة ودمنه تصرّفاً أفسدها وذهب بما فيها من لطف وسذاجة . ولا أدل على ذلك من هذه النزعة القدرية القوية التي لا تكاد تخلو منها قصة من القصص والتي لا يمكن أن توجد فيما يخيل إليّ على

الأقل إلا عند غلاة القدريين من المسلمين"١" . ومن تلكم الاشارات التي لا تحصى الى الصلاة والصوم وما يجري مجراهما من الأمور الاسلامية الصرف"٢".

وما اريد ان أعرض لباب « الفحص عن أمر دمنة » فان الرواة متفقون على أنها من وضع ابن المقفع ، ولكني سأحدثك عن أبواب الكتاب الأخرى وهي : باب الاسد والثور ، وباب الحمامة المطوقة ، وباب البوم والغربان ، وباب القرد والغيلم ، وباب الناسك وابن عرس ، وباب الجرذ والسنور ، وباب الملك والطائر فنزة ، وباب الأسد وابن آوى ، وباب بلاذ وإيلاذ وإيراخت ، وباب البومة والأسوار والشعير ، وباب الناسك والضيف ، وباب السائح والصائغ ، وباب ابن الملك واصحابه . وباب الحمامة والثعلب ومالك الحزين .

وما أريد ان أناقش كليلة ودمنة على انه كتاب من كتب الفرن العشرين سواء من حيث مقاصده واغراضه ام من حيث تبويبه وترتيبه ، كما انه لا ينبغي ان افعل ذلك ، ولكني سأناقشه على انه كتاب كتب قبل بضعة وعشرين قرناً ، فأقول : إنه يحتوي فى بعض أبوابه على حكم رائعة وقصص طريفة وحكايات مستملحة ، إلا انه فى مجموعه اقرب الى السخف والسذاجة منه الى اي شيء آخر . وأبرز مساوئه في زعمي أربع وهي :

« ١ » لعل قصة ابن الملك وأصحابه أشد قصص كليلة ودمنة ايماناً بالقدر وأحرصها على التمسك به والاذعان له .

« ٢ » من أمثلة ذلك قول شتربة لدمنة عندما جاء ليفسد ما بينه وبين الاسد : « من التمس الرخص من الاخوان عند المشاورة ومن الاطباء عند المرض ومن الفقهاء عند الشبه أخطأ منافع الرأي وازداد فيما وقع فيه من ذلك تورطاً » — كليلة ودمنة الطبعة السادسة بمصر ص ٢١٧ — ومن هذا القبيل قول شتربة لدمنة في المقام نفسه : « ليس للمصلي في صلاته ولا المتصدق في صدقته ولا للورع في ورعه من الأجر ما المجاهد عن نفسه اذا كانت مجاهدته على الحق » ـ المصدر نفسه ص ٢٢٦ ـ .

١ — فجاجة أحكامه في كثير من القضايا التي يعالجها .

٢ — تناقض ما ينطوي عليه من أقوال وأعمال تناقضاً عجيباً .

٣ — اشتماله على كلام لا معنى له مطلقاً .

٤ — سوء تأليفه على انه كتاب .

وأول ما يلفت نظرك فيه فجاجة احكامه ، فهو يبدأ باب الأسد والثور ، وهو أول الأبواب واكبرها ، بقصة التاجر الذي يعظ أبناءه بقوله : « يا بَنيَّ ، ان صاحب الدنيا"١" يطلب ثلاثة أمور لن يدركها إلا بأربعة أشياء . أما الثلاثة التي يطلب فالسعة في الرزق والمنزلة فى الناس والزاد للآخرة ، واما الأربعة التي يحتاج اليها في درك هذه الثلاثة ، فاكتساب المال من أحسن وجه يكون ثم حسن القيام على ما اكتسب منه ثم استثماره ثم انفاقه فيما يصلح المعيشة ويرضي الأهل والاخوان فيعود عليه نفعه فى الآخرة . فمن ضيّع شيئاً من هذه الأموال لم يدرك ما اراد من حاجته"٢" » . وواضح ان كلام هذا التاجر المتفلسف غير صحيح ، فان صاحب الدنيا او الرجل العامل لا يطلب السعة في الرزق والمنزلة فى الناس والزاد للآخرة فحسب . ولكنه يطلب أموراً اخرى كثيرة لا ينبغي ان يجهلها رجل يقتبس الفلاسفة نصائحه وتعاليمه . انه يطلب العافية ويطلب المعرفة للمعرفة ، ويطلب تحقيق المثل السامية ، ويطلب اللذة المادية ، ويطلب سعة الرزق والمنزلة في الناس والزاد للآخره . على ان هذه

« ١ » يراد بصاحب الدنيا هنا « الرجل العامل » ولو كان المراد الرجل المنهمك بجمع المال والسعي الى الجاه وما الى ذلك لما أشار التاجر المتفلسف في وصيته الى الزاد للآخرة .

« ٢ » كليلة ودمنة الطبعة الخامسة بمصر ص ١٦٩ .

المقاصد الثلاثة التي ذكرها التاجر المتفلسف لا تتحقق بكسب المال وحسن تدبيره واستثماره وانفاقه في وجوه البر والاحسان فقط كما يقول وانما تتحقق بالعلم وبالعقل وبالخلق وبالمال .

ومما هو جدير بالملاحظة هو ان كسب المال من أفضل الوجوه وانفاقه في افضلها أمر لا يصعب على كثير ممن لا يؤمنون بالآخرة ، فما رأي المؤلف او المترجم في هذا الشأن .

وشيء آخر لابد من ملاحظته وهو ان سعة الرزق لا تعني أي شيء سوى كسب المال وحسن تدبيره واستثماره ، أفتكون سعة الرزق غاية ووسيلة في وقت واحد ؟!

اذا لم يخطيء ظني فان أقل ما يمكن ان يقال فى هذه الوصية إنها كلام لا يشف عن رجاحة عقل ولا يدل على غزارة علم .

وأنت لا تترك هذه الموعظة الزائفة وتتقدم قليلاً فى قراءة الكتاب حتى تواجهك قصة الرجل الذي لم ينلت من الذئب حتى وقع فى وادٍ غمره سيل ، ولم ينج من الغرق حتى وجد نفسه أمام جماعة من اللصوص عندهم تاجر يريدون قتله واقتسام أمواله ، ولم يهرب من هؤلاء حتى استند الى حائط دفن تحت أنقاضه . لقد وقفت عند هذه القصة طويلاً وتأملتها ملياً فلم أفهم غرض المؤلف منها ، أيريد ان نلغي عقولنا ونعطل قوانا وننزل عن همتنا وعزائمنا ؟ أيريد ان نترك مقارعة الخطوب ومناهضة الأيام وان نترك الحوادث تفعل فينا ما تشاء ؟!

ان قصة اخرى في الباب نفسه تنصح بغير ذلك ، وهي قصة السمكات الثلاث اللاتي نجت احداهن بعبور الغدير الذي تسبح فيه الى نهر يجاوره عندما سمعت الصيادين يتواعدان بالرجوع الى الغدير وصيد ما فيه من السمك ، ونجت الثانية منهن باصطناعها مظهر الميت الذي أدى الى انتقالها وطرحها على ضفة الغدير حيث استطاعت التسلل الى النهر ، وبقيت الثالثة وهي أقلهن حيلة في مكانها حيث وقعت في شباك الصيادين .

الواقع ان غرض المؤلف من هذه القصص المتضاربة والحكايات المتناقضة في أغراضها ومغازيها صعب الادراك عسير الفهم ، ومن مواطن زلل كليلة ودمنة الحكم في باب الناسك وابن عرس بالطيش والتسرع والحمق على الناسك الذي تمنى ان يكون حمل زوجته ذكراً ووعد ان يختار له اسماً لطيفاً ومؤدباً ماهراً ، مع انه لم يسرف في أمنية ولم يغل في أمل . ومن هذا القبيل اعتقاد "١" المؤلف ان الحلم عماد السياسة وقوام الملك ، والذي أعرفه ويعرفه الناس جميعاً هو ان العدل أساس الملك وملاك الحكم . وصحيح ان الحلم خلة لا يستغني عنها السياسي الحكيم : ولكن الحكمة قد تقتضي استعمال الحزم بدلاً منه في كثير من الأحيان .

وما يصح في هذه الاحكام يصح في قول المؤلف على لسان دمنة « في الرجل العاضل المروءة » : (انه لا يرى إلا في مكانين ولا يليق به غيرهما ، إما

« ١ » أنظر باب بلاذ وايلاذ وايراخت ص ٣٨٠ كليلة ودمنة طبعة مصر الخامسة .

مع الملوك مكرماً او مع النساك متبتلاً ، كالنيل انما جماله وبهاؤه فى مكانين ، إما في البرية وحشياً او مركباً للملوك"١" . فلست أدري لماذا لا يرى الرجل « الفاضل المروءة » عالماً باحثاً مع العلماء او أديباً فاضلاً مع الأدباء أو طبيباً حاذقاً مع الاطباء او والياً حازماً مع الولاة أو قاضياً عادلاً مع القضاة .

الحق ان منطق كليلة ودمنة في كثير من أحكامه منطق غير مألوف . أضف الى ما تقدم ان أقوال ممثلي أدوار هذا الكتاب واعمالهم تتناقض تناقضاً عجيباً ، فشتربة في حواره مع دمنة عندما يأتي لافساد ما بينه وبين الأسد لبيب ثاقب الفكر حاضر الذهن وافر العلم ، يضرب الأمثال لصحبة السلطان ودسائس أعوانه ، ويأتي بالتشابيه البديعة في أثناء ذلك"٢" ، ولكنه يعجز عن ان يقول لدمنة كلمة واحدة يبدي فيها شكوكه بأقواله نظراً لما بينه وبين الأسد من كريم الصحبة ووطيد العلاقة وجميل الثقة . والغراب يذكر البوم عند الكراكي بكل ما يسيء الى سمعته ويحط من قدره ويحذرهن مغبة تمليكه عليهن تحذيراً شديداً ، ولكنه لا يلبث أن يقول لهن : ولكنكن اذا أردتن تمليكه عليكن بصورة اسمية فلا بأس ، مع انهن لو فعلن ذلك لكن كمن يضع اصبعه في فم الحية على ان يحترس من ان تلدغه ، وبلاذ يسجد لحكيم مملكته كباريوس ، اي أنه رجل وثني ، ولكنه يحمد الله تعالى على ان تداركه برحمته فعصمه من الاصغاء لنصيحة البراهمة والعمل بها ، وإيراخت زوجة بلاذ تفعل فعله فتسجد له

« ١ » كليلة ودمنة ص ١٨ طبعة مصر الخامسة .

« ٢ » مثال ذلك أن شتربة يشبه نفسه في ركونه الى صحبة الأسد « بالنملة التي تجلس على نور النيلوفر » مستطيبة ريحه وطعمه ، ولكنه متى جاء الليل التف عليها فخنقها .

عندما يعفو عنها كما لو كان ربها ، ولكنها لا تلبث ان تحمد الله على ان نجاها من القتل كما لو كانت مسلمة خالصة الاسلام صادقة الايمان ، وهكذا ...

وأغرب من هذا ان الاسناف يبلغ بمؤلف كليلة ودمنة أن يأتي بكلام لا معنى له مطلقاً : هذا بلاذ ، احد ملوك الهند يغضب على زوجته إيراخت لأنها كسرت صحن الأرز على رأسه وخلطت دمه بالأرز في أثناء مشاجرة حادة ، ويأمر وزيره إيلاذ بقتلها ، ويذهب بها هذا على ان يقتلها ، ثم انه ، أي بلاذ ، يندم على اصدار هذا الأمر ويسأل وزيره إيلاذ : أقتل إيراخت حقاً ؟ فيجيبه بكلام يدل على انه فعل ذلك ، وهنا يدور بينهما الحوار التالي : « قال الملك : لقد أفسدت أمري وشددت حزني بقتل إيراخت . قال إيلاذ : اثنان ينبغي لهما أن يحزنا : الذي يعمل الاثم في كل يوم . والذي لا يعمل خيراً قط ، لان فرحهما في الدنيا ونعيمها قليل ، وندامتهما إذ يعاينان الجزاء طويلة لا يستطاع إحصاؤها . قال الملك : ان رأيت إيراخت حية لا أحزن على شيء أبداً . قال ايلاذ : اثنان لا ينبغي لهما ان يحزنا المجتهد في البر كل يوم والذي لم يأثم قط . قال الملك : ما أنا بناظر الى ايراخت اكثر مما نظرت . قال ايلاذ : اثنان لا ينظران ، الأعمى والذي لا عقل له ، وكما ان الأعمى لا ينظر السماء ونجومها وأرضها ولا ينظر القرب والبعد كذلك الذي لا عقل له لا يعرف الحسن من القبيح ولا المحسن من المسيء . قال الملك : لو رأيت ايراخت لاشتد فرحي . قال ايلاذ : اثنان هما الفرحان البصير والعالم ، فكما ان البصير يبصر أمور العالم وما فيه من الزيادة والنقصان والقريب والبعيد فكذلك العالم يبصر البر والاثم ويعرف عمل

الآخرة ويتبين له نجاته ويهتدى الى صراط مستقيم . قال الملك : ينبغي لنا ان نتباعد منك يا ايلاذ ونأخذ الحذر ونلزم الاتقاء . قال ايلاذ : اثنان ينبغي ان يتباعد منهما ، الذى يقول لا بر ولا إثم ولا عقاب ولا ثواب ولا شيء عليّ مما أنا فيه ، والذى لا يكاد يصرف بصره عما ليس له بمحرم ولا أذنه عن استماع السوء ولا قلبه عما تهم به نفسه من الأثم والحرص . قال الملك : صارت يدى من ايراخت صفراً . قال ايلاذ : ثلاثة اشياء أصغار ، النهر الذى ليس فيه ماء والأرض التي ليس فيها ملك ، والمرأة التي ليس لها بعل . قال الملك : انك يا ايلاذ لتلقي علي الجواب . قال ايلاذ : ثلاثة يلقون الجواب ، الملك الذى يعطي من خزائنه والمرأة المهداة الى من تهوى من ذوى الحسب ، والرجل العالم الموفق للخير »"١" .

أفترى ان بين أجوبة هذا الوزير المخبول وبين أقوال ملكه صلة ما ؟ أترى ان كتاباً له مثل مكانة كليلة ودمنة يمكن ان يحتوى على مثل هذا الكلام ؟ وأخير أترى أنه من العدل ان يتغاضى النقاد القدماء والمحدثون عن ورود مثل هذا الكلام فى كليلة ودمنة ؟

هذا من حيث الأساس . أما من حيث الشكل ، فأول ما يلفت الانتباه من أمر الكتاب هو انه مفرغ بشكل حكاية واحـــدة ، ذلك ان دبشليم الملك يطلب الى بيدبا الفيلسوف (ان يضرب له مثل المتحابين يقطع بينهما الكذوب المحتال

« ١ » أنظر باب بلاذ وايلاذ وايراخت ص ٣٩٦ ـ ٩٨ من كتاب كليلة ودمنة الطبعة الخامسة بمصر .

حتى يحملهما على العداوة والبغضاء) فيحدثه بيدبا حديث الاسد والثور وسعي دمنة بينهما ، وهو حديث طويل مملّ فيه مئة حكاية وحكاية لا علاقة لها بالموضوع . ولكنه لا يكاد ينتهي من هذا الحديث حتى يقول له دبشليم : « قد سمعت مثل المتحابين كيف قطع بينهما الكذوب والى ماذا صار عاقبة أمره من بعد ذلك ، فحدثني ان رأيت عن اخوان الصفاء كيف يبتدىء تواصلهم ويستمتع بعضهم ببعض » فيحدثه بيدبا حديث الحمامة والظبي والجرذ والغراب الذين قُدّر لهم أن يتبادلوا اصدق عواطف الاخاء والصفاء ، وهو حديث طويل أيضاً ، ولا يفرغ بيدبا منه حتى يقول له دبشليم : « قد سمعت مثل اخوان الصفاء وتعاونهم ، فاضرب لي مثل العدو الذى لا ينبغي ان يغتر به وان أظهر تضرعاً وملقاً » ، فيحدثه بيدبا حديث البوم والغراب وهكذا . وكان من السهل ان يصنف بيدبا قصصه ونوادره ومواعظه اصنافاً مختلفة وان يمليها فى شكل أحاديث متسلسلة يُقدم كلاً منها فى مجلس او سهرة كما هي الحالة فى ألف ليلة وليلة . ولكنه عمد الى هذا الاسلوب المملّ لسبب غير مفهوم ، اللهم إلا ان يكون جهله بأبسط طرق التأليف وأساليبه .

وليس هذا كل شيء ، بل ان المؤلف يستطرد استطرادات كثيرة لاحاجة به اليها مطلقاً ويقحم القصص على حديثه اقحاماً . فمن ذلك استطراده الى قصة وكيل البحر مع الطيطوى ، تلك القصة التي ضربها دمنة مثلا لانتصار الضعيف على القوى بفضل حيلته . ان هذه القصة زائدة لأنه ليس من مصلحة دمنة ان

يمعن في تحذير شتربة صولة الاسد الى حد ضرب الأمثال له في هذا الموضوع ولأن شتربة لا يستضعف الاسد ولا يستهين بقدرته على البطش ، وقل مثل ذلك عن حكاية الأرنب الذى ادعى انه من رعايا القمر بغية الفاء الذعر في قلب الفيل ، لان الغراب لم يكن بحاجة الى هذه الحكاية كما انه لم يكن من المنطق في شيء أن يشير على الكراكي بتمليك البوم عليهن تمليكاً صورياً بعد ان ندد به أشد تنديد وذمه أقبح ذم وبعد ان أشار على الكراكي بالابتعاد عنه ما استطعن الى ذلك سبيلاً .

ومن هذه القصص الزائدة قصة رؤيا ايلاذ وتفسير البراهمة لها واستياء بلاذ من ذلك التفسير ومن مطاليب البراهمة الجنونية التي بنيت على ذلك التفسير .

ان بيدبا يريد ان يذكر لدبشليم حلم بلاذ عن زوجته إبراخت وصفحه عن اساءتها المنكرة اليه ، وهذا لا يستدعي ذكر ارؤيا التي تقدمت لها الاشارة وما استدعت من تفسير ومطالب كلها شذوذ وغرابة . هذا الى أن صفح الرجل عن زوجته لا ينبغي أن يتخذ مثلاً لمعالجة الامور بالرفق واللين. وفي الكتاب مواطن ضعف أخرى كثيرة لا يتسع لذكرها هذا المقام .

وتسألني رأيي في رسالة الصحابة فأقول لك : انها عبارة عن تقرير يظهر انه رفع لأبي جعفر المنصور يحتوى على نواصي حسنة ونصائح نافعة تتعلق بتثقيف الجند وتعيين مواعيد ثابتة لدفع أرزاقه ، وبتنظيم القضاء وما الى ذلك ، ليس لدى ما أقوله بشأنها من حيث المقاصد والأفكار ، ولكني أزعم أنها مثل

في رداءة اللغة وعجمة الأسلوب ، وسأروى لك مثلاً منها عند الكلام في لغة ابن المقفع وأسلوبه .

لغة المترجم وأسلوبه :

وقد مر بك من كلام ابن المقفع ما يمكنك من تكوين فكرة ما عن لغته وأسلوبه ، ولكن يخيل إليّ أنه من المفيد بل من الضروري ان أقف عند لغة الرجل وأسلوبه وقفة خاصة ، أتبين فيها خصائصها وأتعرف مشخصاتها وفي زعمي أنه يمتاز من هذه الناحية بالغموض والتكرار بلا مسوغ واستعمال الألفاظ في غير ما وضعت له وعجمة كثير من الالفاظ والتعابير شأنه في ذلك شأن سلفه وأستاذه عبدالحميد بن يحيى الكاتب ، ولك أن تتصفح كتبه ورسائله لتجد فيها البرهان القاطع والحجة الدامغة على صحة ما أقول . ها هو ذا ابن المقفع يتحدث في الأدب الصغير عن قدرة الله ، ويحاول الاستدلال على وجوده بما أبدع من خلق السموات والأرض وهو موضوع عالجه القرآن وحكماء صدر الاسلام ولا سيما علي بن أبي طالب « ع س » في خطبه مراراً لا تحصى فيقول : « مما يدل على معرفة الله وهو سبب الايمان أن وكّل بالغيب لكل ظاهر من الدنيا صغيراً وكبيراً عيناً فهو يصرّفه ويحرّكه"١" » أفترى أن هذه الجملة تدل دلالة واضحة على الفكرة التي تقدمت لها الاشارة ؟ إنني لا أرى ذلك .

ومن أمثلة الجملة السالف ذكرها في الأدب الصغير هذه الحكمة الرائعة ؟... « اذا تخالجتك الأمور فاستقلّ أعظمها خطراً ، فان لم يستبن ذلك فأرجاها دركاً ، فان اشتبه ذلك فأجدرها أن لا يكون له مرجوع حين تولي فرصته"٢" » .

« ١ » رسائل البلغاء ص ٣٩ طبع مطبعة دار الكتب العربية الكبرى سنة ١٩١٣ .

« ٢ » المصدر نفسه ص ٢٣ .

الواقع أني عاجز عن فهم هذه الحكمة أشد العجز . أيكون ابن المقفع قد دعا في هذه الكلمة الى استصغار عظائم الأمور والاستهانة بجسام الخطوب ؟ إنه يقرر عكس هذا في مكان آخر من الأدب الصغير وذلك حيث يقول : « وعلى العاقل ان لا يستصغر شيئاً من الخطأ في الرأي والزلل في العلم والاغفال في الأمور ، فان من استصغر الصغير أوشك ان يجمع اليه صغيراً وصغيراً ، فاذا الصغير كبير . وإنما هي ثلم يثلمها العجز والتضييع . فاذا لم تسد أوشكت ان تنثجر بما لا يطاق ، ولم نر شيئاً قط قد أتى إلا من قبل الصغير المتهاون به !"١" » . أفينقض صاحبنا كلامه بكلامه ويضرب رأيه برأيه ؟ ثم ما معنى « أن نستقل من الأمور اذا اشتبهت أجدرها ان لا يكون له مرجوع حين تولي فرصته » ؟ . اذا لم يخطيء ظني فان هذه الجملة ايضاً غاية في الغموض والابهام ، ومثل هذا يقال في العبارة الآتية وهي : « حاز الخير رجلان سعيد ومرجوّ فالسعيد الغالج والمرجو من لم يخصم والغالج الصالح ما دام في قيد الحياة وتعرض الفتن في مخاصمة الخصماء من الأهواء والأعداء »"٢" . فقد أعملت فكري في هذه العبارة وحاولت مراراً عديدة ان أفهمها على وجه معقول أو شبه معقول فلم يتيسر لي ذلك .

وكما يكرر عبد الحميد كلامه على الغرض الواحد في الرسالة الواحدة يفعل تلميذه وخليفته ابن المقفع ذلك بمقياس واسع فيكرر في كتاب ما قاله في كتاب آخر ويكرر في الكتاب نفسه ما سبق له ان قاله فيه . وربما فعل ذلك دون

« ١ » المصدر نفسه ص ٣٠

« ٢ » المصدر نفسه ص ٤٧ .

تغيير مهم فى الألفاظ ، مثال ذلك انه يقول في الأدب الصغير هذه الكلمة التي قلت لك إنه سرقها من الامام علي « وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على نفسه ان لا يشغله شغل عن أربع ساعات، ساعة يرفع فيها حاجته الى ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يفضي فيها الى اخوانه وثقاته الذين يصدقونه عن عيوبه وينصحونه في أمره ، وساعة يخلي فيها بين نفسه وبين لذتها مما يحل ويجمل . فان هذه الساعة عون على الساعات الأخر ، وان استجمام القلوب وتوديعها زيادة قوة لها وفضل بلغة »"١" . ولكنه لا يفرغ من اسداء هذه النصيحة المسروقة حتى يختصرها ويحذف منها الاستراحة الى الاخوان والاطمئنان الى ثقات الاصحاب ويفرغ ما بقي منها في شكل آخر مأخوذ ايضاً من الامام علي فيقول : « وعلى العاقل ان لا يكون راغباً إلا في احدى ثلاث خصال : تزود لمعاد أو مرمة"٢" لمعاش او لذة في غير محرم »"٣" ، ولكن هذه الصيغة للفكرة مقتبسة من الامام علي الذي يقول « وليس للعاقل ان يكون شاخصاً إلا في ثلاث ، مرمة لمعاش او حظوة فى معاد او لذة في غير محرم»"٤" . ويقول فى الأدب الصغير ايضاً وهو من شر كلامه : « وعلى العاقل ان يجعل الناس طبقتين متباينتين ويلبس لهم لباسين مختلفين فطبقة من العامة يلبس لهم لباس انقباض وانحجاز وتحرز وتحفظ في كل كلمة وخطوة ، وطبقة من الخاصة يخلع عندهم لباس التشدد ويلبس لباس الأنسة واللطف والبذلة والمفاوضة »"٥" . وتحلو له اعادة هذه النصيحة فيعيدها في الأدب الكبير بنصها تقريباً حيث يقول : « إلبس للناس لباسين ليس للعاقل بد منهما ولا عيش ولا مروءة إلا بهما لباس انقباض واحتجاز تلبسه للعامة فلا

« » رسائل البلغاء ص ١٩

« ٢ » المرمة ؛ ما يكفي في المعاش

« ٣ » المصدر نفسه ص ٢٩

« ٤ » نهج البلاغة ج ٢ ص ٢٩٩ طبع المطبعة العربية الكبرى بمصر

« ٥ » المصدر نفسه ص ٢٩

تُلفين إلا متحفظاً متشدداً متحرزاً مستعداً ، ولباس انبساط واستئناس تلبسه للخاصة من الثقات فتتلقاهم ببنات صدرك وتمضي اليهم بموضوع حديثك وتضع عنك مؤونة الحذر والتحفظ »"١" . ومن هذا القبيل قوله في الادب الكبير أو الدرة اليتيمة موصياً بأدب الحديث : « تعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام ومن حسن الاستماع إمهال المتكلم حتى يمضي حديثه وقلة التلفت الى الجواب والاقبال بالوجه والنظر الى المتكلم والوعي لما يقول »"٢" ، وإعادته مضمون هذه الكلمة في نفس الكتاب بالجملة المفككة التالية وهي : « ومن الأخلاق السيئة على كل حال مغالبة الرجل على كلامه والاعتراض فيه والقطع فيه »"٣" ومثل هذا كثير أكتفي منه بما تقدم إيراده تجنباً للاطالة والاملال .

أما استعمال الألفاظ في غير ما وضعت له فانه شائع في آثار ابن المقفع ، من أمثلة ذلك قوله : « لا تمكن أهل البلاء من التذلل ولا تمكن من سواهم من الاجتراء عليهم والعيب لهم »"٤" ، يريد : لا تحمل أهل البلاء على التذلل ولا تجرىء عليهم احداً من الناس . وقوله في الأدب الكبير أيضاً : « لا تحضرن عند الوالي كلاماً لا يعني ولا يؤمر بحضوره إلا لعناية به »"٥" ، يريد ، لا تسمع الوالي كلاماً لا يعنيه ولا يرغب بسماعه . وقوله في باب البوم والغراب من كليلة ودمنة مشيراً الى الفيل الذي خشي صولة الغمر : « وشرط ان لا يعود

« ١ » المصدر نفسه ص ٦٠

« ٢ » رسائل البلغاء ص ١١٠

« ٣ » المصدر نفسه ص ١٠١ — ١

« ٤ » المصدر نفسه ص ٦١

« ٥ » المصدر نفسه ص ٧٤

الى مثل ذلك » "١" ، يريد : وقطع على نفسه عهداً أن لا يعود الى مثل ذلك .
وقوله فى باب الناسك وابن عرس اثناء إشارة الناسك الى ابنه الذي لا يزال حملاً : « أختار له أحسن الأسماء وأحضر له سائر الأدباء » "٢" ، يريد : وأؤدبه أحسن تأديب ، او انتخب له أحسن المؤدبين .

وليس من شك في أن ما سقته من أمثلة غموض ابن المقفع واستعماله الألفاظ فى غير ما وضعت له دليل لا ينقض على تمكن العجمة من لسانه وغلبتها على طبعه ، ومع ذلك أحب ان اروي لك طائفة اخرى من تعابيره الأعجمية الصرف ، فمن ذلك قوله فى رسالة الصحابة : « إن بالناس من الاستخراج "*" والفساد ما قد علم به امير المؤمنين » "٣" ، وقوله فى نفس الرسالة : « واذا كان ذلك لم يقدر أهل الفساد على تربيص الأمور » "٤" .
وقوله فيها أيضاً : « فكان الناس فيما احتبسنا به عنهم من الاخاء على صنفين ، فصنف عذرونا بالتحبس للتخير اذا كان التخير من شأنهم وصنف هم ذوو سرعة الى الاخاء "٥" فما لا شك فيه ان هذا الاستخراج فى الناس وذلك التربيص بالأمور الى التحبس للتخير مما لا يجري به قلم عربي أو مستعرب طويل

« ١ » كليلة ودمنة ص ٣١١ طبعة مصر الخامسة
« ٢ » المصدر نفسه ص ٣٤٥ .
« ٣ » رسائل البلغاء ص ١٣٠
« * » أحب أن أنبه القارىء الى أني سأضع تحت كل كلمة يبدو لي انها أعجمية كهذه خطاً يجذب الانتباه اليها بسهولة وقد فعلت مثل ذلك في التنبيه الى مكان العجمة من رسائل عبدالحميد في عصر القرآن .
« ٤ » رسائل البلغاء ص ١٠٣ .
« ٥ » المصدر نفسه ص ١٢٧

الباع راسخ القدم في لغة الضاد .

د — لماذا أدرسه ؟ !

ستقول : واذا كان هذا رأيك في ابن المقفع فلماذا تدرسه وتؤرخه وتعنى بآثاره هذه العناية البالغة ؟ وأجيب بأني مضطر الى هذا لأنه ليس فى مقدور كاتب ان يؤرخ صناعة الانشاء في صدر الدولة العباسية دون ان يتحدث عن ابن المقفع ويبدي رأيه فيه . وهناك سبب وجيه آخر يحدوني للكتابة عنه وهو رغبتي في ان يعرف الناس حقيقته ويتبينوا حظه من التفكير السليم والانشاء الفصيح فقد مضى نحو من اثني عشر قرناً والناس يعدونه حجة في البيان وإماماً في صناعة الانشاء ومثلاً في سعة المعارف وسمو الادراك ، ولا ينبغي ان تستمر هذه الهرطقة او الضلالة الأدبية الى الأبد .

ه — مصدر شهرته

بقي ان نعرف مصدر شهرة الرجل ، وعندي ان الدعاية الشعوبية التي خلقت من عبدالحميد بن يحيى على جمود ذهنه وخمود قريحته وتمكن العجمة من طبعه ولسانه علماً من اعلام التفكير وإماماً في صناعة الانشاء العربي ، هي التى خلقت من ابن المقفع آية من آيات النبوغ والعبقرية وحجة في الافصاح والابانة ومفخرةً من مفاخر الأدب العربي ، وأعانها على بلوغ هذا الغرض ضعف النقد بل انعدامه في الغالب عندنا وجمود مؤرخي أدبنا ورغبتهم في الموافقة والمسالمة كائنة نتيجة ذلك ما كانت .

و — خاتمه : الفصل في امره

أما بعد فانه اذا كان ما رويت من أقوال ابن المقفع فى هذا الفصل

صحيحاً ، واذا كان فهمى لهذه الأقوال صحيحاً كذلك ، فاني لا أسرف على نفسي اذا زعمت ان رديء الرجل أكثر من جيده وغثه أكثر من سمينه وأنه ينقل النفيس والخسيس من آثار لغته الى اللغة العربية دون نقد ولا تمييز ، وأنه الى التبشير برذائل الأخلاق كالجبن والضراعة والرياء والأنانية والشعوذة وما الى ذلك من ذميم الصفات ، والى السخف والسذاجة فى فهم حقائق الحياة والاجتماع ، والى الاضطراب والتناقض فى سرد مقاصده وأغراضه ، والى الغموض والركاكة والعجمة فى لغته وأسلوبه ، أقرب منه الى أي شيء آخر .

الفصل الثاني

أبو عثمان الجاحظ

أ — حياته : اسمه وكنيته ونسبه . مولده . سبب تلقيبه بالجاحظ . ما حرمته الطبيعة وما جادت به عليه . دراسته . أساتذته . شغفه بالقراءة . اشتغاله بالتأليف . حمله كتبه على من سبقه من مشاهير الكتاب . نجاحه في هذه الحيلة . ذيوع شهرته . اتصاله بالمأمون . توليه زعامة ديوان رسائله . استقالته ما دعا إليها . اتصاله بمحمد بن عبدالملك الزيات . محنته عند الفتك به . اتصاله بأحمد بن أبي دؤاد وابنه أبي الوليد . اتصاله بالفتح بن خاقان . مثوله بين يدي المتوكل . شيخوخته ومرضه . وفاته .

ب — صفاته : حدة ذكائه . غزارة حفظه . نوادره قلة مبالاته بالدين .

جـ — آثاره : تقسيمها الى أقسام ثلاثة . ميزة كل من هذه الأقسام . ما لكتبه من محاسن ومساوئ على العموم . مساوئها — غلبة الفوضى عليها . شيوع البذاءة فيها . قلة نصيبها من التثبت . محاسنها . احتواء الحيوان على بحوث علمية مهمة . اشتمال البيان والتبيين . والحيوان أيضاً على معلومات أدبية واسعة . اختراعه فن المقامة .

لغته وأسلوبه : إطالته . إكثاره من الجمل المترادفة . قلة عنايته بتهذيب كلامه . فصاحته . سماحة طبعه . خلو آثاره من التكلف . كثرة استشهاده بالقرآن والحديث والشعر .

د — عذره فيما يؤاخذ فيه من هنات .

هـ — مثل من مختار كلامه : شعره (هامش)

و — خاتمة : مقارنة بينه وبين عبدالله بن المقفع .

أ - حياته :

أما الآن ، فسأحدثك عن كاتب لعل الدعاية لم تعبث بتاريخه عبثها بتاريخ ابن المقفع ، ولم تسرف في التهليل والتكبير له اسرافها في التهليل والتكبير لابن المقفع ، هذا الكاتب هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالنسب كما يقول هو "١" وباولاء كما يقول خصومه "٢" الذين يزعمون أن جده محبوباً سليل عبد أسود يدعى فزارة كان جمالاً لعمرو بن قلع الكناني . على أننا إذا أخذنا بهذه الرواية فاننا لا معدى لنا من التسليم بأن محبوباً جد الجاحظ ولد او نشأ او عاش على أقل تقدير في بيئة عربية خالصة ، وان بحراً والده ولد ونشأ وعاش في بيئة عربية خالصة كذلك . ومعنى هذا ان « البودقة » العربية صهرت المترجم إن كان أصله حبشياً كما يزعم خصومه حتى أحالته عربياً خالصاً . أضف الى ذلك أن ثقافته عربية بحتة كما سيجيء . وإذن فهو عربي صميم بأدبه اذا لم يكن عربياً صميماً بنسبه .

وقد ولد في البصرة في أوائل سنة خمسين ومئة للهجرة كما يقول هو في رواية ذكرها ياقوت . ولكن الشائع بين الرواة أنه ولد في اواخر العقد

« ١ » أكد الجاحظ أنه كناني صليبة في كلمة ظريفة ختم بها رسالته التي كتبها في مدح النبيذ للحسن بن وهب هذه هي : « وأنا رجل من بني كنانة وللخلافة قرابة ولي فيها شفعة وهم بعد جنس وعصبة فأقل ما أصنع ان أكثرت لي منه « أي من النبيذ » أن أطلب الملك وأقل ما يصنعون بي أن انفى من الأرض » ـ رسائل الجاحظ طبعة السندوبي ص ٩١ .

« ٢ » ممن شك في عروبة الجاحظ أو طعن بها في أيام حياته الجماز الذي هجاه بقوله :

قال عمرو مفاخراً نحن قوم من العرب
قلت في طاعة لربك أبليت ذا النسب

« معجم الأدباء ج ١٦ ص ٨٣ طبعة مصر »

السادس من القرن الثاني للهجرة . ومصدر شيوع هذا القول أنهم يجمعون على أنه توفى سنة خمس وخمسين ومئتين للهجرة وأنهم يختلفون في مقدار عمره فيزعمون مرة أنه عمّر ستاً وتسعين سنة وتارة نيفاً وتسعين وطوراً نيفاً وثمانين وحيناً نيفاً وسبعين ، ولا يبلغون به المئة على كل حال مع ان الاختلاف في تقدير عمر الرجل لا يصلح مطلقاً لأن يكون مصدراً لتعيين سنة ميلاده بصورة تقريبية .

وكان دميم الخلقة قصير القامة جاحظ العينين ، أي ناتئهما ، وقد لقب « بالجاحظ » و « الحدقي » لهذا السبب . إلا أن الله منحه قلباً ذكياً وذهناً وقّاداً عوّضه بهما عما فاته من حسن الخلقة وجمال الصورة وعما فاته من رغد العيش وسعة الحال أيضاً ، فقد نشأ فقيراً معدماً . روي أنه كان في وقت ما يبيع الخبز والسمك في البصرة ، ولكنه نشأ محباً للعلم مغرماً بالأدب كلفاً بالدرس فاستقصى علوم عصره او أكثرها درساً وبحثاً . درس العربية وعلومها والدين وما يتصل به ودرس الفلسفة والمنطق والرياضيات والطبيعيات . أخذ اللغة وعلومها عن الأصمعي وأبي عبيدة وأبي زيد الانصاري والأخفش الأكبر وأخذ الحكمة والكلام عن إبراهيم بن سيار المعروف بالنّظام ، ولزم المبرد وشافه الاعراب الذين كانوا يفدون الى البصرة وجالسهم وتأثر بهم ، وقرأ ما شاء الله ان يقرأ مما أُلّف في العربية وما نقل إليها في مختلف العلوم والفنون .

ولم تكن حاله بالطبع تتسع لشراء كل ما يحتاج إليه من الكتب ، فكان يستأجر حوانيت الوراقين (أي الكتبيين) ليبيت فيها وليتمكن من قراءة

ما يحب أن يقرأ من الكتب .

وما كان ليقرأ دون أن يكتب ليقرأ الناس ، فألّف الكتب العديدة ونحلها مشاهير الكتاب كعبدالله بن المقفع وسهل بن هارون وغيرهما . وقد نجح في استعمال هذه الطريقة فراجت كتبه وأقبل عليها الناس وتداولوها ورضوا عنها ، فلما رأى ذلك تبنّاها وجهر بأنه واضعها ، فعلا قدره وسمت منزلته . ووقع كتابه (الامامة فى حجج الراوندية) ، وهم فرقة من شيعة بني العباس ، في يد المأمون فأحاله الى رجل من أفراد حاشيته يعرف (باليزيدي) وأمره ان يقرأه ويصفه له ، فقرأه وأثنى عليه عنده ، وآنئذ قرأ المأمون الكتاب ووقع من نفسه موقعاً حسناً ، فاستقدم الجاحظ وأعرب له عن إعجابه به وإكباره له ثم ولاّه رئاسة ديوان رسائله ، وأثار هذا حسد سهل بن هارون كاتب المأمون إذ ذاك ، فقال : « ان ثبت الجاحظ فى هذا الديوان أفل نجم الكتّاب » . ولكنه لم يحتفظ بهذا المنصب سوى ثلاثة أيام استقال بعدها فقبلت استقالته . والمعروف انه استقال بسبب خفة روحه وسماجة منظره اللتين لا تتفقان وخطورة منصبه . ولكن أكان يجهل هذا قبل تعيينه أم كان المأمون غير عالم به ؟

أما إنه ليخيَّل إليَّ أن تصريح سهل بن هارون المتقدم ذكره هو الذى دفعه الى الاستقالة . فاكبر الظن أنه رأى فيه نذيراً بدسائس ومؤامرات خطيرة

بدأت خيوطها تحاك من حوله فآثر السلامة ورغب في الانسحاب .

ولكن حضور الجاحظ الى بغداد وغشيانه أندية عظمائها وعلمائها وأدبائها مكّناه من الاتصال بزمرة من أقطاب السياسة والعلم والأدب في مقدمتها محمد ابن عبدالملك الزيات . فلما صار هذا وزيراً للمعتصم قرب الكاتب ورفع من شأنه وأغدق عليه العطاء ، فاستمتع بلذات العيش وقام ببعض الأسفار التي قد تكون ذات صبغة علمية ، فزار دمشق وأنطاكية ومصر على قول . وكافأ ابن الزيات على أياديه البيض باهداء أجل كتبه إليه وهو « الحيوان » فأثابه عليه الوزير بخمسة آلاف دينار .

ولكن لم تكن هذه السعادة لتدوم للجاحظ بقية حياته دون ان يعترضها ما ينغّصها ويكدّر صفاءها أو يحيلها تعاسة وشقاءً في وقت من الأوقات . فقد كانت بين محمد بن عبدالملك مقرب المترجم وحاميه وبين أحمد بن أبي دؤاد قاضي المعتصم فالواثق فالمتوكل في أوائل خلافته مشادة عنيفة وكان صاحبنا طبعاً في جانب الوزير ، فلما آلت الخلافة الى المتوكل على الله وكان يبغض الزيات بغضاً شديداً فعذّبه وقتله هرب الجاحظ واختفى عن الأنظار فطلبه رجال أحمد بن أبي دؤاد قاضي المتوكل وموضع ثقته وشريكه في كثير من أعماله ، وظفروا به وأحضروه الى مجلس سيدهم على أسوأ حال ، فقد كان مغلول اليدين مقيد الرجلين ليس عليه سوى قميص خلق ، فقرعه القاضي تقريعاً شديداً ووصفه

بنكران الجميل والخبث بل النفاق والكفر . فطالبه أبو عثمان بما يليق بالكريم من الصفح اذا قدر . وكأنَّ القاضي كان ينتظر هذا منه ليصفح عنه ويغفر له بل ليمهّد السبيل لاتخاذه صديقاً محبباً وعشيراً مقرباً ، ففك قيده وأمر بأخذه الى الحمام وحمل سفط ثياب إليه . فلما أصلح من شأنه دخل عليه فاستقبله بلطف وبشاشة وأحلَّه صدر مجلسه ، وقال له تلك الكلمة الشهيرة: « والآن هات حديثك يا أبا عثمان » ، وصار الجاحظ سمير ابن أبي دؤاد وعشيره يمدحه وينادمه ويأكل على مائدته ويأخذ عطاياه .

وكما خلد أبو عثمان علاقته بمحمد بن عبدالملك الزيات بكتاب (الحيوان) خلد علاقته بأحمد بن أبي دؤاد (بالبيان والتبيين) . ولم يقصّر القاضي في تقدير الكتاب فقد أثاب المؤلف بخمسة آلاف دينار . وكأنه أراد باعطائه هذا المقدار من المال أن لا تقل مكافأته على (البيان والتبيين) عن مكافأة ابن الزيات على كتاب (الحيوان) ولم يمض على علاقة الجاحظ بابن أبي دؤاد سوى سنة واحدة حتى فلج هذا وخلفه في منصبه ابنه محمد المكنى بأبي الوليد ، فانقطع اليه الجاحظ انقطاعه لأبيه ، ولكنه لم يكن أهلاً لمنصبه فغضب عليه المتوكل بعد مدة قصيرة لكثرة شكوى الناس منه وأمر بعزله ومصادرة أمواله ، ولكن الجاحظ لم يعدم من يقربه ويعطف عليه ويعجب به من ولاة الأمور ، فقد اتصل بالفتح بن خاقان وتودد اليه وقدم له كتباً

ورسائل منها رسالة أسماها « مناقب الترك وعامة جند الخلافة » . وتقول رواية ان المتوكل على الله استدعى الجاحظ ليعهد اليه تأديب بعض ولده ، فلما رآه استبشع منظره فأمر له بعشرة آلاف درهم وصرفه"١" .

وطالت حياة أبي عثمان ، وانتابت جسمه الأمراض فأصيب بالفالج والنقرس"٢" ولزم بيته في البصرة . وكان الأدباء يختلفون اليه من حين لآخر ليعربوا له عن شعورهم الطيب نحوه وليستمتعوا بحديثه العذب وفكاهته الحلوة التي لم تفارقه حتى آخر أيام حياته . وتوفاه الله في المحرم من سنة خمس وخمسين ومئتين للهجرة ، وقيل ان الكتب سقطت عليه فمات تحتها فاذا صح ذلك فأنه يكون شهيد الكتب التي وقف عليها عقله وقلبه ونشاطه معظم أيام حياته .

ب - صفاته :

أما صفات الجاحظ فأهمها حدة الذكاء وقوة الحافظة وخفة الروح ورقة الدين . فأما ذكاؤه فانه يتجلى في كتبه ورسائله التي تعد بالمئات ، ويتجلى في نكته اللاذعة ونوادره المستظرفة ، ويتجلى قبل كل شيء في خطته الدقيقة المحكمة التي رسمها للاستيلاء على عقول معاصريه وعلى عقول من يأتي بعدهم . ذلك أنه عرف نوع الأدب الذي يعجبهم ويلائم أذواقهم ومشاربهم والكتب التي

« ١ » وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٨٨ طبع المطبعة الميمنية بمصر .

« ٢ » النقرس علة تصيب مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين شديدة الشبه بداء المفاصل

ترضيهم وتستهوي أفئدتهم ، فقدم لهم الأدب المطلوب ، أدب الفكاهة والتسلية وأدب النادرة والنكتة وأدب الحديث والاستطراد ، الأدب الذي لا رابط له ولا ضابط ، وألف لهم الكتب التي تمثل هذا الأدب وتجمع شوارده وتنتظم قصصه ونوادره وفوائده أيضاً ، فأعجبوا به أيما إعجاب وتنافسوا فى اقتناء كتبه ورسائله تنافساً ما عليه من مزيد . وكما تمثل كتب الجاحظ حدة ذكائه وألمعيته تمثل كذلك سعة حفظه وقوته وغزارته ، ذلك أنه كان يمليها إملاءً ويسوقها في شكل أحاديث متتابعة آخذ بعضها برقاب بعض منعمة بالشواهد التي يدل سياق إيرادها على أنها وردت عفواً ورويت في غير عناء ولا تكلّف ، وما أظنني بحاجة الى التنويه بنوادر المترجم فقد تناولتها الكتب وتحدث بها الناس في كل زمان وفى كل مكان ، ومع ذلك أروي لك منها النادرة التالية على سبيل التفكه .

طلب أحدهم الى الجاحظ أن يكتب كتاب توصية الى صديق له برجل لا يعرفه فكتب إليه : (هذا كتاب مع من لا أعرفه وقد كلمني فيه من لا أوجب حرمته فان قضيت حاجته لم أحمدك وإن رددته لم أذمك .) وفضّ الوسيط كتاب الجاحظ ليطّلع على ما فيه ، فلما قرأه عاد اليه ، فلما رآه علم أنه فتح الكتاب ، فقال له : (علمت أنك أنكرت الكتاب ، وإنما هذه علامة بيني وبين الرجل فيمن أعتني به) . وانك لنستطيع أن تتبين أثر النادرة في تكوين مكانة الجاحظ اذا قلت لك ان هذه النكتة كانت سبب اتصاله بالفتح بن خاقان ، فقد أثارت اعجاب الوزير بالكاتب وحملته على الاهتمام به والعطف عليه .

ولكن ، مادين الرجل : أهو مسلم صادق ، أم زنديق مارق ، أم بين بين أي أنه مسلم قليل التمسك بمبادىء دينه وتعاليمه ؟

يعتقد خصومه انه زنديق مارق ويرمونه بترك الصلاة ووضع الاحاديث وما الى ذلك من المنكرات . وقد لا يكون في هذا شيء من الغلو والاسراف ، إذ الواقع أنه رجل ظرف لا رجل دين ، كما يرى أحمد بن أبي دؤاد ، وصاحب فكاهة لا صاحب نزاهة يهمه أن تكثر روايته وتشيع نوادره ويقبل الناس على حديثه ، ولا يهمه ان يكون ما حدَّثهم به صحيحاً أو غير صحيح .

حدَّث عن نفسه أنه نسيَ كنيته ثلاثة أيام ، ولم يجد بداً من ان يسأل أهله عنها فقعل« » . وأحسب ان نسياناً كهذا لا يمكن ان يحدث لرجل له سعة حفظ الجاحظ وقوة ذاكرته وان التظرف والرغبة في رواية نادرة من أغرب نوادر النسيان هما اللذان دفعاه الى اختلاق هذه القصة .

وروى ، أعني الجاحظ ، أن مولىً فصيحاً كان يختلف اليه ، فقال له ذات يوم ما مضمونه : انك من الفصاحة بحيث تستطيع ان تنتسب الى أية قبيلة شئت من العرب دون ان ينكر عليك ذلك أحد لفصاحتك ونزل المولى على نصيحته فلفَّق له نسباً وحفَّظه اياه ، فلما حفظه حفظاً جيداً ، قال له : (والآن لا تتهْ علينا) فأجابه : (سبحان الله ، إنْ فعلتُ ذلك فأنا اذن عي)«٢» . وهو — ان كان صادقاً في هذا فانه يسجل على نفسه انه يختلق الأنساب ويشجع

« ١ » معجم الأدباء ج ٦ ص ٧٥ طبعة مصر .

« ٢ » المصدر نفسه ج ١٦ ص ٩٤ .

على الكذب ، وإن كان كاذباً فإنه يقيم البرهان على أنه يستبيح الكذب ويمارسه فيما يروي من أخبار وقصص . وليس هذا كل شيء ، بل إنه كثيراً ما قال الشيء وضده وأيد الرأي ونقيضه . وصحيح أن مدحه الكتّاب وذمّه لهم وإطراءه الورّاقين ومقته إياهم واستحسانه النبيذ واستهجانه له وما يجري هذا المجرى من متناقضاته ضرب من العبث البريء . إلا أن خذلانه عليّ بن أبي طالب « ع س » في دفاعه عن العثمانية«١» خذلاناً شديداً وخذلانه أبا بكر وعمر (رضي الله عنهما) في دفاعه عن العباسية«٢» خذلاناً أشد عمل أقل ما يقال فيه إنه استخفاف بالدين وتهاون شديد بمقام كبار الصحابة .

ستقول : وما رأيك بهذه المقدمات الدعائية وهذه البسملات وتلكم الحمدلات التي تواجهنا في كل كلمة يكتبها الجاحظ وفي كل فصل يحرره ؟ وأجيب بأنها ستار يرخيه المؤلف على دخيلة نفسه وحقيقة تفكيره لا أكثر ولا أقل . على أني أحب أن أقول لك ان دينه لا يؤثر مطلقاً في قيمته الأدبية ولا يغير من رأيي فيه من حيث هو كاتب ومؤلف . وان الذي حدا بي للكلام على دينه هو الرغبة في استيفاء البحث عن شؤونه وأحواله .

حـ ـ آثاره :

قلت لك إن الجاحظ سبر غور عصره وعرف ميول أبنائه وأهوائهم وأذواقهم ، فقدم لهم الأدب الذي يشتهونه ويحبونه وألف لهم الكتب التي

« ١ » رسائل الجاحظ طبعة السندوبي ص : ـ ١٢ .

« ٢ » رسائل الجاحظ طبعة السندوبي ص ٣٠٠ ـ ٣٠٣ .

يرضونها ويعجبون بها . وأقول الآن إن هـذه الكتب يمكن أن تقسم الى ثلاثة أقسام .

فأما القسم الأول فانه عبارة عن رسائل مختصرة أو مقالات مطولة يحبذ فيها المؤلف شيئاً من الأشياء أو عملاً من الأعمال أو مذهباً دينياً أو سياسياً أو اجتماعياً أو يستنكره ويندد به . ومن هذا القبيل « دفاعه عن العثمانية » و « دفاعه عن العباسية » وما كتبه في « النساء » عامة و « القيان » خاصة وفي « النبيذ » مدحاً وذماً وما الى ذلك .

وأما القسم الثاني ، فانه يتألف من أسفار قصص ونوادر ونكت وأضاحيك ، منها « اللصوص » و « البخلاء » و « الصرحاء والهجناء » و « مفاخرة السودان الحمران » وما جرى هذا المجرى .

وأما القسم الثالث فانه يجمع الجد الى الفكاهة والدرس الي الدعابة . وأكبر كتب هذا القسم « الحيوان » و « البيان والتبيين » وهما أكبر كتب الجاحظ على الاطلاق وأكثرها فائدة . ولكتب الجاحظ هذه مساوىء عديدة ومحاسن عديدة كذلك . فمن أبرز مساوئها غلبة الاستطراد عليها غلبة يختلط معها الحابل بالنابل والغث بالسمين والرديء بالجيد ، فاذا حدثك الجاحظ عن مسألة نحوية مثلاً فانه لا يلبث ان ينتقل منها الي حادثة تاريخية على أن يتحول عن هذه الي مسألة دينية مستطرداً بعد ذلك الي نادرة أدبية وهكذا .

وعلة ذلك ان الجاحظ يكتب كما يتحدث ، ويتحدث تبعاً لتوارد الخواطر على نفسه والأفكار على ذهنه دون ان يخضع هذه الخواطر وتلك الأفكار لنوع

من المناسبة ملحوظ . وانه لمن الحق أن نقرر أنه لم يفعل هذا جهلاً بالترتيب وعجزاً عن التنسيق والتنظيم ، وان كان قد سجل على نفسه في مقدمة الجزء الثاني من البيان والتبيين أنه عاجز عن تنظيم أفكاره وآرائه والسيطرة على قلمه ، فما أحسبه فعل ذلك إلا تواضعاً وانما فعله عن تفكير وعمد ، فانه يقول لك بصريح العبارة وفي أماكن كثيرة من كتبه : ان القاريء كالسامع يعتريه الملل ويدب اليه السأم اذا طال عليه الحديث ، وانه ليس ثمة شيء أضمن لدوام اقباله واستمرار نشاطه من تنويع الحديث له أنواعاً وتلوينه ألواناً .

ويظهر أن الجاحظ يعبر بهذا عن رأي معاصريه من علماء وأدباء وشعراء ، فأنت تعلم أنه قدّم كتاب « الحيوان » وفيه من صنوف الاستطراد ما لا يكاد يصدّقه العقل الى محمد بن عبدالملك الزيات وهو من أفضل رجال عصره وأكثرهم علماً وأغزرهم أدباً وأوفرهم عقلا وأقدرهم على التقد والتمييز فقبله منه وأجازه عليه دون ان يلفت نظره الى زيادة أو نقيصة فيه . وتعلم أيضاً أنه قدّم البيان والتبيين وهو لا يقل عن سابقه ولوعاً بالاستطراد والانتقال من بحث الى آخر دون أن تكون بينهما صلة ما الى أحمد بن أبي دؤاد الذي تزعم القضاء في الدولة العباسية مدة من الزمن فقبله منه كذلك وأجازه عليه ، ولم يعبه في شيء .

ومعنى ذلك أن طريقة الجاحظ في الاستطراد والانتقال من موضوع الى آخر دون ان تكون بينهما علاقة كانت محببة الى كبار القراء في ذلك العصر أثيرة عندهم"١" . ولكن اذا كانت الفوضى في الأدب مما يستسيغه أو يكلف به

« ١ » مما يدل على هذا أيضاً قول أبي تمام واصفاً احدى مدائحه لمحمد بن عبد لملك الزيات :

الجد والهزل في توشيع لحمتها والنبل والسخف والأشجان والطرب

أبناء القرن الثالث للهجرة فانها مما يأباه أبناء القرن الرابع عشر كل الاباء ويرفضونه أشد الرفض . ومن مساوىء هذه الكتب اقدام المؤلف على أيراد نكت ونوادر بذيئه جداً ، وما كان له ـ وهو المفكر المتكلم المتفلسف ـ أن يجنح الى المجون ويركن الى بذىء القول وفاحشه بحجة الاستجمام واراحة العقل والنفس ، فان للاستجمام أدباً ولإراحة العقل والنفس حدوداً ، وأشهد أن الجاحظ قد سخر من هذا الأدب وتجاوز تلك الحدود في مؤلفاته مراراً كثيرة ولا سيما في كتاب « الحيوان » الذي كان عليه ان يتحاشى فيه وحده على الأقل هذا النوع من الدعابة المستهجنة لأنه كتاب جد ودرس وكتاب عظة وعبرة كما يقول المؤلف ، غايتهُ الدلالة على حكمة الله وبيان درجة ابداعه في خلقه ، ولكن هيهات ، ما كان الجاحظ ليتغلب على طبعه ويسيطر على نزعاته ويكفّ من بوادر عبثه ومجونه ، أما رأس هذه المساوىء فهو عدم التثبت في رواية الحوادث والأخبار أو قل خلق بعضها خلقاً وافتعاله افتعالاً . ومصدر ذلك ان المؤلف صاحب عبث ومجون ، يهمه ان يهزل وان يضحك الناس كائنة وسيلة ذلك ما كانت . وقد رأيت عند الكلام على أخلاقه أنه يكذب ويحمل غيره على الكذب . ورجل هذا شأنه لا يمكن ان يحملك على الثقة بما يقول والاطمئنان الى ما يكتب .

ومع ذلك يخيل اليَّ ان (الحيوان) و (البيان والتبيين) لا يحتويان الا على القليل جداً مما لا يمكن الاطمئنان اليه ، لأنهما كتبا لرجلين من أقطاب الحركه العقلية في القرن الثالث للهجرة . ولكن أليس الى جانب هذه المساوىء

محاسن جديرة بالذكر ؟

بلى ، ان هناك لمحاسن تستوقف نظر الباحث وتسترعي انتباه الناقد واهتمامه . ففي الحيوان مثلا بحوث علمية مفيدة تدل على ثقافة واسعة وخبرة طويلة وجلد عظيم على البحث والدرس . ولك ان تتصفح هذا الكتاب لتتبين ان الجاحظ لم يقصر في دراسة أي حيوان تصدى الى درسه . اقرأ ما كتب عن الأفعى والعقرب والحمام والديك والكلب وغير ذلك من صنوف الحيوان ، تجد أنه وفّى كلاً من هذه المخلوقات حقه ولم يغادر صغيرة ولا كبيرة تتعلق به إلا احصاها ، وهو اذ يحدثك بما وصل الى علمه من شؤون هذه الحيوانات لا يؤمن به ايمان « العجائز والباعة » على حد قوله ، ولكنه يبحث ويمحص ويناقش ويجادل وينقض ويبرم حتى ينتهي الى الحقيقة العلمية الثابتة . وفي (البيان والتبيين) بل وفي (الحيوان) ايضاً طائفة كبرى من شعر وخبر وحكمة ومثل وعظة تمثل حياة العرب الأدبية والاجتماعية قبل الاسلام وبعده يعسر جداً ان تجدها في أي مكان آخر . وقد كتب كل ذلك بلغة متينة سلسة واسلوب قوي سمح لا اثر فيه للتكلف . أفترى ان ذلك شيء يستهان به ؟

ولكن هل استحدث الجاحظ نوعاً جديداً من الأدب ؟

اذا لم يخطيء ظني فانه اول من صنع المقامة في الأدب العربي ، إذ لا جدال في ان رسالته التي يتحدث فيها عن صنائع القوّاد مقامة رائعة يديرها بطلان هما الجاحظ والمعتصم ، وموضوعها سياسي خطير لأنها تهدف الى نقد سياسة المعتصم في اختيار قواده من بين الخياطين والخبازين والطباخين وأمثالهم من

ارباب الحرف والاعمال التي لا تتطلب ثقافة سامية ومدارك ممتازة"١" . واذا كان بطلا هذه المقامة حقيقيين ولم يكونا خياليين كأبي الفتح الاسكندري في مقامات الهمذاني وأبي زيد السروجي في مقامات الحريري ، فان حوادثها خيالية دون أدنى ريب ، فما اشك في ان الجاحظ لم يدخل على المعتصم ولم يتحدث اليه هذا الحديث الطويل عن اللسان ومزاياه وعن ضرورة تعدد مناحي الثقافة الشخصية وفي انه لم يشر الى صنائع قواده قبل ان يكونوا قواداً هذه الاشارة العابثة الماجنة ، وما أشك كذلك في ان المعتصم لم يسمع هذا الحديث ولم يوافق على شيء منه ولم يأمر مؤدب أولاده بتعليمهم جميع العلوم المعروفة في عصره . واذن فالرسالة خيالية ، واذن فهي مقامة رائعة . واذن فالجاحظ صاحب أول مقامة في الأدب العربي وكم كنت أود ان أروي لك هذه المقامة لولا ان ما فيها من عبث ومجون لا يسمحان بذلك ، ولكنك تستطيع ان تقرأها في (رسائل الجاحظ) وهي مطبوعة متداولة .

اللغة والأسلوب :

وقد حدثتك عما يمتاز به أسلوب الجاحظ من الاستطراد والبذاءة عند الكلام على محاسن كتبه ومساوئها ولكن هذا غير كاف لمعرفة أسلوب الرجل ولا بد لي من ان أفرد كلمة خاصة في هذا الفصل للغته وأسلوبه . وأنا فاعل ذلك.

« ١ » المعروف أن بديع الزمان الهمذاني هو الذي ابتكر فن المقامة في الادب العربي وقد انفرد أبو اسحق الحصري في القول بأن بديع الزمان الهمذاني قد عارض بمقاماته أحاديث ابن دريد التي رواها القالي في أماليه « زهر الآداب ج ١ ص ٣٠٧ الطبعة الاولى » . وقد توفى ابن دريد هذا سنة ٣٢١ للهجرة ، وأنا أزعم أن الجاحظ هو الذي ابتكر فن المقامة في الادب العربي وأن احداً اليها لم يسبقه .

فأقول : انه مطيل الى درجة قد تبعث على الملل ، مكثر من ايراد الجمل المتشابهة التي ربما أغنى بعضها عن بعض ، قليل التهذيب او قل عديمه لكلامه . الا انه فصيح اللفظ متين العبارة بعيد عن التكلف كثير الاستشهاد بالقرآن والحديث والشعر .

فمن الغريب حقاً ان الجاحظ وهو الكاتب الذي يحرص على رضى القارىء كل الحرص ويبذل كل ما في وسعه في سبيل استبقاء نشاطه واستمرار اقباله يطيل الى درجة لا يجد معها القارىء مفراً من السأم . وتضطره هذه الاطالة الى ان يبدىء ويعيد في غير موجب ولا مسوّغ وان يأتي بالجمل الفارغة التي لا فائدة فيها ولا طائل تحتها . خذ مثلا على ذلك انه يصف النبيذ ويعدد فوائده وفضائله فيقول : « لاءن النبيذ اذا تمشى في عظامك والتبس بأجزائك ودبّ في جنانك منحك صدق الحس وفراغ النفس وجعلك رضيّ البال خليّ الذرع قليل الشواغل قرير العين واسع الصدر فسيح الهم"١" » .

ثم إنه لا يلبث ان يكرر هذا الوصف فيقول : (ولو لم يكن من أياديه ومننه ومن جميل آلائه ونعمه ، الا انك ما دمت تمزجه بروحك وتزاوج بينه وبين دمك ، فقد أعناك من الجد ونصبه وحسّن اليك المزاح والفكاهة وبغّض اليك الاستقصاء والمحاولة وأزال عنك تعقد الحشمة وكدّ المروءة وصار يومه جمالا لأيام الفكر .)"٢" ولا يلبث ان يكرر هذا الوصف في مكان آخر من الرسالة ولكن باختصار في هذه المرة فيقول : (ان كنت جذلان كان

« ١ » رسائل الجاحظ طبعة السندوبي ص ٢٨٨

« ٢ » المصدر نفسه ص ٢٨٨ .

باراً بك ، وان كنت ذا هم نفاه عنك)«١» . وواضح ان هذا تكرار لا فائدة فيه ولا مبرر له ، ومن هذا القبيل قوله في مخاطبة رجل يظهر انه عاب كتبه خاصة والكتب عامة : (فعبت الكتاب ونعم الذخر والعقدة هو ونعم الجليس والعدّة ونعم النشرة والنزهة ونعم المشتغَل والحرفة ونعم الانيس ساعة الوحدة ونعم المعرفة ببلاد الغربة ونعم القرين والدخيل ونعم الوزير والنزيل)«٢» . وبعد ان يفيض في وصف فوائد الكتاب وصفاً يغلب على ظني انه اقرب الى السفسطة منه الى أي شيء آخر يعود الى تعداد صفاته التي سبق ذكرها فيقول : وعبت الكتاب ولا اعلم جاراً أبرّ ولا خليطاً انصف ولا رفيقاً اطوع ولا معلماً اخضع ولا صاحباً اظهر كفاية ولا اقل جناية ولا اقل املالا وابراماً ولا اجمل اخلاقاً ولا اقل خلافاً واجراماً ولا اقل غيبة ولا ابعد من عضيهة«٣» ولا اكثر اعجوبة وتصرفاً ولا اقل تصلفاً وتكلفاً ولا ابعد من مراء ولا اترك لشغب ولا ازهد في جدال ولا اكف عن قتال من كتاب)«٤» . ويستمر في رصف هذه الجمل المتشابهة والفقر المتماثلة الفارغة فيقول : (ولا اعلم قريناً احسن مؤاخاة ولا اعجل مكافاة ولا احضر معونة ولا اخف مؤونة ولا شجرة اطول عمراً ولا اجمع امراً ولا اطيب ثمرة ولا اقرب مجتنى ولا اسرع ادراكاً ولا اوجد في كل ابان من

« ١ » رسائل الجاحظ طبعة السندوبي ص ٢٨٩

« ٢ » الحيوان ج ١ ص ٣٨ طبعة مصطفى البابي الحلبي الأولى

« ٣ » العضيهة : البهتان والكلام القبيح .

« ٤ » الحيوان ج ١ ص ٤١

كتاب .)«١» ومثل هذا كثير في كتبه ورسائله . اضف الى ذلك ان لغته لا تخلو من هنات وشطحات مصدرها قلة عنايته بتهذيب كلامه وتنقيحه ، فمن ذلك قوله : (فبأى شيء بلغتَ الافهام واوضحت عن المعنى؟)«٢» اذ الصواب : (وأوضحت المعنى) لأن فعل (أوضح) يتعدى بدون واسطة . وقوله : (وهم الذين جلوا بكلامهم الأبصار العليلة«٣») فقد كان الصواب ان يقول (البصائر العليلة) . وقوله مشيراً الى خطب العرب وكونها تنقسم الى طوال وقصار : (ووجدنا عدد القصار اكثر رواة العلم الى حفظها أسرع«٤») اذ الصواب أن يقول (ووجدنا اكثر رواة العلم أسرع الى حفظ القصار) . وفي الامكان اعطاء امثلة اخرى لهذه الهنات ، ولكن ليس من الضرورى احصاؤها جميعاً .

بيد أنه ان كان في اسلوب الجاحظ ولغته كل هذه المساوىء ، فانه من ناحية اخرى مطبوع على الكلام سمح الخاطر فياض البديهة لا يلتزم سجعاً ولا يتكلف ازدواجاً ولا يستكره جناساً ولا طباقاً ولا تشبيهاً ولا يحك ولا ينقح ولا يضع جملة مكان جملة ولفظاً مكان آخر وانما يأخذ من الكلام ما تجود به قريحته السمحة عفواً وتتفتح عنه بديهته المواتية طوعاً ويصرفه في أغراضه المتنوعة ومقاصده المتعددة ومذاهبه المتشعبة كما يشاء . ومن خصائصه الحسنة كثرة الاستشهاد بالقرآن والحديث والشعر ، فما يكاد يتحدث اليك عن شأن من

« ١ » المصدر نفسه ج ١ ص ٤٢

« ٢ » البيان والتبيين ج ١ ص ٤٣ طبعة مطبعة الفتوح الأدبية بمصر .

« ٣ » المصدر نفسه ج ٢ ص ٢

« ٤ » البيان والتبيين ج ٢ ص ٣ طبعة مطبعة الفتوح الأدبية بمصر .

الشؤ ن أو غرض من الاغراض حتى تتمثال الشواهد عليه انثيالاً وتزدحم الأمثلة في حديثه ازدحاماً . ولا غرابة في ذلك فان حافظته العجيبة وضعت يده على كنوز اللغة العربية ويسرت له من الاحاطة بالأدب العربي على اختلاف أنواعه ما لا يتيسر الا لأفذاذ الرواة والحفّاظ .

ر ـ عزره فيما يؤاخذ فيه من هفوات :

وقد نقدت كتب أبي عثمان نقداً صارماً عنيفاً وحاسبته حساباً لا هوادة فيه ولا لين . ، لكن لا بد لي من ان أنصفه وان أعدل في الحكم عليه ، وذلك بأن أسجل انه معذور في كثير مما آخذته فيه . فان الكتب التي نقدتها انما كانت كتب شيخ متهدم بلغ من العمر عتياً وانتابت جسمه العلل فأصاب الفالج نصفه والتفرس نصفه الآخر . وكان من الحق ان يستريح في هذه الفترة من حياته استراحة تامة ، ولكنه اضطر الى مواصلة جهاده اضطراراً وارغم على متابعة عمله المتعب الشاق ارغاماً . فقد فرغ من وضع (الحيوان) بعد ان جاوز السبعين ، ومن وضع (البيان والتبيين) بعد ان جاوز الثمانين . ومن لا يسامح في ضعف انتاجه اذا بلغ هذه السن ؟ !

ستقول ومن اضطره الى مواصلة جهاده هذا ؟ وأجيب : أكان عليه اذن أن ينهي حياته كما بدأها خاملاً وان يخرج من الدنيا كما دخلها فقيراً معدماً ؟ وليس هو المعاتب اذا كان الزمان لم يؤاته والحظ لم يبتسم له الا في ايام شيخوخته ومرضه .

هـ - مثل من مختار كلامه :

والآن ، وقد أدنت الجاحظ وبرّأته ونقدته وقرّظته أحب ان اروى لك مثلاً من كلامه الذى يمثل لغته واسلوبه ورأيه في صناعة الانشاء وتأليف الكتب الى حد لا بأس به . قال يشرح مذهبه في الكتابة مستطرداً : وليس ينبغي لكتب الآداب والرياضيات أن تحمل أصحابها على الجد الصرف وعلى العقل المحض وعلى الحق المر وعلى المعاني الصعبة التي تستكد النفوس وتستفرغ المجهود وللصبر غاية وللاحتمال نهاية ، ولا بأس بأن يكون الكتاب موشّحاً ببعض الهزل ، على ان الكتاب اذا كثر هزله سخف ، كما انه اذا كثر جده ثقل. ولا بد للكتاب من ان يكون فيه بعض ما ينشط القاريء وينفي النعاس عن المستمع »"١" .

وقال يصف الكلام البليغ : « بسم الله الرحمن الرحيم — قال علي بن أبي طالب عليه الصلاة والسلام : (قيمة كل انسان ما يحسن) فلو لم نقف من هذا الكتاب إلا على هذه الكلمة لوجدناها كافية شافية ومجزية مغنية ، بل لوجدناها فاضلة على الكفاية وغير مقصّرة عن الغاية ، وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ومعناه فى ظاهر لفظه . وكان الله عز وجل قد ألبسه من الجلالة وغشّاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه وتقوى قائله . فاذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً وكان صحيح الطبع بعيداً من الاستكراه ومنزّهاً عن الاختلال مصوناً عن التكلف صنع فى القلب صنيع الغيث فى التربة الكريمة ومتى فصلت الكلمة على هذه الشريطة ونفذت من قائلها على هذه الصفة أصحبها الله من التوفيق ومنحها من التأييد ما لا يمتنع من تعظيمها به صدور الجبابرة ولا

« ١ » رسائل الجاحظ طبعة الستدوبي ص ٢٧٥ .

يذهل عن فهمها عقول الجهلة . وقد قال عامر بن عبد القيس « الكلمة اذا خرجت من القلب وقعت في القلب ، واذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان »"١" . وقال يحدد صفات الكاتب : « ينبغي للكاتب ان يكون رقيق حواشي اللسان عذب ينابيع البيان ، اذا حاور سدد سهم الصواب الى غرض المعنى ، لا يكلم العامة بكلام الخاصة ولا الخاصة بكلام العامة »"٢" . وقال فى فصل من رسالته في النساء : « وقد علم الشاعر وعرف الواصف أن الجارية الفائقة الحسن أحسن من الظبية وأحسن من البقرة وأحسن من كل شيء تشبَّه به . ولكنهم اذا أرادوا القول شبهوها بأحسن ما يجدون ، ويقول بعضهم: كأنها الشمس ، وكأنها القمر ، والشمس وان كانت بهية فانما هي شي واحد وفي وجه الجارية الحسناء وخلقها ضروب من الحسن الغريب والتركيب العجيب . ومن يشك ان عين المرأة الحسناء أحسن من عين البقرة وان جيدها أحسن من جيد الظبية والأمر فيما بينهما متفاوت . ولكنهم لو لم يفعلوا هذا وشبهه لم تظهر بلاغتهم وفطنتهم »"٣" .

« ١ » البيان والتبيين ج ١ ص ٤٧ طبعة مطبعة الفتوح الأدبية بمصر

« ٢ » معجم الأدباء ج ١٦ ص ٨٧ طبعة مصر

« ٣ » رسائل الجاحظ ص ١٧٤ طبعة السندوبي .

في هذه النبذة من كلام الجاحظ دليل واضح على مكان الشاعرية من طبعه ؛ وأحب بهذه المناسبة أن أذكر أن له شعراً لا بأس به ، روى ياقوت مثلا عديدة منه . وأنا أروي لك هنا بعض هذه المثل . قال الجاحظ :

يطيب العيش أنك تلقى حليماً ... غذاه العلم والرأي المصيب
ليكشف عنك حيلة كل ريب ... وفضل العلم يعرفه الأريب
سقام الحرص ليس له شفاء ... وداء البخل ليس له طبيب

وقال — والبيتان من ظريف شعره — :

ان حال لون الرأس عن لونه ... ففي خضاب الرأس مستمتع
هب من له شيب له حيلة ... فما الذي يحتاله الأصلع ؟ —

وقال محذراً من الأصدقاء : « إحذر من تأمن كأنك حذر ممن تخاف »"١".

و - مقارنة بينه وبين عبد الله بن المقفع :

بقي ان نقارن بينه وبين من سبقه وعاصره من كبار الكتاب . ولا سبيل الى عقد مقارنة بينه وبين سهل بن هارون ، لأن ما بلغنا من آثار هذا لا يسمح بعقد مقارنة بينه وبين كاتب له مثل غزارة انتاج الجاحظ وتعدد آثاره . ولكننا نستطيع ان نقارن بينه وبين ابن المقفع ، وما أشك في أنه أصح تفكيراً وأفصح تعبيراً وأمتن لغة وأقوى أسلوباً مئة مرة من ابن المقفع . ففي أي كتب الجاحظ تقرأ كلمة كتلك التي يقرر فيها عبدالله أن من لا مال له لا حياء له ومن لا حياء له لا سرور له ومن لا سرور له لا عقل له ... الى آخر ما هنالك من أمثال هذه الترهات ؟ وفي أي رسائل الجاحظ تجد نصيحة كتلك التي ينصحك فيها عبدالله — ان كنت عاقلا بالطبع — (أن تؤنس ذوي الالباب وتجربهم على نفسك)؟!. (حتى يصيروا حراساً على سمعك وبصرك ورأيك ، فتستنيم الى ذلك وتريح له قلبك وتعلم انهم لا يغفلون عنك اذا أنت غفلت عن نفسك) ؟ . وفي أي أحاديث الجاحظ تجد وصية كتلك التي يحضك فيها ابن المقفع على ان تكون عبداً في قرارة نفسك وأعماق ضميرك لأولئك الذين يملكون مقاليد الحكم ليتصدقوا

— وقال في أحد عظماء عصره :

وعهدي به والله يصلح أمره ... رحيب مجال الرأي منبلج الصدر
فلا جعل الله الولاية سبة ... عليه فاني بالولاية ذو خبر
فقد جهدوه بالسؤال وقد أبى ... به المجد الا أن يلج ويستشري

« ١ » معجم الأدباء ج ١٦ ص ٨٤ طبعة مصر .

عليك بالمال والجاه ؟

وقد أحصيتُ على الجاحظ هناتٍ عديدةً في لغته وأسلوبه ، ولكني لا أعرف له عبارة يبلغ منها السخف مبلغه من قول ابن المقفع : « اذا تخالجتك الأمور فاستقل أعظمها خطراً ، فان لم يستبنْ ذلك فأرجاها دركاً ، فان اشتبه ذلك فأجدرها ان لا يكون له مرجوع حين تولي فرصته » . وقوله : « ان بالناس من الاستخراج والفساد ما قد علم أمير المؤمنين . وقد ضربت لك الأمثال على سوء لغة ابن المقفع ورداءة أسلوبه في فصل سابق من هذا الكتاب ولا داعي الى التكرار .

الحق ان الجاحظ شيخ صناعة الانشاء في العصر العباسي الأول وإمام المترسلين فيه ، وأن أحداً من كتابه الذين قرأنا أخبارهم وعرفنا آثارهم لا يستطيع ان يزاحمه في مركزه هذا او ينافسه .

الباب الثاني

في كتّاب الأسجاع والمقامات

الفصل الاول

أبو بكر الخوارزمي

أ — حياته : اسمه ونسبه . نسبته الى طبرستان وخوارزم . مولده . نشأته ودراسته . أسفاره . فوائدها الأدبية والمادية . اتصاله بسيف الدولة . عودته الى المشرق . تطوافه في حواضره وأقاليمه . في بخارى . في نيسابور . في سجستان . في غرستان . في نيسابور ثانية . عند الصاحب بن عباد بأصبهان . تقديم ابن عباد إياه الى عضد الدولة . رحلته الى شيراز . نجاحها . عودته الى نيسابور . ابتسام الحياة له فيها . منح عضد الدولة إياه مرتباً ثابتاً . نقمته على ملوك خراسان تزلفاً للبويهيين . ماجنت عليه هذه النقمة . التجاؤه الى الصاحب بن عباد . عودته الى نيسابور بفضل أبي الحسن المزني . ابتسام الحياة له فيها مرة أخرى . وفاته سببها .

ب — صفاته : حيويته . حفظه . خبث لسانه . نكرانه الجميل . بخله . رأي فريق من شعراء عصره فيه .

ج — آثاره : ١ً — نثره : غلبة الروح الشعري عليه . خصائصه الفنية . بعض هناته . أثر الروح الفارسي فيه . بعض ما يمثل هذا الروح . مُثل من كلامه المختار . رسالة له كتبها الى تلميذ له مكابر . كلمة له في وصف الشعراء . من رسالة له كتب بها الى مسكويه وقد تزوجت أمه .

٢ً — شعره : مُثل منه .

د — خاتمة : غلبة النثر على أدبه .

١ – حياته :

حدثتك في الباب السابق عن شيخي الترسل في الانشـــاء وهما عبدالله بن المقفع والجاحظ ، وأحدثك في هذا الباب عن أكبر كتاب الاسجاع والمقامات وهم أبو بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني والحريري . وأبدأ بالخوارزمي لأنه أقدم الثلاثة فى الترتيب الزمني فأقول :

هو محمد بن عباس الخوارزمي أو الطبري ، والأولى أشهر . وقد نسب الرجل الى طبرستان لأن أصله منها ، والى خوارزم لأنه ولد ونشأ فيهـــا على رواية (اليتيمة) . أما صاحب (الوفيات) فيقول : انه نسب الى طبرستان لأن أمه منها ، والى خواررم لأن أباه من هذه المدينة . ويضيف ابن خلكان الى ذلك ان المترجم ابن أخت أبي جعفر محمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ المشهور ، وليس بين أيدينا من المصادر التاريخية ما يمكننا من ترجيح أحد القولين . ولكن مهما يكن من شيء فان الرجل نسب الى طبرستان فعرف بالطبري ونسب الى خوارزم فعرف بالخوارزمي بل لقد اتخذت له نسبة مركبة من هاتين النسبتين فقيل « الطبرخزي » أو « الطبرخزمي » .

وقد ولد في خوارزم سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة للهجرة ، ونشأ حيث ولد وتلقى علومه وفنونه . ولسنا نعرف لسوء الحظ أحداً من أساتذته ، ولكننا نعلم إجمالاً أنه كان محباً للعلم شغوفاً بالدرس ، وأنه كان على جانب كبير من غزارة العلم ووفرة الأدب عندما برح مسقط رأسه خوارزم فى ريعان صباه ولكنه لم يفتر عن طلب العلم فى اثناء تجواله الواسع ، فقد اتصل بكثير من علماء

فارس والعراق والشام وأخذ عنهم ، كما انه خرّج كثيراً من أولي الأدب والفضل. وقد اتصل بسيف الدولة الحمداني بحلب ومدحه فأكرم وفادته وأحسن صلته . ثم عاد ادراجه إلى المشرق فقصد بُخارى وعرف بها أبا علي البلغمي ، ولكن سرعان ما ساءت علاقته به فهجاه بقوله :

إن ذا البلغمي والغين عين وهو عار على الزمان وشين
إن يكن جاهلاً بخفي حنين فهو الخف والزمان حنين

ثم رحل إلى نيسابور واتصل فيها بجماعة من الكبراء عرفوا فضله وأحسنوا معاشرته ، أكبرهم الأمير أبو نصر أحمد بن علي الميكالي ، ثم ترك نيسابور إلى سجستان ومدح واليها طاهر بن محمد فقبل هذا مدحته وأجازه عليها . ولكنه لم يلبث أن أغضب الوالي فسجنه وطال مكثه في السجن وساءت حاله كثيراً ، فبعث الى أبي نصر أحمد بن علي الميكالي بقصيدة مطولة يشكو فيها حاله ويصور بؤسه وشقاءه يقول فيها :

كتابي أبا نصر إليك وحالتي كحال فريس في مخالب ضيغم
أرق من الشكوى وأدجى من النوى وأضعف من قلب المحب المتيم
غدوت أخا جوع ولست بصائم ورحت أخا عرى ولست بمحرم
وقعت بنمخ الخوف في يد طاهر وقوع سليك في حبائل خثعم "١"

وأفرج عنه ، فذهب إلى غرستان ، ولم يكن واليها عند حسن ظنه به فهجاه بمقطعات عدة . وهنا أدرك ضرورة العودة إلى نيسابور التي راج فيها أدبه

« ١ » يشير الى وقوع سليك بن السلكة العدّاء المشهور في أسر أنس بن مالك الخثعمي .

وطاب عيشه فترة من الزمن فعاد اليها . ووفد منها على الصاحب بن عباد بأصبهان ، فاستحسنه هذا الاستحسان كله وقربه التقريب كله ، وأغدق عليه الهبات جرياً على مألوف عادته مع أولي الأدب والفضل . ولم تقف رعايته لأبي بكر عند هذا الحد ، بل انه زوّده برسالة الى عضد الدولة ، وكان يومئذ بشيراز ، كانت سبب حظوته عنده وفوزه لديه . ويظهر أن نيسابور كانت أحب المدن التي زارها اليه وأطيبها أثراً في نفسه . فعاد إليها من شيراز واستوطنها واقتنى بها ضياعاً كثيرة وأقام فيها على خير حال . ثم وفد على عضد الدولة مرة أخرى ممتدحاً إياه ، فأجزل عطيته وفرض له مرتّباً سنوياً يحمل اليه في دار اقامته بنيسابور . فطابت حياته وعلت كلمته وسمت منزلته ، وفرغ للاستمتاع بما أوتي من نعمة العلم ونعمة المال ، فكان على حد قول الثعالبي : « يقسم أيامه بين مجالس الانس ومجالس الدرس » . ولكنه كان شديد التعصب لآل بويه شديد النقمة على ملوك خراسان . وبلغ أحد وزرائهم « أبا الحسن القبي » أنه هجاه فكتب الى عامله بنيسابور يأمره بحبسه ومصادرة أمواله ، فحبس وفرضت عليه غرامة قدرها مئة ألف درهم فدفع بعضها وهو في السجن ، وأرسل مخموراً الى بيته فاحتال على حراسه وألهاهم بالطعام والشراب ، وفرّ متنكراً الى الصاحب بن عباد ، وكان يومئذ في جرجان ، فحماه وأكرم مثواه . ولم يزل عنده قرير العين ناعم البال الى أن قتل أبو الحسن القبي وخلفه في منصبه أبو الحسن المزني ، وكان هذا من محبي أبي بكر وعشاق فضله وأدبه . فاستدعاه إليه وأعرب له عن عظيم إعجابه به وتقديره له ، وكتب الى نيسابور برد ما أخذ من ماله اليه فكان ذلك .

وسعدت أيامه بنيسابور مرة أخرى فكان موضع التجلة والاعظام في هـــذه الحاضرة يحترمه حكامها ويجله سراتها وأشرافها فلم يزل على هذا الى أن أبتلي بزيارة أحمد بن الحسين (بديع الزمان الهمذانى) لنيسابور ومساجلته له ، تلك المساجلة التي أدت الى انحطاط قدره وخمول ذكره والتي سنذكرها في ترجمة البديع ان شاء الله ، فمرض لشدة ما أصابه من ذل الهزيمة ومرارة الانكسار . ومات في شوال من سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة للهجرة . ورثاه الهمذاني بأبيات يقول فيها :

يقولون أنت به شامت ... فقلت الثرى بفم الشامت
وعزّت على معـــاداته ... ولا متـــدارك للفـائت

ب — صفاته :

لم يدرس مؤرخو الرجل خصاله وخلاله ولم يدونوا ماله وما عليه في هذا الباب اللهم الا ما ورد عرضاً في اثناء الكلام عنه . ولكننا اذا رجعنا الى اخباره وآثاره علمنا منها انه كان عالي الهمة شديد المراس قوي العزيمة غزير الحفظ طويل اللسان منكراً للجميل بخيلاً الى ابعد حدود البخل . وليس من العسير أن نقيم البرهان على ماله من مضاء العزيمة وعلو الهمة ، فقد برح مستمط رأسه خوارزم وهو في ريعان الصبا ، فما زال يطوف في الآفاق ويجوب البلاد من المشرق الى المغرب وبالعكس يطلب العلم وينشد الأدب ويبحث عن المال والجاه والشهرة حتى ظفر من كل ذلك بالشيء الكثير . ولا يشك أحد من معاصريه فى أنه آية فى الحفظ ، وهم يتناقلون فى هذا الشأن حكاية خلاصتها أن أبا بكر لما وقف على

باب الصاحب بن عباد قال لآذنه : قل له في الباب أديب يريد الدخول عليك . وأدّى الآذنُ الرسالة ، فقال له الصاحب : قل له ، قد ألزمت نفسي أن لا يدخل عليّ من الأدباء . الاّ من يروي عشرين ألف بيت من شعر العرب . وابلغ الآذن جواب سيده أبا بكر فقال له : قل له هذا القدر من شعر الرجال أم من شعر النساء ؟ ! ..

وما أريد ان اقبل هذه الرواية فانها ظاهرة التكلف والافتعال . ولكني استنتج منها ان حافظة ابي بكر كانت من القوة بحيث حملت معاصريه على ان ينسجوا حولها الأساطير .

بيد انه كان طويل اللسان خبيث الهجاء هجا كثيراً من الولاة والأمراء بعد ما مدحهم والتمس عطفهم وطلب معروفهم . ولم يكن هؤلاء من رحابة الصدر وكرم الخلق بحيث يسامحونه ويصفحون عن زلاته دائماً فحبس وصودرت امواله مراراً عديدة . بل لقد فكر بعض عمال خراسان بقطع لسانه جزاء تطاوله على ملوك ذلك الاقليم . واذا صح ما رواه ابن خلكان من انه هجا الصاحب بن عباد بهذين البيتين :

لا تحمدنّ ابن عبّاد وإن هطلت ... يداه بالجود حتى أخجل الديما
فانها خطرات من وساوسه ... يعطي ويمنع لا بخلا ولا كرما "١"

« ١ » لم يفت ابن خلكان ان يذكر انه قرأ هذين البيتين ومعهما بيت ثالث في معجم الشعراء للمرزباني لمعاوية بن سفيان المعروف بأبي القاسم الأعمى في الحسن بن سهل وهذه هي رواية المعجم .

لا تحمدنْ حسناً بالجود ان مطرت ... كفاه شزراً ولا تذممه ان رزما
فليس يمنع ابقاء على نشب ... ولا يجود لفضل الحمد مغتنما —

اقول : اذا صح ذلك فانه يكون من نكران الجميل وكفران المعروف بحيث يستحق ما رواه ابن خلكان ايضاً من تعقيب الصاحب بن عباد على وفاته ، وهو قوله :

أقول لركب من خراسان قافل أمات خوارزميكم ؟ قيل لي : نعم
فقلت : اكتبوا بالجص من فوق قبره ألا لعن الرحمن من كفر النعم

وكان الى هذا بخيلا شديد البخل ، ولو لم يقع له في هذا الباب الا رفضه ملتمس بديع الزمان الهمذاني لكفى . فقد قدم هذا نيسابور وهو في حال يرثى لها ، فكتب إليه كتاباً نفيساً ورقيقاً جداً يستضيفه فيه فأعاره أذناً صماء وزوى وجهه عنه وقد اعرب بعض معاصري ابى بكر من الشعراء عن رأيهم فيه ، فقال ابو سعيد احمد بن شهيد الخوارزمي ايضاً :

ابو بكر له ادب وفضل ولكن لا يدوم على الوفاء
مودته إذا دامت لخلّ فمن وقت الصباح الى المساء

وقال آخر :

مات ابو بكر وكان امرأ ادهم في آدابه الغرّ
ولم يكن حرّاً ولكنه كان امير المنطق الحرّ

— لكنها خطرات من وساوسه يعطى ويمنع لا بخلا ولا كرما

ولكنه — أي ابن خلكان — أكد انه رأى البيتين منسوبين للخوارزمي في الصاحب ابن عباد في مجاميع طائفة من الأدباء .

حـ ـ آثاره :

١ ـ نثره : لابي بكر ديوان رسائل ومقدار لا بأس به من الشعر يدل كل منهما على توقد ذهن وسعة خيال وقوة عارضة ولطافة اسلوب . والذى يهمنا الآن هو ديوان رسائله ، وقد طبع هذا في مصر سنة ١٣١٢ للهجرة طبعة لا بأس بها . وأنت إذا تصفحت هذا المجموع رأيت انه في مقاصده واغراضه وفي اخيلته وخواطره اشبه بديوان شعر منثور . ذلك انك تنتقل فيه من مديح الى هجاء ومن تهنئة الى رثاء ومن استعطاف الى عتاب . ومعلوم ان هذه هي أهم أبواب القريض في زمن المؤلف على انه لا يخلو من عظات ونصائح ذات طابع اجتماعي كتلك التي ينحي فيها أبو بكر باللائمة على تلميذ له مكابر ، ولكن هذه قليلة جداً .

أما من حيث اللغة والأسلوب فانه فصيح اللفظ متين السبك حافل بالزخارف البيانية كالجناس والطباق والاستعارة والتشبيه وما الى ذلك ، جم الأسجاع عامر بالازدواج دون ان يخلو من كلام مرسل . وهذا على الرغم من زعم المؤلف في رسالة كتبها الى أحد أساتذته أنه صاحب ترسل ، إذ الصحيح أنه شديد الالتزام للسجع والازدواج ولكنه من علو الكعب في صناعة الانشاء بحيث يخيل لك أنه يرسل نفسه على سجيتها ولا يستكره شيئاً من هذه الزخارف البيانية التي تحفل بها رسائله وإنما ينطق بها عفواً وتجري على لسانه طوعاً .

على أن لغة الرجل وأسلوبه لا يخلوان من هنات وهفوات منها قوله :

« واستحالت تلك المواهب وهي مصائب"١" . » إذ الصواب (واستحالت تلك المواهب مصائب) . وقوله في رثاء شاب : « وفقد الشباب الطري أكثر جزعاً "٢" . » إذ الصواب (وفقد الشباب الطرى أدعى الى الجزع) . وقوله : « ثم يعود العاقل منهم لما يرفو به الخرق ويرتق به الفتق فيقبل الزلة »"٣" . إذ الصواب (فيقبل العذر أو يصفح عن الزلة) . وقوله فى رثاء أيام خلت : « أكلتُ الوجع وشربتُ الجزع »"٤" . فلا جدال في أن المجازين الذين تنطوي عليهما هاتان الجملتان مما يمجه السمع ولا يرتاح له الطبع بيد أنه من الحق ان نلاحظ ان هذه الهنات وتلك الهفوات ليست كثيرة في كتب الرجل .

ولكن هل في هذه الكتب ما يذكّر بفارسية الكاتب ؟ نعم ، ان غلوه يضطرك في كثير من الأحيان الى التفكير بأنك إنما تقرأ كاتباً فارسياً يطيب له ان يخلق من الذرة قفراً ومن القطرة بحراً . وقد يعجبك ان أقتطف لك مثلا من كلامه الذي يمثل غلوّه ، اسمع قوله في وصف بستانه الذي يصغر من شأنه لسبب ما : « بقيعة طولها باع وعرضها ذراع ، أعني باع البقة وذراع الذرة ، وأقل من لا وأصغر من الجزء الذي لا يتجزا ، لو طارت عليها ذبابة لغطتها أو دخلتها نملة لسدتها ، تسقى بالمسعط"٥" صباحاً وتنكث بالخلال"٦" مساءً ، أشجارها

« ١ » رسائل الخوارزمي طبعة مصر سنة ١٣١٢ هـ ص ٣

« ٢ » المصدر نفسه ص ٢ .

« ٣ » المصدر نفسه ص ١٤

« ٤ » المصدر نفسه ص ١٧

« ٥ » المسعط : ما يجعل فيه السعوط يصب في الانف

« ٦ » الخلال : ما تخلل به الاسنان

مئة إلا تسعة وتسعين وأنهارها خمسون إلا تسعة وأربعين »"١". وقوله في وصف قصيدة بعث بها اليه أحد تلاميذه « وردت القصيدة الغراء بل الدرة العذراء بل الهدية العظيمة بل الشمسة الكريمة بل الياقوتة اليتيمة بل فريدة الدر بل غرة الغر بل شمس الكرام وغريبة الأيام بل الخطاب الجزل والمنطق الفصل بل الحسن والاحسان بل التبيين والبيان بل واحدة الفصائد وخاتمة القلائد وآبدة الأوابد بل أميرة النظم والنثر بل ملكة الرجز والشعر بل حسنة الألسن ونزهة القلوب والأعين بل بستان الأفكار وجلاء الابصار بل روح المعاني والمباني وهيكل الأوزان والقوافي بل عقيلة الدهر ونادرة العصر وثمرة العمر وبيضة العقر وترياق القلب بل ملبس تاج الفخر ومورثي كنز الذخر لا بل ليلة القدر فانها خير من ألف شهر وهذه خير من ألف بيت شعر ، ولم أعن البيت الموزون إنما أردت البيت المسكون ... الخ »"٢".

فأكبر الظن أنك توافقني على ان كاتباً عربياً لا يبلغ في تصغير ما يريد تصغيره وتعظيم ما يريد تعظيمه ما بلغه أبو بكر في تصغير شأن بستانه وتعظيم شأن قصيدة تلميذه ، فقد غلا في كلا الأمرين غلواً لا يستسيغه ذوق كاتب عربي ، أللهم إلا ان يكون قد تأثر بمخالطة الفرس ومعاشرتهم وبدراسة أدبهم وتذوقه تأثراً كبيراً . ومع ذلك ففي إمكاننا أن نقرر ان للخوارزمي رسائل بليغة تلذ قراءتها وتفيد روايتها ، اليك منها هذه الرسالة التي كتب بها الى

« ١ » المصدر نفسه ص ٨

« ٢ » المصدر نفسه ص ٧٣ .

تلميذ له بلغه أنه كابر في مناظرة فجعل الباطل حقاً والحق باطلاً :

« بلغني أنك ناظرت ، فلما توجهت عليك الحجة كابرت ، ولما وضع نير"١" الحق على عنقك ضجرت وتضاجرت . وقد كنت أحسب انك أعرف بالحق من أن تعقّه ، وأهيب لحجاب العدل والانصاف من أن تشقّه ، كأنك لم تعلم أن لسان الضجر ناطق بالعجز وان وجه الظلم مبرقع بالقبح ، وانك اذا استدركت على نقد الصيارفة وتتبعت خطأ الحكماء والفلاسفة فقد طرّقت الى عيبك لعائبك ونصرت عدوك على صاحبك ؛ وقد عجبت من حسن ظنك بك وأنت انسان ، والله المستعان . » "٢"

وهذه النبذة التي يصف بها الشعراء والتي أقتطفها لك من رسالة تقدم بعضها"٣" :

« وإني لشاعر اذا أحس من لسانه بسطة ، ووجد فى خاطره فضلة ، وأصاب من القول جريانا ، ووجد ميدانا قال ماوجدت بيانا ، وما ظنك بقوم الاقتصاد محمود إلا منهم ، والكذب مذموم إلا فيهم ، اذا ذموا ثلبوا واذا مدحوا سلبوا ، واذا رضوا رفعوا الوضيع ، واذا غضبوا وضعوا الرفيع ، واذا أقروا على أنفسهم بالكبائر لم يلزمهم حد ، ولم تمتد اليهم بالعقوبة يد . غنيهم لا يصادر "٤" ، وفقيرهم لا يحتقر ، وشيخهم يوقر ، وحدثهم لا يستصغر ،

« ١ » النير : هو الخشبة التي توضع على عنق الثور وهو مستعمل هنا على سبيل المجاز

« ٢ » رسائل الخوارزمي طبعة مصر سنة ١٣١٢ هـ ص ٨

« ٣ » كان ما تقدم من هذه الرسالة وصف البستان

« ٤ » لا يصح هذا بالنسبة للبحتري . فقد صودرت أمواله واستردت منه عطايا الخلفاء في أيام الفتن والاضطرابات التي تلت مصرع المعتز

وسهامهم تنفذ في الأعراض ، اذا نبت السهام عن الأغراض ، وتصل الى البعيد كما تصل الى القريب ، شهادتهم مقبولة ولمن لم ينطق بها سجل ، ولم يشهد بها عدل ، وسرقتهم مغفورة وان جاوزت ربع دينار ، أو بلغت ألف قنطار "١" ، إن باعوا المغشوش لم يردّ عليهم وان صارموا الصديق لم يستوحش منهم ، بل ما ظنك بقوم هم صيارفة أخلاق الرجال وسماسرة النقص والكمال ، بل ما ظنك بقوم اسمهم ناطق بالفضل ، واسم صناعتهم مشتق من العقل "٢" بل ما ظنك بقوم هم أمراء الكلام يقصّرون طويله ويخففون ثقيله ويقصرون ممدوده ، ولم لا أقول ما ظنك بقوم يتبعهم الغاوون وفي كل واد يهيمون ويقولون ما لا يفعلون "٣" .

وهذه القطعة التي أوردها لك من رسالة كتب بها الى مسكويه وقد تزوجت أمه :

« العاقل ، أعزك الله تعالى ، لا يرى المحنة اذا تخطت دينه محنة ، ولا يرى النعمة اذا تعلقت بذنب خطيئة نعمة ، ولا يريد الشرف إلا بالتقوى . ولا يرى الضعة الا ما وضع من رتبته في الدار الأخرى ، وبلغني ما اختارته الوالدة صانها الله تعالى فحمدت الله تعالى الذي رزقك والداً لا يلزمك حق أبوته ، ووعدك

« ١ » سرقات الشعراء مغفورة اذا كانت أدبية « وهذا لا يخلو من تحفظ » فانهم يحاسبون عليها حساباً أدبياً أيضاً أما اذا كانت مادية فانهم يعاقبون عليها كما يعاقب اي فرد من الافراد اذا سرق .

« ٢ » يشير أبو بكر بهذا الى ما تنص عليه معاجم اللغة من ان كلمة « شعر » تعني « علماً » و « فطنة » و « عقلا » .

« ٣ » رسائل الخوارزمي طبعة مصر سنة ١٣٠١ هـ ص ٨

أخاً لا يحملك حق أخوته . وقد كنت أسأل الله تعالى أن يبارك لك في حياتها والآن أسأله ان يعجل لك بوفاتها »"١" .

٢ — شعره : وشعر أبي بكر لا يقل عن نثره لطف خيال ورقة شعور وجمال لغة وصفاء أسلوب . ولكن الناس تواضعوا قديماً وحديثاً على اعتباره كاتباً أكبر منه شاعراً ، وناثراً أبلغ منه ناظماً ، وأحسب انهم على حق في هذا اذا استثنينا صفحات قليلة جداً من شعره . ومهما يكن من شيء ، فقد جاريت الناس في أمره ، فدرسته على انه كاتب ، ولكني أروي لك مثلا من شعره دون درسٍ ولا تحليل . قال يصف ليلة سعيدة :

وكم ليلة لا أعلم الدهرَ طيبها ... مخافة ان يقتصَّ مني لها الدهر
سهاد ولكن دونه كل رقدةٍ ... وليل ولكن دون إشراقه الفجر

وقال متغزلاً :

ولقد ذكرتك والنجوم كأنها ... درر على أرض من الفيروزج
يلمعن من خلل السحاب كأنها ... شرر تطاير في دخان العرفج"٢"
والأفق أحلك من خواطر كاسب ... بالشعر يستجدي اللئام ويرتجي
فمزجت دمعي بالدماء ولم أكن ... صرف الهوى والعهد إذ لم أمزج

وقال يهجو بني العباس لاسرافهم في منح الالقاب لمن يستحق ومن لا يستحق :

« ١ » المصدر نفسه ص ١٠٢ . ولابن العميد كتاب في مثل هذا الغرض لم يبلغ فيه شأو أبي بكر .

« ٢ » العرفج : شجر .

مالي رأيت بني العباس قد فتحوا ... من الكنى ومن الألقاب أبوابا
ولقّبوا رجلاً لو عاش أولهم ... ماكان يرضى به للحش«١» بوّابا
قلّ الدراهم في كفّي خليفتنا ... هذا فأنفق في الأقوام ألقابا

وقال في الفقر والغنى :

ولقد بلوت الاصدقاء فلم ... أر فيهم أوفى من الوفر
وكذاك لم أر في العدا أحداً ... أنكى لمن عادى من الفقر

وقال يرثي صديقاً قديماً انقلبت صداقته له عداوة :

صديق قد فقدناه قديم ... وثكل قد وجدناه جديد
مصاب وهو عند الناس نعمى ... ونحس وهو عند الناس عيد
تهنيني الأنام به ولكن ... تعزيني المواثق والعهود
وسيف قد ضربت به مراراً ... فمن ضرباته بي لي شهود
فلما أن تغلّل ظلتُ أبكي ... وعندي منه بعدُ دمٌ جسيد«٢»
ومن عجب الليالي أن خصمي ... يبيد وأن حزني لا يبيد
وأن النصف من عيني جمود ... وأن النصف من قلبي جليد
إذا سفحت عليه دموع عيني ... نهاها الهجر منه والصدود

وقال يرثي أبا الحسن المحتسبي :

وصاحبٍ لي لو حلّت رزيته ... بالطير ما هتفت يوماً على فنن

« ١ » في القاموس : الحش مثلثة المخرج ، لأنهم كانوا يقضون حوائجهم في البساتين .
« ٢ » جسيد : يابس .

عاشرته عشرة لو أنها وقعت ... بين الضحى والدجى سارا على سنن
حتى اذا نلت سؤلي من مواهبه ... وصادني بشباك الوصل والمنن
ثكلته بعد ما سارت محاسنه ... في العظم واللحم سير الماء في الغصن

وقال مضمناً قول زهير بن أبي سلمى « ومن لا يظلم الناس يظلم » ، وهو معروف بتضمينه شعره أبياتاً أو أشطراً او بعض أشطر من اقوال من تقدمه من الشعراء :

عذيري من ضحكٍ غدا سبب البكا ... ومن جنة قد أوقعت في جهنم
لأنكِ لا تروين بيتاً لشاعر ... سوى بيت من لم يظلم الناس يظلم

د ـ خاتمة :

الواقع ان أبا بكر الخوارزمي شاعر في منثوره كما انه شاعر في منظومه وان نثره في معانيه ومبانيه صورة طبق الاصل من شعره ولكنه يدرس ويؤرخ على انه كاتب لأنه عدل بالنثر عن طريق الترسل الذي نهجه ابن المقفع ثم الجاحظ من بعده الى السجع . ولم يكن السجع طبعاً من صنع الخوارزمي . فأنت تعلم ان القرآن يحتوي على شيء كثير منه ، وان خطب الراشدين وعهودهم ورسائلهم تحتوي على شيء كثير منه كذلك . ولكن الخوارزمي فضّله على غيره من انواع الكلام والتزمه وتقيد به في معظم رسائله ، وشايعه في ذلك جماعة من كتاب القرن الرابع للهجرة بقصد او بدون قصد ، فصار كأنه صاحب طريقة جديدة في صناعة الانشاء . وبذلك شغل في تاريخ الأدب العربي مكاناً لا يمكن تجاهله .

الفصل الثاني

بديع الزمان الهمذاني

أ — حياته : اسمه ونسبه وكنيته ولقبه . مولده . نشأته وتعليمه . اسفاره . غرضه منها . عند الصاحب بن عباد . مع الاسماعيلية في جرجان . ما حدث له في طريق نيسابور . توددة الى ابى بكر الخوارزمي وفشله في ذلك . تناظرهما او تهاترهما في دار نقيب نيسابور . اصلاح ذات بينهما . تجدد الخصومة بينهما على يد الوزير أبى القاسم . اندحار الخوارزمي . سوء حال الهمذاني فى نيسابور . خروجه منها . تطوافه فى خراسان وما وراء النهر . نجاحه . مقامه فى هراة . زواجه . ابتسام الحياة له . وفاته .

ب — صفاته: ما يجمع بينه وبين الخوارزمي من سمات وصفات . ما يمتاز به . رياؤه بعض ما يمثله . بذاءته . كرمه .

ج — آثاره : مميزاتها الفنية . بعض ما يعاب عليها . مُثل منها . نبذ من رسالة يطري فيها العرب ويندد بالمجوس . نبذة في وصف الكتّاب رسالة الى سائل ألحف فى التماس صلته . مثل من وصيته . مقاماته . نظرة فيها . مثل منها .

شعره : مثل منه

د — خاتمة : الفصل بين الخوارزمي والهمذانى .

أ – حياته :

اخصب قريحة واوسع خيالاً واقوى عارضة واكرم خلقاً ايضاً من ابى بكر الخوارزمي خصمه ووارث مكانته وشهرته فى عالم صناعة الانشاء احمد ابن الحسين بن يحيى التغلبي المكنّى بأبى الفضل والملقب ببديع الزمان الهمذانى وبالحافظ لسعة حفظه .

ولد فى همذان حيث تقيم اسرته سنة ثمان وخمسين وثلثمائة للهجرة ، وبها نشأ وتلقى علومه . وليس من شك فى انه درس على اساتذة عديدين ، ولكننا لا نعرف من اساتذته سوى رجلين ، وهما احمد بن الحسين المعروف بابن فارس صاحب المجمل فى اللغة وعيسى بن هشام الأخباري الذي نحله فيما بعد مقاماته الآتي ذكرها . ويقول الرواة إنه استنفد علم استاذه ابن فارس وما ذلك عليه بعسير . وخرج من همذان سنة ثمانين وثلثمائة للهجرة يطلب المال والجاه والصيت الذائع والشهرة الواسعة ومن يدرى لعله كان يحلم بأكثر من ذلك ، فانه يقول لخلف بن أحمد والي سجستان فى رسالة . « فما ازعجني عن همذان فقر ولا جوع وعري ، ولا ساقني الى سجستان طمع فى شبع وري ، وانما نحوم حول المراد :

ولو ان ما اسعى لأدنى معيشة كفانيه ولم اطلب قليلٌ من المال

لا يكثر الأمير عليّ من خلعه وصلاته ، فوالله لو علمت ان قصارى أمري سجستان أليها ، ضياعها أقتنيها . وغلاتها اشتريها ، واموالها أتسع فيها ولا مطمع فى زيادة ، لآثرت الزهد على الطلب » "١" .

« ١ » رسائل الهمذاني طبعة مطبعة هندية ١٣١٥ ص ١٦٣

وواضح ان من يقول هذا لا ينوى ان يكتفي بالدنانير والخلع وبالصيت المدوّي والشهرة البعيدة المدى . وليس الهمذانى اول اديب ينتجع الملوك والأمراء بالمديح ويخفي فى نفسه اطماعاً واسعة ترمي الى اقتناص الحكم واغتصاب الملك والسلطان ، فقد سبقه المتنبي الى مثل هذا ، وفى فوضى ذلك الزمان واضطراب احواله ما يسمح لأمثال ذينك الأديبين الشجاعين باضمار مثل تلك المطامع .

ومهما يكن من شيء فقد بدأ بديع الزمان تطوافه بزيارة الصاحب بن عباد فراجت عنده سوقه ونفقت بضاعته ، ولكنه ما عتم ان تركه الى جرجان حيث اتصل بدعاة الاسماعيلية ولا سيما بأبى سعد محمد بن منصور وكان هذا رجلا فاضلاً ومفضالا ايضاً ، فأكرم وفادة البديع وغمره بالهبات . ولكن لم يطل الوقت حتى برح صاحبنا جرجان الى نيسابور احدي عواصم العلم والأدب فى ذلك العصر . وهنا خانه الحظ ، فقد خرجت عليه عصابة من قطاع الطريق سلبته كل ما كان معه من نقود وخلع . ولم يرو احد من المؤرخين هذه الحادثة . ولكن الهمذاني يشير اليها في اولى رسائله الى ابى بكر الخوارزمي كما سترى . ووصل نيسابور وهو بالحالة التي اشرنا اليها ، فرأى ان يستعين بالخوارزمي على ما ألمّ به من بؤس وشقاء فكتب اليه رسالة رقيقة هذا نصها :

« أنا لقرب الأستاذ اطال الله بقاءه (كما طرب النشوان ما لت به الخمر) ومن الارتياح للقائه (كما انتفض العصفور بلله المطر) ومن الامتزاج بولائه (كما التفت الصهباء والبارد العذب) ومن الابتهاج بمرآه (كما اهتز تحت البارح

الغصن الرطب) . فكيف نشاط الأستاذ لصديق طوى إليه ما بين قصبتي العراق وخراسان ، بل ما بين عتبتي نيسابور وجرجان ؟ وكيف اهتزازه لضيف في بردة جمّال وجلدة جمّال ؟

رثّ الشمائل منهج "١" الأثواب بكرت عليه مغيرة الأعراب
كمهلهل وربيعة بن مكدّم وعيينة بن الحارث بن شهاب

وهو أيده الله وليّ إنعامه بانفاذ غلامه إلى مستقرّي لأفضي إليه بسرّي ان شاء الله . » "٢" .

وكان من واجب الخوارزمي أن يكون عند حسن ظن البديع به ، ولكنه لم يكن كذلك لضيق نظره ونقص مروءته ومع ذلك فقد زاره الهمذاني ، ولكنه تمادى في تقصيره نحوه فاستقبله استقبالا فاتراً كما يتبين من رسالة بعث بها اليه البديع . وهنا دارت بين الرجلين رسائل هي الى السخف أقرب منها الى أي شيء آخر . فقد كان الهمذاني يعاتب الخوارزمي على عدم استقباله إياه بلطف وبشاشة ، ويقارن بين مسلكه في قرى الضيف وبين مسلك العرب في هذا الشأن . وكان الخوارزمي يعتذر عما وقع له بأنه فعل كل ما في طوقه وبذل كل ما في وسعه في اكرام البديع . ثم بدا للمترجم ان يناظر الخوارزمي ويساجله في كل ما يتشدق به من سعة حفظ ووفرة علم وحضور بديهة ، وشجعه على ذلك نفر من علماء نيسابور وأدبائها كانوا مستوحشين من الخوارزمي .

« ١ » منهج : من أنهج الثوب ، خلق وبلي .

« ٢ » رسائل الهمذاني طبعة مطبعة هندية سنة ١٣١٥هـ ص ٣-٨ ومعجم الأدباء لياقوت ج ٢ ص ١٦٨ .

فعقد أبو علي نقيب الأشراف فى نيسابور مجلساً لهذا الغرض ، ودعا الخوارزمي فترفّع عن الحضور ، ولكنّ النقيب ألحّ ، وبعث الى أبي بكر مركباً فلم يجد بدّاً من تلبية الدعوة وحضر المجلس ومعه عدد كبير من تلاميذه . وعرض عليه الهمذاني أن يناظره في أي فن من فنون الأدب أراد ، فاختار الخوارزمي المبادهة « أي المسابقة في سرعة الخاطر » . ورضي الهمذاني بذلك ، ونظم أبياتاً مدح فيها النقيب وندّد بالخوارزمي ، مطلعها :

الشعر أصعب مذهباً ومصاعـداً من أن يكون مطيعه في فـكه

فردّ عليه الخوارزمي بأبيات من نفس العروض والقافية « لم يخرجها من غلافها » . ثم اقـترح عليهما النقيب أن يقولا شيئـاً على غرار قافية المتنبي التي مطلعها :

أرق على أرقٍ ومثلي يأرق وجوىً يزيد وعبرة تترقرق

فنظم أبو بكر أبياتاً أقل مايقال فيها إنها لا تستحق الذكر ، وأجابه الهمذاني بأبيات لا أسرف اذا قلت لك انها على جانب كبير من البذاءة وسوء الأدب . واعترض الخوارزمي على بيت من أبيات البديع فأجابه الهمذاني جواباً لا أثر فيه للمجاملة "١" . وعاود النقيب الكرة ، فاقترح على الشاعرين المتساجلين أن ينسجا على منوال قصيدة أخرى للمتنبي مطلعها :

« ١ » اعترض الخوارزمي على صرف الهمذاني كلمة « أحمق » في قوله :

« يا أحمقاً وكفاك تلك فضيحة جربت نار معرتي هل تحرق »

فقال له الهمـذاني : « لا تزال تصنعـك حتى ينصرف وتنصرف » معجم الأدباء ج ٢ ص ١٧٦ طبعة مصر .

أهلاً بدارٍ سبـــاك أغيدُها أبعـد ما بان عنك خرّدها

فقال البديع :

يا نعمةً لا تزال تجحدهـــا ومنّةً لا تزال تكندهـا

فأنكر الخوارزمي استعمال « كَنَدَ » بمعنى « كَفَرَ » وخطّأه الحاضرون مذكرين إياه قوله تعالى « ان الإنسان لربه لكنود » . وتقدم الليل ، ومال النعاس بالرؤوس ، فأوى المجتمعون الى مضاجع أعدّت لهم في دار النقيب ، فلما أصبحوا تفرقوا : وبعضهم يقضي بغلبة البديع والبعض الآخر بغلبة أبي بكر . وسعى أهل الخير لاصلاح ذات بين الأديبين ، ونزل الهمذاني على رغبة هؤلاء فاعتذر الى ابي بكر وسأله الغفران قائلاً : « ان الصفو بعد الكدر والصحو بعد المطر » . وقبل أبو بكر عذره ورجاه ان يقضي سحابة نهاره عنده ففعل . ولكن الوزير أبا القاسم أبى الا ان يلقح الفتنة بين الرجلين من جديد ، فعقد في داره مجلساً كبيراً حضره فقهاء نيسابور وأدباؤها وفتح باب المساجلة بين الخوارزمي والهمذاني مرة أخرى وكانت مهاترات وكانت مشاتمات انتهت بغلبة البديع على الخوارزمي غلبة تامة . وانك لتستطيع ان تتبين غرض الوزير أبي القاسم من هذا الاجتماع اذا علمت انه قال للبديع في ختام المساجلة « ملكت فأسجح » وهي كلمة قالتها عائشة للامام علي (رض) عند ما ظفر بها يوم البصرة .

وأمعن البديع بعد هذا في هجو أبي بكر ، فهجاه بشعره ونثره واصفاً إياه بما فيه وبما ليس فيه من العيوب والنقائص . ذلكم هو حديث البديع مع الخوارزمي

بايجاز . ولكن كيف كانت حال الأول بنيشابور من الناحية المادية ؟

لا يقول مؤرخو الأدب لنا شيئاً في هذا الصدد ، ولكن البديع يقول لنا : ان فضـــلاء نيسابور كانوا يحبونه ولكنهم لا يعينونه ، حتى لقد اضطر للاستجداء إبقاءً على رمقه استمع اليه يتحدث عن هذا في رســـالة كتبها الى الشيخ العميد يسأله عملا يقتات به :

« أنا أطال الله بقاء الشيخ العميد مع أحرار نيسابور في صنعة لا فيها أعان ولا عنها أصان ، وشيمة ليست بي تناط ولا عني تماط ، وحرفة لا فيهـــا أدال ولا عني تزال ، وهي الكدية التي عليّ تبعتها وليست لي منفعتها . فهل للشيخ أن يلطف بصنيعته لطفاً يحط عنه درن العار وسمه التكسب والافتقار ، ليخف على القلوب ظله ويرتفع عن الأحرار كلّه ، ولا يثقل على الأجنان شخصه باتمام ما كان عرضه عليه من أشغاله ليعلق بأذياله ، وليستفيد من خلاله فيكون قد صان الفضل عن ابتذاله والأدب عن اذلاله واشترى حسن الثناء بجاهه كما يشتريه بماله . وللشيخ العميد فيما يجيب به صنيعته عن وعد يعتمده ووفاء يتلو ما يعده ، عالي رأيه ان شاء الله . » "١" .

وما من أحد يجهل أن الهمذاني أملى في نيسابور أربعمائة مقامة في الكدية نحلها أبا الفتح الأسكندري . وعندي أن أبا الفتح الأسكندري هو أبو الفضل الهمذاني نفسه . وأن الأيام العصيبة التي مرّت به في نيسابور هي التي أوحت اليه هذه المقامات بيد أنه استطاع بعد لأي أن يفلت من مخالب الفاقة التي

« ١ » رسائل الهمذاني طبعة مطبعة هندية سنة ١٣١٥ هـ ص ١٠٢ .

كانت آخذة بخناقه في نيسابور ، وربما كان ذلك على يد عدنان بن محمد رئيس (هراة) . فاننا نجد للهمذاني رسالة يشكو فيها اليه سوء مقامه بنيسابور ويقول له انه (بعث اليه بما عنده وهو المدحة) وبقي عليه هو الأخر (ان يبعث بما عنده وهو المنحة) .

ومهما يكن من شيء فقد ترك الهمذاني نيسابور غير آسف عليها ، وزار سجستان وخراسان ومدح كثيراً من الأمراء والكبراء ، فظفر بالمال الكثير والجاه العريض . وفي رسالة كتبها الى عمه ما يدل على أنه تقرّب من بعض الملوك فعلت منزلتـــه وعظمت ثروته . ولـكننا لا نعرف لسوء الحظ ذلك الملك ولا نعلم كيف ومتى ظفر بعطفه واستولى على قلبه . وقد لا يخـــلو من فائدة ان أقتطف لك شيئاً من هـذه الرسالة رغبـــة في استقصاء حال الرجل على قدر المستطاع قال :

« إني في بلاد وان لم يكن لأهلها تميز ، فأنا بينهم عزيز ، يعظمونني تقليداً ويرونني فريداً ، والمـــال يجري فيضاً ولـكني لا أبلعه ريقاً ولا آلوه تمريقاً . فهو يأتي مدّاً ويذهب جزراً ، والسلطان مقبل غاية الاقبـــال بالجـاه والمال »«١» .

ها هي ذي الدنيا اذن تبسم للهمذاني وتقبل عليه الاقبال كله في ظل ملك كريم يكبر فضله ويعجب بأدبه ويفتح له أبواب قلبه وخزائنـــه على السواء . ولـكن الهمذاني يحدثنا في رسالة اخرى عن غضبة ملك تنذره بزوال نعمته بل

« ١ » رسائل الهمذاني طبعة مطبعة هندية سنة ١٣١٥ ص ١٥٢

بدنو منيته ولسنا نعلم أهذا الملك الساخط المنذر بالويل والثبور هو نفس الملك المنعم المحسن الذي تقدمت الاشارة اليه أم غيره ؟..

وعلى كل حال ألقى الهمذاني عصا تسياره في هراة احدى مدن خراسان واقتنى بها ضياعاً فاخرة وأصهر الى أبي علي الحسين بن محمد الخشنامي أحد فضلاء هذه المدينة ، فاطمأنت به الدار وطاب له المقام وعاش عيشة هنيئة مدة من الزمن . بيد ان هذه السعادة لم تطل . فقد فارق الدنيا في الحادي عشر من جمادى الاولى سنة ثمان وتسعين وثلثمائة للهجرة ولم يجاوز الأربعين إلا قليلاً . ويقال انه جن في أواخر أيامه ، ويقال كذلك انه مات مسموماً ، وقد دفن في حالة اغماء شديد فأفاق في قبره وسمع يستنجد ويستغيث ، وكشف عنه القبر فوجد ميتاً وقد انحرف عن مكانه وقبض على لحيته .

ب - صفاته :

بين الخوارزمي والهمذاني وجوه شبه عدة من حيث السمات والصفات ، فكلاهما طالب مال وجاه وصيت ، وكلاهما رحالة مغامر حقق عن طريق الرحلة والمغامرة شيئاً غير قليل من مطامعه وآماله ، وكلاهما عظيم الحفظ الى درجة تبعث على الاستغراب ، وكلاهما سليط اللسان كثير السباب . ولكن الهمذاني يمتاز بكثرة التصنع وشدة الأنمة وبشيء آخر هو الرغبة الصادقة في اصطناع المعروف . وقد حدثتك بشيء من التفصيل عن سجايا الخوارزمي في فصل سابق فأحدثك الآن بشيء من التفصيل كذلك عن سجايا الهمذاني .

ويؤسفني ان أقول لك انه شديد الرياء كثير التصنع يقول بلسانه ما ليس

بقلبه فيعلن الحب وهو يكتم البغض ، ويظهر الرضا وهو يضمر السخط ، ولا أدل على ذلك من هذه الأشواق الحارة التي يتحدث بها الى الخوارزمي«١» بعد أن أبى هذا أن يسعفه ويقدم له معونته . ولم يكن الخوارزمي من الغفلة بحيث يصدق هذه الأشواق ، فقد طالبه ان يكف عن مؤاخذته ويمسك عن معاتبته إن كان صادقاً في أشواقه«٢» .

وبلغ من تكلف الرجل وتغييره حقائق الأشياء ان نحل أباه عدة رسائل زعم انه كتب بها اليه ليقول الناس ان والده صاحب يد طولى في صناعة الانشاء«٣» .

وكما يسرف الهمذاني على نفسه في الرياء والتصنع يسرف على نفسه كذلك في ثلب الناس والنيل من أقدارهم . وما أظنني أغلو اذا قلت لك ان كثيراً من رسائله في العتاب تعيد الى الذاكرة أهاجي جرير والفرزدق والأخطل«٤» . وفي الواقع ان الخوارزمي خبيث اللسان مرّ الهجاء ، إلا انه يتحاشى استعمال الألفاظ البذيئة التي يحظر الأدب استعمالها بينما لا يرى الهمذاني شيئاً يمنعه من استعمال أي لفظ . بيد أنه سريع الخاطر قوي الحافظة الى درجة لا تكاد تصدَّق

« ١ » معجم الأدباء ج ٢ ص ١٩١ — ٩٢ طبعة مصر .

« ٢ » المصدر نفسه ص ١٩٤ .

« ٣ » من هذه الرسائل المنحولة التي حملها بديع الزمان على أبيه اذا صح ما يقول جامع رسائله قوله : « الأبوة باطلها حق والبنوة حقها باطل . ولو علمت أن مناظرة الوالد بالحجة عقوق ومجاهرته بالشبهة فسوق لم تلقني بأبر من القبول وأحسن من ترك الفضول . رسائل الهمذاني طبعة مطبعة هندية سنة ١٣١٥ هـ ص ٢٦٩

« ٤ » انظر رسائل الهمذاني ص ٨٧ و ٨٨ و ١٤٣ و ١٩٥ وغيرها كثير .

فصاحب اليتيمة ، وهو رجل يعرفه معرفة شخصية ، يقول عنه فى هذا الشأن ما نصه تقريباً ، انه يرتجل القصيدة البليغة ويحبر الرسالة الجيدة على ريق لا يبلعه ونفس لا يقطعه ، ويستمع القصيدة التي تتألف من خمسين بيتاً مرة واحدة فيعيدها دون ان يخرم منها حرفاً ، وينظر فى الأوراق العديدة التي لم يرها قط نظرة واحدة فيهذّ ما تحتويه هذّاً «١» .

وغني عن البيان أني أروي هذه الأقوال بتحفظ . ولكنى أستدل منها على أن حظ المترجم من سرعة الخاطر وقوة الحافظة عظيم وليس هذا كل شيء ، فان صاحبنا شديد الأنفة شديد الحرص على كرامته شديد الاعتداد بنفسه وأدبه ، وربما كان هذا هو السبب فى كونه كثير البرم بأصدقائه من السراة والنبلاء ، كثير العتب على إخوانه . وهو لا ينكر معروف ذوى المعروف منهم ، ولكنه لا يسمح لأحد مهما كان أن يجرح كبرياءه أو يغض من شأنه ، أو أن لا يوفيه حقه أو ما تصبو اليه نفسه من التجلة والاحترام . وأشرف خصاله دون شك رغبته الأكيدة في اصطناع المعروف ، وقد رأيت أنه يقول لعمه فى رسالة كتب بها اليه : « المال يأتي مدّاً ويذهب جزراً ، وأنا لا ابلغه ريثاً ولا آلوه تغريقاً » . وما أريد أن أصدّق أن إنساناً يطلب المال كما يطلبه الهمذاني ويلقى في سبيل تحصيله ما يلقى من صعاب ومشاق ، يفرّقه بهذه السهولة ، ولكنى لا أشك في أنه كان يستخدم نفوذه فى سبيل مصالح الناس الى أبعد حدٍ مستطاع ، ويبذل شفاعته لكل من احتاج اليها . وفي رسائله العديدة التي يشفع فيها لدى أولياء

« ١ » يتيمة الدهر ج ٤ ص ١٦٧ طبعة دمشق .

الأمور للناس أفراداً وجماعات خير شاهد على ذلك "١" .

حـ ـ آثاره :

للهمذاني رسائل ومقامات وديوان شعر طبعت كلها وأعيد طبع بعضها . وأتحدث هنا عن رسائله ومقاماته على أن أتبع هذا طائفة من شعره دون درس ولا نقد ، لأني أدرسه وأؤرخه على أنه كاتب لا شاعر ، وإن كان شعره خليقاً بالنقد جديراً بالدرس لمتانته وجودته .

وأنت اذا تأملت رسائل المترجم رأيت أنها عبارة عن قصائد منثوره لاشتمالها على المديح والرثاء والعتاب والهجاء وغير ذلك من أبواب الشعر القديم . وهي من هذه الناحية تشبه رسائل الخوارزمى كما تشبهها في اصطناع السجع وايثار الازدواج دون اخلال بفصاحة اللفظ ومتانة التعبير وصفاء الديباجة على العموم . ولكنها تمتاز بكثرة الاستشهاد بالشعر والاتيان بالجمل المترادفة التي يشبه بعضها بعضاً ويغني بعضها عن بعض ، وبالزخرفة البيانية التي يعنى بها المترجم على اختلاف أنواعها عناية صادقة والتي يضحّي أحياناً فى سبيلها بسلامة أدائه وصفاء ديباجته وجلاء مقاصده وأغراضه كما في قوله عن العرب انهم « ألطى وألطف وأحصى وأحصف » . فان المعنى المعقول الوحيد الذى يمكن أن يحمل عليه قوله « ألطى » هو أنهم أكثر التجاءً الى الصخور والكهوف ، وهو مما لا يحسد عليه جيل من الناس . أما قوله انهم « أحصى » فانه منقوض بالبداهة اذا كان يعنى أنهم أعرف بالحساب وتدبير

« ١ » انظر رسائل الهمذاني ١٤٥ و ١٤٦ - ١٤٧ و ١٤٨ وغيرها .

أمور الدواوين . اذ من المعلوم أن العرب اعتمدوا في صدر دولتهم على الروم والفرس والقبط فى تدبير أمور الحساب . وأكبر ظنى أن الجناس وحده هو الذي حدا بالهمذاني الى تركيب هاتين الجملتين .

على أن في لغة الهمذاني وأسلوبه هنات أخرى لا بدَّ من مؤاخذته عليها . منها استعمال الألفاظ البذيئة التي لا يبيح الأدب استعمالها . وما أظن أنه كان سيء الأدب ولكنى أظن أن حدة مزاجه "١" هي التى كانت تدفعه الى استعمال هذه الألفاظ ، فلا يحتاط ولا يتحفظ . ومنها تحميل اللغة أكثر مما تستطيع ، أو قل غموضه الشديد في بعض الاحيان . ومن الأمثلة على ذلك قوله : « ورد للخوارزمى كتاب ينقلب فيه على جنب الحر . » "٢" وقوله : « احتكمنا الى الحجارة والتعبير نصف التجارة » "٣" وقوله : « أنا أخاطب الشيخ الإمام والكلام معجون والحديث شجون . » "٤" اذ ما معنى « ينقلب على جنب الحر » ؟ وما معنى « احتكمنا الى الحجارة والتعبير نصف التجارة » ؟ وما معنى « الكلام معجون » ؟ ! الواقع أن الهمذاني كان في غنىً عن أمثال هذه التعابير .

ومنها الامعان في تكلف السجع الى درجة تبعث على النفور والاشمئزاز . ومن الأمثلة على ذلك قوله : « مدَّ لها اللحظ فلم يحظ ، وهذا ابن عبَّاد شدَّ لها

« ١ » وصف الهمذاني نفسه في رسالة فقال انه « ناري المزاج ضعيف البنية يابس العظام حاد الطبع . » — رسائل الهمذاني ص ٩٨

« ٢ » رسائل الهمذاني ص ١٢٢ طبعة مطبعة هندية بمصر سنة ١٣٠٥ هـ .

« ٣ » المصدر نفسه ص ١٣٤ .

« ٤ » المصدر نفسه ص ١٥٣

الرحل فلم يحل » وقوله : « هذا والرحيل غدا وان رغم أنف أبي الدردا وقرت عيون الأعدا وعلا نمسي الصعدا وانطوى القلب على الدا » "١"

ولكن من الانصاف أن نقرر أن هذه الهنات قليلة فى آثاره ، وأنه فى الغالب فصيح اللغة نقي الديباجـــة متين التأليف . وهو كذلك في رسائله وفي أكثر مقاماته على حد سواء . وهاك من رســائله ومقاماته ما ينبي بتأييد هذا الزعم قال من رسالة يندد فيها بعيد من أعياد المجوس ويسخر بالعرب :

« نحن أطال الله بقاء الشيخ اذا تكلمنا في فضل العرب على العجم وعلى سائر الأمم أردنا بالفضل ما أحاطت به الجلود ولم تنكر أن تكون أمة أحسن من العرب ملابس وأنعم منها مطاعم وأكثر ذخائر وأبسط ممالك وأعمر مساكن ولكنا نقول : العرب أوفى وأوفر وأوقى وأوقر وأنكى وأنكر وأعلى وأعلم وأحلى وأحلم وأقوى وأقوم وأبلى وأبلغ وأشجى وأشجع وأسمى وأسمح وأعطى وأعطف وألطى والطف وأحصى وأحصف وأنقى وآنق ولا ينكر ذلك إلا وقح وتح ولا يجحده إلا نمل نمر . وإنما قدم الله تعالى ملك العجم ليحتج عليها وانما أخر ملك العرب ليحتج بها . » "٢" ومنها : « ان عيد الوقود لعيد إفك وان شعار النار لشعار شرك وما أنزل الله بالسدق "٣" سلطانا ولا شرَّف نيروزاً ولا مهرجاناً وانما صب الله سيوف العرب على

« ١ » رسائل الهمذاني طبعة مطبعة هندية ١٣١٥ هـ ص ٢٠٠

« ٢ » المصدر نفسه ص ٦٩ .

« ٣ » عيد السدق أحد أعياد الفرس الكبرى وهي النيروز والمهرجان وهو ، وقد اعتاد الفرس القدماء أن يشعلو فيه نيراناً كثيرة تقديساً لأسطورة من الاساطير .

فروق "١" العجم لما كره من أديانها وسخط من نيرانها واورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم حين مقت فعالهم . وان أنصف الشيخ الرئيس أيام الله لديه وجدها كلها أعياداً ضاحكة المباسم ظاهرة المواسم فلا وقدت نار المجوس والله ما أقول ذلك الا غيرةً على نعمته وشفقة على خطئه . » "٢" .

وقال من رسالة كتب بها الى أبي نصر بن المرزبان :

« كنت ـ أطال الله بقاء سيدى ومولاي ـ في قديم الزمان أتمنى للكتّاب الخير وأسأل الله أن يدر عليهم أخلاف الرزق ويمد لهم أكناف العيش ويوطئهم أعراف المجد ويؤتيهم أصناف الفضل ويركبهم أكتاف العز . وقصاراي أن أرغب الى الله تعالى فى أن لا ينيلهم فوق الكفاية ولا يمد لهم في حبل الرعاية . فشد ما يطغون للنعمة ينالونها والدرجة يعلونها وسرعان ما ينظرون من عال بما ينظمون من حال ويجمعون من مال وتنسيهم أيام اللدونه أوقات الخشونة وأزمان العذوبة ساعات الصعوبة . وللكتاب مزية في هذا الباب . فبينا هم في العطلة اخوان كما انتظم السمط ، وفي العزلة أعوان كما انفرج المشط ، حتى لحظهم الجدّ لحظة حمقاء بمنشور عمالة ، أو صك جعالة ، فيعود عامرودهم خرابا ، وينقلب شراب عهدهم سرابا . فما علت أمورهم حتى اسبلت ستورهم ، ولا غلت قدورهم الا خلت بدورهم . ولا اتسعت دورهم الا ضاقت صدورهم ، ولا أوقدت نارهم الا انطفأ نورهم ، ولا زاد مالهم الا نقص معروفهم ، ولا ورمت أكياسهم

« ١ » الفروق : جمع فرق ، وهو هنا وسط الرأس .

« ٢ » رسائل الهمذاني ص ١٧٠ طبعة مطبعة هندية سنة ١٣١٥ هـ .

إلا ورمت أنوفهم ، ولا تبلجت عتاقهم الا فظعت أخلاقهم ، ولا صلحت أحوالهم الا فسدت أفعالهم ، ولا حسنت حالهم الا قبحت خلالهم ، ولا فاض جاههم الا غاضت مياههم ، ولا لانت برودهم الا صلبت خدودهم ، ولا علت جدودهم الا سفل جودهم ، ولا طالت أيديهم الا قصرت أياديهم » "١" .

وقال يخاطب مستميحاً عاوده مراراً :

« عافاك الله ، مثل الانسان في الاحسان ، مثل الأشجار في الإثمار . سبيل من أتى بالحسنة أن يرفه الى السنة . وأنا كما ذكرت لا أملك عضوين من جسدي ، وهما فؤادي ويدي . أما الفؤاد فيعلق بالوفود ، وأما اليد فتولع بالجود ، ولكن هذا الخلق النفيس لا يساعده الكيس ، وهذا الطبع الكريم ليس يحتمله الغريم . ولا قرابة بين الأدب والذهب فلمَ جمعت بينهما . والأدب لا يمكن ثرده في قصعة ولا صرفة في ثمن سلعة . ولي مع الأدب نادرة : جهدت في هذه الأيام بالطباخ أن يطبخ من جيمية الشماخ لوناً فلم يفعل ، وبالقصاب أن يسمع أدب الكتاب فلم يقبل . واحتيج في البيت الى شيء من الزيت ، فأنشدت شيئاً من شعر الكميت ، ألفاً ومئتي بيت ، فلم يغن . ولو وقعت أرجوزة العجاج في توابل السكباج ما عدمتها عندي . ولكن ليست نقع ، فما أصنع ؟ ! فان كنت تحسب اختلافك إلي افضالا عليَّ ، فراحتي أن لا تطرق ساحتي ، وفرجي في أن لا تجيء . والسلام » "٢"

« ١ » رسائل الهمذاني طبعة مطبعة هندية سنة ١٣٥ هـ ص ٩٣ ـ ٩٤

« ٢ » المصدر نفسه ص ١٣٦

وقال في وصيته :

« أوصى اذا جاءه الحق وأشخصه الأمر وجدَّ به الجدَّ وتوفاه الموت ، أن لا تعقد عليه متاحة ولا يلطم خدّ ولا يخمش وجه ولا ينشر شعر ولا يمزَّق ثوب ولا يشق جيب ولا يهال تفع ولا يرفع صوت ولا يدعى ويل ولا يسوّد باب ولا يخرق متاع ولا يقلع غرس ولا يهدم بناء ولا يطرق الشيطان اليه طريقاً ولا يمثل له أمراً . فمن فعل ذلك فليس من الله تعالى في حل ولا من الميت في حل . وانما يفعل ذلك من لا يرى الحياة عارية ولا يرى العارية مردودة ومن علم أن الدنيا دار جهاز وأن الموت جسر جواز استشعره قبل حلوله ولم يرعه وقت نزوله . وأن يكفن في ثلاثة أثواب بيض قباطى لا سرف فيها . وحرج على من يتولى أمره أن يتمرنه ثوب خيلاء مطرّزاً أو معلماً أو إبريسماً أو منسوجاً بذهب انه لمحتاج أن يستكين ويتشبه بالمساكين . فمن بدّله بعد ما سمعه فانما إثمه على الذين يبدلونه . ان الله سميع عليم . وأن يتولى الصلاة عليه أصحاب الحديث وأهل السنة ، وأن يلحد ولا يبنى عليه . ولا تشهد النساء فيحملهن على الصراخ والعويل . » "١"

وكلام الهمذانى المختار في رسائله كثير ، أكتفي منه بهذا المقدار رغبة في الايجاز .

أما مقاماته فانها مجموعة حكايات كثرتها الكبرى في الكدية تتخللها نكت وطرائف أدبية وفوائد لغوية معظمها مرذول وقليل منها مقبول . وقد قلت

« ١ » رسائل الهمذاني طبعة مطبعة هندية ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩

لك عند الاشارة اليهـا بصدد اقامة المؤلف في نيسابور ان بطلها أبو الفتح الاسكندري وهو عندي أبو الفضل بديع الزمان الهمذاني نفسه . وأحسب أني اقمت البرهان على هذا عندما تحدثت اليك عن ايام الضيق والضنك التي مرت به في نيسابور وقلت لك ايضاً ان راويتها عيسى بن هشام وهو رجل خيالي نحله المؤلف اسم أستاذه الذي روى عنه الأخبار . والآن إليك هذه المقامة الموسومة بالقزوينية والتي يخيل إليّ أنها من اقل مقامات المؤلف خسّة وأولاها بالقبول ان صح هذا التعبير . قال :

« حدثنا عيسى بن هشام قال : غزوت الثغر بقزوين ، سنة خمس وسبعين ، في من غزاه . فما أجزنا حزناً ، الا هبطنا بطناً . حتى وقف المسير بنا على بعض قراها . فمالت الهاجرة بنا الى ظل اثلات في حجرتها عين كلسان الشمعة ، أصفى من الدمعة ، تسيح في ارضراض سيح النضناض . فملنا من الطعام ما نلنا ، ثم ملنا الى الظل فنمنا . فما ملكنا النوم حتى سمعنا صوتاً أنكر من صوت الحمار ، ورجعاً اضعف من رجع الحوار . يشبعها صوت طبل كأنه خارج من ماضغي أسد ، فذاد عن القوم رائد النوم . وفتحت التوأمتين اليه ، وقد حالت الأشجار دونه ، واصغيت فاذا هو يقول على ايقاع الطبول :

أدعو الى الله فهل من مجيب ... إلى ذرى رحبٍ ومرعى خصيب

وجنّة عالية ما تني ... قطوفها دانية ما تغيب

يا قوم أني رجل تائب ... من بلد الكفر وأمرى عجيب

إن أنا آمنت فكم ليلةٍ ... جحدت ربي وأتيت المريب

يارب خـــنزير تمششتـه ومسكر أحرزت منه النصيب
ثم هـداني الله وانتـاشني من ذلة الكفر اجتهاد المصيب
فظلت أخفي الدين في أسرتي وأعبـد الله بقلب منيب
أسجد للات حـذار العدى ولا أرى الكعبة خوف الرقيب
وأســأل الله اذا جنـني ليل وأضنـاني يوم عصيب
ربي كما انك أنقـذتني فنجّني ، إني فيهـم غريب
ثم اتخـذت الليل لي مركباً وما سوى العزم أمامي جنيب
فقدك من سـيري في ليـلة يكاد رأس الطفل فيها يشيب
حـتى اذا جزت بلاد العـدا الى حمى الدين نفضت الوجيب
فقلت اذ لاح شعار الهـدى نصر من الله وفتح قريب

فلما بلغَ هذا البيت قال : يا قوم وطئت داركم بعزم لا العشق شاقه ، ولا النقر ساقه . وقد تركت وراء ظهري حدائق وأعنابا وكواعب اترابا ، وخيلاً مسومة وقناطير مقنطرة ، وعدة وعديدا ومراكب وعبيـدا ، وخرجت خروج الحية من جحره وبرزت بروز الطائر من وكره ، مؤثراً ديني على دنياي ، جامعاً يمناي الى يسراي ، واصلاً سيري بسراي . فلو دفعتم النار بشرارهـا ، ورميتم الروم بحجارها واعنتموني على غزوها مساعدة واسعاداً ومرافدة وارفادا ، ولا شططت فكل على قدر قدرته وحسب ثروته ، ولا استكثرت البدرة واقبل الذرة ولا ارد التمرة ، ولكل منى سهام ، سهم اذلّقه للقاء ، وآخر افوقه بالدعاء وارشق به ابواب السماء عن قوس الظلماء . قال عيسى بن هشام : فاستغزني

رائع ألفاظه . ونظوت جلباب النوم وعدوت الى القوم . فاذا والله شيخنا أبو الفتح الاسكندري بسيف قد شهره وزيّ قد نكّره . فلما رآني غمز إليّ بعينه وقال . رحم الله من أحسن عشرته وملك نفسه وأعانتا بفاضل ذيله ، وقسم لنا من نيله . ثم أخذ ما أخذ . وخلوت به فقلت أ أنت من أولاد بنات الروم ؟ فقال :

أنا حالي مع الزما ن كحالي مع النسب
نسبي فى يد الزما ن إذا سامه انقلاب
أنا أمسي من النبيط وأضحي من العرب

شعره :

أما شعر الهمذاني فانه يشبه نثره من حيث مقاصده وأغراضه ، أعني أنه شخصي بحت يدور حول المديح والرثاء والهجاء والعتاب وما الى ذلك . ولكنه يقل عنه بعض الشيء من حيث لغته وأسلوبه . إليك منه هذه الارجوزة فى المديح :

يا آل عصم أنتم أولو العِصَم "١" لم توسموا إلا بنيران الكرم
طابت مبانيكم وطبتم لا جرم يا سادة السيف وأرباب القلم
تهمي سجاياكم بعقيان ودم أنتم فصاح ماخلا في لا ولم
الجار والعرض لديكم في حرم والمال للآمال نهب مقتسم
أنتم أسود المجد لا أسد الأجم يا سيداً نيط له بيت القدم
بالعمد الأطول والفرع الأشم هل لك أن تعقد فى بحر الشيم

« ١ » العصم : كعنب جمع عصمة وهي المنعة .

عارفة تضرم ناراً في علم ... ويقصر الشكر عليها ؟ قل نعم
أما وإنعامك إنه قسم ... وثغر مجدٍ عن معاليك ابتسم
إنك في الناس كبرء في سقم ... يا فرق ما بين الوجود والعدم
وبعد ما بين الموالي والخدم ... ما أحد كهاشم وإن هشم
ولا امرؤ كحاتم وإن حتم ... ليس الحدوث فى المعالي كالقدم

وهذه الأبيات في ذم الزمان :

قبحاً لهذا الزمان ما أربه ... في عمل لا يلوح لي سببه
ماذا عليه من الكرام فما ... تظهر إلا عليهم نوبه
ألم يجد فى سواهم سعة ... ممن يسوّى برأسه ذنبه
لا يعرف الضيف أين منزله ... ولا يرى المجد أين منقلبه
مالي أرى الحرّ ذاهباً دمه ... ولا أرى النذل ذاهباً ذهبه

وهذين البيتين في الزمن أيضاً :

إنما الدهر عدوّ ... ولمن أصغى نصيح
ولسان الدهر بالوعظ لواعيه فصيح

د ـ خاتمة :

اذا لم يخطيء ظنى فان الهمذاني أطول باعاً وأعلى كعباً من الخوارزمي في صناعة الانشاء . ولكن الخوارزمي أنفذ بصراً وأثبت يداً منه في معالجة القريض .

أما مقامات الهمذانى فانها جناية لا تغتفر على الأدب العربى ذلك انه خلق فيها

أدب الشحاذة خلقاً وأنشأه انشاءً . ولم يخل الأدب العربى من الشحاذة لسوء الحظ على السن الشعراء المدّاحين ولكنها ظهرت في هذة المرة بأبشع صورها واقبح اشكالها واخس طرقها واساليبها .

سامح الله الهمذانى ، فانه أساء الى الأدب بمقاماته اكثر مما أحسن بشعره ورسائله ؟

الفصل الثالث

الحريري

أ ـ حياته : اسمه ونسبه وكنيته ولقبه · مولده · نشأته وتعليمه · ما شغل من مناصب الحكومة · أقاويل الرواة في مقاماته · وفاته ·

ب ـ صفاته : ما ساء منها وما حسن ·

جـ ـ آثاره : مجمل القول فيها · مقاماته · راويتها · خاصته · بطلها · مميزاته · تنازعهما وتصافيهما · تقليدهما عيسى بن هشام وأبا الفتح الاسكندري · حظوة هذه المقامات الكبرى عند القدماء · أهليتها لهذه الحظوة · قيمتها بالقياس الى العصر الحديث · اشتمالها على معلومات أدبية وتأريخية واجتماعية مهمة ·

لغته وأسلوبه : مساوئهما · ميله الى استعمال الغريب · استعماله ألفاظاً في غير ما وضعت له نحته ألفاظاً على غير القياس · تنافر بعض كلامه وضعف تأليفه . فشله احياناً في استعمال المحسنات البيانية . محاسنه . فصاحته وجودة تأليفه على العموم · معرفته بموسيقى الجملة · خصائصها عنده · تأثره بالسّور المكّية من القرآن · ما يستحسن من مقاماته في هذا العصر · مُثل منها · المقامة الحرامية ·

د ـ خاتمة : الحريري والتأريخ ·

أ - حياته :

أما فارس حلبة المقامات الذي لا يشق له غبار فهو القاسم بن علي بن محمد ابن عثمان البصري الحرامي ، نسبة الى بنى حرام قوم من العرب . والمكنّى بأبي محمد ، ومحمد هذا كبير ولديه اللذين يشير اليهما ابن خلكان ، والملقب بالحريري نسبة الى بيع الحرير او صنعه .

ولد سنة ست واربعين وأربعمائة للهجرة في المشان (بفتح الميم) بليدة بقرب البصرة كثيرة النخل سيئة المناخ . ونشأ بالبصرة وفيها أخذ الأدب عن أبي القاسم الفضل بن محمد القَصَباني البصري . وكان صاحب الخبر"١" في ديوان الخلافة بالبصرة ، وقد احتفظ أولاده وأحفاده بهذا المنصب من بعده أجيالاً متعاقبة فيما يقول العماد في (الخريدة)

وتأريخ الرجل انما هو تأريخ مقاماته . إذ كل ما يتحدث به الرواة عنه أو جلّه لا يعدو ان يكون اجابة عن أحد هذه الاسئلة الثلاث ، لمن كتبت المقامات : ومن راويتها الحارث بن همّام : ومَن بطلها أبو زيد السروجي : ... وقد فصّل ابن خلكان في الاجابة عن السؤال الاول ، إذ قال لنا انه اطلع في القاهرة على نسخة من المقامات كتبت بخط المؤلف نفسه مكتوب على ظهرها بخط المؤلف أيضاً « انه صنفها للوزير جمال الدين عميد الدولة أبي علي الحسن بن أبي العز عليّ بن صدقة وزير المسترشد »"٢" ، وبهذا لم يبق محل

« ١ » هكذا في معجم الأدباء . ولم أجد تفسيراً شافياً لهذه الجملة . بيد أنه من المحتمل أن يكون « صاحب الخبر » مدير قلم الاستخبارات في زماننا أو من يشبهه .

« ٢ » وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٢٠

للنظر في هذه الروايات العديدة المتضاربة التي تتحدث عن صلة المقامات الموهومة بشرف الدين أنوشروان وزير المسترشد أو السلطان مسعود السلجوقي وفصل ابن خلكان كذلك في الاجابة عن السؤال الثاني فقال ان الحارث ابن همام هو الحريري نفسه . وأضاف الى ذلك ان هذه التسمية مأخوذة من قول النبي (ع س) « كلكم حارث وكلكم همّام » أي كلكم كاسب وكلكم شديد الاهتمام بأمور معيشته ، لأن الحارث هو الكاسب والهمّام هو الرجل الكثير الاهتمام بما يعنيه"[١] .

أما أبو زيد السروجي فان الرواة يختلفون في أمره . فمنهم من يزعم انه شحّاذ فصيح دخل مسجد بني حرام في البصرة وزعم ان الروم أسروا ولداً له ، وسأل الناس فديته ، فسألوه عن كنيته ، فقال انه يكنى أبا زيد ، وعن بلده ، فقال انه سروج . ومنهم من يزعم انه تلميذ من تلاميذ الحريري اسمه المطهر ابن سلام في رواية ابن خلكان ، وسلام « بالتشديد » في رواية ياقوت . وتذهب هذه الرواية الى أبعد من هذا فتقول ؟ ان المطهر هذا شرب الخمر ذات يوم وبلغ أستاذه الحريري خبره فكتب اليه :

أبا زيد اعلم أن من شرب الطلا ... تدنّس ، فافهم سرّ قولي المهذّب
ومن قبل سمّيت المطهّر ، والفتى ... يصدّق بالأفعال تسمية الأب
فلا تحسها كيما تكون مطهّراً ... وإلا فغيّر ذلك الاسم واشرب

وتقول هذه الرواية إن الأبيات المذكورة فعلت فعلها في نفس المطهر . فجاء

« ١ » وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٢٠

الى استاذه حافياً وبيده مصحف فأقسم به ان لا يعود الى شرب مسكر فقال له الحريري : « ولا تحاضر من يشرب »«١» .

وأحسب ان تناقض هاتين الروايتين المتعلقتين بأبي زيد السروجي يشعر بأنهما مكذوبتان ، وأن أبا زيد رجل خيالي لا وجود له . ومما يقوّي هذا الظن سكوت الحريري عنه في مقدمة مقاماته سكوتاً تاماً .

وليس هذا كل ما لفق حول المقامات من الكذب . بل ان هناك أكذوبة اخرى تناقلها الرواة على انها حقيقة واقعة ، خلاصتها : ان الحريري كتب في البصرة عشر مقامات ، وقيل أربعين مقامة ، وقدم بها بغداد . فلما عرضها على أدبائها وذوى الفضل فيها شكوا في نسبتها اليه . فقالوا مرة انها من صنع رجل مغربي من اهل الفضل مات في البصرة واستولى الحريري على أوراقه . وقالوا تارة : انه ، اى الحريري وجد هذه المقامات في حقيبة اشتراها من عصابة أخذتها فيما أخذت من بعض المسافرين . وكان من نتائج هذا التشكك بدعوى الحريري أن امتحن في صناعة الانشاء ففشل في الامتحان وان شاعراً يعرف بابن جكينا هجا الحريري بسبب فشله فقال :

شيخ لنا من ربيعة الفَرَس «٢» ينتف عثنونه من الهوس
أنطقه الله بالمشان كما رماه وسط الديوان بالخرس

وأنت اذا رجعت الى خطبة المقامات رأيت ان الحريري يقول : إن مشبراً

« ١ » معجم الأدباء ج ١٦ ص ٢٧٢ طبعة مصر .

« ٢ » كان الحريري ينتسب الى ربيعة القبيلة المشهورة ، ويظهر ان هذا أمر مشكوك فيه عند الرواة .

« إشارته حكم وطاعته غنم » أشار عليه بانشاء مقامات يتلو فيها تلو البديع ومعنى هذا ان المقامات اقترحت عليه اقتراحاً ، وانه لم يتقدم بصنع شيء منها من تلقاء نفسه ، وان الذى اقترحها عليه رجل نافذ الكلمة مسموع الاشارة ، وهذا الرجل هو بالطبع جمال الدين الذى تقدم ذكره . وواضح ان هذا يناقض الاكذوبة التى تقدمت خلاصتها مناقضة تامة .

وتوفى المترجم عام ٥١٦ للهجرة .

ب - صفاته :

يتحدث الرواة عن صفات المترجم فيقولون : انه بخيل قصير القامة دميم المنظر قذر الملبس رثّ الهيئة . وهم يحدثوننا ان رجلاً سمع بفضله ولم يعرفه عن كثب جلس الية ذات يوم ليأخذ عنه ، فلما رآه استصغره وازدرى هيئته ومنظره . وشعر الحريرى بدبيب هذا الشعور في نفسه ، فلما استملاه أملى عليه هذين البيتين :

ما أنت أول سار غرَّه قمر ... ورائد أعجبته خضرة الدمن

فاختر لنفسك غيرى إنني رجل ... مثل المعيديّ ، فاسمع بي ولا ترني

فخجل الرجل وقام . وليس ما تقدم من عيوب الحريرى كل ما ابتلاه الله به ، بل انه كان مبتليً بنتف عثنونه . وقد زعموا أن أحد ولاة البصرة نهاه عن هذا وتوعده عليه ، فامتنع عن إتيانه مدة من الزمن ، ولكنه فاه عنده ذات يوم بكلام بليغ أعجب به اعجاباً شديداً فسأله حاجة يقضيها له تقديراً لذلك الكلام فما كان منه إلا ان سأله الاذن له بنتف لحيته ، فضحك

وأذن له .

ولكن أليس الى جانب هذه المساوىء محاسن ترفع من قدر الرجل وتعلي منزلته ؟ ؟ بلى انه لذكي القلب متوقد الذهن واسع الخيال خصب القريحة كثير الحفظ غزير الاطلاع . وفي آثاره عامة ومقاماته خاصة ادلة لا تنقض على صحة جميع هذه الأقوال .

٥ ـ آثاره .

للحريري آثار عدة منها « درّة الغوّاص في أوهام الخواص » وهو كتاب نبّه فيه الى كثير من الأغلاط اللغوية التي يرتكبها حملة الأقلام من معاصريه . ومنها منظومة في النحو اسمها (مُلحة الإعراب) ، ومنها ديوان شعر يحتوي على غير ما ورد في المقامات من شعره . وخير آثاره دون شك وأكبرها شأناً وأشيعها ذكراً مقاماته التي تناقلها الناس في مشارق العالم الاسلامي ومغاربه وتدارسوها جيلاً بعد جيل . وهي عبارة عن مجموعة أقاصيص تقصر غالباً وتطول احياناً يرويها الحارث بن همّام عن أبي زيد السروجي ، كما يروي عيسى ابن هشام مقامات الهمذاني عن أبي الفتح الاسكندري . فأما الحارث بن همام فهو رحّالة يجوب البلاد ويطوف الآفاق متّجراً مرة ومتنزّهاً تارة . وأما أبو زيد السروجي فانه شحاذ كثير الطمع شديد الجشع"١" ، إلا أنه فصيح اللسان قوي الجنان واسع الحيلة ، وهو يفتنّ في الكدية افتناناً ويستنبط منها ضروباً وألواناً فيسلك اليها مرة طريق الوعظ ويتذرع لها حيناً بنشر الفوائد

« ١ » تستثني المقامتان النصيبية والفراتية من هذا الحكم .

وتقييد الشوارد في الأدب واللغة ، ويتوصل اليها حيناً عن طريق مخاصمته زوجته وبيعه أحد اولاده وربما ندب زوجته للقيام بها نيابة عنه . ولعل أغرب ما توصل به أبو زيد الى المال حراسة القوافل من أذى اللصوص وشر قطاع الطرق ، ولكن بأية وسيلة ؟ ! . بانشاء الدعوات وتلاوة الصلوات .

والحارث ابن هام يعاتب أبا زيد على كثير من أقواله وأعماله ويؤنبه على اقتناص المال بالمكر والحيلة ولكنه ينتهي معه دائماً او غالباً الى صلح ، بل والى صداقة وإعجاب . وأبو زيد في عمله وأدبه وشحاذته ودناءته ولصوصيته صورة صادقة من أبي الفتح الاسكندرى ، كذلك الحارث بن هام في كثرة أسفاره وطول تجواله وضعف ذاكرته وبلادة طبعه"١" صورة صادقة أيضاً من عيسى بن هشام . بيد ان أبا زيد يختم حياته بتوبة صادقة تغسل عاره وتحط عنه أوزاره بينما يستمر أبو الفتح الاسكندرى في ارتكاب جرائمه وآثامه حتى الموت .

وقد رزقت مقامات الحريرى حظوة كبرى فتناقلها الناس في حياة المؤلف وبعد مماته وتدارسوها بعنايةٍ واتقان .

قال جابر بن هبة الله : قرأت على الحريرى مقاماته سنة أربع عشرة وخمسمائة فلما انتهيت الى قوله في المقامة الكوفية :

يا أهل ذا المغنى وقيتم شرا ولا لقيتم ما بقيتم ضرا

---

١ » يستحق الحارث بن هام أن يوصف بضعف الذاكرة وبلادة الطبع لأنه لا يعرف أبا زيد عندما يلتقي به الا بعد جهد ومشقة على كثرة ما يلتقي به وعذره — ان كان له في هذا عذر — هو انه مضطر الى ان يعيد الى الأذهان أبا الفتح الاسكندري في كل ما له من محاسن ومساوىء .

قد دفع الليل الذى اكفهرا إلى ذراكم شعثاً مغبرا

وضعت سهواً (سغباً معترا) مكان (شعثاً مغبرا) . فصمت الحريري برهة ثم قال والله لقد أجدت في التصحيف فانه أجود . فرب شعث مغبر غير محتاج ، والسغب المعتر موضع الحاجة . ولولا أني قد كتبت خطي الى هذا اليوم على سبعمائة نسخة قرئت عليَّ لغيّرتَ الشعث بالسغب والمغبر بالمعتر . »"١"

وقيل لعلي بن الحسن الشميمي الحلي أحد كبار القرن السادس عشر للهجرة وأدبائه ، وكان كثير الاعجاب بنفسه شديد الاعتداد بفضله وأدبه : « لم لا تجاري الحريري بمقامات تحمل بها ذكره وتقضي على شهرته ؟ » فقال : « لقد جربت هذا ثلاث مرات فغشلت ، وما أظن أن الله خلقني إلا لاظهار فضل الحريري » "٢" .

وليس هذا كل شيء ، فقد عني العلماء بشرح هذه المقامات فشرحوها شروحاً لا تحصى بعضها مطول و بعضها مختصر أهمها شروح الشريشي والعكبري والزبيدي . وجاراها فريق كبير من حملة الأقلام أشهرهم الزمخشرى الذى حلف بالله أنها حرية أن تكتب بالذهب "٣" ، والشيخ ناصيف اليازجي وأبو الثناء الألوسي .

« ١ » معجم الأدباء ج ١٦ ص ٢٦٦ طبعة مصر .

« ٢ » المصدر نفسه ص ٢٦٧ .

« ٣ » فعل الزمخشري هذا في أبيات هذه هي :

أقسم بالله وآياته ومشعر الحج وميقاته
أن الحريري حري بأن نكتب بالتبر مقاماته
معجزة تعجز كل الورى ولو سروا في ضوء مشكاته

ولكن ، أكانت هذه المقامات أهلاً لهذه الحظوة ؟!

كان القدماء منذ القرن الخامس للهجرة ، وهو بداية انحطاط في تاريخ الأدب العربي ، يريدون من الكاتب أن يكون فصيح اللفظ متين التعبير ماهراً في استعمال المحسنات البيانية جيد الحفظ لمتن اللغة . وكانوا يفهمون الأدب على أنه وسيلة حسنة لترويح النفس وتزجية الفراغ لما فيه من نكت وحكايات ونوادر . وليس من شك في أن الحريري جهبذ من جهابذة اللغة وإمام من أئمة الانشاء ، يعرف كيف يلعب بالألفاظ وكيف يحمل القارىء على الاعجاب بمهارته الفائقة في الانشاء وعلمه الواسع باللغة . هذا الى أن بطله أبا زيد مثل في غرابة النادرة وبراعة النكتة . وإذن فلا عجب أن تكون مقاماته متعة القارىء وبغية الباحث وضالّة المتأدب يقرأها الجميع فيجدون فيها ما يطلبون ويظفرون منها بما يشتهون .

بقي ان نسأل ما قيمة هذه المقامات بالقياس إلينا نحن أبناء هذا القرن ؟

الواقع أنها تحتوي على معلومات أدبية واجتماعية وتأريخية كثيرة لا يستغني عن معرفتها مؤرخ الأدب العربي في القرنين الخامس والسادس للهجرة . فأنت تفهم من المقامة المغربية مثلاً كيف يتحلّق الشيوخ بعد فراغهم من الصلوات وكيف يتناجون وفي ماذا يتناجون . وتفهم من المقامة القطيعية[١] كيف يخرج ظرفاء بغداد في أيام الربيع الى أرباض مدينتهم . وكيف يستمتعون بلذات الشراب والسماع وكيف يتحادثون ، وفي ماذا يتحادثون اثناء ذلك .

« ١ » نسبة الى « قطيعة الربيع » محلة معروفة في بغداد .

وتعلم من المقامة الواسطية كيف كانت تقام حفلات الزواج وكيف تلقى خطب النكاح فى ذلك العصر ، بل تعلم منها أن (البنج) الذى يظن كثير من الناس أنه من مستحدثات هذا العصر كان معروفاً باسمه ومسمّاه على عهد المؤلف . وتعلم من المقامة الدمشقية أن ولاة الأمور في أيام الحريرى كانوا عاجزين عن تأمين السبل وحماية القوافل التي تقطع الصحراء بين دمشق وبغداد ، وأن هذه القوافل كانت تسير بحراسة زعماء القبائل نظير جعل تدفعه لهم . وتعلم من المقامة الصنعانية[١] أن الوعّاظ في ذلك الزمان أو فريقاً منهم على الأقل يحتالون على الناس فيحثونهم على الزهد ويدعونهم الى التقشف والنسك ، ولكنهم يفعلون في خلواتهم كل ما ينكرون ، ويستبيحون كل ما يحرمون ، وهكذا .

وتحتوى كذلك . أى المقامات — على لطائف وطرائف وفوائد أدبية ولغوية كثيرة .

لغته وأسلوبه :

وتسألني رأيي في لغة الحريرى وأسلوبه ، فأقول لك : إنهما على جانب كبير من الجمال والروعة . وليس معنى هذا أنهما مبرءان من كل عيب منزهان عن كل نقص كما كان يظن القدماء . كلا فأنت تجد في ثنايا مقاماته الالفظ الغريب الذى يمجه السمع وينفر منه الطبع كما في قوله « يايلا مع القاع ويرامع البقاع »[٢] . أى يا أشباه السراب وأمثال الحجارة البيضاء . وكما في قوله : « ثم انه جلس

« ١ » نسبة الى صنعاء وهو اشتقاق على غير قياس .

« ٢ » مقامات الحريري ص ١٩٦ طبعة مصر سنة ١٩٢٥ .

مُحْقَوْقِفاً واجْرَنْثَم مُقفَنْفِفاً "١" ، أي جلس منحنياً منضماً بعضه الى بعض . وتجد فيها اللفظ المستعمل فى غير ما وضع له كما في قوله : « فلما خشعت الأصوات والتأم الانصات »«٢» فكلمة (التأم) وهي تعني (اجتمع) مستعملة هنا فى غير ما وضعت له ، ولو استعمل الحريري مكانها كلمة (تمّ) لصحّت جملته وكانت وافية بالغرض . وكما في قوله : « فعجت إليه لأسبك سرّ جوهره »«٣» ، فكلمة (أسبك) مستعملة هنا في غير ما وضعت له ، وكان الصواب أن تحل محلها كلمة (لأتبين) أو (لأجتلي) وكما فى قوله : « فسولت لي النفس المُضلة والشهوة المُذلة المزلة أن نادمت الأبطال وعاطيت الأرطال »"٤" فكلمة (أبطال) مستعملة هنا فى غير ماوضعت له ، لأن النديم يوصف بالظرف ورقة الحديث وجمال العشرة ولا يوصف بالبطولة . بل تجد فيها اللفظ المنحوت على غير قياس كما فى قوله : « فعجتُ الى سرحة كثيفة الأغصان وريقة الأفنان لأغور تحتها الى المغيربان "٥" فكلمة (مغيربان) تصغير للمغرب على غير قياس ، هذا فضلاً عن أن (القيلولة) وهي المقصودة بقوله (لأغوّر) لا تدوم الى المغرب عادة . وتجد فيها الكلام المتنافر الضعيف التأليف كما في قوله : «أما بعد أن سحقتم حقي لأجل سحقي» "٦" يريد أما بعد أن غمطتم حقي ورمتم سحقي . وتجد فيها الاستعارة غير الموفقة

« ١ » مقامات الحريري ص ٣٥٣ طبعة مصر سنة ١٩٢٥

« ٢ » المصدر نفسه ص ٢٠٣

« ٣ » المصدر نفسه ص ٣٨٤

« ٤ » المصدر نفسه ص ٥٦٣

« ٥ » المصدر نفسه ص ٢٧٣

« ٦ » المصدر نفسه ص ٢١٨

كما في قوله : « وهم يتعاطون كأس المنافثة »[١] ولو وضع (محادثة) موضع (منافثة) لحسنت الاستعارة واستقامت الجملة . وهناك مواطن ضعف أخرى كثيرة في هذه المقامات وليس من الضروري احصاؤها جميعاً .

ولكنك تستطيع ان تقرر رغم كل ذلك أن الحريرى على العموم ، بل في الكثرة الكبرى من مقاماته منشىء فصيح اللفظ شديد الأسر حسن التأليف بديع الجرس يجيد اختيار الألفاظ وتأليفها وهندسة الجمل وتقطيعها . بل لعلي أستطيع أن أزعم أنه من أعرف كتاب العرب القدماء بالجملة الموسيقية ، وهي عنده قصيرة محكمة السبك لا يتجاوز عدد كلماتها الخمس ، شديدة الشبه بما قبلها وما بعدها . ويخيل إليَّ أن الحريري من هذه الناحية عظيم التأثر بالسور المكية من القرآن حيث يغلب السجع ويراعى الازدواج مراعاةً كاملة ، وحيث تتألف الآية الواحدة من أصغر عدد ممكن من الكلمات ، كما في قوله تعالى : (بسم) « والضحى ، والليل إذا سجى ، ما ودَّعك ربك وما قلى » وكما في قوله (بسم) « الرحمن ، علَّم القرآن ، خلق الانسان ، علَّمه البيان » .

ولقد كانت هذه المقامات كلها خلال تسعة قرون تقريباً المثل الأعلى في بداعة الأداء وبراعة الانشاء وفي ظرافة المبنى ورشاقة المعنى . أما اليوم فقد فقدَ أكثرها هذه المنزلة ، ولم يعد لها سوى قيمة تأريخية صرف . بيد أنه من الحق ان نلاحظ أنه لا يزال بينها عدد يسير تلذ قراءته وتفيد دراسته . من هذا القبيل المقامات الفراتية والنصيبية والبكرية والبصرية والحرامية . وأروي

« ١ » مقامات الحريري ص ١٥٠ طبعة مصر سنة ١٩٢٥

لك فيما يلي هذه الأخيرة على سبيل المثال ، لأنها في ظني خير ما تحسن روايته من هذه المقامات قال الحريرى .

« روى الحرث بن همّام عن أبي زيد السروجي قال : مازلت مذ رحلت عنسي ، وارتحلت عن عرسي وغرسي ، أحن الى عيان البصرة ، حنين المظلوم الى النصرة ، لما اجتمع عليه أرباب الدراية ، وأصحاب الرواية ، من خصائص معالمها وعلمائها ، ومآثر مشاهدها وشهدائها ، وأسأل الله أن يوطئنى ثراها ، لأفوز بمراها ، وأن يمطينى قراها "١" . لأفتري قراها "٢" ، فلما أحلنيها الحظ ، وسرح لي فيها اللحظ .

رأيت بها ما يملأ العين قرةً ويسلي عن الأوطان كل غريب

فغلّست "٣" في بعض الأيام ، حين نصل خضاب الظلام وهتف أبو المنذر "٤" بالنوّام ، لأخطو فى خططها ، وأقضي الوطر من توسطها ، فأدّاني الاختراق في مسالكها ، والانصلات في سككها ، الى محلة موسومة بالاحترام منسوبة الى بنى حرام ، ذات مساجد مشهودة ، وحياض موروده ، ومبان وثيقة ، ومغان أنيقة ، وخصائص أثيرة ، ومزايا كثيرة .

بها ما شئت من دين ودنيا وجيران تنافوا فى المعاني

« ١ » قراها : ظهرها .

« ٢ » أفتري « هنا » : اتبع . وقرى : جمع قرية .

« ٣ » غلس : خرج في الغلس وهو آخر ظلمة الليل .

« ٤ » أبو المنذر : كنية الديك .

فمشغوف بآيات المثاني ومفتون برنّات المثاني"١"
ومضطلع بتلخيص المعاني ومطّلع إلى تخليص عانِ
وكم من قاريء فيها وقار أضرّا بالجفون وبالجفان"٢"
وكم من معلّمٍ للعلم فيها ونادٍ للندى حلو المجاني
ومغنىً لا تزال تُغنّ فيه أغاريد الغواني والأغاني"٣"
فصل إن شئت فيها من يصلّي وإما شئت فادنُ من الدنانِ
ودونك صحبة الأكياس فيها أو الكاسات منطلق العنانِ

قال فبينما أنا أنفض "٤" طرقها، واستشفّ رونقها، إذ لمحت عند دلوك براح "٥"، وإظلال الرواح "٦"، مسجداً مشتهراً بطرائفه، مزدهراً بطوائفه، وقد أجرى أهله ذكر حروف البدل، وجروا فى حلبة الجدل، فعجت نحوهم، لاستمطر نوءهم، لا لأقتبس نحوهم، فلم يك إلا كقبسة العجلان "٧"، حتى ارتفعت الأصوات بالأذان، ثم رفّ التأذين بروز الإمام، فأغمدت ظبى

« ١ » المقصود « بمثاني » الأولى : سورة الفاتحة أو مادون المئتي آية من القرآن و « بمثاني » الثانية ما فتل من أوتار العود على قوتين وفي القاموس المثاني : من أوتار العود الذي بعد الاول .

« ٢ » قار : مضيف .

« ٣ » تغن : أي تسمع من الغنة وهي الصوت من الخيشوم .

« ٤ » انفض طرقها : أتتبعها .

« ٥ » دلوك الشمس : دنوها الى الغروب وبراح : كحذام علم على الشمس .

« ٦ » اظلال الرواح : مجيء العشي .

« ٧ » قبسة العجلان : مثل في السرعة .

الكلام ، وحلّت الحُبى «١» للقيام ، وشغلنا بالقنوت ، عن استمداد القوت ، وبالسجود ، عن استنزال الجود ، ولما قضي الفرض ، وكاد الجمع ينفض ، انبرى من الجماعة ، كهل حلو البراعة ، له مع السمت الحسن ، ذلاقة اللسن ، وفصاحة الحسن « » ، وقال يا جيرتي ، الذين اصطفيتهم على أغصان شجرتي ، وجعلت خطّتهم دار هجرتي ، واتخذتهم كرشي وعيبتي «٣» وأعددتهم لمحضري وغيبتي أما تعلمون أن لبوس الصدق أبهى الملابس الماخرة ، وأن فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة ، وأن الدين إمحاض النصيحة ، والإرشاد عنوان العقيدة الصحيحة ، وأن المستشار مؤتمن ، والمسترشد بالنصح قمن ، وأن أخاك هو الذي عذلك ، لا الذي عذرك ، وصديقك من صدقك ، لا من صدّقك ، فقال له الحاضرون أيها الخل الودود ، والخدن المودود ، ما سرّ كلامك الملغز ، وما شرح خطابك الموجز ، وما الذي تبغية منا لينجز ، فو الذي حبانا بمحبتك ، وجعلنا من صفوة أحبتك ، ما نألوك نصحاً ، ولا ندّخر عنك نضحا «٤» ، فقال جزيتم خيرا ، ووقيتم ضيرا ، فانكم ممن لا يشقى بهم جليس ، ولا يصدر عنهم تليس ، ولا يخيّب فيهم مظنون ، ولا يطوى دونهم مكنون ، وسأبثكم ما حاك «٥» في صدري ، وأستفتيكم فيما عيل فيه صبري ، إعلموا أني كنت عند صلود

« ١ » الحبى : جمع حبوة وهي جمع الرجل بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها .

« ٢ » المراد بالحسن هنا : الحسن البصري .

« ٣ » كرشي وعيبتي ؛ أي أهلي ومحل سري .

« ٤ » نضحاً : أي عطاء .

« ٥ » حاك في صدره : أثر وثبت فيه .

الزند[١] وصدود الجد . أخلصت مع الله نية العقد ، وأعطيته صفقة العهد ، على أن لا أسبأ[٢] مداما ، ولا أعاقر ندامى ، ولا أحتسي قهوة ولا أكتسي نشوة[٣] ، فسولت لي النفس المضلّة ، والشهوة المذلّة المزلة ، أن نامت الأبطال[٤] ، وعاطيت الأرطال[٥] ، وأضعت الوقار ، وارتضعت العقار ، وامتطيت مطا الكميت[٦] ، وتناسيت التوبة تناسي الميت ، ثم لم أقنع بهاتيكم المرّة ، في طاعة أبي مُرّة ، حتى عكفت على الخندريس ، في يوم الخميس وبتّ صريع الصهباء ، في الليلة الغرّاء[٧] ، وها أنا بادي الكآبة ، لرفض الإنابة ، نامي الندامة . لوصل المدامة ، شديد الاشفاق . من نقض الميثاق ، معترف الاسراف . في عبّ[٨] السلاف .

فيا قوم هل كتمارة تعرفونها تباعد من ذنبي وتدني إلى ربي

قال أبو زيد : فلما حلّ أنشوطة نفثه[٩] . وقضى الوطر من اشتكاء بثه .

« ١ » صلود الزند : عدم خروج النار منه مع القدح ، ويستعمل كناية عن الفقر .

« ٢ » أسبأ مداماً : أشتري خمراً ، ومنه سميت المدام سبيئة .

« ٣ » يقول شراح المقامات في تفسير هذه الجملة : لا أكتسي نشوة ، اي لا اتلبس بسكر . وعندي ان هذا تعسف في التفسير والتأويل ، والصواب ان كلمة اكتسي مستعملة هنا في غير ما وضعت له .

« ٤ » سبق أن نبهت الى ان كلمة « ابطال » مستعملة هنا استعمالا غير صحيح .

« ٥ » الأرطال هنا : الأقداح .

« ٦ » المطا : الظهر ، والكميت : من اسماء الخمر .

« ٧ » الليلة الغراء : أي الليلة البيضاء وهي ليلة الجمعة وقد سميت بذلك لما لها من الفضل .

« ٨ » العب : الشرب بلا تنفس او بغير مص .

« ٩ » الأنشوطة : العقدة غير المحكمة .

ناجتني نفسي : يا أبا زيد . هذه نهزة صيد . فشمّر عن يدٍ وأيد [١] . فانتهضت من مجثمي انتهاض الشهم [٢] . وانخرطت من الصف انخراط السهم . وقلت :

أيها الأروع الذي ... فاق مجداً وسؤددا
والذي يبتغي الرشا ... د لينجو به غدا
إن عندي علاج ما ... بتّ منه مسهّدا
فاستمعها عجيبةً ... غادرتني ملدّدا [٣]
أنا من ساكني سرو ... ج ذوي الدين والهدى
كنت ذا ثروة بها ... ومطاعاً مسوّداً
مربعي مألف الضيو ... ف ومالي لهم سدى
أشتري الحمد باللهى ... وأقي العرض بالجدا
لا أبالي بمنفسٍ ... طاح في البذل والندى
أوقد النار باليفا ... ع اذا النكس أخمدا
ويراني المؤمّلو ... ن ملاذاً ومقصدا
لم يشم بارقي صدٍ ... فانثنى يشتكي الصدا
لا ولا رام قابس ... قدح زندي فأصلدا
طالما ساعد الزما ... ن فأصبحت مسعدا
فقضى الله أن ... يغيّر ما كان عوّدا

« ١ » الأيد : القوة

« ٢ » الشهم : الذكي الحديد الفؤاد

« ٣ » ملدداً : مستعملا لديدي وهما صفحتا العنق ، اي متلفتاً يميناً وشمالا من الخوف

بوَّأ الروم أرضنا بعد ضغنٍ تولَّدا
فاستباحوا حريم من صادفوه موحّدا
وحووا كل ما استسرّ بها لي وما بدا
فتطوَّحت في البلا د طريداً مشرَّدا
أجتدي الناس بعد ما كنت من قبل مجتدى
وترى بى خصاصة أتمنى لها الردى
والبلاء الذي به شمل أنسى تبدّدا
استباء ابنتي التي أسروها لتفتدى
فاستبن محنتي ومُدَّ إلى نصرتى يدا
وأجرنى من الزما ن فقد جار واعتدى
وأعَنّي على فكا ك ابنتي من يد العدا
فبذا تمحي المآ ثم عمَّن تمرّدا
وبه تقبل الإنا بة ممن تزهَّدا
وهو كفّارة لمن زاغ من بعد ما اهتدى
ولئن قمت منشداً فلقد فهت مرشدا
فاقبل النصح والهدا ية واشكر لمن هدى
واسمح الآن بالذي يتسنى لتحمدا

قال أبو زيد فلما أتممت هذرمتي[1] ، واوهمَ المسؤول صدق كلمتي ، أغراه

« ١ » الكلام الكثير غير المفهوم

القرم"١" الى الكرم بمواساتي ، ورغّبه الكلف بحمل الكُلف في مقاساتي ، فرضخ لي على الحائرة"٢" ، ونضخ"٣" لي بالعدة الوافرة ، فانتملت الى وكري فرحاً بنجح مكري ، وقد حصلت من صوغ المكيدة ، على سوغ الثريدة ، ووصلت من حوك القصيدة ، إلى لوك العصيدة قال الحرث بن همام فتملت له سبحان من أبدعك ، فما أعظم خدعك ، وأخبث بدعك ، فاستغرب"٤" فى الضحك ثم أنشد دون مرتبك :

عش بالخداع فأنت في ... دهر بنوه كأسد بيشه"٥"
وأدر قناة المكر حتى تستدير رحى المعيشة
وصيد النشور فان تعذّر صيدها فاقنع بريشه
واجن الثمار فان تمنك فرصّ نمسك بالحشيشه
وأرح فؤادك إن نبا ... دهر من العكر المطيشه
فتغاير الأحداث يؤذن باستحالة كل عيشه

د - فائدة :

ليس هناك شك فى أن نجم الحريري قد أفل الآن ، وأن أحداً لا يسترشد به اليوم في سبل البيان ومذاهب الانشاء . ولكن من العدل أن لا ننسى أن نجمه بقي ساطعاً في سماء الأدب العربي نحواً من تسعة قرون .

« ١ » القرم : شهوة اللحم ، والمراد به هنا حب الجود وأحسب أنه اسراف في التجوز .
« ٢ » رضخ لي : أعطاني عطاء قليلا . على الخ فرة : أي في أول الأمر .
« ٣ » نضخ : فاض ، يقول : ووعدني بالعطاء الجم .
« ٤ » استغرب في الضحك : أفرط وتجاوز الحد فيه .
« ٥ » بيشه : مأسدة قيل انها في اليمن .

الباب الثالث

فى شعراء القرن الثانى للهجرة

تمهيد في الشعر العباسي وتأثره بالشعر الجاهلي

قلت لك فى مستهل هذا الكتاب إن الكتاب العباسيين من حيث مذاهبهم في الكتابة وأساليبهم فى الاداء عيال على القرآن عنه أخذوا وبه تخرجوا وأقول لك الآن إن الشعراء العباسيين من حيث مذاهبهم في النظم وبالأضافة إلى كثير من مقاصدهم وأغراضهم عيال على الشعر الجاهلي به يتأثرون وعلى منواله ينسجون . وإثبات هذا أمر غير عسير فأنت تستطيع أن ترجع الى ديوان أي شاعر عباسي لتتبين أنه يقول القصيدة على روي واحد وفي عروض واحد ويتطرق فيها إلى المواضيع المختلفة التي لا صلة بينها مطلقاً فمن نسيب إلى فخر الى مديح إلى غير ذلك مما هو معروف وهو يفعل هذا كله متأثراً بطريقة امرىء القيس وغيره من الشعراء الجاهليين في تأليف القصيدة وحشر المقاصد والأغراض فى طياتها حشراً . وليس هذا كل شيء بل إنه كثيراً ما ينتحل أخيلة أولئك الشعراء وخواطرهم فى بكاء الأطلال ورثاء الديار ووصف حل الأحباب وترحالهم وظعنهم وإقامتهم وفي تصوير كرم الممدوح وشممه وشجاعته وبراعته وصراحته وفصاحته . ومع ذلك حذار أن تذهب إلى أن الشعراء العباسيين لم يتأثروا بالثقافة العباسية ولم يصنعوا شيئاً من أحوال الدولة التي نشأوا فى كنفها وعاشوا في ظلها وتأثروا بارتقائها وانحطاطها وضعفها

وقوتها إذ الواقع أنهم كانوا على الضد من ذلك فقد تأثروا بعلوم عصرهم ومعارفه ووصفوا حروبه وسياسته وصوروا حضارته وعمرانه ولكنهم فعلوا هذا كله في حدود التقاليد الأدبية الموروثة وطبقاً للأساليب العامة المتبعة فاحترموا وحدة العروض والروى احتراماً لا داعي له وجمعوا بين المواضيع المختلفة فى القصيدة الواحدة ووقفوا على الأطلال الدارسة والآثار الطامسة فى ربوع لم يعرفوها إلا بالسماع وقفات لا مبرر لها ألبتة وبذلك جمعوا بين القديم والحديث والابتكار والتقليد جمعاً لا يجيزه تفكير سديد ولا ذوق سليم فتطور أدبهم على مر الأيام ولم يتعرض إلى انقلاب مع أنه كان شديد الحاجة إلى انقلاب جارف محكم الخطط ثابت الأسس واضح الغايات .

وقد وصف بشار بن برد وأبو نواس بأنهما مجددان للقريض العربى . يتفق على ذلك الرواة والنقاد القدماء ويأخذ به كثير من النقاد المعاصرين وأحاول فيما يلي أن أدرس حياة هذين الشاعرين وأن أتبين مخلصاً مقدار ما أدخلا من الأصلاح على القريض العربى وأبدأ ببشار لأنه أقدم الرجلين .

الفصل الأول

بشار بن برد

ا — حياته :

نسبه . ولاؤه ، عتقه ، مولده ، بركته . كنيته ولقبه ، لماذا لقب بالمرعّث . نشأته ، نبوغه . ذيوع شهرته ، خشية الناس إياه . حبه لعبدة ، حبه غيرها من النساء . ثقافته ومعتقده ، سادس ستة ، شعوبيته صلته ببني أمية . صلته ببني العباس : غضب المهدي عليه ، سببه ، هجاؤه المهدى . وفاته . تناقض أقوال الرواة فيها ، فرح الناس بموته ، حكايتان لهما مغزى .

ب — صفاته :

تصوير الأصمعي إياه ، مجونه ، ظرفه ، سرعة جوابه ، قدرته على ارتجال الشعر ، خوفه من الهجاء ، كرمه ، بره بأهله ، وفاؤه لأصدقائه .

ح — شعره : كثرته .

غزله : خلوّه من العواطف الصادقة ، أصالته مظاهرها ، مثل منه . مديحه : اعتداله . مثل منه ، هجاؤه بذاءته وصرامته ، مخافة الناس اياه ، جزع الأخفش منه . ميميته في هجاء المنصور ، نقدها ، لماذا أوثرها بالنقد . رثاؤه : تفاهته . فخره : غرابته ، مثل منه . حكمه : المبتكر منها والمقتبس ، مثل من كل منهما ، مكان الصديق في هذه الحكم ، تغيره .

د — خاتمة :

مقارنة بين بشار والحطيئة وجرير ، فيم يفضلانه وفيم يفضلهما . هل كان مجدداً ؟ نفي هذا الزعم .

أ - حياته :

كان عبد الله بن المقفع رأس مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية من الكتاب أما رأس مخضرمي الدولتين من الشعراء غير مدافع فهو بشار بن برد . وللرجل نسب طويل يختلف فيه الرواة لا أحدثك عنه بشيء لأني أعتقد أنه من وحي خيال الشاعر — فقد كان على ضعة مولده وخمول نسبه — يود أن يوهم الناس ويوهم نفسه أيضاً أنه سليل أسرة لها في فارس ما لآل ساسان من علوّ المنزلة وسموّ الكلمة وضخامة الملك والسلطان :

ورب ذي تاج كريم الجد كآل كسرى وكآل برد

كما كان على قبح صورته وبشاعة منظره يود أن يوهم الناس ويوهم نفسه أيضاً أنه جميل الصورة رشيق القوام لطيف الهندام يفتن ألباب النساء ويأسر قلوبهن بما له من صباحة الوجه وملاحة القدّ ، وبلغ من اطمئنانه الى هذه الدعاوى الموهومة أن جهر بها أمام الخليفة المهدي فقد حدّث راويته يحيى بن الجون العبدي أن المهدى قال له فيمن تعتد يا بشار فأجابه أما اللسان والزى فعربيان وأما الأصل فعجمي كما قلت فى شعرى يا أمير المؤمنين :

ونبئت قوم بهم جنّة يقولون من ذا وكنت العلم
ألا أيها السائلي جاهداً ليعرفني أنا أنف الكرم
نمت في الكرام بنى عامر فروعي وأصلي قريش العجم
فاني لأغني مقام الفتى وأصبي الفتاة فما تعتصم

وكان أبو دلامة الشاعر الظريف حاضراً فقال له : « كلا لوجهك أقبح من

ذلك ووجهي مع وجهك"[١]" وأحسب أن هـذا رد فعل نفسي شديد يساعـد على نموه الخيال الشعري مساعدة كبرى يقع فيه من يبلغ حداً بعيداً من خلة من الخلال المذمومة من الشعراء فاذا كان جباناً مسرفاً في الجبن ظن أنه شجاع وإذا كان بخيلا مسرفاً في البخل ظن أنه كريم وإذا كان قبيحاً مسرفاً فى القبح ظن أنه جميل ومن أمثلة ذلك أن حسان بن ثابت شـاعر الرسول (ص) كان جباناً مسرفاً في الجبن ولـكنه كان يخضب عنفقته"[٢]" « ليكون كأنه أسد والغ في الدم» ومع أنه لم يقف بين يدي النبي موقفاً حربياً واحـداً لم يحجم عن انشاده بين يديه :

وقد غدوت أمام القوم منتطقاً بأبيض مثل لون الملح قطّاع

فلم يتمالك (ص) عن الابتسام . وقل مثـل ذلك عن الفرزدق فانه كان جباناً ولـكنه كان كثير التحدث عن شجاعته يلقى الأسود والذئاب فتتراجع أمامه ويلقى بعضها حتفه على يده . وكان كثيّر عزة آخر من تحترمه امرأة وتعجب به لشدة حمقه وقصر قامته وقبح صورته ولـكنه كان يوهم نفسه أنه أثير عند النساء كبير في أعينهن يقمن له اجـلالاً إذا حضر ويتحاشين الـكلام والضحك بحضرته :

وكنت إذا ماجئت أجلان مجلسي وأظهرن مني هيبـة لاتجهما
يحاذرن منى غيرة قد عرفنها قديمـاً فما يضحكن إلا تبسما

وأعود الى بشـار فأقول ان أباه برداً فارسي من طُخارستان قيل

« ١ » الأغاني ج ٣ ص ٢١ طبعة مطبعة التقدم بمصر .

« ٢ » العنفقة : شعيرات بين الشفة السفلى والذقن .

إنه كان مملوكاً لخيرة القشيرية زوجة المهلب بن أبي صفرة وكان يعمل في ضيعة لها في البصرة اسمها « خيرفان » مع عبيد لها وإماء فوهبته خيرة بعد أن زوجته لصديقة لها من بني عقيل وولدت له امرأته وهو في ملكها بشاراً فأعتقته العقيلية"١" وقيل انه — أعني برداً — كان مولى أم الظباء العقيلية السدوسية وقد ادعى بشار لهذا أنه مولى بني عقيل"٢" « وفي رواية أن رجلاً من أولاد بشار اسمه حمدان كان قصّاراً أكد ولاء جده لبني عقيل» وتروى في ولاء بشار أخبار أخرى منها أن بشاراً وأمه كانا لرجل من الأزد فتزوج امرأة من بني عقيل فأصدقها فيما أصدقها بشاراً وأمه وكان بشار ولداً مكفوفاً فأعتقته العقيلية"٣" ومنها أن أم بشار باعته من أم الظباء السدوسية زوجة أوس بن ثعلبة بدينارين فأعتقته أم الظباء سخاءاً وكرماً"٤" وأنت تستطيع أن تشك في هذه الأخبار كلها أو أكثرها وأن ترفضها كلها أو أكثرها إذا شئت ولكن شيئاً واحداً لا تستطيع أن ترفضه ولا تستطيع أن تشك فيه وهو أن بشاراً من أصل فارسي وأنه نشأ في أحضان الرق والولاء عند العرب وأن أسياده من هؤلاء أنعموا عليه بالعتق فصار حراً بعد أن كان عبداً .

ويتحدث الرواة بأن بشاراً كان شديد الاعتزاز بهذا الولاء مدة من الزمن وفى شعره مايدل على هذا دلالة صادقة ولكنه آثر الركون إلى الشعوبية متأثراً

« ١ » الأغاني ج ٣ ص ٢ طبعة مطبعة التقدم بمصر .

« ٢ » المصدر نفسه ج ٣ ص ٢٠

« ٣ » المصدر نفسه ج ٣ ص ٢٠

« ٤ » المصدر نفسه ج ٣ ص ٢١

بما يجرى حوله من مناقشات ومنافسات بين العرب والموالي في البصرة وسأعود إلى الكلام على شعوبيته في مكان آخر من هذا الفصل .

لم يعين الرواة مولد بشار ولكنهم تحدثوا عن تاريخ وفاته ومقدار عمره واختلفوا فيهما فقالوا مرة ان وفاته كانت سنة ١٦٧ هـ "١" وقالوا تارة إنها كانت سنة ١٦٨ هـ "٢" . وقالوا في مقدار عمره حيناً انه ناهز الستين "٣" وطوراً انه يزيد على السبعين "٤" وآونة انه يزيد على التسعين "٥" وأحسب أنه لم يجاوز السبعين أو أنه لم يبلغها فانه يقول في قصيدة مدح بها المهدي مشيراً الى اقلاعه عن التشبيب بالنساء عملاً بنصيحة الخليفة العباسي :

وأخرجني من وزر خمسين حجة فتى هاشمي يقشعر من الوزر

فاذا فرضنا أن هذه الخمسين حجة تبتدىء ببلوغه الحلم فانه يكون وقت نظمه هذه القصيدة في نحو الخامسة والستين من عمره وقد قال بعدها بمدة قصيرة قد لا تتجاوز السنة وعلى هذا لا يكون قد بلغ السبعين عندما وافاه أجله .

وولد بشار في البصرة أو في أحد أرباضها مكفوف البصر فلم ير من

« ١ » وفيات الأعيان ج١ ص ٨٩ طبعة المطبعة الميمنية بمصر ١٣١٠

« ٢ » الأغاني ج ٣ ص ٧٠ طبعة مطبعة التقدم بمصر

« ٣ » الأغاني ج ٣ ص ٦٩

« ٤ » الأغاني ج ٣ ص ٧٠

« ٥ » وفيات الأعيان ج١ ص ٨٩

الدنيا شيئاً . ومع هـذه النكبة التي صبت على رأسـه فى بدء حياته كانت ولادته مبعث خير وبركة لأسرته فيما يظن والده الذى كان فى ذلك التاريخ طيّاناً وكان دخله من هذا العمل قليلاً لا يكفيه فلما ولد له بشار بارك الله في رزقه فلم يحل عليه الحول حتى جمع مائتي درهم فكان يذكر هذا وينوه به عند ما يتحدث عن ابنه الميمون "١" .

وكان بشار يكنى بأبى معاذ وأكبر الظن أنه كنّي بهذا عند ما كبر ونبه شأنه . ويلقب بالمرعّث ويقال انه لقب بهذا لقوله :

قال ريم مرعّث ساحر الطرف والنظر
لسـت والله نائلي قلت أو يغلب القدر
أنت ان رمت وصلنا فانج هل تدرك القمر "٢"

وقيل بل انه لقب بهذا لأنه كان يلبس قميصاً له جيبان جيب عن يمينه وجيب عن شماله فاذا أراد لبسه ضمه عليه من غير أن يدخل رأسه فيه واذا أراد نزعه حل ازراره وخرج منه فشبهت تلك الجيوب بالرعاث لاسترسالها وتدليها ولقب من أجلها بالمرعث "٣" وهنـاك رواية تقول انه لقب بالمرعث لأنه كان يلبس في صغره رعاثاً في أذنيه والرعاث جمع رعثة وهي القرطة وربما كانت هـذه الرواية أقرب الروايات الثلاث الى الصحة وأولاها بالقبول .

ونشأ صاحبنا نشأة متواضعة يغلب عليها الخمول والفقر ومن المحقق

« ١ » الأغاني ج ٣ ص ٥١
« ٢ » الأغاني ج ٣ ص ٢٢
« ٣ » الأغاني ج ٣ ص ٢٢

أنه لم يرسل الى الكتاب ولم يعن بتربيته وتعليمه أحد"١" ولكنه عوّض عن كل ما لحق به من فقد بصر وبشاعة صورة وضعة مولد ورقة حال بخيال خصب واحساس قوي وشعور فياض ولسان ذرب كما عوض الحطيئة عن كل ما لحق به من فقر وضعة نسب ودمامة منظر بأدبه وشاعريته قبل ١٥٠ سنة تقريباً . وقال بشار الشعر ولما يبلغ العاشرة وقد فكر وهو في تلك السن المبكرة فرأى أنه لن يحرز مالاً ولن يصيب جاهاً الا اذا خافه الناس ولن يخافه الناس الا اذا سلط عليهم قوارص الهجاء . فجرى على سنة سلفه الحطيئة وجرّد عليهم سيف لسانه البتار وأسمعهم في نفوسهم وفى أحسابهم وأنسابهم ما يكرهون وفزع هؤلاء لى أبيه يشكونه اليه وأصغى الأب الساذج لشكواهم فأخذ يضرب ولده ضرباً مبرحاً وشق هذا على أم الغلام فقالت ذات يوم لأبيه : « كم تضرب هذا الصبي الضرير أما ترحمه » فقال لها : « بلى والله إني لأرحمه ولكنه يتعرض للناس فيشكونه إلي » وسمعه الصبي « فطمع فيه وقال له يا أبت ان هذا الذى يشكونه منى اليك هو قول الشعر واني ان ألممت عليه أغنيتك وسائر أهلي فان شكونى اليك فقل لهم أليس الله يقول : « ليس على الأعمى حرج » .

وعاود بشار هجاء الناس فعاود هؤلاء شكواهم الى أبيه فقال لهم هذا ماقاله له بشار « فانصرفوا وهم يقولون فقه برد أغيظ لنا من شعر بشار »

« ١ » فى خبر يذكره أبو الفرج : أن بشاراً يعزو أدبه وفصاحته الى نشأته في حجور ثمانين شيخاً من فصحاء بني عقيل ما فيهم احد يعرف كلمة من الخطأ ولو كان مثل هذه النشأة يكفى لخلق الأدباء الفصحاء من امثاله لخلق من اخويه بشر وبشير القصابين أديبين فصيحين والواقع ان بشاراً كغيره من الشعراء النوابغ مدين بأدبه لفطرته قبل كل شيء على ان للبيئة اثرها . ولكنه يأتي دون شك بعد أثر الفطرة .

ولم يطل الوقت حتى ذاع صيت الشاعر الضرير وطارت شهرته في الآفاق فخشى الناس معرة لسانه وتحاموا هجاءه واغتدوا أحسابهم وأعراضهم منه بأموالهم ويقول الرواة إن عمر بن هبيرة أول من منحه جائزة سنية على مديحه أجازه على بائيته التي يمدحه فيها والتي منها قوله :

إذا الملك الجبار صعّر خده مشينا إليه بالسيوف نعاتبة

بعشرة آلاف درهم ومنذ ذلك الحين علا قدره — فيما يقول صاحب الأغاني — وارتفع ذكره . وكان إذا تأخرت عليه جوائز ممدوحيه هددهم بالهجاء أو لذعهم به دون سابق انذار فيبادرون الى استرضائه ومضاعفة صلته والاعتذار اليه .

مدح عقبة بن سلم بأرجوزته التي مطلعها : « يا طلل الحي بذات الصمد » فأثابه عليها بخمسين ألف درهم ولكن وكيله أخر دفع المبلغ اليه ثلاثة أيام فما كان من بشار الا أن أمر غلامه ان يكتب على باب عقبة هذا الانذار :

ما زال مامنيتني من همّي والوعد غمّ فأزح من غمّي
ان لم ترد مدحي فراقب ذميّ

فلما خرج عقبة من داره وقرأ ما كتبه بشار على بابه قال لخازنه أدفعت الى بشار ما أمرت به فأجابه « نحن مضيقون وغداً أحملها اليه » فقال له زد فيها عشرة آلاف درهم واحملها اليه في الحال .

وكان سهيل بن عمرو أحد أعيان قريش يهدي بشاراً قواصر من تمر في كل سنة فأبطأ عليه ذات سنة فكتب اليه بشار :

عمركم ياسهيل درّ وهل يطـ ـمع بالدر من يدي متعت"١"
فاحبني ياسهيل من ذلك التمـ ـر نواة تكون قرطاً لبنتي

فبعث إليه سهيل بقواصر التمر وضاءنها ملتمساً منه ألا يضيف شيئاً إلى البيتين . وبهذه الطريقة عاش بشار مخشي الجانب مقضي الحاجة بل قل موفور الجاه والمال يلهو ويلعب ويستمتع بأطايب الحياة ويزوره الناس نساءً ورجالاً ليأخذوا عنه ويسمعوا منه ويشعروه احترامهم له ويتأنق في استقبالهم فيستقبلهم في مجلسين مختلفين أحدهما خاص بالصباح اسمه (البردان) وثانيهما خاص بالمساء اسمه (الرقيق) .

وفي ذات يوم زاره فريق من النساء يلتمسن منه شيئاً من شعره بينهن جارية حسناء اسمها عبدة فتنته بصوتها الرخيم وحديثها العذب فبعث إليها مع غلامه رسالة غرامية قبلتها بسرور ولكنها لم تسعفه وإنما كانت تثيبه على رسائله الرقيقة برسائل مماثلة فتشوق إليها وشبب بها مدة من الزمن حتى صارت بطلة نسيبه وسأروي لك مثلاً من شعره فيها في مكان آخر من هذا الفصل .

وقد أحب بشار نساء عديدات غير عبدة وراسلهن وتغزل بهن بعضهن معروف وبعضهن غير معروف . ومن المؤكد أن بشاراً لم يحمل بين جوانحه حباً طاهراً عفيفاً لعبدة ولا لغيرها من النساء وإنما كان يهوى النساء كما يهواهن أمرؤ القيس وكما يهواهن عمر بن أبي ربيعة والفرزدق .

« ١ » المتعت : السائل اذا ألحف في المسألة . يقول بشار لسهيل أنت من السؤال الملحفين في المسألة فكيف يطمع طمع بأخذ الدر منك .

وقد قلت لك إني أجزم بأن بشاراً لم يرسل إلى الكتّاب وأن أحداً لم يعن بتدريبه وتخريجه وإنما هو تلميذ طبعه وخرّيج فطرته وأقول لك الآن إنه طلب العلم عندما بلغ أشده وعمل على توسيع معارفه فنظر في أمر الكون ووجود الخالق والجبر وما إلى ذلك من العلوم الشائعة في عصره ويعده سعيد بن سلام أحد ستة كلهم اصحاب كلام وهم عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء وصالح بن عبدالقدوس وعبدالكريم بن أبي العوجاء وجرير بن حازم الأزدي الذي كان بيته نادياً لهذه الفئة وهو . فأما عمرو وواصل فصارا الى الاعتزال وأما عبدالكريم وصالح فصححا التوبة وأما جرير بن حازم فدان ببعض خرافات الهند وأما بشار فقد شك وتحير . ومن شعره الدال على حيرته قوله :

طبعت على ماني غير مخير هواي ولو خيّرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطى وأعطى ولم أرد وقصر علمي أن أنال المغيبا
فأصرف عن قصدي وعلمي مقصر وأمسي وما أعتبت إلا التعجبا

ويعتقد الرواة أنه دان بالرجعة وكفّر الأمة كلها بعد رسول الله وسئل عن رأيه في علي بن أبي طالب بهذه المناسبة فقال :

وما شر الثلاثة أم عمر بصاحبك الذي لاتصبحينا

ومما لاشك فيه ان بشاراً قال بتفضيل إبليس على آدم معللاً ذلك بأن الأول من نار والثاني من طين والنار خير من الطين لأنها مضيئة والطين مظلم :

الارض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار

وقد أحدث رأي بشار هذا ضجة عالية في الأوساط العلمية الدينية المعاصرة

فحمل عليه صديقه القديم واصل بن عطاء حملة شعواء وجاهر برغبته في قتله لولا أنه يترفع عن الغيلة . ورد عليه صفوان الانصاري بقصيدة طويلة يشرح فيها مزايا الأرض وأسباب تفضيلها على النار أروي لك منها هـــذه الأبيات القليلة لطرافتها :

زعمت بأن النار أكرم عنصراً ... وفي الارض تحيا بالحجارة والزند
ويخلق في أرحامها وأرومها ... أعاجيب لاتحصى بخط ولاعقد
وفى القعر من لج البحار منافع ... من اللؤلؤ المكنون والعنبر الورد
كذلك سر الارض في البحر كله ... وفي الفيضة الغناء والجبل الصلد [1]

وكما حاد بشار عن النهج القويم في الدين حاد كذلك عن النهج القويم في السياسة فاعتنق الشعوبية ودان ببغض العرب وانكر ولاءه لهم بعد أن ملأ الدنيا به فخراً بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك فحرض من فى البصرة من الموالي على مناهضة أسيادهم والخروج من طاعتهم وقد عاتبه أحد سراة البصرة في ذلك فرد عليـــه رداً موجعاً وشتم عرضه شتما قبيحاً . على أني أرى فى تفضيل بشار إبليس على آدم وتمجيده النار لوناً آخر من ألوان الشعوبية فأنت تعلم أن النار معبودة الفرس القدماء ومعبودة من بقي منهم على المجوسية في ظل الاسلام ومن أجل ذلك يخيل إلي أن مذهب بشار في تقديس النار سياسي أكثر منه دينى .

ولم يمدح بشار أحـداً من بنى أمية — فيما نعلم — سوى سليمان بن هشام

« ١ » البيان والتبيين ج ١ ص ١٦ طبعة مطبعة الفتوح الأدبية بمصر .

بن عبدالملك الذي كان أميراً على « حران » مدحه بقصيدة يقول فيها :

وقائلة لي حين جد رحيلنا ... وأجفان عينيها تجود وتسكب
أغاد إلى حران في غير شيعة ... وذلك شأو عن هواها مغرّب
فقلت لها كلا تمنى طلب الغنى ... وليس وراء ابن الخليفة مذهب (*)

وأجاز سليمان بشاراً على مديحه بخمسة آلاف درهم فاستقلها وردها وهجا سليمان وآل مروان مخاطبة بهذه الابيات التي أرويها كلها لا لبيان موقفه من آل مروان فحسب بل لدلالتها على أشياء عديدة من خصاله واحواله قال :

إن أمس منقبض اليدين عن الندى ... وعن العدو مخيس (١) الشيطان
فلقد أروح على اللئام مسلطاً ... ثلج المقيل منعم الندمان
في ظل عيش عشيرة محمودة ... تندى يدي ويخاف فرط لساني
أزمان خيبني الشباب مطاوع ... وإذ الأمير علي من حران (٢)
ريم بأحوية العراق إذا بدا ... برقت عليه أكلة المرجان
فاكحل بعبدة مقلتيك من القذى ... وبوشك رؤيتها من الهملان
فلقرب من تهوى وأنت متيم ... أشفى لدائك من بني مروان

ولم يفد بشار بمديحه علي السفاح ولا على المنصور من خلفاء بني العباس بل إنه هجا الثاني هجاء مراً بميميته الآتي ذكرها . وذلك عندما ثار عليه إبراهيم

« * » أخذ أبو نواس معنى هذه الابيات الثلاثة وحوره قليلا وزاد فيه في أبياته المشهورة التي يمدح بها الخصيب من قصيدة وهي :

تقول التي من بيتها خف مركبي ... عزيز علينا أن نراك تسير .. الأبيات

« ١ » المخيس هنا المذلل

« ٢ » هكذا في الاغاني ج٣ ص ٥٦ طبعة مطبعة التقدم بمصر . وربما كان الصواب:

ازمان اسعف والشباب مطاوع

بن عبدالله بن الحسن بن علي ولكنه وفد على المهدي في أيام خلافته ورجا يزيد بن مزيد أحد رجال دولته أن يتقدمه اليه فوعده يزيد ما أراد ولكنه مطله وأمعن في مطله فانتهز روح بن حاتم — وكان قد زار بغداد — هذه الفرصة وقدم بشاراً إلى المهدي ون أن يسأله ذلك ودون أن يعلم به أيضاً .

فدخل على الخليفة العباسي وأنشده مدحة له كان قد أعدها فقبلها منه وأثابه عليها بعشرة آلاف درهم وخلع عليه خلعاً كثيرة واعطاه عبداً وقينة (١) وبقيت صلته بالقصر حسنة الى أن نظم أبياتاً في الغزل أحب أن أنزه عنها هذا الفصل بلغت المهدى وكان غيوراً شديد الغيرة على النساء فغضب ونهاه عن التشبيب بهن واطاع بشار اشارة الخليفة ونوه بذلك مراراً فى شعره ولعل الأبيات التالية خير ماقال في هذا الباب وهي :

يامنظراً حسناً رأيته ... من وجه جارية فديته
بعثت إلي تسومني ... برد الشباب وقد طويته
والله رب محمد ... ما إن غدرت ولا نويته
أمسكت عنك وربما ... عرض البلاء وما أبتغيته
إن الخليفة قد أبى ... وإذا أبى شيئاً أبيته
ومخضب رخص البنا ... ن بكى علي وما بكيته
ويشوقني بيت الحبيب إذا أذكرت وأين بيته ؟
حال الخليفة دونه ... فصبرت عنه وما قليته

« ١ » الأغاني ج ٣ ص ٥٤ طبعة مطبعة التقدم بمصر .

ونهـــاني الملك الهما م عن النساء فما عصيته
لا بل وفيت فلم أضع عهداً ولا رأيا رأيتـه
وأنا المطل على العدى وإذا غلا الحمد اشتريته

وأنشد بشار المهدي هذه الأبيات في إحدى قدماته عليه وأتبعها مديحاً لا تشبيب فيه فحرمه مع ذلك ولم يعطه شيئاً . وشق هذا الحرمان على بشار وقيل له إن المهدى لم يستجد شعرك فقال كلا والله لقد مدحته بشعر لو مدح به الدهر لم يخش صرفه على أحد ولكنا نكذب فى المديح فنكذب في الآمال . ثم سولت له نفسه أن يهجو المهدي فقال فيه هجاءاً أقله هذان البيتان :

بني أمية هبوا طال نومكم إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا خليفة الله بين الزق والعود

وكان يعقوب بن داود وزير المهدي واجداً على بشار لأنه هجا أخاه صالحاً الذي كان والياً على البصرة بقوله :

هم حملوا فوق المنابر صالحاً أخاك فضجت من أخيك المنابر

فاطلع الخليفة على هجاء بشار له وتميز هـــذا غيضاً ولكنه آثر الأناة والتثبت . فطلب إلى وزيره أن يقيم البينة على أن بشاراً هجاه بما أطلعه عليه فأقامها وعند ذلك عقد المهدي النية على التنكيل بالشاعر تنكيلاً يقضي على حياته فكان ذلك . وتختلف الروايات فى كيفية تنكيل المهدي ببشار فتزعم رواية أنه انحدر إلى البصرة فلما بلغ البطيحة سمع أذاناً فى وقت الضحى فأمر بالبحث عمن فعل هذا فاذا هو بشار فلما أتي به وكان سكران قال له يازنديق أتلهو بالأذان في

غير وقت صلاة وأنت سكران والله لقد علمت أن غيرك لا يفعل هـــذا ثم أمر بضربه على صدر الحراقة فكان إذا أوجعه الضرب قال « حس » وهي كلمة تقال في الشيء اذا أوجع فقال أحد الحاضرين أنظر يا أمير المؤمنين إلى زندقته يقول حس ولا يقول بسم الله فأجابه أطعام هو فأسمي عليه ثم ترك بعد الضرب وقد أشفى على الموت فمات وسلمت جثته الى أهله ، وتزعم أخرى أن يعقوب بن داود وشى ببشار في أثناء زيارة من زيارات المهدي للبصرة فأمر المهدي (صاحب الزنادقة) وهو عبدالجبار أو حمدويه أن يأخذ بشاراً ويحتفظ به فلما بلغ البطيحة عائداً إلى بغداد ذكره وأمر بضربه فضرب حتى أشرف على الموت . وتقول ثالثة إن المهدي أمر صاحب الزنادقة بضرب بشار في البصرة فمات من الضرب وفرح الناس بموته فحملوا الى صاحب الزنادقة هدايا كثيرة .

والشيء المؤكد الذي يستخلص من هذه الروايات المتضاربة هو أن بشاراً مات بسبب ضربه ضرباً مبرحاً وأنه ضرب لزندقته في الظاهر ولهجائه المهدي في الحقيقة .

وهناك قصتان تتعلقان بوفاة بشار قد لا تخلو روايتها من فائدة وطرافة تقول إحداهما إن المهدي لما قتل بشاراً أمر بتفتيش داره فوجد فيها « طوماراً فيه بسم الله الرحمن الرحيم إني أردت هجاء آل سليمان بن علي لبخلهم فذكرت قرابتهم من رسول الله (ص) فأمسكت عنهم إجلالاً له على أني قد قلت فيهم :

دينار آل سليمان ودرهمهم ... كالبابليين حقا بالعماريت
لا يبصران ولا يرجى لقاؤهما ... كما سمعت بهاروت وماروت

فلما قرأه المهدي بكى وندم على قتله وقال « لاجزى الله يعقوب بن داود خيراً فانه لما هجاه لبق عندي شهوداً على أنه زنديق فقتلتـــه ثم ندمت حين لا يغني الندم » "١"

وتقول الأخرى إن المهدي لما قتل بشاراً وسلم جثته إلى أهله دفنه هؤلاء بقرب حماد عجرد الذى كان يهاجيه في أيام حياته فوقف على قبريهما بوهشام الباهلي ـ وهو شاعر بصرى كان يهاجي بشاراً أيضاً : فقال :

قد تبع الأعمى قفا عجرد ... فأصبحا جارين في دار
قالت بقاع الأرض لا مرحباً ... بقرب حما وبشـــار
تجاورا بعـــد تنائيهما ... ما أبغض الجار الى الجار
صارا جميعاً في يدي مالك ... فى النار والكافر في النار "٢"

ب ـ صفاته :

وصف الأصمعي بشاراً فقال : « كان بشار ضخما عظيم الخلق والوجه مجدوراً طويلاً جاحظ المقلتين قد تغشاهما لحم أحمر فكان أقبح الناس عمى وأفظعهم منظراً وكان اذا أراد أن ينشد صفق بيديه ، تنحنح وبصق عن يمينه وشماله ثم ينشد فيأتي بالعجب » "٣" وأنا أضيف الى ما تقدم أنه كان ماجناً ظريفاً فياض البديهة بالجواب الحاضر والشعر المرتجل شديد الإشفاق من الهجاء

« ١ » الأغاني ج ٣ ص ٧٠ طبعة مطبعة التقدم بمصر
« ٢ » المصدر نفسه ج ٣ ص ٩٧
« ٣ » المصدر نفسه ج ٣ ص ٢

كريماً متلافاً باراً بأهله وفياً لأصدقائه وأخبار الرجل الدالة على مجونه كثيرة اليك منها هذا الخبر وهو من قلها امعاناً فى المجون روى أن سعد بن القعقاع كان ينادم بشارا فقال له ذات يوم ويحك يا أبا معاذ قد نسبنا الناس الى الزندقة فهل لك أن تخرج بنا الى الحج لننفي هذه التهمة عنا فال نعم ما رأيت وخرجا الى الحج فلما وصلا الى الكوفة ومرا بزرارة وهي محلة فيها ندم ابن القعقاع على المقام بهذه المجازفة فقال لبشار ويحك يا أبا معاذ ثلاثمائة فرسخ من هنا الى مكة متى نقطعها مل بنا الى زرارة نلهو ونلعب فاذا قفل الحاج عارضناهم بالقادسية وجززنا رؤوسنا فلم يشك الناس أنا جئنا من الحج فقال له بشار نعم ما رأيت ولكنى أخشى أن تفضحنا فوعده سعد أن يكتم سر هذه المغامرة ومالا الى زرارة فأقاما فيها يشربان ويلعبان فلما نزل الحاج بالقادسية راجعاً من مكة أخذا بعيرا وحملاً وجزا رأسيهما وأقبلا وتلقاهما الناس يهنئونهما فنكث ابن القعقاع عهده وفضح سر بشار وسره بهذه الأبيات :

ألم ترني وبشاراً حججنا ... وكان الحج من خير التجارة
خرجنا طالبي سفر بعيد ... فمال بنا الطريق إلى زرارة
فآب الناس قد حجوا وبروا ... وأبنا موقرين من الخسارة "١"

قد تقول ولكن ألا يمكن أن يكون هذا الخبر مكذوباً وأجيب بأن ذلك ممكن كل الامكان ولكنه على هذا منسجم وحياة بشار وسائر أخباره انسجاماً تاماً. وظرف بشار معروف تدل عليه نكته الكثيرة اللاذعة ونوادره العديدة الفكهة

« ٣ » الأغاني ج ٣ ص ٤١

التي تمثل حدة ذكائه وسرعة جوابه فمن هذه النوادر مايروى من أن أحدهم قال له « إن الله لم يذهب بصر أحد إلا عوضه بشيء فما عوضك » قال « الطويل العريض » قال وما هو قال ألا أراك وأمثالك من الثقلاء . ومنها جوابه ليزيد بن منصور الحميري خال المهدى عندما سأله عن صناعته فقد قال له « أثقب اللؤلؤ » وما أشك في أن المهدي استحسن هـذا الجواب الظريف الاستحسان كله ولكنه تظاهر بحماية خاله فقال لبشار ويحك أتتنادر على خالي فأجابه بشار « وما أصنع به يرى شيخاً أعمى ينشد الخليفة شعراً ويسأله عن صناعته » .

ومن أجوبة بشار الظريفة مايروى من أنه قرض أبا النضر أحد شعراء زمانه فقال له هذا لعلك تحابيني يا أبا معاذ فأجابه (أنت أبقاك الله أهون علي من ذلك) وسرعة جواب بشار هذه تقودنا إلى الكلام عن قدرته على ارتجال الشعر فقد كان حاضر البديهة سريع الخاطر يقول الشعر متى أراد . وأخباره في هذا الباب كثيرة منها أن أبا الشمقمق شكا إليه الضيق ذات يوم فقال له والله يا أبا الشمقمق ماعندي شيء يغنيك ولكن قم معي إلى عقبة بن سلم ودخل الشاعران على الرجل وقرض بشا أبا الشمقمق وأثنى عليه فوهب له عقبة خمسمائة درهم فقال بشار على الفور :

يا واحد العرب الذي ... أمسى وليس له نظير
لو كان مثلك آخر ... ما كان في الدنيا فقير

ودعا عقبة هذا بشاراً وحماد عجرد واعشى باهلة ذات يوم فقال لهم: خطر

يبالي البارحة هـــذا المثل المعروف (ذهب الحمار يطلب قرنين فجاء بلا أذنين) فاشتهيت أن ينظم شعراً فمن نظمه منكم فله خمسة آلاف درهم أما إذا لم تفعلوا جلدت كلاً منكم خمسمائة جلدة فقال حماد أعز الله الأمير اجلنا شهراً وقال الأعشى أجلنا اسبوعين وكان بشار ساكتاً فسأله عقبة أن يتكلم فقال له : أصلح الله الأمير حضرني في قصدك أبيات انشدها إذا أحببت قال قل فأنشد :

شـــط بسلمى عاجل البين ... وجاورت أســـد بني القين
ورنّت النمس لهـــا رنة ... كادت لها تنشق نصفين
يا ابنة من لا أشتهي ذكره ... أخشـــى عليه علق الشين
والله لو القـاك لا أتقي ... عينـــاً لقبلتك الفين
طالبتها ديني فراغت به ... وعلقت قلبي مع الدين
فصرت كالعير غـدا طالباً ... قراً فـلم يرجع بأذنين

ومن غريب صفات بشا انه كان شديد الاشفاق من الهجاء يخافه ويتألم له يجزع منه .

ر ى أنه لما سمع قول حماد عجرد فيه :

شبيه الوجـــه بالقرد ... إذا ما عمى الفرد

بكى فقيل له أتبكي لهجاء فقال والله ما ابكي من هجائه ولـكن ابكي لأنه يراني فيصدقني ولا أراه فأصدقه . وقد يكون في هذا الخبر شيء من المبالغة ولـكن إشفاق بشار من الهجاء أمر لاشك فيه . وكان شاعرنا برماً بالناس يضيق بهم وينفر منهم ويعيب عليهم اقوالهم وافعالهم إلا أنه كان باراً بأهله

وفياً لأصدقائه . وليس هـذا كل ماعنده من حميد الخلال بل إنه كان كريماً متلافاً ينفق كل مايصل إلى يده من المال وقد مر بك قوله «تندى يدي» وقوله: « وإذا غلا الحمد اشتريته » ونحن نضيف الآن إلى هذا قوله من أبيات :

نارى محرقة وبيتي واسع للمعتفين ومجلسي معمور

جـ ـ شعره

في رواية أن بشاراً زعم ان له اثنى عشر الف أو ثلاثة عشر الف بيت شعر عين فقيل له إن هذا مالا يدّعيه أحد فأجاب بأن له اثنتي عشرة الف أو ثلاثه عشر الف قصيدة فلعنها الله ولعن قائلها إن لم يكن في كل واحدة منها بيت عين واحد"١" وأحسب أن هذه الرواية مكذوبة أو أن بشاراً غلا غلواً فاحشاً في التحدث عن كثرة انتاجه فانا لو فرضنا أن بشارا عاش سبعين عاماً وأنه كان يقول مائة قصيدة في العام منذ أن بلغ العاشرة من سنه لما تجاوز شعره نصف هذا المقدار الذى تقدمت له الاشارة . هذا مع العلم بأن نظم مائه قصيدة في السنة أمر يصعب تصديقه جداً اللهم الا اذا كان الشعر من نوع :

ألا ياعتبـة الساعة أموت الساعة الساعة

فان نظم مائة قصيدة في الأسبوع من هذا النوع من الشعر أمر لا يصعب على أحد . وليس هذا مايعنيه بشار اذا صح أنه صاحب الزعم المذكور . والذى أراه أن شعر بشار كثير وأن كثرته الكبرى قد ضاعت أو اختفت في

« ١ » الأغاني ج ٣ ص ٢٤ .

في زاوية من زوايا دور الكتب"١" الا أن البقية الباقية منه كافيه لأن تعطينا فكرة لا بأس بها عنه وفي امكاننا أن ندرسه ونتبين أكثر خصائصه ومميزاته في ضوء هذه البقيه الباقية .

وهو يتألف من الغزل والمديح والهجاء والرثاء والفخر والحكم . وأكثر ماوصلنا منه في الأبواب الثلاثة الأولى وهذا طبيعي لأن بشاراً صاحب مجون وتكسب بالشعر قبل كل شيء .

غزله : وأحدثك أول ما أحدثك عن غزله فأزعم أنه لايحتوي على مايمكن أن يسمى عواطف غرامية صادقة ولكنه يحتوى على مايمكن أن يسمى خواطر لطيفة وأخيلة طريفة ومعاني دقيقة أو غير دقيقة — ذلك أن بشاراً رجل شهوة وصاحب لذة يهمه من المرأة جسمها ولايهمه عقلها ولاخلقها ولا أبها وهو يتودد اليها ويشبب بها طمعاً بقضاء أوطاره منها وإذن فلابد له من أن يقول لها إنه يسهر الليل هياماً بها وشوقاً اليها وانه يهذي بها ليل نهار وان الناس يلومونه في ذلك وانهم يسرفون في هذا اللوم ولكنه يعيرهم أذناً صماء ولايحفل بلومهم كثيراً ولا قليلاً وان الآلام برحت به فأوهنت قواه وأنهكت جسمه حتى أنها — أي المرأة — لو توكأت عليه لانهدم مع انه على جانب غير قليل من ضخامة الجثة ومتانة البنية ، هو مضطر الى أن يقول لها هذا والا فانها تنبذه وتطرحه وتحرمه عطفها وتمنعه وصلها ، وغني عن البيان أن هذه المعاني متداولة مألوفة قالها شعراء كثيرون

« ١ » قال طه حسين في الجزء الثاني من حديث الأربعاء صفحة ٢٥٩ طبعة البابي الحلبي : « وقد حدثني قوم أن ديوان بشار موجود الآن في تونس أو في بلد غير تونس » .

قبل بشار فهل لهذا الشاعر الماجن المجيد غزل أصيل يمثل حياته ويصور مقاصده وأغراضه ولايظهر فيه أثر الاقتباس والتقليد .؟

بلا ان له لغزلاً أصيلاً لايمثل الاحياتة ولايصورسوى مقاصدهواغراضه، من أهمه هذه المقطوعات العديدة التي يصف فيها غرامه بعبدة وغيرها من النساء رغم فقدانه حاسة البصر ويتحدث عن قيام أذنه مقام عينه في تعرّف معالم الجمال وتبيّن ملامح الصباحة والفتنة .

فأنت عندما تقرأ هذا القسم من غزله مضطر الى أن تشعر في الحال أنك انما تقرأ غزل عاشق ضرير يهمه أن يشارك ذوى الابصار في الاتصال بالنساء والظفر بعطفهن والاستمتاع بقربهن ويهمه أن يؤكد لهم أنه يعرف من الجمال مايعرفون ويدرك منه ما يدركون وبالتالي يعشق منه ما يعشقون ، بل انك مضطر عندما تقرأ هذا القسم من غزل بشار الى أن تشعر انك انما تقرأ غزل بشار نفسه لأن بشاراً في مجونه وقوة شعره وشدة حرصه على أن يظهر بمظهر ذوى الأبصار في كل شيء نسيج وحده فى الأدب العربي كلهومن طريف غزله في هذا الباب قوله :

يزهدني في حب عبدة معشر ... قلوبهم فيها مخالفة قلبي
فقلت دعوا قلبي وما اختار وارتضى ... فبالقلب لابالعين يبصر ذو الحب
فما تبصر العينان في موضع الهوى ... ولا تسمع الأذنان الا من القلب

وقوله :

قالوا بمن لاترى تهذي فقلت لهم ... الأذن كالعين توفي القلب ما كانا

ما كنت أول مشغوف بجارية[1] يلقى بلقيانهـــا روحاً وريحانا
ياقوم أذني لبعض الحي عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانا

وقوله :

وكاعب قالت لأترابها ياقوم ما أعجب هذا الضرير
هل يعشق الانسان من لا يرى؟ فقلت والدمع بعيني غزير
ان تك عيني لاترى وجهها فانها قد صورت فى الضمير

ومنه أى من غزل بشار الاصيل الذى يمثّل حياته ويصوّر مقاصـــده وأغراضه هذه القصائد والمقطوعات التي يتحدث فيها عن مغامراته الغرامية ويروي مايدور بينه وبين خليلاته من غزل وحوار كله عبث ومجون. وهو فى هذا النوع من غزله يعيد الى الذا كرة عهد عمر بن أبي ربيعة وان كان مايروى له من الغزل القصصي الاباحي قليلا ولعل خير كلمة له فى هذا الباب رائيته التي مطلعها :

قد لامني فى خليلتى عمر واللوم فى غير كنهه ضجر

على أن غزل بشار الذى لايمتاز بالتحدث عن الدور الذي تلعبه أذنه في شؤونه الغرامية ولا يمتاز كذلك بالتحدث عن مغامراته ورواية مايجري بينـه وبين خليلاته يمتاز في كثير من الأحيان بدقة معانيه وجمال أخيلته ولطافة أسلوبه .

وما أظنك إلا موافقاً لي على هذا الزعم إذا قرأت قوله :

هل تعلمين وراء الحب منزلة تدني إليك فان الحب أقصاني

« ١ » ويروى : « هل من دواء لمغشوف بجارية » .

وقوله :

أنا والله أشتهي سحر عينيك وأخشى مصارع العشاق

وقوله :

كأن فؤاده كرة تزى حذار البين لو نفع الحذار
كأن جفونه سُمُلت بشوك فليس لنومه فيها قرار
أقول وليلتي تزداد طولاً أما لليل بعدهم نهار
جنت عيني عن التغميض حتى كأن جفونها عنها قصار

ففي هذه الأمثلة من غزل بشار من دقة المعنى وجمال الخيال ولطف الأسلوب مالا يخفى على أحد .

مديحه : أما مديح بشار فانه في الغالب قريب إلى الاعتدال بعيد عن الغلو والإسراف وهو يسلك فيه سبيل زهير بن أبي سلمى وتلميذيه الحطيئة وكثير في عرض فضائل الممدوح وأخلاقه . كما هي ووصفها وصفاً يكاد يكون جافاً لشدة قربه من الحقيقة وماذا تنكر من شاعر يقول لممدوحه : إن الصلة الوحيدة التي تجمع بينه وبينه هي « أنه عاف وهو جواد » وأنه إن أكرم وفادته وأحسن صلته رزق عظيم الأجر وجزيل الشكر وإلا فان أرض الله واسعة :

أخالد لم أخبط إليك بذمة سوى أنني عاف وأنت جواد
أخالد بين الأجر والحمد حاجتي فأيهما تأتي فأنت عماد
فان تعطني أفرغ عليك مدائحي وإن تأب لم يضرب علي سداد

ركابي على حرف وقلبي مشيع ومالي بأرض الباخلين بلاد
إذا أنكرتني بلدة أو نكرتها خرجت مع البازي عليّ سواد

وماذا تنكر من شاعر يقول لممدوحه الذي أثابه على الأبيات السالف ذكرها بأربعة آلاف دينار : أيها الجواد المفضال إن الحمد خالد والمال بائد فاشتر الخالد بالبائد وإن الدنيا عارية فكل منها ماتشاء وأطعم منها ماتشاء ولا تستبقها فانها مردودة في يوم من الأيام :

أخالد إن الحمد يبقى لأهله جمالاً ولا تبقى الكنوز على الكد
فأطعم وكل من عارة مستردة ولا تبقها إن العواري للرد

بل ماذا تنكر من شاعر يطري جواداً منحه ستين ألف درهم نظير أبيات قليلة من المديح"١" فلا يزيد على أن يقول إنه لا يعطيك رغبة في الثناء ولا رهبة من الهجاء وإنما يعطيك لأنه كريم يسره العطاء :

ليس يعطيك للرجاء وللخو ف ولكن يلذ طعم العطاء

على أن بشاراً قد يتغلغل في مديحه إلى أبعد من هذا فيأتي بالمعاني الدقيقة التي لم يسبقه إليها سابق فيما أظن ـ على الأقل ـ والتي تبرأ من الغلوّ والاسراف براءة تامة كما في قوله :

لمست بكفي كفه أبتغي الغنى ولم أدر أن الجود من كفه يعدي
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى أفدت وأعداني فأتلفت ماعندي

« ١ » حدث هذا لعقبة بن سلم عندما مدحه بشار بأرجوزته التي مطلعها : « باطال الحي بذات الصمد » والتي لم يتجاوز مديحه فيها خمسة وعشرين مصراعاً .

ولكنه لايفعل هذا دائماً . على أنك قد تقول وكيف يبرأ هذان البيتان من الغلو والاغراق وأجيب بأن العطاء الكثير قد يحمل على الانفاق الكثير وبهذا يُعدي خالد بشاراً بمرض السخاء فينفق كل مايثيبه به على مدائحه وقد قلت لك عند الكلام على أخلاق بشار إنه كان كريماً متلافاً .

هجاؤه : بيد أنه إن كان بشار معتدلاً في مديحه اعتدالاً لاشك فيه فانه مسرف في هجائه إسرافاً لاشك فيه أيضاً وعلة ذلك أنه يرى أن الهجاء يجب أن يكون موجعاً ليكون مخيفاً وليأتي بالنتيجة المقصودة وإلا فلافائدة في نظمه وقد قيل له : « إنك لكثير الهجاء » فأجاب « إني وجدت الهجاء المؤلم آخذ بضبع الشاعر من المديح الرائع ومن أراد من الشعراء أن يكرم في دهر اللئام فليستعد للفقر وإلا فليبالغ في الهجاء ليخاف فيعطى »[1] وصدق ظن بشار فقد أخذ الهجاء بضبعه ورفع منزلته في عيون الناس فخافه الأمراء والكبراء والعلماء وأكرمه كل فريق منهم بأسلوبه وعلى قدر طاقته بل وفوق طاقته أحياناً . أكرمه الأمراء والكبراء بالهبات والجوائز السنية وأكرمه العلماء بالتنويه بأدبه والاستشهاد بشعره ولم يفعلوا ذلك معه إلا خوفاً من هجائه واتقاءً لمعرة لسانه وقد مر بك مايدل على مخافة العظماء إياه وإليك بعض مايدل على خوف العلماء منه .

حكي أن الأخفش طعن على بشار في قوله :

فالآن أقصر عن سمية باطلي ... وأشار بالوجلى عليّ مشير

« ١ » الأغاني ج ٣ ص ٥١

وفى قوله :

على الغزلي مني السلام فربما لهوت بها في ظل مرءومة زهر

وفي قوله فى وصف سفينة :

تلاعب نينان البحور وربما رأيت نفوس القوم من جريها تجرى

وقال لم أسمع من الوجل والغزل فعلى ولم أسمع بنون ونينان فبلغ ذلك بشاراً فقال ويلي على القصارين متى كانت الفصاحة فيهم دعوني وإياه فبلغ ذلك الأخفش فبكى وجزع فقيل له ما يبكيك؟ فقال ومالي لاأبكي وقد وقعت في لسان بشار الأعمى فذهب أصحابه إلى بشار واستوهبوه عرضه فوهبهم إياه بعد أن وصفه باللؤم فكان الأخفش بعد ذلك يحتج بشعره في كتبه ليبلغه ذلك وليكف شره عنه وفي رواية أن سيبويه هو الذي ندد بأخطاء بشار السابق ذكرها لا الأخفش فهجاه بما لا يسعنا ذكره فاتعظ واعتبر وكان بعد ذلك يحتج بشعر بشار بدلاً من أن ينقده وينبه الى ما فيه من هنات وهفوات "١" .

وقد رويت لك مثلاً قليلة مما يسمح الأدب بروايته من هجاء بشار وأروي لك الآن قصيدة كاملة منه ـ أستغفر الله ـ فان القصيدة التى أريد أن أرويها لاتشتمل على الهجاء فحسب وإنما تشتمل على المديح وعلى الحكم أيضاً . هذه القصيدة التي أريد أن أرويها لك هي ميمية بشار التي هجا بها المنصور عندما ثار عليه إبراهيم بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب ومدح إبراهيم وجاء في أثناء ذلك بحكم ونصائح ربما كانت من خير ما تفتقت قريحته عنه وقدقمت

« ١ » الأغاني ج ٣ ص ٥٢

فتنة إبراهيم وقتل نخاف الشاعر وجعل « أبا مسلم » مكان « أبي جعفر » في صدر القصيدة زاعماً أنه نظمها في هجاء الأول وهذا ما نجاه من فتك المنصور وإلا لضربت عنقه كما ضربت عنق ابراهيم وكما ضربت عنق أبي مسلم أيضاً . ومهما يكن من شيء فهذه هي القصيدة كما يرويها أبو الفرج :

أبا جعفر ماطيب"١" عيش بدائم ... ولا سالم عما قليل بسالم
على الملك الجبار يقتحم الردى ... ويصرعه في المأزق المتلاحم
كأنك لم تسمع بقتل متوّج ... عظيم ولم تسمع بفتك الأعاجم
تقسم كسرى رهطه بسيوفهم ... وأمسى أبو العباس"٢" أحلام نائم
وقد كان لا يخشى انقلاب مكيدة
عليه ولا جريّ النحوس الأشائم
مقيماً على اللذات حتى بدت له ... وجوه المنايا حاسرات العمائم
وقد ترد الأيام غراً وربما ... وردن كلوحاً باديات الشكائم
ومروان قد دارت على رأسه الرحى
وكان لما أجرمت نزر الجرائم
فأصبحت تجري سادراً فى طريقهم
ولا تتقي أشباه تلك النقائم
تجردت للاسلام تعفو سبيله ... وتعري مطاه لليوث الضراغم
فما زلت حتى استنصر الدين أهله ... عليك فعاذوا بالسيوف الصوارم

« ١ » في الأغاني ج ٣ ص ٢٨ ما طول عيش وأظن أن الصحيح ما أثبتناه .
« ٢ » المقصود بأبي العباس هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك .

فرم وزراً ينجيك يا ابن سلامة ... فلست بناج من مضيم وضائم "١"
لحى الله قوماً رأّسوك عليهم ... ومازلت مرؤوساً خبيث المطاعم
أقول لبسام عليـــه جلالة ... غدا أريحياً عاشقاً للمكارم
من الفاطميين الدعاة إلى الهدى ... جهاراً ومن يهديك مثل بن فاطم "٢"
سراج لعين المستضيء وتارة ... يكون ظلاماً للعدو المزاحم
إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن ... برأي نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فان الخوافي قوة للقوادم
وما خير كف أمسك الغل أختها ... وما خير سيف لم يؤيد بقائم
وخلّ الهوينى للضعيف ولا تكن ... نؤوماً فان الحزم ليس بنائم
وحارب إذا لم تعط إلا ظلامة ... شبا الحرب خير من قبول المظالم

وأنت إذا تدبرت هذه القصيدة رأيت أنها تنطوي على مغامز كثيرة ينبغي أن يبرأ منها شعر شاعر فصيح مطبوع على الكلام مثل بشار. فقوله في البيت الثالث « ولم تسمع بفتك الأعاجم » حشو لا فائدة فيـــه ألجأته إليه القافية إذ ما من أحد يزعم أن الأعاجم يمتازون بشيء في هذا الباب وقوله :

(فأصبحت تجري سادراً في طريقهم ... ولا تتقي أشباه تلك النقائم)

« ١ » غير بشار هذا البيت عندما زعم أنه نظم القصيدة في أبي مسلم الخراساني فوضع وشيكة وهي أم أبي مسلم موضع سلامة أم المنصور.

« ٢ » المعروف بين الرواة أن بشاراً حذف هذا البيت من القصيدة عندما ألصقها بأبي مسلم الخراساني لأنه لم يقدر على تغييره وأحسب أن تغييره أمر سهل اذ يكفي أن نضع « الهاشميين » مكان « الفاطميين » و « هاشم » مكان « فاطم » لينتقل البيت من كونه مديحاً لابراهيم العلوي الى كونه مديحاً المنصور.

مغلوط لأن نقمة تجمع على نقم ولا تجمع مطلقاً على نقائم وكان في وسع بشار أن يتحاشى هذا الخطأ بوضع «عظائم» موضع « نقائم » إذ بذلك يستقيم المعنى كما يستقيم اللفظ . وقوله :

(أقول لبسام عليه جلالة غدا أريحياً عاشقاً للمكارم)

رديء أو قل هو أقرب إلى الهجاء منه إلى المديح لأن جملة « غدا أريحياً » تعني أنه كان غير أريحي فيما سلف من أيامه وهذا مالا يريد بشار أن يقوله ولو وضع « طليق المحيا » أو « شريف السجايا » موضع غدا أريحياً لأمكنه تحاشي هذه السقطة ، وقوله :

(سراج لعين المستضيء وتارة يكون ظلاماً للعدو المزاحم)

رديء لأن تشبيه الممدوح بالظلام يشبه أن يكون هجاءً لامديحاً ولو وضع « شواظاً » موضع « ظلاماً » لاستقام له ما أراد من وصف ممدوحه بالهداية لأوليائه وشدة الوطأة على اعدائه دون أن يلجأ إلى تشبيهه بظلمة الليل .

وقوله :

(إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن برأي نصيح أو نصيحة حازم)

مستهجن لاشتماله على ترديد لا محل له اذ المفروض في المستشار أن يكون حازماً أميناً مخلصاً والا لاداعي لاستشارته . ولو وضع بشار « ثاقب الفكر حازماً » أو « صائب الرأي حازماً » موضع « أو نصيحة حازم » لسلم بيته من الهجنة .

وقوله :

(وخل الهوينا للضعيف ولا تكن نؤوماً فان الحزم ليس بنائم)

سخيف اذ من المعلوم جداً أن الحزم والنوم أو الاستغراق في النوم أمران متناقضان ، ويزداد شعورنا بسخف البيت اذا تذكرنا أن بشاراً يخاطب به ثائراً كبيراً يرشح نفسه لتولي منصب الخلافة ، وقد أخذ السيد صالح القزويني أحد شعراء نهضة العراق الادبية فى القرن التاسع عشر هذا المعنى فأودعه بيتاً لا أغلو مطلقاً اذا قلت لك انه يفضل بيت بشار مراراً عديدة وهو :

أمط عنك أبراد الكرى وامتط السرى فما في اغتنام المجد حظ لنائم

فأين قوله « فما فى اغتنام المجد حظ لنائم » من قول بشار « ولا تكن نؤوماً فان الحزم ليس بنائم » وفي قصيدة بشار مواطن ضعف أخرى عديدة أقل خطراً من التي ذكرت رأيت أن أضرب عنها صفحاً .

وقدرويت هذه القصيدة كلها وآثرتها بالنقد لأنها أكبر قصيدة وصلتنا من شعر بشار وأجمعها لأغراضه وأظهرها لعيوبه وسقطاته ولأن الرواة والنقاد القدماء كانوا يعجبون بها إعجاباً شديداً فأبو عبيدة مثلاً يفضلها على ميميتي جرير والفرزدق اللتين هما من عروضها وقافيتها ولأن النقاد المحدثين الذين كتبوا عن بشار أظهروا رضاءهم عنها واستحسانهم لها . وقد عللت اعجاب القدماء بها وعدم انتباههم إلى عيوبها بموافقتها هوى في نفوسهم — ذلك لأنها تعد بحق ونبة جريئة في وجه طاغية أرهقهم بظلمه وأشقاهم بعسفه واستبداده هو أبو جعفر المنصور ولكني لم أستطع أن أعلل رضاء المحدثين عنها وعدم انتباههم إلى عيوبها بشيء .

على أني لا أنفي أن القصيدة تشتمل على أبيات نفيسة حقاً ، منها هذان

البيتان :

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة فان الخوافي قوة للقوادم
وما خير كف أمسك الغل أختها وما خير سيف لم يؤيّد بقائم

ومنها هذا البيت :

وحارب إذا لم تعط إلا ظلامة شبا الحرب خير من قبول المظالم

وإن كان مثله كثيراً في القريض العربي .

رثاؤه : وما أحدثك بشيء عن رثاء بشار لأنه في زعمي تافه لاقيمة له. وليس بشار أول شاعر ماجن ميت العاطفة متحجر الاحساس نزلت به المصائب وفقد الأبناء والأحباب فلم يقل في ذلك كلاماً يشف عن لوعة صادقة ويدل على إحساس متأثر .

فخره : ولكني أحدثك عن فخره وهو كثير وعجيب وموضع العجب منه أنه لايغادر صغيرة ولا كبيرة مما يفخر به الناس حتى يعرض لها ويسجلها ويستغلها لمصلحة الشاعر . فبشار كما يصوره فخره أمير جليل ولد في أحضان الملك ونشأ في في ظل النعيم والترف، له كل ما لأبناء الملوك النجباء من جمال وجلال وهيبة ووقار وكرم وشجاعة وفصاحة ووسامة إلى غير ذلك مما يبهر ألباب الرجال ويسيل لعاب ربات الحجال . وما أريد أن أنكر على بشار ذكاءه ولا أدبه ولا فصاحته ولا كرم طبعه ولكن يخيّل إلي أنه يسرف بعض الشيء فى انتحال جميع ما ورد ذكره من الصفات والمواهب العالية . وقد رويت لك في صدر هذا الفصل أبياتاً له يفخر فيها بنسبه وشجاعته وجماله ورويت له كذلك في مكان آخر منه أبياتاً

يفخر فيها بكرمه وأريحيته وأروي لك الآن مثلاً من فخره بأسياده من قيس عيلان "١" الذى ينوه بعددهم وعُددهم في بائيته الشهيرة التي يمدح بها عمر ابن هبيرة ويتحدث عن الدور الحاسم الذي لعبوه تحت راية هذا القائد في دحر الضحاك بن قيس وانصاره من الخوارج قال بشار :

رويد "٢" تصاهل بالعراق جيادنا ... كأنك بالضحاك قد قام نادبه
وسامٍ لمروان ومن دونه الشجا ... وهول كلج البحر جاشت غواربه
ركبنا له جهراً بكل مثقف ... وأبيض تستسقي الدماء مضاربه
وجيش كجنح الليل يزحف بالحصى "٣" ... وبالشوك والخطى حمر ثعالبه
غدونا له والشمس في خدر أمها ... تطالعنا والظّل لم يجر ذائبه
بضرب يذوق الموت من ذاق طعمه ... وتدرك من نجّى الفرار مثالبه
كأن مثار النقع فوق رؤوسنا ... وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه
بعثنا لهم موت الفجاءة إننا ... بنو الموت خفاقاً علينا سبائبه "٤"
فراحوا فريق في الإسار ومثله ... قتيل ومثل لاذ بالبحر هاربه
اذا الملك الجبار صعّر خده ... مشينا اليه بالسيوف نعاتبه

« ١ » قيس عيلان قبيلة كبرى من مضر منها بنو عقيل الذين نشأ الشاعر بين ظهرانيهم في البصرة وانتمى اليهم بالولاء .

« ٢ » اذا أريد التهديد برويد نصبت من غير تنوين .

« ٣ » الحصى هنا العدد الكثير .

« ٤ » خفاق : متحرك ، والسبائب : جمع سبيبه ، وهي شقة رقيقة من الكتان ، والمراد بها هنا الراية يقول : نحن بنو الموت تخفق علينا رياته .

حكمه : أمّا حكم بشار فانها قليلة تأتي عرضا في أثناء المديح والهجاء والعتاب ولكنها نفيسه رائعة وقد قال بعضها في مناسبات خاصة أوحتها اليه وأملتها عليه فأجاد فيها اجادة تامة ومن هذا القبيل أبياته في (الشورى) فان سياسة أبي جعفر الاستبدادية الغاشمة هي التي أملتها عليه املاءً وقال بعضها الآخر على سبيل الإفضاء بما يجول في النفس من آراء وخواطر تحتشد في نفس الشاعر من حين لآخر فتشق طريقها الى شعره بمناسبة وبدون مناسبة ومن هذا القبيل قول بشار في أرجوزته المعروفة :

وافق حظاً من سعى بجد ماضر أهل النوك ضعف الجد
الحر يلحى والعصى للعبد وليس للملحف مثل الرد
والنصف يكفيك من التعدي

فهذه الحكم لاترمي الى معالجة حادث أو موضوع بعينه وانما هي آراء وملاحظات استمدها الشاعر من تجاربه واختباراته فأفرغها في هذا القالب التعليمي . والادب العربي غني بأمثال هذه الحكم قبل بشار وبعده ومن أجل هذا يخيل اليَّ أنني لا أظلم بشاراً ولا أسوؤه اذا قررت أن أكثر حكمه غير جديد فمن المعلوم أنه أخذ قوله : الحر يلحى والعصا للعبد ، من قول أبي الأسود الدؤلي :

العبد يضرب بالعصا والحر تكفيه المقالة

وقوله :

خير اخوانك المشارك في المرّ وأين الشريك في المر أينا

من قول المرقّش :

أخوك الذي ان أجرضتك ملمة من الدهر لم يبرح لها الدهر واجما

ولو شئت لأفضت في سرد الأمثلة حتى أرد أكثر حكم بشار الى أصول جاهلية أو اسلامية ولكن ما أنا بسبيل هذا الآن . على أني لا أميل الى القول ان بشاً أخذ هذه الحكم ممن سبقه من الشعراء أخذاً ولكني أرجّح أنها وردت على خاطره بسبب الظروف والأحوال التي أحاطت به كما وردت على خاطر من تقدمه من الشعراء . على أن هذا لا يعني أننا لا نجد لبشار كلمة أصيلة في هذا الضرب من الشعر فأكبر الظن أن شاعراً لم يسبقه الى قوله في الشورى :

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة فان الخوافي قوة للقوادم
وما خير كف أمسك الغل أختها وما خير سيف لم يؤيد بقائم "١"

ولكن كم نعد من أمثال هذين البيتين في شعر بشار ؟

وللصديق في حكم صاحبنا مكان كبير فهو يوصي برعايته والمحافظة عليه ويدعو الى تقدير حسناته والصفح عن سيئاته ويحث على معاملته بكرم ورفق وتسامح ذلك لأنه يعتقد أن البشر عرضة الخطأ قليله وكثيره وأنه لا غنى للانسان عن الانسان. وعلى هذا فخير للاخوان أن يتسامحوا في هفواتهم ويتبادلوا الصفح عن زلاتهم:

« ١ » من طريف ما يحكى في هذا الصدد أن الأصمعي قال لبشار : « يا أبا معاذ ، ان الناس يعجبون من أبياتك في المشورة » فقال له : « يا أبا سعيد ان المشاور بين صواب يفوز بثمرته أو خطأ يشارك فيه » فأجابه الأصمعي : « أنت والله في قولك هذا أشعر منك في شعرك » الأغاني ج ٣ ص ٢٩

إذا كنت في كل الأمور معاتباً صديقاً لم تلق الذي لاتعاتبه
فعش واحداً أوصل أخاك فانه مقارف ذنب مرة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت وأيّ الناس تصفو مشاربه

على أن بشاراً قد يثور على سياسته التقليدية هذه فيعلن سخطه على الآخوان وشكّه فيهم ونفوره منهم ويصفهم بأنهم أعداء منافقون وخصوم مخادعون :

خير إخوانك المشارك في المرّ وأين الشريك في المرّ أينا
الذي إن شهدت سرّك في الحيّ وإن غبت كان أذناً وعينا
مثل سر الياقوت ان مسه النار جلاه البلاء فازداد زينا
أنت في معشر اذا غبت عنهم بدّلوا كل مايزينك شينا
واذا ما رأوك قالوا جميعاً أنت من أكرم البرايا علينا
ما أرى للأنام وداً صحيحاً عاد كل الوداد زوراً ومينا

وغني عن البيان أن بشاراً لم يكن أول من خبر الناس فأساء الظن بهم ودعا للاعراض عنهم والزهد بهم ولا آخره .

د ـ خاتمة : أما بعد فان بشاراً ثالث ثلاثة هم : الحطيئة ، وجرير ، وهو ليست له

عفة هجاء الأول ولا صحة لغته وصفاء أسلوبه وليست له براعة الثاني في الرثاء والعتاب ولا كثرة جيده في المديح والهجاء بل ولا رقة غزله وذلك على الرغم مما رويت لك من روائع غزل بشار ، ولكن له ضعة نسب الرجلين وسعة

مطامعهما وسمو مواهبهما وقوة عارضتهما وقدرتهما على التكسب بالشعر على أنهما لا يرتفعان من ناحية أخرى الى ما عنده من أنفة وشمم من حيث هو رجل ومن أمثال وحكم من حيث هو شاعر .

أما تجديده القريض العربى فانه حديث خرافة قد لا يعدو أن يكون دعاية شعوبية .

الفصل الثاني

أبو نواس

أ ـ حياته : اسمه ونسبه وكنيته . مولده . مسقط رأسه . نشأته ، في حانوت عطار . مع أدباء البصرة المجان ، مع والبة ، خروجه الى البادية ، عودته منها ، قفوله الى البصرة ، تناقض أخباره فيها ، جد ولعب ، سفره الى بغداد ، خيبته فيها ، رحلته الى مصر ، نجاحها ، خاتمتها السيئة ، عودته ألى بغداد ، حبسه ، سببه ، الافراج عنه ، اتصاله بالأمين ، حظوته عنده ، أثره في سمعته ، دعوة الأمين اياه الى تحسين سلوكه ، طاعته في الظاهر ومخالفته في الباطن ، حبسه ثانية التفكير في قتله ، توبته في السجن ، شفاعة الفضل بن الربيع له اطلاقه ، ما يقال عن توبته خارج السجن ؛ وفاته ، سببها . تاريخها .

ب ـ صفاته : محاسنه ومساوئه .

ج ـ شعره : جمعه وطبعه ، أبواب ديوانه ، ماذا ندرس منه .

غزله : نصيبه من الاصالة ، مثل منه .

مديحه : تصديره ببكاء الاطلال ووصف الناقة ، الجمع بين ماتقدم وبين الخمر في صدور مدائحه . قصيدة له في مدح الرشيد . بعض عيوب مديحه الأخرى ؛ غلوّه ، غموضه ، ركاكته ، سرقاته ، مديحه الجيد ، ومثل منه .

هجاؤه : بذاءته وصرامته ، سببه وغايته ، غلبة الفكاهة على بعضه ، مثل من هجائه الفكه .

خمرياته : ما أضيف اليها من خمريات الآخرين ، أثر الخمر في القريض العربي في شعر الأعشى في شعر طرفة ، في شعر الأخطل ، في شعر الوليد بن يزيد بن عبدالملك ، نسج ابي نواس على منوال من تقدمه من الشعراء في الخمر . مثل من خمرياته ، بعض مجددي القريض العربي ، الفرق بينهم وبين أبي نواس .

د ـ خاتمة : الفصل في شاعرية ابي نواس وقدرته على التجديد

١ — حياته :

كان بشار حامل لواء الشعر فى النصف الآول من القرن الثاني للهجرة . أما حامل هذا اللواء فى النصف الثاني من القرن المذكور ، فهو فيما يعتقد الرواة ، ابو نواس : وهو الحسن بن هانىء ، وحسبك هذا من نسبه، لأن الرواة يختلفون في جده فمنهم من يزعم أنه عبدالأول ، ومنهم من يزعم أنه الصبّاح . وإنه لغريب حقاً أن يختلف الرواة في جده الأول ثم يرتقون بنسبه إلى يعرب ابن قحطان ثم إلى نوح عليه السلام . وكان صاحبنا يكنّى في أول امره بأبي علي ، إلا انه لما رغب فى الانتساب إلى تميم وأن يكون من أبناء الفرزدق الشاعر اكتنى بأبي فراس وهي كنية الفرزدق ، توكيداً لصلته به ، فلما أبت عليه تميم ذلك وتحول إلى اليمن أكتنى بأبي نواس مشتقاً هذه الكنية من اسم أحد ملوك اليمن (ذي نواس) ، وكان ملوك اليمن يسمون بالذوين فكان أحدهم يدعى (ذا يزن) والثاني (ذا كلاع) والثالث (ذا جدن) وهكذا . ويقال إن استاذه خلف الأحمر الذي كان يحبه حباً جماً وهو ذو ولاء فى اليمن هو الذي أشار عليه باتخاذ كنية تدل على صلته الموهومة باليمن . وقيل إنه كني بأبي نواس لذؤابتين كانتا تنوسان « أى تتحركان على عاتقيه .

وكان هانيء والد الشاعر جندياً في جيش مروان بن محمد ، آخر خلفاء بني أمية. وأتفق أن ذهبت (الوحدة) التي يعمل فيها الي الأهواز، فعرف هناك (جلبّان) ـ أي وردة البستان ـ والدة الشاعر، وهي غاسلة صوف أو ناسجة جوارب

وأخراج ، فتزوجها وأولدها عدة أولاد أحدهم صاحب الترجمة .

وليس من شك في أن ولادة الشاعر لم تسجل في حينها ، وليس من شك كذلك فى أنها لم تلفت انتباه أحد وهذا مايفسر تضارب أقوال الرواة فيها إلى الحد الذي نراه . ولكن ربما كان أحق هذه الأقوال بالاعتبار قول الجاحظ : « أنا أسن من أبي نواس بسنة ، ولدت أول سنة خمسين ومائة وولد فى آخرها »[١]

ومسقط رأس الرجل موضع خلاف شديد أيضاً ، فقد قيل أنه ولد فى الأهواز ، وقيل إنه ولد فى البصرة ؛ وقيل إنه ولد في مكان آخر .

ولكن الرواة متفقون على أن والده مات وهو صغير فأسلمته أمه الى عطار فى البصرة يعمل فى حانوته ليعينها على ما تقاسي من ضنك العيش وضيق ذات اليد . ولكنه كان يكره هذا العمل ويميل الى رواية الشعر ودراسة الأدب ومجالسة الأدباء . فقاده ذلك الى مصاحبة أدباء البصرة المجان ، فكان هؤلاء يقربونه ويستخدمونه ويأخذونه معهم كلما خرجوا الى نزهة فى ضواحى البصرة ويعطونه ديناراً نظير خدمته لهم .

وكان وهو فى تلك السن المبكرة معجباً بشعر والبة بن الحباب الأسدي ، أحد مشاهير شعراء عصره الخلعاء ، ويود لو أتيح له الاتصال به والتخرج عليه . وقدم والبة البصرة فى شأن من شؤونه وارادت الظروف أن يمر بالعطار الذي يعمل أبو نواس فى حانوته فلفت انتباهه جمال الصبى وذكاؤه فقال له :

« ١ » معجم الأدباء ج ١٦ ص ٧٤ طبعة مصر .

« ياغلام إني أرى فيك مخايل أرى ألا تضيعها وستقول الشعر فاتبعني أخرجك » . وسأله الغلام عن اسمه فأخبره به فقال له : والله إني لفي طلبك وقد أردت أن أخرج إلى الكوفة من أجلك . وذهب والبة بذلك الصبي العاثر الحظ ودربه على قرض الشعر ولكنه تقاضى ثمن ذلك منه غالياً جداً ، فقد رباه أسوأ تربية ونشأه أرذل نشأة فخلق منه فتىً ماجناً سكيراً مستهتراً لا يتورع في إرضاء شهوة ولا يحجم عن إتيان منكر وما كان له أن يكون أي شيء آخر وهو عشير حماد عجرد ومطيع ابن إياس ويحيى بن زياد وأضرابهم من زنادقة الكوفة وخلعائها .

وعندما بلغ ذلك الغلام سن الشباب رأى أن يستكمل ثقافته الأدبية فاستأذن والبة بالخروج إلى البادية ليشافه الأعراب الفصحاء ويتزود بما عندهم من شعر ولغة وخبر فأذن له . وقيل بل أرسله مع جماعة من بني أسد إلى باديتهم حيث أمضى سنة كاملة عاد بعدها إلى الكوفة ثم قفل راجعاً إلى البصرة .

وهنا تتناقض أخبار أبي نواس تناقضاً شديداً فتصوره لنا رجل جد واجتهاد ودرس حيناً ، ورجل غرام ولهو ومغازلة حيناً آخر . فهي تقول لنا من جهة إنه حذق القرآن على يعقوب الحضرمي حتى قال له « اذهب فأنت أقرأ من في البصرة » ودرس الحديث على جماعة من كبار محدثي البصرة منهم عبدالواحد ابن زياد العبدي ويحيى القطان وأزهر السمان وأخذ الغريب عن أبي زيد الأنصاري والأخبار وأيام العرب عن أبي عبيدة ودرس الشعر على خلف الأحمر وراجع نحو سيبويه فتمكن منه . ولكنها تقول لنا من جهة أخرى إنه عشق جارية حسناء لعبدالوهاب الثقفي اسمها جنان فكان يلاحقها ويطاردها ويصف ما يجري لها في

شعره ويذيعه في الناس . فاذا حضرت حفلة عرس قارن بينها وبين العروس وفضلها عليها فتنةً وجمالا وإذا حضرت مأتماً في دار أحد مواليها نظر إليها من نافذة مجاورة ووصفها وهي تلطم وتبكي وتنشج وهكذا .

ويمضون في شرح حديثه معها فيقولون لنا إن سيدتها (عمارة) زوجة عبدالوهاب الثقفي المذكور خرجت إلى الحج فأخذتها معها فما كان من أبي نواس إلا أن خرج حاجاً معهما . وواضح أن رجلاً ينقطع إلى القرآن والحديث ويقبل على دراسة سائر العلوم المعروفة في عصره ذلك الاقبال الشديد - لايملك من الوقت وفراغ البال ما يمكنه من تعقب الغيد الحسان وملاحقتهن ومطاردتهن والانتقال معهن من بلد إلى بلد . ولكن نقلة أخبار أبي نواس لا يرون بأساً في الجمع بين هاتين الحالتين المتعارضتين المتناقضتين .

ومهما يكن من شيء فقد غادر أبو نواس البصرة كارهاً لها بعد أن جاوز الثلاثين ونزل بغداد واتصل ببعض ولد المهدي ونادمهم ثم بالقاسم بن الرشيد ومدح الرشيد والعباس بن عبيدالله بن المنصور أحد كبار أمراء البيت العباسي وآل برمك وآل الربيع ولكن يخيل إليّ أنه لم يلق كبير حظوة عندهم . فليس في شعره ما يدل على أنه ظفر بالمال الكثير والجاه العريض عند ممدوحيه في بغداد جميعاً أو عند أحد منهم بل إن في شعره ما يدل على ضعة منزلته وضيق ذات يده دلالة قاطعة فانه يقول متغزلاً في صدر قصيدة يمدح بها العباس ابن الفضل بن الربيع :

أمشي إلى جنبها أضايقها ولم يكن في الطريق من ضيق

ويقول متبرماً بأصحابه :

أريد قطعة قرطاس فتعجزني وجل صحبي أصحاب القراطيس (١)

فما ظنك بهذا الشاعر الذي يضايق النساء في الطريق ولم يكن في الطريق من ضيق ويذكر هذا في شعره ؟ بل ما ظنك بهذا الشاعر الذي يريد قطعة قرطاس فتعجزه ؟ انه بائس كل البؤس دون أدنى شك ، وضيع المنزلة كل الضعة دون أدنى شك أيضاً . وليس في هذا ما يدعو إلى الاستغراب فانه كان من شدة الغلوّ في اللهو والاستهتار بالدين والأدب بحيث يعترف في صدر قصيدة يمدح بها الرشيد أنه باع ريطته وحذاءه واشتري بثمنهما خمراً :

فما رمته حتى أتى دون ما حوت يميني حتى ريطتي وحذائي (٢)

وما أريد أن أخلع على الرشيد رداء القداسة ولكني أستطيع أن أقرر بصورة جازمة أنه لم يكن من خطل الرأي وضعف السياسة بحيث يقرّب شاعراً سكيراً خليعا مستهتراً يعترف في صدر قصيدة يمدحه بها مثل هذا الاعتراف .

إذن فقد كان محروماً من عطف الرشيد محروماً من جوائزه إلا ما ندر . وصحيح أن آل الربيع كانوا يقربونه ويرفعون من شأنه ويجيزونه على مدائحه ليتخذوا منه داعية لهم وليستعينوا به على الغض من البرامكة والطعن عليهم ، ولكن يظهر أن جوائزهم كانت أقل من أن تفي بنفقات مجالس الطرب التي يعقدها على الصراة أو في سوق الكرخ

---

(١) أظنه يشير بهذا الى صاحبيه عمرو الوراق واسماعيل القراطيسي .

(٢) الضمير في قوله : « فما رمته » عائد الى « بيت الحان » المذكور في بيت سابق .

مع داود بن رزين وعمرو الوراق واسماعيل القراطيسي وغيرهم من الخلعاء .

ولهذا صفرت يده وساءت حاله في بغداد فعوّل على انتجاع الخصيب والي مصر في مقر عمله وكان قد عرفه من قبل فشد إليه الرحال من بغداد ومدحه أول ما مدحه برائيته الشهيرة التي مطلعها :

أجارة بيتينا أبوك غيور ... وميسور مايرجى لديك عسير

والتي يقول فيها :

تقول التي من بيتها خفّ مركبي ... عزيز علينا أن نراك تسير
أما دون مصر للغنى متطلَّب ... بلى إن أسباب الغنى لكثير
فقلت لها واستعجلتها بوادر ... جرت فجرى في جريهن عبير
ذريني أكثّر حاسديك برحلة ... الى بلد فيه الخصيب أمير
إذا لم تزر أرض الخصيب ركابنا ... فأي فتى بعد الخصيب تزور

وقد أكرم الخصيب وفادته وأحسن صلته فبلغت جوائزه له على عدة مدائح ثلاثة آلاف دينار - فيما يقول الرواة - ولكنه أنفق جوائز الخصيب كلها في وقت قصير وطلب المزيد كما كان يفعل مع ممدوحيه في بغداد ، ورأى الخصيب أنه بلغ حدّ طاقته في إثابة أبي نواس على مدائحه فرغب إليه أن يفارقه . وكانت هذه صدمة عنيفة قضت على آخر أمل لأبي نواس في الثراء ورغد العيش . وذكر الشاعر بغداد وأيام لهوه وطربه فيها . فتقطعت نفسه حسرة وألماً وعبرّ عن تلك الحسرة وذلك الألم بهذين البيتين اللذين يرويهما له المصريون دون غيرهم من الناس وهما :

إذا ذكرت بغداد لي فكأنما تحرك في قلبي شباة سنان
وأوبة مشتاق بغير دراهم إلى أهله من أعظم الحدثان

وعاد الشاعر إلى بغداد صفر اليدين كما رحل عنها ، ولسنا نعرف شيئاً واضحاً من تأريخه فيها بعد عودته من مصر سوى أن الرشيد «حبسه لأنه هجا القبائل العدنانية عامة وقريش خاصة هجاء أسرف فيه الاسراف كله» إليك منه هذه الأبيات التي يخيل إلي أنه لاحرج في روايتها :

إن قريشاً إذا هي انتسبت كان لنا الشطر من مناسبها
فأم مهدي هاشم أم مو سى الخير منا فافخر وسام بها(١)
إن فاخرتنا فلا افتخار لها إلا التجارات من مكاسبها
وإنها إن ذكرت لمكرمة جاءت تجاراتها بغالبها

ولكني أظن أن الرشيد حبس أبا نواس لسبب أعمق من هذا بكثير ألا وهو هجاؤه أخته العباسة أو هجاؤه بها هجاء قبيحاً تجده في الصفحة ١٤٤ من ديوانه طبعة المطبعة الحميدية بمصر سنة ١٤٢٢ هـ . وسواء أحبس الرشيد أبا نواس لأنه هجا العدنانيين عامة وقريش خاصة أم لأنه هجا أخته العباسة أو هجاه بها . فاني ألمح في اقدام أبي نواس على نظم هذه الأهاجي رغبة شديدة في الانتحار فقد كسدت سوقه وساءت حاله في بغداد وقصد مصر « وهو يرجو اليسارة على يد الخصيب آخر الدهر » ولكنه رجع من مصر ومن الخصيب بخفي حنين - أستغفر الله -

---

(١) يريد أم المهدي ثالث خلفاء بني العباس لأنها يمنية مثله كما يزعم .

بل أنه رجع وحاله أسوء بكثير مما كانت عليه من قبل . ولم يكن ذلك نتيجة شحّ الخصيب فقد قلت لك أنه أعطاه ثلاثة آلاف دينار ولكنه كان نتيجة عبث الشاعر وأسرافه فضاق ذرعاً بهذه الحياة التي وصفها بقوله :

ولو أني استزدتك فوق مابي من البلوي لأعوزك المزيد
ولو عرضت على الموتى حياتي بعيش مثل عيشي لم يريدوا

وعول على الانتحار ليضع حداً لآلامه ولكنه لم يكن يملك الشجاعة التي تمكنه من أن يتناول جرعة سمّ تقضي على حياته أو أن يفعل شيئاً آخر من هذا القبيل . فرأى أن يتحدى الخليفة بهذه الأهاجي وكله يقين أن الرشيد قتله لا محالة ولكن الرشيد خيب أمله فأمر بحبسه فقط ظناً منه أن هذه العقوبة تكفي لتأديب شاعر بذيء اللسان سيء الأدب . وأساء رجال السجن معاملة الشاعر فضاق صدره ونفد صبره واخذ يتضرع ويستغيث بالرشيد والفضل بن الربيع وكل مقرّب في القصر كبيراً كان أم صغيراً فلم يصغ الى ندائه احد ولكن يظهر أنه كان كبير الأمل بعطف الفضل ابن الربيع لكثرة مديحه اياه ومشايعته له في مناهضة البرامكة ولأنه آخر الأمر يمني مثله فلما خيب هذا أمله ولم يشفع له عند الرشيد أو لم تجد شفاعته له عنده صب عليه جام غضبه وهجاه واليمن التي ينتسب - أستغر الله - بل ينتسبان اليها معاً بهذه الأبيات :

حملى مركبي مني السلام وبزتي وغدوات لهو قد فقدن مكاني
فلو أن خدنيّ القريبين أبصرا خضوعي للسجان ما عرفاني

ولو أبصراني والقيود تقودني ومشي إلى البواب بالنجشان (١)
لحى الله من أمسى يرشح نصره بفك أسير منه عند يماني
ومالي وقحطاناً وبث مديحها ونصبي لها نفسي بكل مكان
فان أمس لا تخشى لسيفي فتكة فلا تأمنن يا فضل فتك لساني
وإني لأرجو أن أراك كجعفر ونصفاك فوق الجسر يقتسمان

والمعروف بين الرواة أن الرشيد لم يصفح عن أبي نواس ولم يعد إليه حريته وأن الأمين هو الذي فعل ذلك بعد وفاة والده وقد فعله تلبية لرجاء وزيره الفضل بن الربيع ولكن أبو نواس يقول لنا إن الرشيد غفر له وصفح عنه وأطلقه :

هذا أمير المؤمنين انتاشني والنفس بين محنجر ومخنق(٢)
نفسي فداؤك يوم دابق منعماً لولا عواطف حلمه لم أطلق
حرّمت من لحمي عليك محللا وجمعت من شتى إلى متفرق

وليس ثمة ما يدل على أن الرشيد حبس أبا نواس مرة أخري ليتسنى التوفيق بين ما يقوله أبو نواس عن نفسه وبين ما يقوله الرواة عنه في هذا الشأن .

وتوفي الرشيد فخلفه ابنه الأمين وألقى بمقاليد وزارته أو قل مملكته إلى الفضل بن الربيع ورأى هذا أن يقرب شاعره وداعيته إلى

---

(١) النجشان : السوق الشديد .

(٢) انتاشني : انقذني ، ومحنجر : بلغ الحنجرة ، ومخنق بلغ المخنق يقول انقذني الرشيد من الموت عندما أوشكت نفسي أن تزهق .

الخليفة الجديد ففعل ، ومدح أبو نواس الأمين بميميته التي يقول فيها:

وتجشمت بي هول كل تنوفة هوجاء فيها جرأة إقدام
تذر المطي وراءها فكأنها صف تقدمهن وهي إمام
وإذا المطي بنا بلغن محمداً فظهورهن على الرجال حرام(١)

وأجاز الخليفة الشاعر على في مدحته بألف دينار ثم أمره بملازمة القصر فكن شاعره المقدم ونديمه المقرب . واذا صح ما رواه ابو الفرج استطرادا في أخبار أبي العتاهية من أن أبا نواس رؤي (في نهر طابق) جالساً ممدود الرجل وبنو هاشم وكبار القواد يمرون به ويسلمون عليه فيرد عليهم السلام وهو جالس (٢) أقول إذا صح هذا وهو ما استبعده فينبغي أن يكون قد حدث في أيام الأمين لأن الرشيد أكثر جدا وأشد حرصاً على وقار الخلافة من أن ينال شاعر ماجن كأبي نواس عنده مثل هذه الحظوة .

ولكن لم تدم هذه السعادة طويلا فما لبثت الفتنة أن نشبت بين الأمين والمأمون والتمست العيوب والمطاعن للاول فكانت صلة أبى نواس من أشدها وقد وجد الفضل بن سهل في هذا المطلع :

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر ولا تسقني سراً إذا أمكن الجهر

مسوغاً لنقض بيعة الأمين وسبباً لاعلان الحرب عليه ، وبلغ الأمين

---

(١) من اغرب ما في هذه الابيات أن ابا نواس يزعم أنه تجشم التنائف اي القفار وأعمل المطي الى الامين مع أنه مقيم في بابه يراوحه ويغاديه اضف الى ذلك أن الناقة لا توصف بالجرأة والاقدام وانما توصف بشدة الاسر وسرعة الجري وأن كلمة (اقدام) عطفت على جرأة بدون واو مع ان هذه لازمة في مثل هذا المقام .

(٢) الاغاني ج٣ ص١٥٦ طبعة مطبعة التقدم بمصر .

ذلك فغيّر مظاهر حياته وأمر نديمه وشاعره أن يفعل فعله .

فتظاهر هذا بالطاعة ووصف طاعته وتوبته وإقلاعه عن غوايته بهذه الأبيات :

أعاذل أعتبت الامام وأعتبا ... وأعربت عما في الضمير وأعربا
وقلت لساقيها أجزها فلم يكن ... ليأبى أمير المؤمنين وأشربا
فجوّزها عني سلافاً ترى لها ... إلى الأفق الأعلى شعاعاً مطنّبا
إذا عب فيها شارب القوم خلته ... يقبل في داج من الليل كوكبا
ترى حيث ما كانت من البيت مشرقاً ... وما لم تكن فيه من البيت مغربا
يدور بها ساق أغن ترى له ... على مستدار الأذن صدغاً معقربا
سقاهم ومناني بعينيه منية ... فكانت الى قلبي ألذ وأطيبا

وواضح أن هذه الأبيات لما فيها من وصف طريف للخمر وتشبيب بالساقي أقرب للدلالة على الاصرار منها للدلالة على التوبة يؤكد هذا أن أبا نواس لم يغير شيئاً من أحواله بل انه ذهب الى أبعد من ذلك فهجا الأمين وسخر منه غير مره ولم يكن ذلك ليخفى على الأمين فعقد النية على حبسه بل على قتله وانتهز فرصة نظمه قصيدة في الفخر يقول فيها:

وقد زادني تيها على الناس أنني ... أراني أغناهم وان كنت ذا فقر
ولو لم أنل فخراً لكان صيانتي ... فمي عن سؤال الناس حسبي من الفخر
ولا يطمعن في ذاك مني طامع ... ولا صاحب التاج المحجب بالقصر

فاستدعاه ووبخه توبيخاً شديداً وكان عنده سليمان بن أبي جعفر

فزاد في الطين بلة وذلك بأن شهد على الشاعر أنه من كبار (الثنوية)[١] وشهد الحاضرون بذلك فأمر الأمين بحبس الشاعر ويبدو من حبسه بهذه الصورة أن خطةً مدبرة كانت مرسومة للايقاع به وهنا صحا المترجم من سكره فرأى أجنحة الموت ترفرف على رأسه وعاوده هلعه المعتاد ففزع الى الأمين يستوهبه دمه ويسأله الابقاء على حياته ٠

بك أستجير من الردي ... متعوّذا من سطو باسك
وحياة رأسك لا أعو ... د لمثلها وحياة راسك
من ذا يكون أبا نوا ... سك ان قتلت أبا نواسك

ولم يعبأ الأمين به ففزع الى وزيره الفضل بن الربيع يستغيثه ويستعطفه ويؤكد له أنه قد أقلع عن غوايته وتاب توبة صادقة ويعزو اليه الفضل في ذلك :

أنت يا ابن الربيع ألزمتني النسـ ... ـك وعودتنيه والخير عاده
فارعوي باطلي وأقصر حبلي(٢) ... وتبدلت عفة وزهاده
لو تراني ذكرت بي الحسن البصـ ... ـري في حسن سمته أو قتاده
المسابيح في ذراعي والمصـ ... ـحف في لبتي مكان القلاده
واذا شئت أن تري طرفة تعـ ... ـجب منها مليحة مستفاده
فأدع بي لاعدمت تقويم مثلي ... وتفطن لموضع السجاده
تر إثراً من الصلاة بوجهي ... توقن النفس أنه من عباده

---

(١) الثنوية : فرقة من المجوس تعبد النور والظلمة ٠

(٢) هكذا في الديوان وربما كان الصواب وأقصر جهلي ٠

لو رآه بعض المرائين يوماً لاشتراه يعده للشهاده
ولقد طالما شقيت ولكن أدركني على يديك السعاده

وغني عن البيان أن الفضل بن الربيع لم يكن لينخدع بهذا الكلام المزخرف وما يجري مجراه مما كان يرسله اليه أبو نواس من سجنه معلناً توبته مؤكداً إقلاعه عن مجونه وإسرافه على نفسه ولكنه شفع بالشاعر رأفة به ، أو طمعاً بمديحه وقبلت شفاعته فخرج صاحبنا من السجن بعد أن كان يخيل له أنه غير خارج منه إلا الى القبر فكتب الى أهله يقول:

اني أتيتكم من القبر والناس محتبسون للحشر
لولا أبو العباس ما نظرت عيني الى ولد(١) ولا وفر

ومعلوم أن المقطوعات التي كتب بها أبو نواس إلى الفضل بن الربيع

---

(١) يتحدث الرواة بأن أبا نواس كان كارهاً للزواج وان اهله ارادوه عليه فتزوج من جارية لم يقض معها يوماً كاملا ولكن هذا البيت يدل دلالة قاطعة على أنه متزوج وله اولاد وهناك شواهد اخري عديدة من شعر الرجل تؤيد ما ذهبنا اليه تأييداً قاطعاً منها قوله في ابنة له اسمها برة :

ألا ان بنتي بنت من لم ير ابنة ولا ابناً سواها قد تبر وتؤنس
فيا بر بريني حياتي وان أمت فلا تدخريني دمعة حين ارمس
فداك ابن سوء لا يري لعشيرة سلاحاً ولا يعطى اللواء فيرأس
تحب أباها حب من لا أبا له وتذكره في الصدر وحشي فتأنس

وقوله في قصيدة يمدح بها الخصيب :

يا ابنتي ابشري بميرة مصر وتمني وأسرفي في الاماني
انا في ذمة الخصيب مقيم حيث لا تعتدي صروف الزمان

وهناك شواهد اخري على هذا رأيت ان اضرب عنها صفحاً رغبة في الايجاز ولكن ما تقدم ذكره كاف للبرهنة بصورة قاطعة على أن الرجل متزوج وله اولاد. أما الرواية القائلة بعكس هذا فأحسب انها من صنع راوية لم يكن له المام كاف بشعر أبي نواس

من سجن الأمين معلناً فيها توبته وإقلاعه عن غوايته والتي رويت لك مثلاً منها لا يمكن أن تتخذ دليلا على توبته لأنها لم تكتب إلا لحمل الوزير على التوسط في أمر الشاعر لدى الخليفة ومعلوم كذلك ان حياة أبي نواس بعد خروجه من سجن الأمين لم تطل إلى درجة يمكن معها استكناه حقيقة أمره وعلى هذا يخيل الي أن توبته لم تكن سوى اسطورة من الأساطير الكثيرة التي حملت عليه وأنه مات دون أن يغير شيئاً من أحواله . أما شعره في الزهد فلا أريد أن أقول إنه منحول كله ولكني أظن أنه نظم بعضه في أيام فقره وضيق ذات يده إذ مامن شك في أنه خير للفاسق المعدم أن يتحدث عن توبته ويتشدق بأنقطاعه الى ربه من أن يتحدث عن فجور وآثام لا يستطيع أن يأتي منها شيئاً .

بقي أن نعلم كيف لقي أبو نواس حتفه ومتى ؟

يتحدث الرواة عن سبب وفاة أبي نواس أحاديث شتى فيزعمون مرة أن آل نوبخت - وهم رهط من الفرس كانوا يكرهون الشاعر ويضيقون به لأنه يكرههم ويهجوهم - داسوا بطنه حتى مات . ويدعون ثارة أنه مازح علي بن أبي سهل النوبختي أيضاً فهجاه على سبيل المزاح ببيت بذيء لم يحتمله له فضرب به الأرض وبرك على صدره يوسعه لكماً ولطماً ودخل الناس بينهما فخلصوه منه ولكن أبو نواس مات بسبب هذه الحادثة بعد أيام . ويذكرون حيناً أنه - أعني أبا نواس - كان يهاجي زنبوراً الكاتب الشاعر فنحله هذا أبياتاً في سب الامام علي (ع س) استحل بها آل نوبخت دمه . أما آل نوبخت فانهم ينكرون أن تكون لهم يد في القضاء على حياته ، ويؤكدون أن الخمرة هي التي قتلته . وليس فيما بين أيدينا من المصادر التي تتحدث عن أبي نواس ما يحملنا على

ترجيح بعض هذه الأقوال على بعضها الآخر ولكن قد لا يبعد أن يكون أبو نواس فريسة حقد كان يكنّه له آل نوبخت .

وكما يختلف الرواة في سبب وفاة أبي نواس يختلفون كذلك في تأريخها ولكنهم يضعونها على كل حال بين سنة خمس وتسعين ومائة (١٩٥) وسنة مئتين (٢٠٠) وهكذا تنتهي حياة أبي نواس بغموض تام كما ابتدأت بغموض تام .

ب - صفاته :

لا أحدثك طبعاً في هذا المكان عن خلاعة أبي نواس ومجونه فأنت تعرف هذا كل المعرفة ولكني أحدثك عن صفاته الأخرى . والظاهر أنه كان « حسن الوجه رقيق اللون أبيض حلو الشمائل ناعم الجسم وكان في رأسه سماجة وتسفيط (١) وكان ألثغ بالراء يجعلها غيناً وكان نحيفاً في حلقه بحة لا تفارقه » (٢) وهذا ما يقوله ابن منظور . أما أنا فأضيف إلى ما تقدم أنه كان حوّلاً قلّباً كثير الطمع شديد الجشع منكرا للجميل خبيث اللسان قليل الصبر خائر العزيمة .

حاول الاتصال بالعرب بكل وسيلة ممكنة سواء كان ذلك عن

---

(١) اي أن رأسه يشبه السفط .

(٢) أخبار أبي نواس ص ٦ .

طريق النسب أم عن طريق الولاء فأنتسب مرة إلى تميم وتارة إلى حاء وحكم من قبائل اليمن مريداً بذلك أن تكون له بالعرب علاقة كائنة هذه العلاقة ما كانت ثم انقلب عليهم واعتنق مذهب الشعوبية فصار يسبهم علانية ويتنقصهم جهراً . ومدح الرشيد والأمين والفضل بن الربيع وابنه العباس ، والخصيب . وأخذ جوائزهم جميعاً وعاش بها مدة من الزمن ونادم بعضهم وأكل على موائدهم أياماً كثيرة ثم هجاهم فاطبة أقبح هجاء وذمهم أشنع ذم لأنهم لم يجعلوا مواردهم وقفاً على لهوه وعبثه ، وسرفه ومجونه . وأقدم على هجاء قريش وفيها الملك والخلافة وكان ينبغي أن يكون قد وطّن نفسه على ما يفضي إليه ذلك الهجاء من نتائج سيئة وعواقب وخيمة إلا أنه ما كاد يلقى في السجن حتى أخذ يبكي ويتضرع ويستشفع بالكبير والصغير ملتمساً الرأفة به والصفح عنه . رحمه الله إنه كان كثير العيوب جم الهنات والسيئات .

حـ - شعره :

لأبي نواس ديوان شعر ضخم جمعه راويته يحي بن الفضل وأبو بكر الصولي وعلي بن حمزة وحمزة بن الحسن الاصبهاني وابن السكيّت وأبو سعيد السكّري وتوزون الطبري - الذي لم يخلف أثراً آخر سواه - على اختلاف في روايته وتبويبه وطبع مراراً عديدة في «فينا» و «مصر» و «بيروت» . ولايشك أحد في أن هذا الديوان يحتوي على قصائد ومقطوعات كثيرة ليست من نظم أبي نواس . ولكن يخيل إلي أن الذين حملوا عليه الشعر كانوا من ذوي الخبرة الحسنة به وبمذاهب أصحابه

لانهم حملوا على أبي نواس منه ما يتفق ومقاصده وأغراضه ويتلاءم ولغته وأسلوبه أيضاً . ولذلك كانت الكثرة الكبرى من الشعر المروي له متجانسة منسجمة يمكن إلحاق بعضها ببعض وضم بعضها إلى بعض بسهولة .

يتألف ديوان أبي نواس من أحد عشر باباً في المديح والهجاء والرثاء والعتاب والغزل المؤنث والغزل المذكر والخمر « وما جاء بينها وبين المجون » والصيد والزهد والنقائض وهي المساجلات التي جرت بين الشاعر وبين معاصريه ومنافسيه من الشعراء وما أعدك أن أتحدث إليك عن كل باب من أبواب هذا الديوان لاني لاأجد كبير فائدة في الحديث عن كثير من أبوابه فأنا لا أحدثك مثلاً عن زهدياته لاني أشك في نسبة أكثرها إلى أبي نواس وهذا مع اعجابي بقوله :

وما الناس الا هالك وابن هالك ... وذو نسب في الهالكين عريق

اذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ... له عن عدو في ثياب صديق

ولا أحدثك عن رثائه لأن معظمه خلو من المشاعر والانفعالات صفر من الأحاسيس والعواطف وتقول لي إن أبياته في رثاء الأمين لا تخلو من حسرة مرة وأسف شديد وأجيب بأني أرتاب كثيراً في نسبة هذه الأبيات الى أبي نواس لأن ما جرى بينه وبين الأمين في أواخر أيامه لا يحمله على أن يتفجع لفقده ويأسى لمصرعه ولا أحدثك عن طردياته لأنها في زعمي مجموعة كلام مكرر لا تكاد تلمس فيه أثراً للجمال الفني . ولا أحدثك عن عتابه لأنه مجموعة كلام في الهجاء والفخر لا

يتخللها العتاب الا نادراً ولا أحدثك عن غزله المذكر لأن الركاكه غالبة عليه غلبة تامة . ولا أحدثك عما جاء بين الخمر والمجون لانه مما يجب أن ينزه عنه مثل هذا الفصل . ولا أحدثك أخيراً عن نقائضه لأن الكلام فيها يقودنا الى الاطالة على غير طائل ولكنني سأحدثك عن غزله المؤنث ومديحه وهجائه وخمرياته وفي هذا كفاية .

غزله :

وغزل أبي نواس كثير وهو يتحدث فيه عن صلاته العديدة بطائفة من النساء أو قل من القيان اللواتي عرفهن في بغداد وغيرها فسحرنه بجمالهن وأدبهن وفتنّه بغنائهن وظرفهن وانه لمن الغفلة أن نسأل : أكان أبو نواس مخلصاً في حبه لهؤلاء القيان ، صادقا في كلفه بهن ؟

فما كان لأبي نواس ، وهو هو في ايثاره المجون وركونه الى اللذة ليخلص في صبابة أو يصدق في حب . وما كان هؤلاء القيان من عفة النفوس وطهارة الجيوب بحيث يلهمن حبا حقيقيا أو يوحين بعاطفة صادقة

ستقول وما رأيك في حبه لجنان التي تقدمت لها الاشارة والتي بلغ من كلفه بها أنه خرج معها من البصرة الى مكة ؟ وأجيب بأنه أحبها حب من يريد أن يقضي وطراً فلما عز عليه بلوغ ذلك الوطر شكا وتألم وألح في الشكوى وأسرف في التألم حتى خيل لمن يقرأه أو يسمعه أنه محب متيم وما هو من الحب الحقيقي في شيء . ولكن من الجائز أن يكون الشاعر الغزل كاذباً في غرامه مدعياً في حبه كما كان كثيرّ عزة وكما كان الأحوص في غرامه المزعوم بأم جعفر وكما كان عمر بن أبي ربيعة نفسه في كثير من صلاته الموهومة . ولكنه يظل

مع ذلك قوي النسيب رائع التشبيب لما يتضمن غزله من خواطر ومشاعر لا تجدها في كلام غيره من الشعراء فهل كان أبو نواس من هذا النوع في غزله على الأقل ؟ !

الواقع أنه لم يكن كذلك على الأكثر : ولك أن ترجع الى غزله لتتبين أنه إنما يتحدث في الغالب عن أشواق مضنية وآلام مبرّحة ووعود ممطولة وعهود منقوضة وشكاة خائبة ورسائل مردودة الى غير ذلك مما تجده تقريباً في كل مكان. ومع هذا لا يخلو غزل أبي نواس من شذرات أصيلة قالها في جنان إليك منها هذه الأبيات :

ياذا الذي عن جنان ظل يخبرنا	بالله قل وأعد يا طيّب الخبر
قال اشتكتك وقلت ما ابتليت به	أراه من حيث ما أقبلت في أثري
ويعمل الطرف نحوي إن مررت به	حتى ليخجلني من حدة النظر
وإن وقفت له كيما يكلمني	في الموضع الخلو لم ينطق من الحصر
ما زال يفعل بي هذا ويدمنه	حتى لقد صار من همي ومن وطري

وهذه الأبيات :

إذا التقى في النوم طيفانا	عاد لنا الوصل كما كانا
يا قرّة العين فما بالنا	نشقى ويلتذ خيالانا
لو شئت إذ أحسنت لي في الكرى	أتممت إحسانك يقظانا
يا عاشقين اصطلحا في الكرى	وأصبحا غضبى وغضبانا
كذلك الأحلام غدّارة	وربما تصدق أحيانا

وهذه الأبيات أيضاً :

دست له طيفها كيما تصالحه ... في النوم حين تأبى الصلح يقظانا

فلم يجد عند طيفي طيفها فرجاً ... ولا رثى لتشكّيه ولا ولانا

حسبت أن خيالي لا يكون لما ... أكون من أجله غضبان غضبانا

جنان لا تسأليني الصلح سرعة ذا ... فلم يكن هيّناً منك الذي كانا

فأكبر الظن أن الخوطر التي يتحدث عنها أبو نواس في هذه المثل من غزله خواطره ، وأن الذكريات والآلام التي يصورها ذكرياته وآلامه ، التي استمدها من حياته واستفادها من مغامراته ولكن أمثال هذه الصفحات الأصيلة في غزله قليلة جداً .

مديحه : وقد أدهشك إذا قلت لك إن مديح أبي نواس أقل أصالة وأكثر تقليداً من غزله وإنه صورة مصغرة من مديح زهير والحطيئة والأعشى وأقول صورة مصغرة منه لأنه يمثل أخيلته وخواطره ومقاصده وأغراضه ولا يمثل فصاحة لغته ومتانة أسلوبه . وأول شيء انكره على مديح أبي نواس تصديره في كثير من الأحيان ببكاء الأطلال أو وصف الناقة أو بهما معاً .

إن شعراء المديح الجاهليين والمخضرمين والأمويين معذورون إذا صدروا مدائحهم ببكاء الأطلال لأن الأطلال محيطة بهم ماثلة ، أمام أعينهم أينما توجهوا ، وحيثما ساروا وهم معذورون كذلك إذا صدروا مدائحهم بشيء من وصف الناقة لأن هذه تحتل مكاناً خطيراً جداً في حياتهم وفي حياة ممدوحيهم على السواء .

أما أبو نواس فانه غير معذور إذا صدّر مدائحه بهذه المقدمات العقيمة الفارغة لأنه يقيم في عاصمة الرشيد ويستمتع بما فيها من نعيم وترف ، ولأنه يختلف الى أبواب ممدوحيه وينادم بعضهم ويسامرهم ويعاشرهم . ثم مالنا ولهذا كله أليس هو عدوّ البادية المدود الذي طالما هزأ بحياتها وسخر من أدبها وندّد بشعرائها واحتقر عواطفهم وازدرى أخيلتهم ومشاعرهم ؟ أليس هو القائل :

عاج الشقي على رسم يسائله ... وعجت أسأل عن خمّارة البلد
يبكي على طلل الماضين من أسد ... لا درّ درّك قل لي من بنو أسد
ومن تميم ومن قيس ولفّهما ... ليس الأعاريب عندالله من أحد
لا جفّ دمع الذي يبكي على حجر ... ولا صفا قلب من يصبو إلى وتد
كم بين ناعت خمر في دساكرها ... وبين باك على نؤي ومنتضد

أيجمل به وهو الذي يقول هذا وعشرات في معناه ويتخذه - على تفاهته - مذهباً يمتاز به بين الشعراء أن يقول في صدر قصيدة يمدح بها الأمين :

يا دار ما فعلت بك الأيام ... ضامتك والايام ليس تضام

وأن يقول في صدر قصيدة يمدح بها الفضل بن يحي البرمكي :

أربع البلى إن الخشوع لباد ... عليك وإني لم أخنك ودادي

ويقول في صدر قصيدة يمدح بها محمد بن الفضل بن الربيع :

لمن طلل لم أشجه وشجاني ... وهاج الهوي اوهاجه لأوان

أيجمل به وهو شاعر الحضارة فما يزعم أن يعمد الى الناقة وهي عماد الحياة في الصحراء وقوام المعيشة في البادية فيصفها في صدور عدد

كبير من مدائحه بمثل قوله من قصيدة يمدح بها الرشيد :

لما نزعت عن الغواية والصبا ... وخدت بي الشدنية المذعان

سبط مشافرها دقيق خطمها ... وكأنّ سائر خلقها بنيان

واحتازها لون جرى في جلدها ... يقق كقرطاس الوليد هجان

ومثل قوله من قصيدة يمدح بها الفضل بن يحي البرمكي :

سأرحل من قود المهارى شملة(١) ... مسخّرة لا تستحث بحاد

مع الريح ما قامت وإن هي أعصفت ... تهوس برأس كالعلاة وهاد

فكم حطمت من جندل بمفازة ... وخاضت كتيار الفرات بواد

قد تقول إنه فعل ذلك إرضاءً لرغبات المحافظين من ممدوحيه وإيهاماً لهم بأنه محافظ مثلهم وأن ما يشاع عنه من الانهماك في وصف الخمر افتراء محض . وأجيب بأن هذا غير صحيح لانه يجمع بين بكاء الاطلال ووصف الخمر تمهيداً للمديح في القصيدة الواحدة استمع الى هذه القصيدة التي يمدح بها الرشيد :

لقد طال في رسم الديار بكائي ... وقد طال ترادي بها وعنائي

كأني مريع في الديار طريدةً ... أراها أمامي مرة وورائي

فلما بدالي اليأس عدّيت ناقتي ... عن الدار واستولى عليّ عزائي

الى بيت حان لا تهرّ كلابه ... عليّ ولا ينكرن طول ثوائي

فان تكن الصهباء أودت بتالدي ... فلم توقني أكرومتي وحيائي

فما رمته حتى أتى دون ما حوت ... يميني حتى ريطتي وحذائي

---

(١) الشملة : السريعة .

وكأس كمصباح السماء شربتها ... على قبلة أو موعد بلقاء

أتت دونها الأيام حتى كأنها ... تساقط نور من فتوق سماء

ترى ضوءها من ظاهر الكأس ساطعاً ... عليك ولو غطيتها بغطاء

تبارك من ساس الامور بعلمه ... وفضّل هارونا على الخلفاء

نعيش بخير ما انطوينا على التقى ... وما ساس دنيانا أبَرّ الامناء

إمام يخاف الله حتى كأنه ... يؤمّل رؤياه صباح مساء

أشم طوال الساعدين كأنما ... يناط نجادا سيفه بلواء

على أني أحب أن أسألك أتعتقد حقيقة أن الرشيد والأمين وآل برامك وآل الربيع ومن لفّ لفّهم من الكبراء والعظماء كلهم محافظون متزمتون وأن أبا نواس وحده مجدد حرّ العقل خفيف الظل ؟

انني اخالف في هذا مخالفة تامة. ونأتي الآن الى مديح أبي نواس نفسه فماذا نجد فيه ؟ إننا نجد فيه غلواً لا يستسيغه عقل وغموضاً لا يهتدي إلى ما وراءه فكر وسقطات بالغة منتهى السخف وسرقات لم يقدّر فيها النجاح للشاعر فمن أمثلة غلوّ أبي نواس قوله في مدح الرشيد :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه ... لتخافك النطف التي لم تخلق

ومن أمثلة مديح أبي نواس الغامض قوله في مدح العباس بن عبيدالله ابن المنصور :

لا تغطى عنه مكرمة ... بربى وادٍ ولا خمره

ذللّت تلك الفجاج له ... فهو مختار على بصره

تسبق التفريط رائده وكفاه العين من أثره

ومن سقطات أبي نواس البالغة منتهى السخف في مديحه قوله في مدح الفضل بن يحيى البرمكي :

سأشكو إلى الفضل بن يحيى بن خالد هواك لعل الفضل يجمع بيننا

أمير رأيت المال في نعمائه ذليلاً مهين النفس بالضيم موقنا

* * * *

وللفضل صولات على صلب ماله ترى المال فيها بالمهانة مذعنا

وقوله في مدح العباس بن الفضل بن الربيع الذي كان ينادمه ويشاركه في فسوقه وفجوره وهو يصف في هذه الأبيات مسيره إليه على متن ناقة نجيبة سريعة السير :

وسبسب قد علوت طامسه بناقة فوقة من النوق

كأنما رجلها قفا يدها رجل وليد يلهو بدبّوق(١)

كأنما أسلمت قوائمها إذا مرتهن(٢) من مجانيق

الى امرىء أم ماله أبداً تسعى بجيب في الناس مشقوق

ومن مديح أبي نواس المسروق سرقة غير موفقة قوله :

فتى لا تلوك الخمر شحمة ماله ولكن أياد عوّد وبواد

فانه أخذه بعد أن اضاف اليه هذه « الشحمة » الدسمة من قول زهير

---

(١) الدبوق بفتح الدال لعبة .

(٢) مرى : جر .

ابن أبي سلمى :

أخو ثقة لا تتلف الخمر ماله ولكنه قد يتلف المال نائله

وقوله في نفس القصيدة :

فيوم لالحاق الفقير بذي الغنى ويوم رقاب بوكرت بحصاد

فانه أخذه من قول جرير في مدح عبدالعزيز بن الوليد بن عبدالملك:

فيومان من عبدالعزيز تفاضلا ففي أي يوميه تلوم عواذله

فيوم تحوط المسلمين جياده ويوم عطاء ما تغبُّ نوافله

وقد أخذ هذا المعنى من جرير قبل أبي نواس الحسين بن مطير أحد مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية فأفرغه في قالب أفضل من القالب الذي أفرغه به أبو نواس وذلك حيث يقول :

له يوم بؤس فيه للناس أبؤس ويوم نعيم فيه للناس أنعم

فيمطر يوم الجود من كفه الندى ويمطر يوم البأس من كفه الدم

فليس من شك في أن أبا نواس لم ينجح نجاح صاحبيه ولا سيما جرير في إبراز هذا المعنى اللطيف . ولكل ما ذكرنا من مساوىء مديح أبي نواس أمثلة كثيرة يمكنك أن تراجعها في ديوانه .

على أني لا أريد أن ابخس أبا نواس حقه او انكر محاسنه فان له مدائح حسنة قليلة منها هذه الأبيات التي يمدح بها الفضل بن الربيع :

قولا لهارون إمام الهدى عند احتفال المجلس الحاشد

نصيحة الفضل وإشفاقه أخلى له وجهك من حاسد

لصادق الطاعة ديّانها ... وواحد الغائب والشاهد
أنت على ما بك من قدرة ... فلست مثل الفضل بالواجد
أوجده الله فما مثله ... لطالب ذاك ولا ناشد
وليس لله بمستنكر ... أن يجمع العالم في واحد(١)

وهذه الابيات التي يمدح بها الخصيب من قصيدة :

أنت الخصيب وهذه مصر ... فتدفقاً فكلاكما بحر
لا تقعدا بي عن مدى أملي ... شيئاً فما لكما به عذر
ويحق لي أن صرت بينكما ... ألا يحل بساحتي فقر

على أني أشك في صحة البيت الثاني من المثال الأول لاستعمال الشاعر الافراد بدلا من التثنية في (اخلى) ولا أغبط أبا نواس على موقفه من ممدوحه في المثال الثاني. ولكن هذا لا يمنع أن يكون الكلام متيناً جزلا.

هجاؤه : أصدق شعوراً وأخصب خيالا وأظرف لغة وأسلوباً من مديح أبي نواس هجاؤه الذي لم ينج من قوارصه أحد فقد طعن أبو نواس في كل عرض وأساء إلى سمعة كل كريم . فتطاول على الخلفاء والأمراء والوزراء والعلماء والزعماء وعلى الشعوب والقبائل الاسلامية الكبرى كالعدنانيين والقحطانيين وهذا فضلا عن الأدباء والشعراء والمغنين ومن يجري مجراهم ممن يسهل على أبي نواس أن يلذعهم بقوارص هجائه متى

---

(١) تناقل الناس هذا البيت وحرفوه بعض الشيء فوضعوا (ليس على الله) موضع (وليس لله) وعندي ان التحريف أصح من الأصل واحسن .

أعجبه ذلك دون خوف ولا إشفاق . وقد يسبق إلى ظنك أن أبا نواس هجا ولاة الأمور في عصره لأنهم لم يقيموا العدل أو يعلموا على نشر العلم أو قصّروا في حماية الثغور وتأمين السبل فأؤكد لك أنه لم يهج خليفة ولا أميراً ولا وزيراً ولا أي إنسان آخر إلا لسبب شخصي بحت وقد تدهشك سلاطة لسان أبي نواس هذه ولكن لا باعث على الدهشة فقد كان أبو نواس وضيع الأصل وضيع النشأة وضيع المنزلة بسبب تهتكه وإسرافه على نفسه وكان مع ذلك يريد أن يخافه الناس وأن يتقوا شره ويجزلوا عطاءه ويقضوا حوائجه ولا سبيل إلى ذلك إلا بالهجاء . وقديماً فعل الحطيئة وجرير هذا ، ونهج بشار الذي أدركه أبو نواس وعاصره قليلا سبيلهما فاتقى الناس شرهم وخشوا معرة ألسنتهم وقبلوا مدائحهم وأحسنوا جوائزهم .

وهجاء أبي نواس صارم ثقيل الوطأة شديد النكاية بذيء العبارة في كثير من الأحيان ، ولكنه ظريف خفيف الروح لطيف الوقع - في غير نفس المهجو طبعاً - أحيانا كثيرة كذلك . وما أظنك تكلفني أن أروي لك شيئاً من هجائه الثقيل الصارم البذيء فأروي لك مثلا من النوع الثاني من هجائه . قال يهجو الفضل ولا أدري أهو الفضل بن يحي البرمكي أم الفضل بن الربيع لأن الديوان لايصرح بشيء من هذا :

رأيت الفضل مكتئباً ... يناغي الخبز والسمكا
فأسبل دمعه لمّا ... رآني قادماً وبكى
فلما أن حلفت له ... بأني صائم ضحكا

وقال يهجو سعيد بن مسلم :

رغيف سعيد عنده عدل نفسه ... يقلّبه طوراً وطوراً يلاعبه
ويخرجه من كمه فيشمّه ... ويجلسه في حجره ويخاطبه
وإن جاءه المسكين يطلب فضله ... فقد ثكلته أمه وأقاربه
يكرّ عليه السوط من كل جانب ... وتكسر رجلاه وينتف شاربه

وقال يهجو اسماعيل النوبختي :

خبز إسماعيل كالوشـ ... ـي إذا ما انشق يرفا
عجباً من أثر الصنـ ... ـعة فيه كيف يخفى
إن رفاءك هذا ... أحذق الأمة كفّا

وقال يهجو الخصيب الذي رفعه بمديحه إلى السماء :

خبز الخصيب معلّق بالكوكب ... يحمى بكل مثقّف ومشطّب
جعل الطعام على بنيه محرماً ... قوتاً وحلله لمن لم يسغب
فاذا هم رأوا الرغيف تطربوا ... طرب الصيام إلى أذان المغرب

لعلك تلاحظ أني رويت أكثر مما ينبغي من هجاء أبي نواس فأحب أن أقول لك إني فعلت هذا على سبيل الانصاف للرجل لأن باب الهجاء في ديوانه يكاد يكون أغنى أبوابه بأمثال هذه الملح التي إن كانت إساءة لا شك فيها الى المهجوّ فانها إحسان لا شك فيه إلى الفن .

خمرياته : أبرع وأنقى ديباجة من كل ما تقدم من شعر أبي نواس خمرياته التي طار ذكرها في الآفاق والتي تعد بحق مظهر شاعريته

وترجمان شعوره ورمز حياته وأخلاقه . وليس من شك في أن الرواة أدخلوا فيها أقوال شعراء عديدين لم تسمح ظروفهم بذكر أسمائهم إلى جانب أقوالهم في الخمر بل لا أكاد أشك في أن أبا نواس نفسه سطا على أقوال بعض معاصريه في الخمر فادّعاها لنفسه ودسّها في شعره فأبو الفرج يحدثنا في الجزء ١٦ من كتابه عن غلام أبي نواس المعروف بالدعلجي أنه قال : « أنشدت يوماً بين يدي أبي نواس قوله :

يا شقيق النفس من حكم نمت عن عيني (١) ولم أنم

وكان قد سكر فقال : « أخبرك عن شيء على أن تكتمه قلت نعم قال أتدري من المعني بـ (٢) « ياشقيق النفس من حكم » قلت لا قال أنا والله المعنى بذلك والشعر لوالبة بن الحباب قال وما علم بذلك غيرك وأنت أعلم فما حدثت بهذا حتى مات » (٣) وغنى عن البيان أن هذا الخبر يدل دلالة قاطعة على أن أبا نواس يبيح لنفسه أن ينتحل شعر غيره إذا أعجبه ويذيعه في الناس على أنه له . وهناك أحاديث من هذا القبيل يتناقلها الرواة عن سطو أبي نواس على كل قصيدة أو بيت أو معنى يعجبه من شعر صديقه وزميله في منادمة الخلفاء والوزراء الحسين بن الضحاك الخليع لا مجال للافاضة في ذكرها هنا ، وأحسبك توافقني على أن هذا يجعل تمحيص خمريات أبي نواس وتمييز صحيحها من منحولها من

---

(١) طبعاً الصواب ليلي كما هو مشهور ولكنه مروي هكذا في هذا المكان من الأغاني .

(٢) لا وجود لهذه الباء في الأغاني .

(٣) الأغاني ج ١٦ ص ١٤٣ .

الصعوبة بمكان وما أريد أن أبذل جهداً في سبيل تذليل هذه الصعوبة الكبرى لأني لا أتوقع من ورائه كبير فائدة على أن الذي يعنيني قبل كل شيء في الكلام على خمريات أبي نواس هو أن أتبين ما ذهب إليه بعض النقاد القدماء والمحدثين من أن أبا نواس مجدد في القريض العربي وأن خمرياته هي مظهر هذا التجديد .

كانت الخمر عند العرب منذ أقدم العصور كما كانت عند غيرهم من الأمم مصدر إلهام وإيحاء في الشعر يستوحيها شعراء اللهو شيئاً غير قليل من أخيلتهم وخواطرهم وأحاسيسهم ومشاعرهم . ولا نزاع في أن ما وصلنا من خمريات الأعشى قليل جدا ولكنه على قلته دليل كاف على غرام هذا الشاعر بالخمر وحبه لها وبراعته في التحدث عنها . أليس هو القائل :

تريك القذى من فوقها وهي فوقه إذا ذاقها من ذاقها يتمطق

والقائل :

نازعتهم قضب الريحان متكئاً وقهوة مزة(١) راووقها خضل
لا يستفيقون منها وهي راهنة(٢) الا بهات وإن علّوا وإن نهلوا
يسعى بها ذو زجاجات له نطف(٣) مقلص أسفل السربال معتمل(٤)

---

(١) مزة : (بفتح الميم) لذيذة الطعم . والراووق : المصفاة .

(٢) راهنة : دائمة .

(٣) النطف : جمع نطفة (بفتح النون والطاء) وهي القرطة .

(٤) معتمل : دائب نشيط .

والقـــائل :

وكأس شـــربت على لـذة وأخرى تداويت منها بها

ففي هذه المثل القليلة دلالة كافية على عناية الشاعر الفائقة بالخمـر وعكوفه عليها وتغنيه بوصفها . وقد ذهب طرفة مذهبه في الولع بها فجعلها مظهر حيويته ومبعث لذته ورمز رجوليته بل لقد جهر أنه إنما يحيا لها وللحرب والمرأة وأنه لولا هذه الثلاث لم يبق في الحياة ما يحببها إليـه أو يرغبه فيها :

ولولا ثـلاث هنّ من عيشـة الفتى وجدّك لم أحفل متى قام عوّدي

فمنهن سـبقي العـذلات بشـــربة كميت متى ما تعل بالماء تزبد

وكرّي إذا نادى الصريخ محنّبا(١) كسيد الغضا نبّهته المتورد(٢)

وتقصير يوم الدجن(٣) والدجن معجب

ببهكنـة(٤) تحت الطراف(٥) المعمـد

بل لقد ذهب طرفة إلى أبعد من هذا فنزل عن ثروته كلها ومكانتـه في قومه في سـبيل الخمر :

وما زال تشرابي الخمور ولذتي وبيعي وانفاقي طريفي ومتلدي

إلى أن تحامتني العشيرة كلهـا فأفردت إفراد البعير المعبد(٦)

---

(١) محنب : بعيد ما بين الرجلين وقيل غير ذلك .

(٢) متورد : متصد الى ورود الماء .

(٣) الدجن : اكتساء السماء بالغيم وقيل غير ذلك في معناه .

(٤) البهكنة : المرأة التامة الخلق .

(٥) الطراف : الخباء أو الخيمة .

(٦) المعبد : المطلي بالقطران لجربه

وأحسب أن رجلا يضحي بثروته كلها ومكانته في سبيل الخمر سكير عربيد بلغ الغاية في عبادة أم الخبائث وإحلالها المحل الذي لا تستحقه في هذه الحياة . ولم يزل شعراء الخمر من العرب يتعاقبون على نعتها والتشوق بشربها والتهتك في هذا السبيل حتى جاء الأخطل فأحلها المكانة الأولى من شعره وكان بحق إمام وصّاف الخمر في العصر الأموي(١) وإنه لمن الصعب أن تفضل قصيدة ما في الخمر لاميته الشهيرة التي يقول فيها :

تدب دبيباً في العظام كأنه دبيب نمل في نقا يتهيّل

ولم يطل الوقت حتى ظهر الوليد بن يزيد بن عبدالملك فأعاد على الناس عهد الأعشى وطرفة والأخطل بعكوفه على الخمر وتفننه في وصفها وإجادته إجادة تامة في هذا الوصف ،وكان هذا خاصة بسبب تحضره ورقة خياله ودقة إحساسه إماماً لأبي نواس فيما يعتقد أبو الفرج فانه يقول « والوليد في ذكر الخمر وصفتها أشعار كثيرة قد أخذها الشعراء فأدخلوها في أشعارهم سلخوا معانيها وأبو نواس خاصة فانه سلخ معانية كلها وجعلها في شعره فكررها في عدة مواضع منه ولولا كراهة التطويل لذكرتها ههنا على أنها تنبيء عن نفسها »(٢) .

أفيصح بعد هذا أن نتخذ أبا نواس إماماً أو مجدداً للقريض العربي من ناحية وصفه الخمر ؟ . ولنأت الآن إلى خمريات الرجل فنستعرض أهم معانيها وأكثرها دوراناً على لسانه وهذه تتلخص على وجه التقريب فيما يأتي :

---

(١) سئل أبو نواس عن رأيه في الاخطل فقال : « امامي في الخمر » (معاهد التنصيص ج١ ص٣٠ طبعة المطبعة البهيه) .

(٢) الأغاني جزء ٦ ص ١٠٧ طبعة مطبعة التقدم بمصر .

إن الناس يلومون الشاعر في شربه الخمر ولكنهم مخطئون في هذا لأن لومهم إياه اغراء له فيها. وهم يقولون له انها حرام ولكنهم لا يعلمون أن الحرام يلائمه ويوافق طباعه وأخلاقه . والخمر فتاة كريمة ينبغي أن لا يخطبها إلا فتى كريم له مال وله حسب وعليه أن ينزل عن ماله كما ينزل عن حسبه في سبيل هذه الفتاة . والشاعر من ناحيته يغلي مهرها إلى حد يجعل معه ثمنها وزنها ذهباً . وهي قديمة خزنت حتى كاد القدم يأتي على حياتها ومكرمة لا تجلى إلا في أجمل الأباريق وأظرف الكؤوس على أنها متى جليت على الندمان هذّبت طباعهم ولطّفت أخلاقهم فأحالت البخيل منهم كريماً والجبان شجاعاً والفدم فصيحاً وهكذا . وأحسب أنك اذا تتبعت هذه المعاني في أقوال شعراء الخمر الذين سبقوا أبا نواس وجدت أنهم تداولوها وابتذلوها وأفرغوها في صور مختلفة وأشكال متعددة ، على أني لا أريد أن أبخس أبا نواس شاعريته وبراعته في وصف الخمر بل إني أعترف أنه أجاد في طائفة من خمرياته اجادة تامة وأنه من الحق على مؤرخ الأدب أن يلم بهذه النخبة من شعره وأن يتحدث عنها كثيراً أو قليلا . وقد ضاق المقام عن أن أنقد أو احلل بعض هذه الخمريات فأكتفي برواية مثل منها على سبيل الانصاف لأبي نواس ، اسمع قوله :

ودار ندامى عطلوها وأدلجوا ... بها أثر منهم جديد ودارس

مساحب من جر الزقاق على الثرى ... وأضغاث ريحان جني ويابس

حبست بها صحبي فجددت عهدهم ... واني على أمثال تلك لحابس

ولم أدر منهم غير ما شهدت به ... بشرقي ساباط الديار البسابس

أقمنا بها يوماً ويومين بعده ... ويوماً له يوم الترحل خامس
تدور علينا الراح في عسجدية ... حبتها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفي جنباتها ... مهاً تدّريها بالقسي الفوارس
فللخمر ما زرّت عليه جيوبهم ... وللماء ما دارت عليه القلانس

وقوله :

لاتبكِ ليلى ولاتطرب إلى هند(١) ... واشرب على الورد من حمراء كالورد
كأساً إذا انحدرت في حلق شاربها ... أجدته حمرتها في العين والخدّ
فالخمر ياقوتة والكأس لؤلؤة ... في كف جارية ممشوقة القدّ
تسقيك من يدها خمراً ومن فمها ... خمراً فما لك من سكرين من بدّ
لي نشوتان وللندمان واحدة ... شيء خصصت به من بينهم وحدي

وقوله :

بنينا على كسرى سماء مدامة ... مكللة حافاتها بنجوم
فلورد في كسرى بن ساسان روحه ... إذن لا صطفاني دون كل نديم

بيد أني اروي لك هذه المثل من خمريات أبي نواس على أنها شعر جيد لا على أنها شعر جديد فأنا مؤمن بأن أبا نواس لم يكن في يوم من الأيام مجدداً وإنما كان مقلداً ماهراً سبقه الشعراء الى تمجيد

---

(١) أفهم ان ابا نواس ينهى عن بكاء الأطلال والوقوف على دمن الاحباب وان كان قد فعل هذا مراراً كثيرة ولكني لا أفهم نهيه عن البكاء على حبيبة مفارقة والطرب لذكرها ، ان في صدر هذا المطلع حملة شعواء مباشرة على المرأة التي طالما أحبها او تظاهر بحبها وتغنى بحسنها ابو نواس .

الخمر والتنوية بشربها والتفنن في وصفها فمهدوا له السبيل وأقاموا عليها المعالم الواضحة ، وأتى هو فسلكها تابعاً لهم مسترشداً بهم يقتبس معانيهم مرّة ويتوسع فيها تارة وينسج على منوالها طوراً . وعلى هذا فليس من العدل ولا من الصواب في شيء أن نعدّه اماماً أو مجدّداً .

إنك تستطيع أن تقول عن عمران بن حطّان - على قلة شعره - انه مجدد لأنه اتخذ الصدق له مذهباً في صناعة القريض حتى اذا فضّل رجلا شجاعاً على أسد واعترضت زوجته عليه في ذلك التفضيل دافع عن نفسه بقوله : (إن مجزأة فتح بلدة والأسد لا يفتح بلدة) وتستطيع أن تصف عمر بن أبي ربيعة بأنه مجدد لأنه وسّع القصة الغرامية في القريض العربي وأطالها وهذّبها حتى أصبح من الحق أن يقال إنه امام القصة الغرامية في القريض العربي بل تستطيع أن تقول عن كثيّر عزة إنه مجدد أيضاً لأنه كان صاحب مذهب خاص في المديح يحتم عليه ان يصف ممدوحه بما فيه دون زيادة ولا نقصان حتى لقد مدح عبدالعزيز بن مروان بالمنع لأنه كان يفعل هذا إذا اقتضاه الحزم .

تستطيع ان تعتبر هؤلاء كلهم مجدّدين لأنهم ذهبوا مذاهب جديدة اصطنعوها وتقيدوا بها ولكنك لا تستطيع أن تعد أبا نواس مجدداً لأنه لم يبتكر طريقة ولم يذهب مذهباً جديداً في صناعة القريض ولكنه قلّد فأحسن التقليد واتّبع فحذق الاتّباع على أنه لم يكن على الدوام حاذقاً محسناً في اتّباعه وتقليده .

هـ - خاتمة :

أما أن أبا نواس شاعر مجيد في بعض ضروب الشعر فهذا ما لا شك فيه ، ولكنه لم يكن مجدداً في يوم من الايام لأي نوع من أنواع القريض . على أنه لو أراد ذلك لما تهيأ له لأنه لم يكن من خصب القريحة وسعة الخيال وعمق التفكير بحيث يستطيع أن يكون مجدّداً لشيء من الأشياء أما هذه القصائد والمقطوعات الكثيرة التي تتلخص في بضع كلمات وهي لا تتحدّث عن الطلل وتحدث عن الخمر فانها إن دلّت على شيء فانما تدل على ضعف خياله وتفاهة تفكيره لأن فيها من التكرار المملّ لملاحظة سخيفة مبتذلة ما لا يتورط فيه شاعر يثق بنفسه ويؤمن بملكاته ومواهبه .

الباب الرابع

في شعراء القرن الثالث للهجرة

الفصل الاول

أبو تمام

أ ـ حياته : اسمه وكنيته ونسبه · الشكوك في نسبته إلى طي · مناقشتها · مولده · نشأته وتربيته · سفره إلى مصر · خيبته فيه · مبارحته مصر · علاقته بالمأمون · صلته بالمعتصم ووزرائه · تطوافه في الآفاق · بعض ممدوحيه من الولاة والقواد · كيف استقبل في البصرة · أثر أسفاره في شعره · تعيينه والياً على بريد الموصل · وفاته ·

ب ـ صفاته : مجونه · تبذيره · غلوه في الاستجداء · حبه الأسفار · حدة ذكائه · قوة حافظته ·

ج ـ رأيه في الدين والسياسة : تشيعه · تذبذبه ·

د ـ شعره : ديوانه · أبوابه : فخره : موضوعاته · وصفه : مكان الطبيعة منه · براعته في تصوير سائر الأشياء · رثاؤه : المطبوع منه والمصنوع · ميزة كل منهما · رثاؤه لأهل بيته وذوي قرباه · مثل منه · مديحه : أكاذيبه · ما ينطوي عليه من حقائق التاريخ · مصدر جماله · هجاؤه : صرامته وبذاءته · مثل منه · لغته وأسلوبه ـ أبرز ما فيهما من محاسن ومساوئ ·

هـ ـ خاتمة : ما يفيد ومالا يفيد من شعر أبي تمام ·

أ - حبائه

كانت الشعوبيـة والخلاعـة أبرز صفات القريض في القرن الثاني للهجرة أي في عهد بشار وأبي نواس . أما في القرن الثالث ولاسيما النصف الأول منه حيث يتعاقب أبو تمام والبحتري على زعامة الشعراء فقد خفت صوت الشعوبية ولم تعد الخلاعـة من أبرز صفات القريض . وحلّ محل هذين العنصرين -١- وصف سياسـة الدولة وأعمالها في الداخل والخارج -٢- تصوير حياة القصور وما فيها من لهو ومرح وترف -٣- التحدث عن الطبيعة وما فيها من فتنة وجمال وسـحر -٤- إطالـة المراثي وتجويدها بشكل لم يسبق لـه نظير (١) . هـذا إلى ارتقـاء ملحوظ في لغة الشعراء وصفاء غالب على أساليبهم وسنرى هذه الخصائص ممثّلة أصدق تمثيل في شعر كبار شعراء القرن الثالث للهجرة وهـم أبو تمام والبحتري وابن الرومي وابن المعتز . وأبدأ بالحديث عن أولهم فأقول :

هو حبيب بن أوس ، وكنيته أبو تمام ، من طي ، وطي من أمهات القبائل اليمنية . ويعتقد الآمدي أنه دخيل في طي وأنه من أصل رومي وأن اسـم أبيه - وهو صاحب حانة - « تيودوس » فحرّفه وجعله أوسـاً . ويذهب ابن خلكان مذهب الآمدي في هذا الشأن مع أن الآمدي شـديد التحامل على أبي تمـام . ولك أن تتصفح كتابه (الموازنة بين أبي تمام والبحتري) لتلمس روح التحامل على المترجم في أماكن كثيرة منـه . ويرى أكثر النقاد المحدثين - وفي مقدمتهم المستشرقون - رأي الآمدي وابن خلكان .

---

(١) يستثنى من هذا شـعر ابن المعتز لأنه لم يكن من شـعراء الرثاء .

وعندي أنه لو كان أبو تمام من أصل رومي - كما يزعم الآمدي وابن خلكان وبعض النقّاد المعاصرين - لكان من المعقول أن يفخر بهذا الأصل كما فخر به ابن الرومي ، لأنه نبغ في عصر غلبت عليه الثقافة اليونانية وراجت فيه ترجمة علوم اليونان وفلسفتهم إلى اللغة العربية رواجاً كبيراً . ولو كان أبو تمام من أصل رومي حقاً لما وسعه أن ينكر أصله ، وأهله أحياء يدينون بالمسيحية ويتكلمون اليونانية ويحملون السحنة (١) اليونانية في وجوههم ويعتنقون الأخلاق والتقاليد اليونانية ، وصلته بهم قائمة مطّردة ، فهو يقرع السن ندماً على مفارقتهم في لاميته التي يصف بها خيبته في مصر فيقول :

نأيت ، فلا مالاً حويت ، ولم أُقم ... فأُمتع ، إذ أُفجعت بالمال والأهل

ويشير إليهم في قصيدة مدح بها محمد بن عبدالملك الزيات بقوله :

قبيل وأهل لم ألاق مشوقهم ... لو شك النوى إلا فواقاً كلاولا(٢)
كأنهم كانوا لخفة وقفتي ... معارف لي ، أو منزلي كان منزلا

ويشير إليهم كذلك في استئذانه أبا سعيد الثغري بالانصراف بقوله:

فمنٌّ بالاذن على نازحٍ ... عن أهله ساعته دهر

وفي ديوانه مرتبة بليغة يجمع الرواة على أنه رثى بها أخاً له حضر وفاته . هذا إلى أن أبا الفرج الأصبهاني ينفي كل شبهة عن أصل أبي تمام فيقول إنه طائي صميم .

---

(١) السحنة : اللون والهيئة .

(٢) الوشك : القرب . الفواق : ما بين الحلبتين . كلا ولا . أي كقولهم « لاحول ولا قوة الا بالله . »

اذا لم يخطيء ظني فان الذين قالوا إن أبا تمام رجل واسع الرواية غزير الحظ وهو يسرق محاسن الشعراء القدماء التي لم يطلع عليها أحد غيره ويدسّها في شعره فتكسبه ماله من جمال ورونق هم الذين قالوا إنه سليل أسرة رومية ٠

وبعد ، فان عقل أبي تمام - الذي يود بعض النقاد المحدثين أن يقولوا إنه يوناني - عربي بحت لأن ثقافته عربية تماماً ٠ والثقافة ، كما تعلم ، هي التي تكّون العقول وتوّجه القرائح والأفهام قبل أي شيء آخر ٠

ومهما يكن من شيء ، فمؤرخو الأدب متفقون على أن صاحبنا ولد في (جاسم) قرية من قرى دمشق ٠ ولكنهم مختلفون في سنة ولادته ، فقد قيل إنه ولد سنة (١٩٠) هـ وقيل انه ولد سنة (١٨٨) هـ وقيل انه ولد سنة (١٧٢) هـ وأكبر الظن أن هذه الأخيرة أقرب الروايات إلى الصحة ، وقد أخذ بها الأستاذ بطرس البستاني في كتابه (أدباء العرب في الأعصر العباسية) وبرهن على وجاهتها بقول أبي تمام في قصيدة مدح بها الحسن بن سهل الذي وزر للمأمون من سنة (٢٠٢) هـ الى سنة (٢٠٣) هـ :

ست وعشرون تدعوني فأتبعها الى المشيب ولم تظلم ولم تحب

ويلاحظ الأستاذ بطرس أنه لا مجال للقول ان أبا تمام مدح الحسن ابن سهل بعد سنة (٢٠٣) هـ أي بعد تنحيته عن منصبه ، لأنه لم يُنّح عن الوزارة الا بسبب اختلال عقله هذا الى أنه من المرجح أن يكون أبو تمام قد مدح الحسن بن سهل بهذه القصيدة قبل استيزاره لانه ليس فيها ما يشير الى وزارته وعلى هذا يكون القول بأن أبا تمام ولد سنة (١٧٢) هـ أقرب الاقوال إلى الصواب ٠

وليست نشأة ابي تمام اكثر وضوحاً من تاريخ ميلاده فقد قيل انه نشأ بمصر (١) وقيل: بل إنه نشأ في دمشق حيث بدأ حياته عاملاً صغيراً في حانوت حائك (٢) وعندي انه نشأ في دمشق وانه رحل الى مصر عندما بات في مقدوره ان يفعل ذلك . واكبر الظن انه قام بهذه الرحله وهو ابن سبع عشرة سنة . فقد اشار اليها في رائيته التي مدح بها أهل البيت (عليهم السلام) بقوله .

وان نكيراً ان يضيق بمن له عشيرة مثلي او وسيلته مصر (٣)

اما كونه ابن سبع عشرة سنة وقت نظمه هذه القصيدة فيدل عليه قوله فيها

وان الذي احذاني الشيب للذي رأيت ولم تكمل لي السبع والعشر (٤)

ولا مجال للقول بأنه ذهب الى مصر في صحبة ابيه فأنه يحمل نفسه تبعة القيام بهذه الرحلة الفاشلة . حيث يقول :

نأيت فلا مالا حويت ولم أقم فأمتع إذ فجعت بالمال والاهل

وحيث يقول في نفس القصيدة :

بخلت على عرضي بما فيه صونه رجاء اجتناء الجود من شجر البخل

وظاهر ان سبب رحيل ابي تمام عن الشام هو عدم تقدير مواطنيه إياه حق قدره ، فقصد مصر ظنا منه أنه سيلقى فيها شيئاً غير قليل

---

(١) وفيات الاعيان ج١ ص١٢٣ طبع المطبعة الميمنية بمصر .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) فاعل يضيق هو الدهر المذكور في بيت سابق .

(٤) احذاني : اعطاني .

من العطف والتشجيع . ولكن الظروف شاءت أن تعاكسه في مصر كما عاكسته في الشام ، فلم يلق في ولدي النيل ما كان يتوقع من تكريم وترحيب . فشكا خيبة أمله وسوء مغبة عمله في لاميته التي تقدمت لها الاشارة والتي أروي لك منها الآن هذه الأبيات :

لقد طلعت في وجه مصر بوجهه ... بلا طالع سعد ولا طائر سهل
وساوس آمالٍ ومذهب همة ... مخيّمة بين المطيّة والرحل
وسورة علم لم تسدّد فأصبحت ... وما يُتمارى أنها سورة الجهل

وقد طال مكث أبي تمام بمصر على الرغم من أنه لم يجد فيها عملا سوى سقاية الماء في الجامع . فهو يحدثنا في لاميته التي تقدم بعضها أنه قضى في مصر خمسة أعوام وبعض عام :

أخمسة أحوال مضت لمغيبه ... وشهران ، بل يومان ثكل من الثكل

وليس هناك ما يدل على أنه ترك مصر على أثر نظم هذه القصيدة ، بيد أنه مما لا شك فيه أنه بدأ تطوافه في الآفاق وهو في عنفوان شبابه . وقد قلت لك إنه مدح الحسن بن سهل وزير المأمون وهو في السادسة والعشرين من عمره ، وأقول لك الآن إن هذا يعني أنه زار بغداد وغيرها من الحواضر الاسلامية الكبرى وهو في تلك السن ، لأنه لو أرسل مدحته الى الحسن ابن سهل في البريد لجازف بالجائزة التي لولاها لما نظمت القصيدة . والغريب أن أبا تمام لم يمدح المأمون مدة خلافته بأكثر من قصادتين اثنتين . ولعل هذا ناشيء عن عدم اهتمام المأمون به .

ومهما يكن من شيء فقد سطع نجمه في أيام المعتصم الذي بلغ من عنايته به ان أستصحبه في غزوة عمورية ثقة منه بقدرته على تصوير عظائم الامور وجلائل الأعمال ورغبة في تمكينه من وصف مواقفه الباسلة

المشرّفة بشعره الخالد . ولقد صدّق أبو تمام ظن خليفته به فوصف ظفره الباهر في عمورية ببائيته الشهيرة التي تعد بحق غرة ديوانه . وله فيه عدا هذه البائية سبع مدائح بليغة . وكانت منزلة أبي تمام عند محمد بن عبدالملك الزيات وزير المعتصم وأحمد ابن أبي داؤد قاضي قضاته عظيمة أيضاً . إلا أن هذا لم يمنعه من التطواف في الآفاق وانتجاع ولاة الأقاليم وأمراء الثغور بالمديح . ولهذا التجوال في الأرض أسباب خلقية ونفسية سأعرض لها عند الكلام على أخلاق المترجم . وممن قصدهم أبو تمام بمديحه عبدالله بن طاهر في خراسان ، وخالد بن يزيد ابن مزيد في أرمينية ، ومحمد بن يوسف المعروف بالثغري في الثغور - أستغفر الله - بل إن الأخير هو الذي خطب مودة أبي تمام والتمس مديحه . ولم يستقبل صاحبنا في بلد من البلدان بأسوأ مما استقبل به في البصرة ، فقد كتب إليه شاعرها عبدالصمد المعروف بابن المعدّل عندما بات على مقربة منها هذه الأبيات :

أنت بين اثنتين تبرز للنا س وتلقاهم بوجه مذال
لست تنفك راجياً لوصال من حبيب أو راغباً في نوال
أي ماء يبقى لوجهك هذا بين ذلّ الهوى وذل السؤال؟!

فعدل عن قصده وقال : لقد استولى هذا على ما يليه ، فلنتركه وشأنه » . وقد انتهى تطواف أبي تمام بتعيينه والياً على بريد الموصل . عينه والياً عليه الحسن بن وهب كاتم سر محمد بن عبدالملك الزيات ، فقضى في هذا المنصب نحواً من سنتين . وتوفي في مقر عمله .

وكما يختلف الرواة في سنة مولده يختلفون كذلك في سنة وفاته . فمن قائل إنه توفي سنة (٢٢٨) هـ ومن قائل انه توفي سنة (٢٣١) هـ ومن قائل انه توفي سنة (٢٣٢) هـ ، وليس لدينا الآن ما يحملنا على ترجيح أحد هذه الأقوال والشيء الذي لا نزاع فيه هو أن المترجم توفي في خلافة الواثق ، لأنه مدحه وهنأه بالخلافة ولم يفعل مثل ذلك مع المتوكل . ومن المعلوم أن خلافة الواثق تمتد من سنة (٢٢٧) هـ الى سنة (٢٣٢)هـ .

ب - صفاته :

وأبرز صفات أبي تمام : المجون ، والتبذير ، والغلو في الاستجداء ، وحب الأسفار ، وحدة الذكاء ، وقوة الحافظة .

بدأ أبو تمام حياته فقيراً معدماً ، ولكنه كان يشرب الخمر مع ذلك . تدلنا على هذا لاميته التي شكا فيها خيبته في السفر إلى مصر والتي يقول فيها :

وكأسٍ كمعسول الأماني شربتها ولكنها أجلت وقد شربت عقلي

وليس في ذلك ما يدعو الى الاستغراب ، فكثير هم الفقراء الذين يزيدون فقرهم بانفاق ثمن الخبز في سبيل « أم الخبائث » زاعمين انها تسرّي عنهم أحزانهم وتنسيهم همومهم . الا أن أبا تمام كان يسرف أحياناً في استعمال الشراب فيشرب حتى يفقد صوابه ويحمل على أكتاف الرجال الى منزله . ويسأل في اليوم التالي عما جرى له في أثناء غلبة السكر على عقله . ! ومن أصدق الشواهد على ذلك أبياته النونية التي كتب بها الى

الحسن بن وهب على أثر حادثة من هذا القبيل ومطلعها :

أفيكم فتى حرّ فيخبرني عني ؟ بما شربت مشروبة الراح من ذهني ؟!

وكان الى هذا يتسرى الجواري والغلمان مع أنه رب أسرة له زوجة وله أولاد. وكانت هذه الحياة المعقده الماجنة تضطر أبا تمام إلى الانفاق الكثير ، فكان ينفق كل ما يصل الى يده من جوائز ممدوحيه ويسألهم المزيد ، ويلحف في المسألة اذا هم أعاروه أذناً صماء ومن الطبيعي أن ذلك يفضي الى نفورهم منه واعراضهم عنه وإلى معاتبته لهم في كثير الاحيان. ولك أن تتصفح باب العتاب في ديوانه لترى أنه عاتب أكثر ممدوحيه برأ به وأشدهم عطفاً عليه. فقد عاتب عتاباً مرا أبا دلف العجلي الذي أجازه على بائيته التي مطلعها :

على مثلها من أربع وملاعب أذيلت مصونات الدموع السواكب

بخمسين ألف درهم . وعاتب احمد ابن أبي دؤاد الذي اضطر بعد منحه إياه الجوائز السنية الى أن يثيبه على مدائحه الأخيرة له بالشكر فقط وعاتب مراراً عديدة أبا سعيد الثغري الذي دعاه وهو نضو أسفار الى الاقامة في كنفه اعجاباً بشعره أو تكريماً له لأنه طائي مثله ، وغمره بالعطاء حتى مدحه بتسع وعشرين قصيدة أكثرها من غرر شعره . وعندي أن الرسالة التي زعم أبو تمام أنها وردت عليه من أهله وجعلها سبباً لاستئذانه من أبي سعيد انما كانت مصطنعة (١). والحقيقة هي أن أبا تمام

---

(١) أشار أبو تمام الى هذه الرسالة ووصفها بالخطورة في أبيات كتب بها الى ابى سعيد مطلعها :

يامن به يفتخر الفخر ومن به يبتهج الشعر

أدرك نفور أبي سعيد منه وضيقه به فعوّل على مفارقته بهذه الطريقة .

وليس من شك في أن الرجل مفطور على المجازفة وحب التجوال في الآفاق تشهد بذلك أسفاره العديدة البعيدة المدى التي بدأها وهو ابن سبع عشرة سنة والتي قضت عليه أن يموت في دار غربة بعيدا عن أهله واخوانه . الا انه يخيل اليّ أن حياة السرف التي كان يحياها والتي كانت تستدعي نفقاتٍ طائلة لا ينوء بعبئها ممدوح مهما كثر ماله وغزر عطاؤه كانت عاملا قوياً أيضاً في ركونه الى الأسفار والتنقل من بلد الى بلد رغبة في أن لا يثقل على أحد وعملا على أن لا يبرم به ممدوح ، وعلى هذا بنى بيتيه الشهيرين اللذين ان صحا على أحد فانما يصحان عليه وهما قوله :

وطول مقام المرء في الحي مخلق لديباجتيه ، فاغترب تتجدد
ألم تر أن الشمس زيدت محبة إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد !؟

بيد أنه كان حاضر البديهة سريع الخاطر حاد الفطنة حدة شديدة . قال له أبو العميثل يوماً : « يا أبا تمام ، لم لا تقول ما يفهم؟! » فأجابه على الفور : وأنت ، لِم لا تفهم ما يقال ؟! » » . وما أظنك تجهل نقد أبي اسحق الكندي الفيلسوف قوله في احمد بن المعتصم .

اقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس

واجابته له على الفور بقوله :

لا تنكروا ضربي له من دونه مثلا شروداً في الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلا من المشكاة والنبراس

ومثل ذكاء أبي تمام في شدته وقوته ، حفظه ، قيل إنه كان يحفظ أربع عشرة ألف أرجوزة للعرب عدا القصائد والمقطّعات . وقد يكون في هذا شيء من المبالغة ، إلا أننا نستطيع أن نتبين منه الى حدٍ ما كثرة حفظ أبي تمام وغزارته . ومن يدري لعل « الحماسة » و «الاختيارات من شعر الفحول » و « فحول الشعراء » خير ما حفظ لا خير ما قرأ .

حـ ـ مذهبه السياسي الديني :

ولكن ، ألأبي تمام رأي في السياسة ؟ وبعبارة أخرى : أهو عباسي أم علوي أم خارجي ؟!

إننا إذا سألنا شعره عن هذا أنبأنا أنه كان علوياً متطرفاً في فجر حياته الا أنه لم يلبث أن عمد الى الكتمان والمصانعة (فلبس لكل زمان لبوساً) وواجه كل فئةٍ بالوجه الذي تقبله وتميل اليه . وقد سبق أن أشرت في هذا الفصل الى رائيته التي مدح بها أهل البيت عليهم السلام وهو ابن سبع عشرة سنة .

وأضيف الآن إلى ما تقدم أن هذه القصيدة تتضمن بحثاً مسهباً لموقف جمهور المسلمين من أهل البيت وفي اعتقاد المترجم أن كثرة المسلمين لم تحفظ عهد الرسول في آله ولم ترع حقه في ولده فسلبتهم حقهم وأحلت غيرهم محلهم من الأمر والنهي ، بل إنها فعلت بهم « أفاعيل أدناها الخيانة والغدر » . ويحدثنا هذا الغلام أنه ربما سهر الليل حتى

الصباح مفكرا في أمر الناس متأملا في انحرافهم عن جادة الصواب باحثاً عن الوسائل التي تمكنه من إرشادهم وهدايتهم والخروج بهم من الظلمات الى النور . ولكنه ينتهي الى القول بأنه إذا كان الوحي لم يهدهم سواء السبيل فما عسى أن يصنع الشعر ؟!. الا ان هذه الحدة في الرأي خفت كثيرا مع الزمان حتى أصبح أبو تمام علوياً مع العلويين وعباسياً مع العباسيين . فهو يقول مثلا في مديح محمد ابن عبدالملك الزيات العلوي برأيه العباسي بعمله :

وزير حق ، ووالي شرطة ، ورجا ديوان ملك ، و (شيعي) ، ومحتسب

ويقول في أبي سعيد الثغري العباسي برأيه وعمله على السواء :

فلو صح قول الجعفرية بالذي تنص من الالهام خلناك ملهما

وهكذا يتطور رأي أبي تمام في الدين والسياسة كما يتطور كل شيء في حياته الأدبية والمادية .

د - شعره :

لأبي تمام ديوان ضخم طبع في بيروت ومصر عدة طبعات يحتوي على الغزل والمديح والفخر والوصف والرثاء والعتاب والهجاء والوعظ . وما أريد أن أقف عند غزل أبي تمام لأنه لا يمثل شعوراً حقيقياً او عاطفة صادقة ، وهو إن مثّل شيئاً فانما هو العبث والمجون وما أريد كذلك أن أقف عند عتابه أو وعظه لأنه ليس في هذين البابين ما يستوقف الباحث . ولكني سأتحدث اليك عن ابواب ديوانه الأخرى مبتدئاً بفخره

لأنه أقل متعة وفائدة من غيره فيما أظن .

فخره : يعالج أبو تمام في فخره أربعة مواضيع لا يكاد يتعداها الى غيرها هي : شعره ، وأسفاره ، وأخلاقه ، ونسبه فكثيرا ما باهى بروائعه وبدائعه ووصفها بأنها (شديدة الأسر) (سالمة من الأقواء(١) والسناد(٢)) (منزهة عن السقط) (مكرمة عن المعنى المعاد(٣)) وهو يشبهها (بالوشي المنمنم) مرة و(بالدر المطلي بالشذر) تارة ، وينعتها (بالسحر الحلال) ، ويعدها أحياناً طعنات نافذة وضربات قاصمة . وعلى الجملة هي خير ما تفتقت عنه قرائح الشعراء ونطقت به ألسنهم . ومن جميل فخره في هذا الباب قوله :

خذها مغربة في الأرض آنسة ... بكل فهم غريب حين تغترب

من كل قافية فيها اذا احتنيت ... من كل ما يشتهيه المدنف الوصب

الجد والهزل في توشيع لحمتها

والنبل والسخف والأشجن والطرب

لا يستقى من حفير الكتب رونقها ... ولم تزل تستقي من بحرها الكتب

---

(١) الاقواء : هو المخالفة بين القوافي من حيث الاعراب .

(٢) السناد : هو اختلاف ما قبل الروي من حرف .

(٣) يخيل اليّ أن أبا تمام يغلو في هذا بعض الشيء . اذ الواقع أنه مولع بالتكرار ولعاً شديداً . فقد كرر وصف بكاء زوجته لسفره وتعزيته اياها تكراراً يبعث على السأم . وكرر كذلك وصف مواقف أبي سعيد الثغري في فتنة بابك الخرمي تكراراً مملا وربما كرر طرق الموضوع الواحد في القصيدة الواحدة ومن أمثلة ذلك وصفه نعمة المعتصم عند الافشين ، ونفاق هذا في اظهاره الاسلام واسراره الكفر في رائيته الشهيرة مرتين تغني أولاهما عن الثانية تماماً .

حسيبة في صميم المدح منصبها إذ أكثر الشعر ملقىً ماله حسب

وأما أسفاره فأنها تلعب دوراً خطيراً في فخره وهذا على الرغم من أنها كانت مبعث شقائه ومثار شكاته في كثير من الاحيان وهو يفخر بها لأنه يعتبرها رمز نشاطه ومظهر حيويته ودليل مضاء عزيمته وعلو همته ، وهي من هذه الناحية مبعث فخر كما يظن لولا أنها كانت دائماً وسيلة للاستجداء وسبباً للتكسب بالمديح . والغريب أن أبا تمام لا يبتكر شيئاً في هذا الضرب من الفخر على شدة ولعه به وإنما يقلد على الدوام تلك الصورة الجميلة التي رسمها أبو نواس لنفسه ولزوجته في رائيته التي مطلعها (أجارة بيتينا أبوك غيور .. الخ) والتي لم يبتكرها أبو نواس بدوره وانما اقتبسها من بشار وقد أشرت الى ذلك عند الكلام على حياة بشار . ولكنه هذّبها وحسّنها فكان أحق بها منه واليك مثلا من فخر أبي تمام بأسفاره ، قال :

خذي عبرات عينك عن زماعي وصوني ما أذلت من القناع
أقلي ، قد أضاق بكاكِ ذرعي وما ضاقت بنازلة ذراعي
أآلفة النحيب كم افتراقٍ ألّم ، فكان داعية اجتماع
وليست فرحة الأوبات الا لموقوفٍ على ترح الوداع

وأكثر ما يلفت نظر أبي تمام من أخلاقه صبره وعلو همته ، فهو يفخر بهما دائماً . وعندي أنه صادق في هذا الفخر كل الصدق ، فلو لم يكن عالي الهمة لما هجر وطنه دمشق طلباً للرزق وهو غلام لم يشتدّ ساعده بعد ولم يقو على مقارعة الخطوب ، ولو لم يكن على جانب كبير

من الصبر ورباطة الجأش لما صبر على مكابدة تلك الاهوال التي كانت تتقاذفه من مصر الى بغداد الى أرمينية الى خراسان الى غيرها من بلاد الله الواسعة . ومن طريف فخره بماله من عالي الهمة قوله :

أبدت أسى أن رأتني مخلس القصب ... وآل ما كان من عجب إلى عجب(١)
ست وعشرون تدعوني فأتبعها ... إلى المشيب ولم تظلم ولم تحب(٢)
يومي من الدهر مثل الدهر مشتهر ... عزماً وحزماً وساعي منه كالحقب(٣)
فأصغري أن شيباً لاح بي حدثاً ... وأكبري أنني في المهد لم أشب
فلا يؤرقك إيماض القتير به ... فان ذاك ابتسام الرأي والأدب(٤)

أما في الصبر فحسبي أن أروي لك قوله :

إذا أناخ عليّ الدهر كلكله ... قراه صبراً وعزماً مني الكرم(٥)
وإن علتني من أزماته ظلم ... صبّرت نفسي حتى تكشف الظلم

ولقبيلة الشاعر مكانها اللائق بها في شعره ، ومن رأيه أنها أكبر القبائل شأناً وأعلاها منزلة وأغزرها جودا وأشدها بأساً . (أمردها كهل) لرجاحة عقله وحصافة رأيه ، (وأشيبها حبر) لسعة علمه وغزارة فضله ، ومن معتدل فخره بقبيلته قوله :

---

(١) أخلس الشعر : شاب أو اختلط بياضه بسواده . القصب : جمع قصبة - أو هي محركة - وهي الخصلة الملتوية من الشعر .

(٢) لم تحب : لم تصنع حوباً أي اثماً .

(٣) الساع : جمع ساعة . والحقب : جمع حقبة وهي المدة غير المحدودة من الزمن .

(٤) القتير : أوائل الشيب .

(٥) الكلكل : هو الصدر ومقدم العنق .

أنا ابن الذين استرضع الجود فيهم وسمّي فيهم وهو كهل ويافع(١)
سما بي أوس في السماح وحاتم وزيد القنا والأثرمان ونافع
وكان إياس ، ما إياس ونافع ، وحارثة ، أوفى الورى ، والأصابع
. . . . . .
مضوا ، وكأن المكرمات لديهم ، لكثرة ما أوصوا بهن ، شرائع
. . . . . .
هم استودعوا المعروف محفوظ مالنا فضاع وما ضاعت لدينا الودائع
. . . . . .
أصارت لهم أرض العدوّ قطائعاً ، نفوس لحد المرهفات قطائع
بكل فتى ما شاب من روع وقعةٍ ولكنه قد شبن منه الوقائع
اذا ما أغاروا فاحتووا مال معشر أغارت عليهم فاحتوته الصنائع
فتعطي الذي تعطيهم الخيل والقنا أكفٌّ لارث المكرمات موانع

* * *

وصفه : أدل من فخر أبي تمام على سعة خياله وخصب قريحته وصفه الحافل بالصور الصادقة والمشاهد الرائعة . وأول شيء يلاحظ في هذا الوصف هو أن الطبيعة تحتل المكان الأول منه . ولك أن تقرأه لتتبين فيه دويّ الرعد ولمعان البرق وهطول الأمطار وابتسام الروض . وليس

---

(١) اليافع : هو الغلام المراهق للعشرين . وكان الصواب أن يقول « وهو يافع وكهل » الا أن القافية حالت بينه وبين ذلك .

أبو تمام أول من فعل هذا في الأدب العربي ، ولكنه ربما كان أول من أحب الطبيعة حباً حقيقياً ووصف بعض ظواهرها وصفاً يكاد يكون غزلاً ، اسمع قوله :

ديمة سمحة القياد سكوب مستغيث بها الثري المكروب
لو سعت بقعة لاعظام نعمى لسعى نحوها المكان الجديب
لذ شؤبوبها وطاب فلو تستطيع قامت فعانقتها القلوب(١)
فهي ماء يجري وماء يليه وعزالى ثنشا وأخرى تذوب

كشف الروض رأسه واستسر المحل منها كما استسر المريب فاذا الري بعد محل وجرجان لديها يبرين أو ملحوب(٢) أيها الغيث حي أهلاً بمغداك وعند السرى وحين تؤوب فقد لا أخطيء اذا لاحظت أن أبا تمام أول من وجد في شؤبوب الغمام لذة تكاد تحمل القلوب على معانقته . وقد لا أخطيء إذا لاحظت أن أبا تمام أول من رحب بالغيث على النحو الذي نجده في هذا البيت :

أيها الغيث حي أهلاً بمغداك وعند السرى وحين تؤوب

وقد لا أخطيء كذلك إذا لاحظت أن أبا تمام أول من تحدث عن الغيث

---

(١) من هذا القبيل قول أبي تمام في ارجوزة مطولة يصف بها سحابة :

لما بدت للارض من قريب تشوقت لوبلها السكوب
تشوق المريض للطبيب وطرب المحب للحبيب
وفرحة الأديب بالأديب

وبهذه المناسبة احب ان أقول : ان لأبي تمام شعراً كثيراً في وصف الأمطار اكثره في باب الوصف من ديوانه .

(٢) يدل هذا البيت على أن أبا تمام يعتبر شبه جزيرة العرب مضرب المثل في الخصب وجودة التربة مع أنها ليست كذلك في الحقيقة .

بهذه اللهجة التي تدل على الاعجاب مرة ، وعلى الاعظام تارة ، وعلى الحب والحب الشديد طورا . والذي أستنتجه من هذا هو أن أبا تمام يفهم جمال الطبيعة فهماً تاماً ويهيم بها هياماً تاماً : فهو يفهم جمالها إذا تلفّعت السماء بالسحاب وغمرت الارض هواطل الامطار وهو يفهم جمالها إذا حسرت السماء رداء السحاب واخذت الشمس المشرقة تنشر النور والدفء والخصب في الأرض :

مطر يذوب الصحو منه وبعده صحو يكاد من الغضارة يمطر

غيثان فالأنواء غيث ظاهر لك حسنه والصحو غيث مضمر

وهو يفهم جمالها كذلك إذا تبسّم النور واختلط لونه الفضي بشعاع الشمس الذهبي ونشأ عن اختلاطهما ما يشبه نور القمر في لطفه وسجّوه وسحره وإيحائه :

يا صاحبيَّ تقصّيا نظريكما تريا وجوه الأرض كيف تصوّر

تريا نهاراً مشمساً قد شابه زهر الربى فكأنما هو مقمر

على أن هذا الفهم الدقيق الذي يلهم أبا تمام روائع الغزل في الطبيعة يستثير في قلبه كوامن الايمان أحياناً فيملأ نفسه خشوعاً ولسانه تسبيحاً ، فاذا هو يهلل الخالق الأعظم ويكبّره ويقدّسه ويمجّده ، وإذا هو يستخرج العبر البليغة مما يرى من مشاهد الطبيعة وما يطرأ عليها من نموّ وازدهار وذبول وانحلال . إسمع قوله في وصف الزهر واختلاف ألوانه :

من فاقع غضّ النبات كأنه درر تشقق قبل ثم تزعفر

أو ساطع في حمرة فكأنما يدنو اليه من الهواء معصفر

صبغ الذي لولا بدائع لطفه ما عاد أصفر بعد إذ هو أخضر

وقوله مشيراً الى انتهاء زمن الربيع وذبول أزهاره :

عجبت من ذي فكرة يقظان رأى جفاف زهر الغيطان(١)
فشك أن كل شيء فان

وكما يجيد أبو تمام تصوير الطبيعة ، يجيد كذلك وصف غيرها من الأشياء ، من ذلك وصفه القلم في قصيدة يمدح بها محمد بن عبدالملك الزيات وها هو :

لك القلم الأعلى الذي بشباته تصاب من الأمر الكلى والمفاصل
لعاب الأفاعي القاتلات لعابه
وأري الجنى اشتارته أيد عواسل(٢)
له ريقة طل ولكن وقعها بآثاره في الشرق والغرب وابل
فصيح إذا استنطقته وهو راكب وأعجم إن خاطبته وهو راجل
اذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت
عليه شعاب الفكر وهي حوافل(٣)
أطاعته اطراف القنا وتقوضت لنجواه تقويض الخيام الجحافل

فليس من شك في أن هذه الأبيات صورة صادقة لقلم تتعلق مصائر الناس بشقيه ، فيقضي على من يشاء منهم بالويل والثبور ويقضي لمن يشاء منهم بالرزق الواسع والجاه العريض . يشير بالحرب فاذا هي شعواء تلتهم الأموال والأرواح التهاما . ويشير بالسلم فاذا هي نامية زاهرة

---

(١) في طبعة الديوان المنجزة ببيروت تحت اشراف محي الدين الخياط : « رأى جفون زهر الألوان » واكبر الظن ان الصواب ما اثبتناه .

(٢) الأري : العسل . الجنى : القطف . اشتارته : جنته .

(٣) الشعاب : مجاري الماء . حوافل : ممتلئة .

عميمة الخيرات عظيمة البركات . على أنه لم يكن رسول حول وطول فحسب ، بل إنه رسول فطنة نافذة وحكمة بالغة وتجربة كلها توفيق وسداد . وقس على ما تقدم من وصف ابى تمام تصويره لكثير من الاشياء التي نبهت حسه وألهمت خياله واستوحت شاعريته .

رثاؤه : أما رثاء ابي تمام فمن الممكن ان يقسم الى مطبوع ومصنوع . وهو في الاول قوي العاطفة صادق الشعور حاد الالم . وفي الثاني صاحب صناعة يحسن اختيار المعاني وانتقاء الألفاظ ويجيد صقل الديباجة على الاكثر واقول على الاكثر لأنه يسف أحياناً في هذا النوع من رثائه اسفاحاً لا يكاد يصدق ، فليس من السهل ان نتصور أن القائل :

فتى سلبته الخيل وهو حمى لها وبزته نار الحرب وهو لها جمر

هو الذي يقول :

مضى خالد بن يزيد بن مزيد قمر الليل شمس الضحاء

وأن القائل :

يود اعدائهم لو انهم قتلوا وأنهم صنعوا بعض الذي صنعوا

هو الذي يقول :

ولم انس سعي الجود خلف سريره بأكسف بال يستقيم ويظلع
وتكبيره خمساً عليه معالناً وان كان تكبير المصلين أربع

هذا الى ان اعراب البيت الثاني غير مستقيم اذا استقام معناه لأن المعقول في اعرابه هو أن تكون (تكبير) اسم كان و (اربع) خبرها لا العكس كما يريد أبو تمام أو كما تريد له الضرورة الشعرية . ولكن

إن كانت الصنعة قد غلبت على هذا الجانب من رثاء أبي تمام ، وإن كان الاسفاف قد تطرق اليه في أماكن كثيرة بسبب عدم إخلاصه فيه فان له رثاءاً تتفجر من ثناياه الدموع وتجيش في طياته الحسرات وتتردد خلال كلماته الأنفاس الحارة ، فضلا عن أنه مثل رائع في النفاسه والجودة ، هذا الرثاء هو رثاؤه لولده ولاخوته ولآل حُميد الذين نجمع بينه وبينهم رابطة النسب . وأنت إذا تأملت هذا الرثاء رأيت أنه صورة صادقة لما نزل بالشاعر من فجائع وكوارث في أهله الأقربين والأبعدين ولما يجيش في صدره من عواطف وأحاسيس ، ولما يعتلج في نفسه من اشجان وآلام . فهذه قصيدة بل عدة قصائد تصف إقدام آل حُميد وشهامتهم وثباتهم وبسالتهم وركوبهم متون الأخطار دفاعاً عن المملكة الاسلامية وورود كل منهم حتفه في هذا السبيل . وهذه قطعة تذكر فقدان الشاعر طائفة من ولده وإخوته في سنة واحدة ، وتشير إلى شماتة أعدائه به والى صبره على ما يلقى من عنت الخطوب ، وهذه اخرى تصور ما لقي أخ له من أهوال الاحتضار بمنظر منه ، وهكذا . وليس من شك في أن رائية أبي تمام الشهيرة التي رثى بها محمد بن حميد الطوسي ، ابلغ رثائه واحسنه اليك منها هذه الأبيات :

فتىً مات بين الطعن والضرب ميتة ... تقوم مقام النصر ان فاته النصر

وما مات حتى مات مضرِب سيفه ... من الضرب واعتلت عليه القنا السمر

وقد كان فوت الموت سهلاً فرده ... اليه الحفاظ المر والخلق الوعر

ونفس تعاف العار حتى كأنما
هو الكفر يوم الروع او دونه الكفر
فأثبت في مستنقع الموت رجله وقال لها من تحت اخمصك الحشر
غدا غدوة والحمد نسج ردائه فلم ينصرف إلا واكفانه الاجر
تردى ثياب الموت حمراً فما دجى
لها الليل إلا وهي من سندس خضر
كأن بني نبهان يوم وفاته نجوم سماء خر من بينها البدر
يعزون عن ثاو تعزى به العلى ويبكي عليه البأس والجود والشعر
وأنى لهم صبر عليه وقد مضى الى الموت حتى استشهدا هو والصبر

مهما نقل في تقريض هذه القصيدة فاننا لن نبلغ من ذلك مبلغ ابي دولف العجلي الذي قال لأبي تمام وهو يشير اليها (لوددت انها لك في) وعندما قال له أبو تمام (بل أفدي الأمير بنفسي) أجابه (ما مات من رثي بهذا الشعر) .

* * *

مديحه : ومهما يكن من جودة رثاء أبي تمام فان مديحه أحسن شعره وأجوده كما أنه اكثره أيضاً . بيد أنه مما يؤسف له ان ابا تمام لا يتوخى الحقيقة ولا يلتزم الصدق في مديحه وإنما يمدح الناس بما يعجبهم أن يمدحهم به وبما يعجبه هو أيضاً ان يمدحهم به . ولسنا نظلم أبا تمام عندما نشهد عليه بالكذب فهو يقول لعمر بن طوق التغلبي بصريح العبارة :

ومتى مدحت سواك كنت متى يضق عني له صدق المقالة أكذب

ويصرح في أهاجيه لممدوحيه القدماء بأنه كذب في مديحهم كذباً لا غبار عليه .

وسأذكر مثلاً من اعترافه بكذبه عند الكلام عن هجائه ولكن الى جانب هذه الأكاذيب التي يمتليء بها مديح أبي تمام حقائق كثيرة يفيض بها وصفه لما كان جارياً بين المسلمين والروم من نضال دائم ونزاع لا ينقطع على حدود آسيا الصغرى ، ولفتنة بابك الكبرى التي استفحل أمرها حتى شملت أذر بيجان كلها ودامت نحواً من عشرين سنة وقضت على عدد غير يسير من جنود السلطان وقواده ، ولحوادث سياسية اخرى . وغني عن البيان أن موقف أبي تمام من حيث هو شاعر متكسب تهمه الجائزة ويستهويه رضا الممدوح لا يسمح له أن يبحث دائماً عن الحقيقة وأن يقررها كائنة ما كانت . فقد مدح الأفشين في أيام حظوته عند المعتصم مديحاً رفعه به إلى منزلة الأبطال وعدّه رجل القضاء على فتنة بابك الخزمي(١) ، ولكنه هجاه أفظع هجاء عندما خانه الحظ وحل عليه غضب المعتصم . الا أنه - أعني أبا تمام - لا يتردد في تقرير الحقيقة اذا اتفقت ومصلحة الممدوح ، وأنت اذا تأملت بائيته في فتح عمورية

---

(١) الخرمي : نسبة الى الخرمية وهي طائفة من الفرس تدين بالتناسخ والاباحية .

ولاميته التي هنأ فيها المعتصم بقمع فتنة بابك والتي مطلعها :-

آلت أمور الشرك شر مآل وأقرّ بعد تخمط وصيال(١)

رأيت أنه حريص كل الحرص على عرض حقائق الأشياء كما هي ، وسبب ذلك أنها تتفق ومصلحة ممدوحه ورغبته كل الاتفاق ، وقل مثل ذلك في إطرائه مواقف أبي سعيد الثغري في منازلة الروم ومناهضة بابك الخرمي على ان قيمة مديح ابي تمام ليست في تمثيله حقائق الحرب والسياسة فحسب وإنما هي في دقة معانيه وفصاحة ألفاظه وجودة أدائه ، اسمع قوله في وصف إحراق عمورية :

لقد تركت أمير المؤمنين بها للنار يوماً ذليل الصخر والخشب
غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى يقله وسطها صبح من اللهب
حتى كأن جلابيب الدجى رغبت عن لونها * أو كأن الشمس لم تغب
ضوء من النار والظلماء عاكفة وظلمة من دخان في ضحى شحب
فالشمس طالعة من ذا ، وقد أفلت
والشمس واجبة في ذا ولم تجب(٢)

وقوله في وصف بلاء أبي سعيد الثغري في سبيل القضاء على فتنة بابك الخرمي :-

أنهبت أرواحه الأرماح إذ شرعت فما تردّ لريب الدهر عنه يد
كأنها وهي في الأوداج والغة
وفي الكلى ، تجد الغيض الذي تجد
من كل أزرق نظار ، بلا نظر ، الى المقاتل ، مافي متنه أود
كأنه كان ترب الحب مذ زمن فليس يعجزه قلب ولا كبد

---

(١) التخمط : التكبر .
(٢) واجبة : غائبة .

وقوله واصفاً سطوة أبي سعيد أيضاً في بلاد الروم :-

لمّا لقوك تواكلوك وأعذورا ... هرباً فلم ينفعهم الاعذار(١)
فهناك نار وغىً تشبّ ، وههنا ... جيش له لجب وثمّ مغار(٢)
خشعوا لصولتك التي هي عندهم ... كالموت يأتي ليس فيه عار
فالمشي همسٌ ، والنداء إشارةٌ ، ... خوف انتقامك والحديث سِرار
ان لا تنل منويلَ أطراف القنا ... أو تثن عنه البيض وهي حرار
فلقد تمنى أن كل مدينةٍ ... جبل أشمُ وكل حصن غار

فلا نزاع في أن في هذه المثل ، وهي قلٌ من كثر من محاسن مديح أبي تمام ، من دقة التفكير وجمال التعبير وصفاء الديباجة ما يرفعها إلى أسمى مراتب الكلام .

***

هجاؤه : والبحث عن مديح أبي تمام يسوقنا الى البحث عن هجائه. وأقل ما يقال في هذا إنه لاذع قارص ، هدفه القضاء على سمعة المهجو وتمزيق عرضه تمزيقاً ، وإلباسه ثوب العار والصغار الى الأبد سواء أكان ذلك حقاً أم باطلاً هذا إلى أنه غير منزه عن الفحش والهجر وبعض مهجوّي المترجم هم من ممدوحيه القدماء . وقد غلا في هجائهم كما غلا في مديحهم وأسرف في ذمهم كما أسرف في الثناء عليهم .

---

(١) تواكلوك : وكلك بعضهم الى بعض خوفاً منك .

(٢) اللجب : الصياح .

والجائزة هي العامل الاول بل الوحيد في هذا كله لسوء الحظ ، وقد ينتقل خصوم أبي تمام الى دار البقاء قبل أن يشفي غليله منهم بالهجاء فلا يشفع لهم هذا عنده ، ولا تخطر له المغفرة على بال ، وانما يمضي في ذمهم والطعن عليهم كما لو كانوا أحياء يناصبونه العداء ويبادلونه البغضاء والشحناء ، ومن ذلك أنه هجا عياش بن لهيعة بعد موته ، فقال : إن القبر تضوّر من وجوده فيه حتى كأنه هو المقبور ، وإن منكراً ونكيراً فرا منه ظناً منهما أنه منكر ونكير ، ولعلي أروي لك مثلا من أقسى هجاء أبي تمام وأعنفه . إذا رويت لك الابيات التالية التي يهجو بها موسى بن إبراهيم الرافقي وكان قد مدحه :

أمويس لا تفنِ اعتذارك طالباً ... عفوي فما بعد العقاب عتاب
هب من له شيء يريد حجابه ... ما بال لا شيء عليه حجاب ؟
ما إن سمعت ولا أراني سامعاً ... أبداً بصحراء عليها باب !
من كان مفقود الحياء فوجهه ... من غير بواب له بواب
ما زال وسواسي لعقلي خادعاً ... حتى رجا مطراً وليس سحاب
ما كنت أدري ، لا دريت ، بأنه ... يجري بأفنية البيوت سراب
. . . . . .
عجباً لقوم يسمعون مدائحي ... لك لم يقولوا قم فأنت مصاب
نبزوا بكذاب مسيلمة فقد ... وهمواوجاروا ، بل أنا الكذاب
هتّكت ديني فاستترت بتوبة ... فأنا المقرّ بذنبه التواب

***

فالرافقي كما تصوره هذه الأبيات لا شيء . بل هو صحراء قاحلة . بل هو رجل لا حياء له أما مديحه فدليل واضح على جنون الشاعر هذا إلى أنه أشنع وأفظع من أكاذيب مسيلمة الكذاب . وهل بعد هذا كله زيادة لمستزيد .

* * *

لغته وأسلوبه : بقي أن أقول لك كلمة في لغة أبي تمام واسلوبه.

والواقع أن شعره غير منزّه عن وحشي الكلام وحوشيه وأنه حافل بالزخارف البديعية المتكلفة(١) إلا أنه فصيح اللفظ متين السبك على العموم مرصّع بالامثال الحكيمة التي يضربها الشاعر من حين لآخر تأييداً لوجهة نظره ترصيعاً جميلا .

يحدثنا أبو تمام في قصائد كثيرة أنه يقضي الليل فيّ تهذيب شعره وتنقيحه ولكن في شعره ما يناقض هذا مناقضة تامة ، فمن ذلك قوله:ـ

قدك اتئب أربيت في الغلواء كم تعذلون وانتم سجرائي

وقوله :

وأباح نصل السيف كلّ مرشحٍ لم يحمرر دمه من الاطفال

وقوله :

فأنت وصنواك الكريمان أخوة خلقتم سعوطاً للأنوف الرواغم

« فقدك اتئب » ـ أي حسبك ـ و « أربيت » ـ أي أسرفت ـ

---

(١) بين النقاد المعاصرين زمرة تستحسن تكلف ابي تمام زخارف البديع استحساناً شديداً وترى في ذلك دليلا آخر على انه من أصل يوناني . فاكتفى بأن اسجل على هؤلاء النقاد انهم من انصار التكلف .

و « سجراء » - أي خلطاء - كلمات غريبة اقل ما يقال فيها إنها ثقيلة الجري على اللسان ثقيلة الوقع في السمع و « لم يحمرر » كلمة متنافرة الحروف ، و « سعوط » كلمة سمجة الى الغاية . وهناك تعابير ركيكة منها قول أبي تمام :-

صبحتّه بمدامة صبحتها بسلافة الخلطاء والندماء

أي باكرت الروضة بمدامة أسميتها مدامة الخلطاء والندماء ، ومنها قوله متغزلاً :

عبدك يشكو باسطاً خمسه مبتهلاً يدعو فلا تنسه

والبيت من الركاكة بحيث لا يحتاج الى تعليق .

وكان على أبي تمام أن ينزه شعره عن هذه السقطات التي لم نذكر منها إلا النزر اليسير إلا أن شغفه بشعره حال بينه وبين ذلك(١) على أنك اذا درست شعره وتأملته رأيت أنه في جملته فصيح اللفظ متين السبك نقي الديباجة ، وفي ما تقدم وما سيأتي منه خير شاهد على ذلك . أما الزخرفة البديعية فلا شك في أن أبا تمام قد أسرف في استعمالها إسرافاً شديداً ، وأنها قد أدخلت الوهن بل الفساد على كثير من شعره فجاءت فيه الاستعارة الزائفة والطباق المرذول والجناس غير الموفق . فمن استعاراته الزائفة قوله :

رأي لو استسقيت (ماء نصيحة) لجعلته أرياً من الأرياء

---

(١) يحدثنا صاحب الاغاني ان أبا تمام انشد احد معاصريه من الشعراء قصيدة لم يكن فيها سوى بيت ضعيف واحد . فقال له الشاعر : (يا أبا تمام لو القيت هذا البيت ما كان في قصيدتك عيب .) فقال له م: (أنا والله اعلم منه مثلما تعلم . ولكن مثل شعر الرجل عنده مثل اولاده فيهم الجميل والقبيح والرشيد والساقط وكلهم حلو في نفسه . فهو وان احب الفاضل لم يبغض الناقص وان هوي بقاء المتقدم لم يهو موت المتأخر) . الاغاني ج : ١ ص ٩٦ طبعة مطبعة التقدم بمصر .

ومن مطابقاته المرذولة قوله :

أيا قمر السماء (سفلت) حتى كأنك قد ضجرت من (العلوّ)

ومن مجانساته غير الموفقة قوله :

أي حسن في الذاهبين تولى وجمال على ظهور الجمال
ودلال مخيم في ذرى الخيـ ـم وحجل معذب في الحجال

إذ من الجلي أن استعارة الماء للنصيحة زخرفة زائفة لأن الاستعارة يجب أن تقوم على شبه ما بين المستعار والمستعار له . وبما أظنك تجد هذا في استعارة أبي تمام المتقدم إيرادها ، ونعت الحبيب بالسفل وإن كان المقصود منه مشيه على الأرض بعد إمعانه في العلو تعبير لا يجيزه أدب الحب . وحشر الجمل والجمال والحجل والحجال في تعابير جافة كالتي سبق ذكرها زخرفه لفظية لا يستسيغها قاريء له ذوق . وفي الامكان إعطاء أمثلة أخرى كثيرة جداً لهذه السقطات .

ولكن إن كان التعمل قد أفسد على أبي تمام طائفة من شعره فانه قد وافق طبعه في كثير منه فأدى الى أحسن النتائج وأفضلها ، وإلا فمن ينكر تلاؤم الطبع والصنع في قوله :

السيف أصدق أنباءً من الكتب في حده الحد بين الجدواللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في
متونهن جلاء الشكّ والريب
والعلم في شهب الأرماح لامعةً
بين الخميسين لا في السبعة الشهب

وفي قوله من نفس القصيدة :

لبيت صوتاً زبطرياً هرقت له كأس الكرى ورضاب الخرد العرب

عداك حر الثغور المستضامة عن برد الثغور وعن سلسالها الحصب

وفي قوله واصفاً فرح العالم الاسلامي بشنق الافشين وإحراقه :

رمقوا أعلي جذعه فكأنما وجدوا الهلال عشيّة الافطار
واستنشقوا منه قتاراً نشره من عنبر ذفر ومسك داري
وتحدثوا عن هلكه كحديث من بالبدو عن متتابع الأمطار
وتباشروا كتباشر الحرمين في قحم السنين بأرخص الأسعار

وفي قوله مادحاً المعتصم :

جلا ظلمات الظلم عن وجه أمة أضاء لها من كوكب الحق آفله

وفي قوله واصفاً الجندي العباسي :

خلط الشجاعة بالحياء فاصبحا كالحسن شيب لمغرم بدلال

ففي هذه المثل تشابيه حسنة واستعارات جميلة ومجانسات طريفة لم تستلزم غموض معنى ولا ركاكة لفظ وإنما أضافت إلى دقة المقاصد والأغراض ولطف الأداء وسلامته جمال الزخرفة البيانية التي لا تلمس فيها أثر التكلف وليس من شك في أن شعر أبي تمام الذي يتعاون الطبع والصنع على تجويده يحتوي على أمثلة أخرى كثيرة من هذا القبيل.

وتسألني عن أمثال أبي تمام فأقول لك إنها على جانب كبير من النفاسة لأنها ثمرة علم غزير وخبرة طويلة وتجربة واسعة . ولقد كان أبو العلاء على حق عندما وصف المترجم والمتنبي بأنهما حكيمان . وليس أدلّ على ذلك من هذه الحكم الغالية التي يرصع بها أبو تمام شعره فتتضمنها قصائده

حيناً وتجيء مستقلة حيناً آخر . وهي في كل حال خلاصة تفكيره ومجموعة خواطره وآرائه في الحياة والاجتماع ، إسمع منها قوله :

إذا المرء لم يزهد وقد صبغت له ... بعصفرها الدنيا فليس بزاهد

وقوله :

محاسن أصناف المغنين جمّة ... وما قصبات السبق إلا لمعبد

وقوله :

والسيف مالم يُلفَّ فيه صيقل ... من سِنخه لم ينتفع بصقال

وقوله :

ولم أر نفعاً عند من ليس ضائراً ... ولم أر ضرا عند من ليس ينفع

وقوله :

ينال الفتى من عيشه وهو جاهل ... ويكدي الفتى في دهره وهو عالم

ولو كانت الارزاق تجري على الحجا

هلكن إذن من جهلهن البهائم

وما أشك في أنك تروي قوله :-

وإذا اراد الله نشر فضيلة ... طويت ، أتاح لها لسان حسود

وقوله :

وإذا أمرؤ أسدى إليك صنيعة ... من جاهه فكأنها من ماله

وقوله :

ليس الغبي بسيد في قومه ... لكنّ سيد قومه المتغابي

هـ - خاتمة :

كثير هو دون شك شعر أبي تمام الذي لا يغذي في هذا العصر عقلاً ولا عاطفة والذي إن درس فانما يدرس لغاية تاريخيه . ولكن لا تزال بين دفتي ديوانه ولا سيما في بابي الرثاء والوصف غرر ونفائس أشك جداً في أنها تموت في يوم من الايام ، إما أمثاله فكثرتها الكبرى تستحق أن تروى في كل زمان وفي كل مكان .

الفصل الثاني

البحتري

أ ـ حياته : اسمه ونسبه وكنيته • مولده ونشأته • ثقافته • ما يقال عن تخرجه على أبي تمام • مناقشته • أسفاره الأولى • ما نشأ عنها من اثرائه • هجرته الى العراق • اتصاله بالفتح بن خاقان • تقديم هذا اياه الى المتوكل على الله • حظوته عنده • برم المتوكل والفتح بن خاقان به • رضاؤهما عنه • اثره في نقل المتوكل دواوينه الى دمشق • بقاؤه في حاشيته حتى آخر ساعة من حياته • حاله على عهد المنتصر • صلاته بالمستعين • حظوته عند المعتز • صلاته بالمهتدي والمعتمد على الله • اختلافه الى سورية وتنكر هذه له • ثروته • كونها مصدر شقاء له • استرداد الحكومة جزءاً غير يسير منها • وفاته •

ب ـ أخلاقه : بخله • اعجابه بشعره • اقدامه • وفاؤه • حبه الشديد للخير •

ج ـ مذهبه السياسي الديني •

د ـ شعره : جمعه وطبعه • غزله : مكان التقليد منه ، حظه من الاصالة • حبه لعلوة • مثل من غزله فيها • مديحه : اشتماله على صفحات اصيله واخرى مبتذلة ، ماله من المزايا التاريخية العديدة ، تمثيله حياة القرن الثالث

للهجرة العسكرية والسياسية ، بعض ما يمثلها منه ، ماله من القيمة التصويرية ، بعض غرره في هذا الباب . رثاؤه : المتوسط والممتاز منه . خصائص كل منهما ، مرثيته للمتوكل على الله ، تحليلها ، مرثيته لآل حميد ، مجمل القول فيها ، موقف النقاد المحدثين من رثائه . فخره : عناصره . لقاؤه الذئب وقتله اياه . تصويره هذه الحادثة . وصفه : تمثيله حضارة القرن الثالث للهجرة . تصويره قصور المتوكل على الله وابنه المعتز . وصفه ايوان كسرى . سببه والغرض منه . نقده وتحليله . بعض من جاراه . براعة البحتري في وصف الطبيعة ، بعض بدائعه في هذا الباب . هجاؤه : تفاهته وفكاهته . مثل منه . عتابه : لطفه . ما يحمله على التلطف فيه . مثل منه . فلسفته . آراؤه في الدنيا والحياة والموت وما الى ذلك . بعض كلماته في هذا الباب . لغته واسلوبه : ما سبقت الاشارة اليه في هذا الصدد . مساوىء منظومه ومحاسنه . غلبة التنافر على جزء منه . شيوع الزحاف فيه . بعض ما يؤيد ذلك . مخالفته بعض قواعد الاعراب . قدرته على تأليف الصور الشعرية . أمثاله . طائفة منها .

٥ - خاتمة - أهمية شعره : فائدة درسه وتمحيصه .

أ - حياته

كانت حصة طيء من القريض العربي في القرن الثالث للهجرة حصة الأسد فأبو تمام شيخ شعراء القرن طائي ، والبحتري ثاني شعرائه في نظر عامة الرواة والنقاد طائي أيضاً . وقد حدثتك فيما مضى عن الطائي الاول فأحدثك الآن عن الطائي الثاني وهو الوليد بن عبيد من بحتر وبحتر بطن من طيء وكنيته أبو عبادة . ولد سنة خمس ومائتين للهجرة(١) بمنبج(٢) إحدي قري حلب وبها نشأ وقرض الشعر . وكان لبادية الجزيرة وجوها النقي وسمائها الصافية عظيم الأثر في إيقاظ خياله وتكوين شاعريته ، واذا صدقنا ما يقوله صالح بن الأصبغ التنوخي المنبجي من أنه رآه يمدح « باعة البصل والباذنجان »(٣) لم يبق مجال للريب في أن المترجم سليل أسرة فقيرة خاملة .

وقد أحب في أيام شبابه فتاة حلبية اسمها علوة يظهر من غزله بها وهجوه إياها(٤) أنها فتاة فائقة الجمال إلا أنها ليست ممن يضرب بعفتهن المثل من بنات حواء .

والمعروف أن البحتري تخرج على أبي تمام وعنه أخذ ، ولكن أمكث أبو تمام في بلد من البلدان مدة تمكنه من تخريج شاعر ؟ ألم

---

(١) تختلف كتب التراجم في تاريخ ولادة البحتري ولكن الكامل في التاريخ يجزم بأنه ولد سنة « ٢٠٦ »هـ . وهو يذكر هذا عند الكلام على وفاه الشاعر في حوادث سنة « ٢٨٣ » هـ .

(٢) وقيل بزر دفنه والاول اشهر .

(٣) وفيات الاعيان جـ١ ص١٧٥ طبعته المطبعة الميمنية بمصر .

(٤) هجا البحتري علوة على الرغم من حبه لها مراراً عديدة وذلك بسبب ما كان يحدث بينه وبينها من منازعات ومشاجرات .

تكن حياته مجموعة اسفار متواصلة من الشام إلى مصر إلى العراق الى أرمينية وهلّم جرى ؟.. ولنستعرض تاريخ نشأة علاقة البحتري بأبي تمام كما يحدثنا به الرواة لنرى أينسجم هذا مع القول بأن الثاني كان استاذ الأول ومخرّجه ؟

يحدثنا الرواة أن البحتري لقي أبا تمام أول ما لقيه في مجلس محمد بن يوسف الثغري وذلك عند إنشاده اياه مدحته التي مطلعها :

أأفاق صب من هوى فأفيقا أم خان عهداً أم أطاع شفيقا

وهم يقولون لنا في هذه القصة إن إنشاد البحتري قصيدته هذه أغضب أبا تمام لأنه لم يكن بأذن منه ، فادعى أن القصيدة له وأعاد بعض ابياتها واتّهم البحتري بسرقتها إلى آخر ما هنالك(١) وهم يحدثوننا من جهة أخرى أن البحتري لقي أبا تمام اول ما لقيه في مسجد حمص حيث كان الشعراء يعرضون أشعارهم عليه ، وهم يقولون لنا في هذه القصة إن أبا تمام استحسن البحتري وفضّله على سائر الشعراء(٢) وواضح أن كلتا الروايتين المكذوبتين المتناقضتين تنص على أن البحتري لقي أبا تمام أول ما لقيه وهو شاعر مجيد يمكن أن يدعي أبو تمام شعره أو أن يفضله على كل من حضره من الشعراء فكيف يتفق هذا والقول ان المترجم درس على أبي تمام وعنه أخذ ؟ وشيء آخر ينبغي أن لا يعزب عن إذهاننا ، وهو أن بين أبي تمام وبين البحتري فروقاً فنية لا ينبغي أن تكون بين تلميذ وأستاذه . فأبو تمام رجل تفكير وتأمل يقتنص الأفكار اقتناصاً ويغوص على المعاني غوصاً مجهداً ، والبحتري رجل بديهة يحدّث بما

---

(١) الاغاني جـ١٨ ص١٧٥ طبعته مطبعة التقدم بمصر ووفيات الاعيان جـ٢ ص١٧٥ طبع المطبعة الميمنية بمصر .

(٢) نفس المصدرين .

خطر على باله في غير عناء ولا تكلف ، وأبو تمام محب لفخامة اللفظ ورصانة التعبير والبحتري محب لرقة اللفظ وجمال التعبير . وأبو تمام اسرف كل الاسراف في استعمال الزخرفة البيانية يفرضها على شعره فرضاً سواء أكانت مؤاتية أم مستعصية ، ملائمة أم غير ملائمة ، والبحتري معتدل كل الاعتدال في استعمال هذه الزخرفة يأخذها ما جرت على لسانه عفواً ويتركها ما استعصت على قريحته وامتنعت على بديهته . أفترى بعد كل هذا أن البحتري مدين بتثقيفه وتدريبه على ممارسة فنون الشعر لأبي تمام ؟ ولست أنفى أن البحتري اقتبس طائفة من معاني أبي تمام ولكن كم هي المعاني التي اقتبها ابو تمام من الشعراء ؟. قد تقول : ولكن البحتري رد على سؤال وجه اليه في مجلس ابن المعتز بصدد تفضيله على أبي تمام بقوله « إنه الرئيس والأستاذ » وأجيب عن ذلك : أولاً ، بان هذه رواية كغيرها من الروايات يمكن تصديقها ويمكن تكذيبها . وثانياً أن البحتري قال - إذا صح هذا التعبير - عن أبي تمام « إنه الأستاذ » أي أستاذ صناعة القريض ، ولم يقل إنه أستاذه ، وليس ثمة من يفترض أن البحتري يناقش في زعامة أبي تمام الشعرية .

ونعود الى سيرة البحتري ، فنقول إنه كان في أول أمره صاحب أسفار كأبي تمام ، فقد زار مصر وكثيرا من المدن السورية والعراق قبل اتصاله بالمتوكل وبعض أقاليم فارس إلا أنه لم يستوطن إذ ذاك أي بلد من هذه البلدان ، وإنما كان يسافر طلباً للرزق ثم يعود الى منبج . ولم تكن أسفاره الاولى هذه قليلة الجدوى ، فقد بدأت ثروته تتجمع

منذ ذلك الحين وأخذ يشتري الضياع بدليل أننا نراه يلتمس من محمد بن يوسف الثغري أن يؤدي عنه خراج ضيعته(١) وأنت تعلم أن محمد بن يوسف هذا من أوائل ممدوحيه . وترك البحتري منبج الى العراق ليتخذه دار إقامة له في عهد المتوكل على الله . وبدأ يمدح الفتح بن خاقان وزير المتوكل فاستحسنه هذا ووعده أن يقدّمه الى الخليفة ، ولم ينجز الفتح وعده بسرعة ، فاستحثه البحتري على إنجازه بأكثر من قصيدة واحدة فمن ذلك قوله :

وعدت فأوشك نجح وعدك إنه ... من المجد إعجال المواعيد بالنجح

وأنت ترى نصح الامام فريضةً ... واخباره عني سبيل من النصح

ولبّى الوزير طلب الشاعر فقدّمه إلى الخليفة فأعجب هذا بشعره وأدبه واتخذه نديماً له ورفع منزلته حتى صار من ذوي الكلمة النافذة في قصره يشفع لذوي الحاجات ويتوسط في حل مشاكل الناس اذا صح ما يقوله هو في تائيته التي سأذكر لك مثلاً منها عند الكلام على فخره وما أشكّ في أنه صحيح . على أن هذا لا يعني أن علاقته بالمتوكل كانت حسنة على الدوام . فقد أعرض عنه مرة بسبب وشاية كاذبة ، واضطر الى أن يستعطفه ويترضاه في قصيدة مطلعها (شوق اليك تفيض منه الأدمع .. الخ . وبرم به ذات مرة بسبب أعجابه بشعره وثقل إنشاده ، فأمر أبا العنبس الصيمري أن يهجوه ، فهجاه هجاءً قبيحاً حمله على الغضب والتفكير في العودة الى منبج من غير إذن ، لولا أن هدأه الفتح بن خاقان وسرّى

---

(١) التمس البحتري هذا من محمد بن يوسف في ابيات اولها :

نفسي فداك ووالداي كلاهما ... وجميع من ولدا من الاسواء

عنه ما علق بخاطره .(١) ولم تكن علاقته بالفتح ابن خاقان أقل تعرضاً للخطر ، فقد ساءت هذه الى درجة كادت معها تودي بحياته أو تضطره على الأقل الى مبارحة العراق والعودة الى منبج خائباً محروماً . والبحتري نفسه يصف لنا هذه المرحلة الدقيقة التي اجتازتها علاقته بالفتح بن خاقان حيث يقول من قصيدة يعاتب بها الوزير المذكور ويستعطفه :

رأيت العراق ناكرتني ، وأقسمت عليّ صروف الدهر أن اتشأما
وكان رجائي أن أؤوب مملكاً فصار رجائي أن أؤوب مسلّما

ولكنه استطاع بفضل ذكائه ودهائه أن يتغلب على جميع هذه الصعاب وأن يحتفظ بعطف المتوكل والفتح بن خقان وأن يظل شاعر دولتها الى آخر أيام حياتهما .

وقد لا يبعد أن يكون البحتري هو الذي حمل المتوكل على الانتقال بدواوينه الى دمشق(٢) ، لأننا نراه يحبب إليه العاصمة الأموية فيقول :ـ

إن دمشقاً أصبحت جنةً مخضرة الروض عذاة البراق(٣)
هواؤها الفضفاض غض الندى وماؤها السلسال عذب المذاق
والدهر طلق بين أكنافها والعيش فيها ذو حواش رقاق
ناظرة نحوك مشتاقة منك إلى القرب ووشك التلاق

---

(١) الأغاني ج١٨ ص١٧٤

(٢) انتقل المتوكل الى دمشق سنة (٢٤٤ هـ) ونقل اليها دواوين ملكه وأمر بالبناء بها ، الا أنه تركها بعد شهرين وأيام لأسباب طبيعية واقتصادية في الظاهر .

(٣) عذاة : طيبة الهواء والبراق : موضع بالشام .

وكيف لا تؤثرها بالهوى وصيفها مثل شتاء العراق

ويهنئه بالسفر إليها فيقول :-

قد رحلنا عن العرا ق وعن قطبها(١) النكد
حبذا العيش في دمشق اذا ليلها برد
حيث يستقبل الزمان ويستحسن البلد
سفر جددت لنا اللهو أيامه الجدد
عزم الله للخليفة فيه على الرشد

منها :-

يا إمام الهدى الذي احتاط للدين واجتهد
سر بسعد السعود في صحبة الواحد الصمد

ويطري محاسنها عنده في أثناء إقامته بها إطراء من وفى له بوعد فيقول :

اما دمشق فقد أبدت محاسنها
وقد وفى لك مطريها بما وعدا(٢)

ولو لم تحل العوائق دون إقامة المتوكل بدمشق لباتت هذه المدينة عاصمة الخلافة الاسلامية مرة أخرى ، ولغلبت الصبغة العربية في أقرب الاحتمالات على سياسة خلفاء بني العباس ، ولكانت للبحتري بذلك علاقة ما .

---

(١) هكذا في جميع الطبعات الموجودة بين يدي وربما كانت (قطرها) .
(٢) سأروي بقية وصف دمشق هذا عند الكلام على وصف البحتري .

وبقي المترجم في حاشية المتوكل يعاشره ويسامره ويعقره أيضاً إلى أن قتل وكان شاهد مصرعه فوصفه في رائيته القادم ذكرها وصفاً منقطع النظير . وركن البحتري إلى الانزواء في أيام المنتصر بسبب حظوته عند أبيه وهجائه أياه في مرثيته لوالده هجاءً مراً ، ولكنه عاد فمدحه واسترضاه ، وكان الفضل في التوفيق بين الخليفة والشاعر لأحمد بن الخصيب وزير المنتصر . ومدح صاحبنا المستعين ولكنه لم يكن ذا مكانة عنده . إلا ان نجمه سطع ثانية في خلافة المعتز الذي انزله منه منزلته من أبيه ولك أن ترجع الى قافيته التي مطلعها :

بودي لو يهوى العذول ويعشق فيعلم أسباب الهوى كيف تعلق

لتتبين مقدار العطاء الذي كان يغمره به المعتز . ومدح البحتري المهتدي والمعتمد على الله ، إلا أنهما لم يقرباه .

ويعتقد الاستاذان أنيس المقدسي وبطرس البستاني أن البحتري هجر العراق الى منبج بعد مقتل المتوكل ، ولكني لم أعثر على ما يؤيد هذا والذي أستنتجه من شعره هو إنه كان يختلف إلى منبج من حين لآخر ليجدد العهر بأسرته ويتعهد أملاكه ، وانه لم يكن يطيل الأقامة في هذه المدينة بسبب ما يلقى فيها من عنت الخصوم والحساد . وقد وصف لنا سوء مقامه في سوريا عامة ومنبج خاصة غير مرة ، فمن ذلك قوله في قصيدة يمدح بها جعفر بن عبدالغفار :

بأبي أنت لا تسلني بحالٍ في دخيل الأحشاء منها وجيب
أنا بالشام موطنٌ غير أني بعد عهد العراق فيها غريب
نبوات من الصديق يروعّـ ـن جناني كما يروع المشيب
واجتهاد من العدو ودهري طالب في السلاح أو مطلوب

لا أزور المنـــام إلا رقيب لي على الخيل أو عليّ رقيب

وقد أشرث اكثر من مرة الى ثروة الرجل فأحب أن ألاحظ الآن أنها كانت مصدر شقاء له لا ينتهي . فهو يشكو مرة استيلاء بعض الناس على غلته ، وتارة انتزاع بعض أراضيه وطوراً وسوء معاملة الموظفين إياه وهلّم جرا . وقد رد جزءً غير قليل من ثروته إلى خزانة الدولة وذلك بالزامه أداء مبلغ كبير من المال يؤدبه أقساطاً وبذلك تخبرنا هذه الأبيات :

امرتجع مني حباء خلائف توليت تسيير المديح لهم وحدي

ولم يحتمل إلا الذي قلت فيهم

وان رفدوا قوماً وزادوا على الرفد

فن أخذ الايغار أخذ صريمة

ودارت على الأقطار دائرة الرد(١)

ولم يغن توكيد السجلات والذي تناصر فيها من ضمان ومن عقد

فردوا القوافي السائرات بمدحكم وما أكسبتكم من ثناء ومن مجد

وشرخ شباب قد نضوت جديده

لديكم كما ينضو الفتى سمل البرد

وما أنا والتقسيط اذ تكتبونني وتكتب قبلي جلّة القوم أو بعدي

سبيلي أن أعطي الذي تطلبونه وشرطي أن يجدى علي ولا أجدي

صحبت أناساً أطلب المال عندهم فكيف يكون المال مطلباً عندي

---

(١) الايغار : منح السلطان الأرض من غير خراج ، او على أن يؤدى الخراج له رأساً لا الى العمال . ولم أجد لقوله « أخذ صريمة » مدلولا واضحاً الا أنه قد يعني أخذاً لا هوادة فيه .

وسأل الخليفة المعتمد صاحبنا عن ماله فأجاب بانه لم يبق منه شيء سوي اوقاف ضئيلة لا يعتد بها(١) .

وتوفّي المترجم بداء السكتة بمنبج وقيل بحلب سنة (٢٨٣) هـ على رواية ابن الاثير التي تخالفها روايات عدة قد لا يصح التعويل عليها . ولم يخطيء القاسم ابن عبدالله الذي قال عندما أخبر إن البحتري توفى بداء السكتة « ويحه رمي في احسنه »(٢) .

ب ـ أخلاقه :

كان البحتري سامحه الله بخيلاً مغرماً بجمع المال معجباً بشعره الى الى أبعد حدودالاعجاب إلا أنه كان عالي الهمة شجاعاً وفياً محبا للخير . وما أريد أن أستمد رأيي في بخله وحرصه الشديد على المال من قول صاحب الأغاني : « إنه كان من أوسخ خلق الله ثوباً وآلةً وابخلهم على كل شيء » وإنه كان يقتل أخاه وغلامه جوعاً ، ولا يعطيهما ثمن أقواتهما إلا بمشقة .. لأني أعتقد أن البحتري قد تحضر وألف النظافة وحسن الهندام منذ اتصاله بالمتوكل على الأقل ، ولأننا لا نعرف اسمي ذينك الشقيين اللذين قيل إن البحتري كان يقتلهما جوعاً ولا ندري أين كتب لهما هذا الشقاء على يده ومتى !؟. ولكني أستمد رأيي في بخله وحرصه الشديد على المال من قوله :

وموضح لي سبيل الرشد قلت له

الرشد صاب وبعض الغي من شهد

---

(١) انظر قافية البحتري التي مطلعها :

أريتك الآن ألمع البروق أم شعلا مرفضة من حريق

(٢) الأغاني ج١٨ ص١٧٢ طبع مطبعة التقدم بمصر .

أهوى الثراء ، وكم من ثروة كسبت
لي العداوة من رهطي ومن ولدي !
حتى لأنكرت من قد كنت أعرفه من الأخلاء واستوحشت من بلدي

فواضح أن الرجل من شدة البخل بحيث لا يصغي الى لوم لائم في سبيل حشد المال وتكديسه وأن البخل قد فرق بينه وبين أهله وولده ، وأنه قد أفقده عطف أصدقائه وأكسبه عداوة مواطنيه . وهناك شيء آخر له دلالته أيضاً على تمكّن هذا الخلق الذميم منه ، وهو تنزله الى مدح الناس وطلب جوائزهم بعدما غمره المتوكل والفتح بن خاقان بالعطاء حتى صار من أولي الثروات الطائلة والأملاك الواسعة ، وبعد أن وهبه المعتز وحده ما يغنيه عن السؤال مدة حياته . ولكنه الشح ، « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون .. »

وما أستمد رأيي كذلك في إعجابه الشديد بشعره من قول صاحب الاغاني : « إنه كان من أبغض الناس إنشاداً ، يتشادق ويتزاور في مشيته ، مرة جانباً ومرة القهقرى ، ويهز رأسه مرة ، ومنكبيه أخرى ، ويشير بكمه ، ويقف عند كل بيت ويقول - أحسنت والله - ثم يقبل على المستمعين فيقول - ما لكم لا تقولون أحسنت ؟. هذا والله ما لا يحسن أحد أن يقول مثله . » ولكني أستمد رأيي من قوله :

فإذا ما بنيت بيتاً تبخترت كأني بنيت ذات العماد

. ففي هذا البيت ما يغني عن أقوال الرواة التي تحتمل الجدل ويمكن قبولها ورفضها معاً ولكن ينبغي أن لا ننسى أن الرجل كان عالي الهمة ماضي العزيمة شجاعاً مقداماً . وحسبك دليلاً على ذلك أنه استطاع أن يرتفع بنفسه من مدح باعة البصل والباذنجان في منبج الى منادمة الخلفاء

ومعاشرة الوزراء . وفي لقائه الذئب وقتله إياه على النحو الذي وصفه في داليته الآتي أكثرها دليل كفٍ على شجاعته . على أنه قد نزل الى ميادين القتال ووقف فيها مواقف أولي البسالة والنجدة ، وهو يستشهد على ذلك يوسف بن محمد بن يوسف الثغري حيث يقول له :

وأنا الشجاع وقد بدا لك موقفي بعقرقس والمشرفية شهّدي(١)

ورأيتني فرأيت أعجب منظر ربّ القصائد في القنا المتقصد

وكما استدل بالبحتري على البحتري في القول بأنه بخيل وفي القول بأنه كثير الأعجاب بشعره استدل به على نفسه كذلك في القول بأنه وفيّ لأنه يقول :

إني وإن كنت ذا وفاء لا يتخطى إليّ غدر

ولأنه يقول :

أدين بأن لا تستحل أمانة لحرٍ وأن لا يستباح ذمام

ولأنه يقول :

إني وإن كنت مرهوباً لعادية أرمي عدوي بها في الفرط والحين

لذو وفاءٍ لأهل الودّ مدّخر عندي وغيب على الأخوان مأمون

أضف إلى ذلك أنه أقدم على رثاء المتوكل وهجاء المنتصر معرّضاً نفسه بذلك لخطر الموت . وأقام على حب صاحبته علوة يحن اليها ويشيب بها عشرات الأعوام ، مع أنه كان قادراً على الاستعاضة عنها بما يلقى

---

(١) عقر قس : واد في بلاد الروم .

من الحسان في قصور سرّ من رأى وبغداد ، كائناً غرضه من حبهاماكان.

ستقول ولكنّه تنكرّ لرجال كثيرين فهجاهم في أيام محنتهم بعدما مدحهم في أيام عزهم ودولتهم . وفي ظني أن ذلك ناشيء عن كون صلته بهم صلة مادية بحتاً ، فقد مدحهم لا ليعرب عن إعجابه بفضائلهم ومناقبهم ولا ليكافئهم على ودّ كانوا يمحضونه إياه ، وإنما مدحهم ليأخذ جوائزهم. وليس ثمة من ينكر تكسب البحتري بالشعر .

أما حبه الشديد للخير ، فانه يتجلى في كرهه إراقة الدماء ودعوته للسلم ما وجد الى ذلك سبيلاً ولك أن ترجع إلى لاميته التي مطلعها :

ضمان على عينيك أنيّ لا أسلو وأن فؤادي من جوى بك لا يخلو

والتي يأسف فيها أشد الأسف لانشقاق ربيعة على نفسها وإراقة دماء ابنائها بأيديهم ، وإلى عينيته التي مطلعها :

منى النفس في أسماء لو تستطيعها بها وجدها من غادة وولوعها

والتي يعالج فيها نفس الموضوع ويعرب عن نفس الشعور ، والى أمثال هذه الصفحات في ديوانه لتلمس عواطفه الانسانية السامية وتتبين مبلغ حرصه على سلم الناس وسلامتهم . ويتجلى حبّه الشديد للخير أيضاً في موقفه الودي ممن عاصره من الشعراء . فمؤرخو الأدب القديم مجمعون على أنه كان حسن السلوك حيالهم يثني عليهم جميعاً ويقرضهم ويذكر محاسن أشعارهم ، وفي ذلك ما فيه من إيثار التفاهم والتقارب ونبذ الخصومات والعداوات .

حـ - رأيه في الدين والسياسة :

يعتقد الاستاذ مرجليوث أن المترجم أموي الرأي لقوله في نكبة محمد ابن يوسف الثغري :

يا ضيعة الدنيا وضيعة أهلها والمسلمين وضيعة الأسلام
هذا ابن يوسف في يدي أعدائه يجزى على الأيام بالأيام
نامت بنو العباس عنه ولم تكن عنه أمية لو رعت بنيام

ويرى الاستاذ أنيس المقدسي أنه عباسي صميم . ويذهب الاستاذ بطرس البستاني الى أنه كان ميالاً إلى العلويين إلا أنه لم يجاهر بميله هذا إلا في رائيته التي مدح بها المنتصر والتي مطلعها :

تبسّمُ عن واضح ذي أشر وتنظر عن فاتر ذي حور

وأزعم أنه كان علوياً متطرفاً في أول أمره كما كان أبو تمام في فجر حياته . ولمن أراد الاطلاع على حقيقة رأيه في الدين والسياسة أن يرجع إلى قافيته التي مطلعها :

أأفاق صبّ من هوى فأفيقا(١) ... الخ

وأن يقرأ فيها هذه الأبيات الي تبدأ بقوله :

كنا نكفّر من أمية عصبةً طلبوا الخلافة فجرةً وفسوقا

والتي أضرب صفحاً عن ذكرها كلها لأن في بعضها كلمات شائكة .

---

(١) قد لا يخلو من غرابة ان يجهر البحتري بتشيعه في هذه القصيدة التي يمدح بها محمد بن يوسف الثغري الذي يصانعه ابو تمام بنقد التشيع نقداً خفيفاً .

إلا أن علويته هذه ذابت في بودقة عبادة المال كما ذابت قبلها علويّة أبي تمام في نفس البودقة . بيد أنه من الحق أن نلاحظ أنه لم يفعل فعل أبي تمام في تعريضه برأيه الذي كان يجاهر به تزلّفاً لأحد ممدوحيه . هذا على الرغم من علاقته الوثيقة بالمتوكل المعروف ببغضه لعليّ وأبنائه ، أضف إلى ذلك أنه هجا عليّ بن الجهم لتطاوله على عليّ بن أبي طالب (رض) هجاءً فظيعاً ، وأثنى على سياسة المنتصر الرامية الى تقريب العلويين والرفق بهم بعدما أصابهم من التنكيل في عهد أبيه ثناءً عاطراً .

د ـ شعره :

للبحتري ديوان ضخم يحتوي على كل باب من أبواب الشعر ، والمديح أكبر أبوابه لأنه مصدر رزق الشاعر ، وقد جمعه أبو بكر الصولي ورتّبه على الحروف . ثم جمعه عليّ بن حمزة الأصفهاني ورتّبه على الأنواع . وطبع هذا الديوان في الاستانة وبيروت والقاهرة طبعات عديدة ليس بينها لسوء الحظ طبعة واحدة يمكن القول بأنها متقنة .

غزله : قلت لك عند الاشارة إلى غزل أبي تمام « إنه لا يمثل شعوراً حقيقياً ولا عاطفة صادقة وإنه إن مثل شيئاً فانما هو العبث والمجون » وأقول لك الآن إن جزءاً غير يسير من غزل البحتري تقليدي مصطنع لا يمتاز بشيء سوى رقة الديباجة . ولكن الى جانب هذا الغزل التقليدي المتكلف غزل أصيل حي هو هذا الذي يشبب فيه البحتري بصاحبته علوة التي تقدمت لها الاشارة . وأسرع فأقول لك إن المترجم

لم يكن يحب هذه الفتاة حباً طاهراً عفيفاً ، وقد شهر خفّتها كما شهر جمالها في شعره ، ولكن هذا لا يمنع أن يكون حبه لها صادقاً وغرامه بها حقيقياً . عنى أنه قد لا يخلو من غرابة أن يكون البحتري قد احب هذه الحسناء كل هذه الأعوام التي لم يفتر في أثنائها عن التغزل بها ، فقد صدر بذكرها عددا غير قليل من مدائحه للخليفة المعتز ، ومعنى هذا أنه ظلّ يشبّب بها خلال عشرين سنة أو أكثر مرت على مفارقته إياها ، وهذا كثير على حب مصدره الشهوة وغايته اللذة . ولكنك إذا رجعت الى غزله فيها وجدته في الغالب مفعماً صدقاً وأصالةً وجمالا وحيوية . إسمع قوله فيها :

يا ليلتي بالقصر من بطياس(١) ومعرسي بالقصر بل أعراسي
باتت تبرّد من جواي وغلتي انفاس ظبي طيب الأنفاس
يدنو إليّ براحه وبريقه فيعلني بالريق بعد الكاس
هيف الجوانح منه هاض جوانحي
ونعس مقلته أطار نعاسي(٢)

وقوله في صدر قصيدة يمدح بها المعتز :

نظرت وضمّت جانبيّ الفاتة وما التفت المشتاق إلا لينظرا
إلى أرجواني من البرق كلما تنمر علوي السحاب تعصفرا
يضيء غماماً فوق بطياس واضحاً يبصّ وروضاً دون يطابس أخضرا
وقد كان محبوباً اليّ لو انه أضاء غزالاً عند بطياس أحورا

---

(١) بطياس : احد متنزهات عديدة بالقرب من حلب منها « بافقوسا » و « باتلي » كان يلتقي فيها الشاعر بحبيبته . ومنه ـ اي بطياس ـ نستدل على ان المقصود في هذه القطعة والأبيات التي تليها « علوة » لا غيرها .

(٢) الهيف : هنا رقة الخاصرة .

وقوله :

أخيال علوة كيف زرت وعندنا ... أرق يشرّد بالخيال الزائر

طيف ألمّ بنا ونحن بمهمهٍ ... مرت يشق على الملمّ الخاطر(١)

أفضى الى شعث تطير كراهم ... روحات قود كالقسيّ ضوامر(٢)

حتى اذا نزعوا الدجى وتسربلوا

من فضل هلهلة الصباح الغائر

ورموا إلى شعب الرحال بأعين ... يكسرن من نظر النعاس الفاتر

أهوى فأسعف بالتحية خلسةً ... والشمس تلمع في جناح الطائر

سرنا وأنت مقيمة ولربما ... كان المقيم علاقة للسائر

إما انجذبن بنا فكم من عبرة ... تثنى اليك ولفتة من ناظر

فما أظنك تشكّ في أن هذا النسيب صادق كلّ الصدق أصيل كل الاصالة ، وما أظنك تشك في أنه يرمز الى ذكريات حية ويعبّر عن أحاسيس صادقة على الرغم من أن بعضه قيل بعد مرور عشرات الأعوام على مفارقة الشاعر حبيبته ، ومن يدري لعلّ علوة هذه من الجمال واللطف بحيث لا يستطيع المحب أن ينساها مهما قدم بها العهد وطال على حبها الأمد . وهناك نسيب غفل يخيّل إليّ أنه مقول في علوة لما أحس فيه من صدق الشعور وحرارة العاطفة ، أروي لك منه هذه الأبيات :

شوق إليك تفيض منه الأدمع ... وجوى عليك تضيق عنه الأضلع

وهوى تجدّده الليالي كلما ... قدمت وترجعه السنون فيرجع

---

(١) المرت : المفازة بلا نبات او الأرض لا يجف ثراها ولا ينبت مرعاها .

(٢) القود : ما سلس قياده من الخيل والابل .

إني وما قصد الحجيج ودونهم خرق تخبُّ به الركاب وتوضع(١)
أصفيك أقصى الودّ غير مقلل إن كان أقصى الودّ عندك ينفع
وأراك أحسن من أراه وإن بدا منك الصدود وبان وصلك أجمع
يعتادني طربي إليك فيغتلي وجدي ويدعوني هواك فاتبع
كلفاً بحبك مولعاً ، ويسرني أني امرؤ كلف بحبك مولع

***

مديحه : وكما يجمع البحتري في غزله بين العواطف المنتحلة وبين المشاعر والانفعالات الغرامية الحقيقية كذلك هو يجمع في مديحه بين المعاني المألوفة المبتذلة وبين الصور الأصيلة الرائعة التي تمثل حياة القرن الثالث للهجرة تمثيلاً صادقاً . ولست أعنى طبعاً بهذه المعاني المبتذلة التي أدخلها البحتري في اطراء ممدوحيه رغبةً في ارضائهم وطلباً لعطاياهم ، وإن كان كثير منها قد أفرغ في قوالب جميلة جذابة ، ولكني أسجل أن مدائحه الكثيرة تحمل في ثناياها وصفاً فائقاً جداً لألوان مختلفة من الحضارة العباسية وتصويرا بالغاً منتهى الاجادة لكثير من الوقائع السياسية والحربية المهمة . وإنه لمن الحق أن نلاحظ أن البحتري يصف الأشياء والحوادث التي يصفها بمنتهى الأمانة والمهارة فلا يزيد فيها ولا ينقص منها ، وإنما يرسمها لنا في ألواح شعره كما هي . ووصف البحتري قصور العباسيين ومواكبهم ومواسم افراحهم كثير ، سأروي لك طرفاً منه عند الكلام على وصفه . أما سرد الحوادث الحربية والسياسية والتعقيب عليها بصورة مؤثرة فانه كثير في شعره كثرةً عجيبة ، ولك أن تتصفح ديوانه لترى أنه سجل حافل بما حدث

---

(١) الخرق : الارض الواسعة .

للخلافة العباسية في أثناء القرن الثالث للهجرة من حروب ومشاكل سياسية في الداخل والخارج . فبينا هو يحدثك عن فتنة بابك الخرّمي التي اشتعلت نارها في أوائل هذا القرن إذا هو يحدثك عن تمرد آل الصفار وقيام ثورة صاحب الزنج في أواسطه . وبينا هو يحدثك عن فتنة مدينة أو ثورة قبيلة إذا هو يحدثك عن خلع خليفة وإبعاده الى زاوية من زوايا ملكه بالامس . وبينا هو يحدثك عن هذه الشؤون الداخلية المضطربة المعقّدة أشد التعقيد إذا هو يحدثك عن المعارك الطاحنة التي تدور رحاها في آسيا الصغرى بين المسلمين والروم . وغني عن البيان أن هذا الفصل لا يتّسع لضرب الأمثل الكثيرة من هذا المديح التأريخي النفيس ، فأكتفي بضرب مثلين لك ، أحدهما في وصف بلاء محمد بن يوسف الثغري في سبيل قمع فتنة بابك الخرمي ، وثانيهما في وصف غزوة من غزوات محمد بن يوسف هذا نفسه في بلاد الروم .

فأما الأول فهو قول البحتري :

ما زلت تقرع باب بابك بالقنا ... وتزوره في غارة شعواء

حتى أخذت بنصل سيفك عنوة ... منه الذي أعيا على الخلفاء

أخليت منه البذّ(١) وهي قراره ... ونصبته علماً بسامراء

لم يبق فيه خوف بأسك مطمعاً ... للطير في عَود ولا إبداء

فتراه مطّرداً على أعواده ... مثل اطراد كواكب الجوزاء

مستشرفاً للشمس منتصباً لها ... في أخريات الجذع كالحرباء

---

(١) البذ : قرية بأذربيجان . اتخذها بابك مقراً له .

وأما الثاني فهو قوله :

أحسن الله في ثوابك عن ثغر مضاع أحسنت فيه البلاءا
كان مستضعفاً فعزّ ومحروماً فأجدي ومظلماً فأضاءا
لتوليته فكنت لأهليه غنىً مقنعاً وعنهم غناءا
لم تنم عن دعائهم حين نادوا والقنا قد أسال فيهم قناءا(١)
إذ تغدى العلوج منهم غدواً فتعشتهم يداك عشاءا
لم تسغهم برود جيحان حتى قلسوا في الدماء ذاك الماءا(٢)
وكأن النفير حط عليهم منك نجماً أو صخرةً صماءا
لم يكن جمعهم على الموج إلا زبداً طار عن قناك جفاءا
حين أبدت إليك خرشنة العليا من الثلج هامة شمطاءا
بتها والقرآن يصدع فيها الهضب حتى كادت تكون حراءا
وأقمت الصلاة في معشر لا يعرفون الصلاة الا مكاءا(٣)
في نواحي برجان إذ أنكروا التكبير حتى توهموه غناءا
حيث لم تورد السيوف على خمس ولم تصدر الرماح ظماءا(٤)
يتعثرن في النحور وفي الأوجه سكراً لما شربن الدماءا
وأزرت الخيول قبر امرىء القيس سراعاً فعدن منه بطاءا

---

(١) قناءء : كسحاب : اسم ماء شبهت به الدماء لغزارتها .
(٢) قلسو : لفظوا .
(٣) مكا مكاء : صفر بفيه ، او شبك بأصابعه و نفخ فيها .
(٤) الخمس : هو اظماء الأبل ثلاثة ايام يتقدمها يوم شرب ويليها مثله .

وجلبت الحسان حوّاً وحوراً آنسات حتى أغرت النساءا(١)
لم تدعك المها التي شغلت جيشك بالسوق أن تسوق الشاءا
علم الروم أن غزوك ما كان عقاباً لهم ولكن فناءا
بسباء سقاهم البين صرفاً ويقتل نسوا لديه السباءا
يوم فرقت من كتائب آرائك جنداً لا يأخذون عطاءا
بين ضرب يفلّق الهام أنصافاً وطعن يفرّج الغماءا
وبودّ العدو لو تضعف الجيش عليهم وتصرف الآراءا

على أن أهمية مديح البحتري لا تقف عند حد الفائدة التاريخية التي تتجلّى مرة في وصف القصور والافراح والحفلات وتارة في سرد الحوادث السياسية والحربية والتعقيب عليها تعقيباً مؤثرا ، ولكنها تتعدي ذلك الى وصف مواهب عظماء الرجال ومزاياهم وصفاً رائعاً أصيلاً . ولكي تتبين وجاهة هذا الزعم ، إسمع قوله في وصف رسائل محمد بن عبدالملك الزيات :

لتفننت في الكتابة حتى عطّل الناس فن عبدالحميد
في نظام من البلاغة ما شك امرؤ أنه نظام فريد
وبديع كأنه الزهر الضاحك في رونق الربيع الجديد
مشرق في جوانب السمع ما يخلقه عوده على المستعيد
ما أعيرت منه بطون القراطيس وما حمّلت ظهور البريد

---

(١) حو : ذوات شفاه حمر الى سواد ، الواحدة حواء . وحور : ذوات أعين شديدة السواد والبياض واحدتها حوراء .

مستميل سمع الطروب المعنّى عن أغاني مخارق وعقيد(١)
حجج تخرس الألدّ بألفا ظ فرادى كالجوهر المعدود
ومعان لو فصّلتها القوافي هجّنت شعر جرول ولبيد
حزن مستعمل الكلام اختياراً وتجنّبن ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ القريب فأدركن به غاية المراد البعيد
كالعذارى غدون في الحلل البيض إذا رحن في الخطوط السود

***

وقوله في وصف مبارزة الفتح بن خاقان للأسد وقتله إياه :

وقد جربوا بالأمس منك عزيمة فضلت بها السيف الحسام المجرّبا
غداة لقيت الليث والليث مخدر(٢) يحدد ناباً للقاء ومخلبا
يحصّنه من نهر نيزك معقل منيع تسامى روضه وتأشبا(٣)
يرود مغاراً بالظواهر مكتباً ويحتل روضاً بالأباطح معشبا
يلاعب فيه أقحواناً مفضضاً يبصّ وحوذاناً على الماء مذهباً
إذا شاء غادى عانة أو غدا على عقائل سرب أو تقنّص ربربا
يجر إلى أشباله كل شارق عبيطاً مدمّى أو رميلاً مخضبا(٤)
ومن يبغ ظلماً في حريمك ينصرف إلى تلف أو يثن خزيان أخيبا

---

(١) مخارق وعقيد : مغنيان كان اولهما للرشيد وثانيهما للمأمون .
(٢) مخدر : رابض في اجمته .
(٣) تأشب : التف .
(٤) العبيط : اللحم الطري .

شـــهدت لقد انصفته يوم تنبري له مصلتاً عضباً من البيض مقضبا
فلم أر ضرغامين أصـدق منكمـا عراكاً إذا الهيّابة النكس كذّبا
هـزبر مشـى يبغي هـزبراً وأغلب
من القوم يغشى باسـل الوجه(١) أغلبا
أدلّ بشغب ثم هالتـه صولة رآك لهـا أمضى جنـاناً وأشـغبا
فأحجم لما لم يجـد فيـك مطمعاً وأقدم لما لم يجد منـك مهربا
فلم يغنه أن كـرّ نحوك مقبـلاً ولم ينجه أن حاد عنـك متّكنـا
حملت عليه السيف لا عزمك انثنى ولا يدك ارتدت ولا حـده نبا
وكنت متى تجمـع يمينك تهتك الضريبـة أولا تبق للسـيف مضربا(٢)

أليس في كل من هاتين القطعتين من الاحاطة بالموضوع والافاضة في التحليل والبراعة في التصوير ما يجعلها خليقة بالبقاء على توالي الاجيال؟!

***

رثاؤه : وما يقل في مديح البحتري من حيث إنه مشتمل على معانٍ مكررة مألوفة وصور أصيلة رائعة يقال في رثائه . فهو في طائفة من مراثيه منها رائيته في رثاء بعض بني طاهر وكافيته في رثاء سلمان بن وهب وبائيته في رثاء غلامه قيصر شاعر مجيد إلا أنه غير أصيل . وفي طائفة أخرى من مراثيه في مقدمتها ميميته في رثاء آل حميد ورائيته في رثاء المتوكل على الله شاعر مبدع فذّ ، يفيض رثاؤه جدةً وأصالة ويتدفق

---

(١) هكذا في الديوان وربما كان الصحيح « باسم الوجه » .

(٢) وصف المتنبي قتل بدر بن عمار احد حكام جنوب سوريا . أسـداً يسوطه ، وحمله آخر على الفرار في قصيدة مطلعها :

في الخد ان عزم الخليط رحيلا مطر تزيد به الخدود محولا

ويخيل اليّ ان البحتري أدق وصفاً واصدق تصويراً وأحسن اسلوباً .

صدقاً وإخلاصاً . وما هي إلا أن تقرأه حتى تشعر كأن الفاجعة التي يصورها قائمة ماثلة تهلع منها القلوب وتدمع العيون وتهمس بها الشفاء وتحار لها الألباب ، إقرأ قوله واصفاً جلاء سكان الجعفري عنه بعد قتل صاحبه المتوكل على الله :

تغيّر حسن الجعفري وأنسه
وقوّض بادي الجعفري وحاضره(١)
تحمّل عنه ساكنوه فجاءةً فآضت سواءً دوره ومقابره(٢)
ولم أنس وحش القصر إذ ريع سربه
وإذ ذعرت أطلاؤه وجآذره(٣)
وإذ صيح فيه بالرحيل فهتكت على عجل أستاره وستائره
ووحشته حتى كأن لم يقم به أنيس ولم تحسن لعين مناظره
كأن لم تبت فيه الخلافة طلقةً بشاشتها والملك يشرق زاهره
ولم تجمع الدنيا إليه بهاءها
وبهجتها والعيش غضٌ مكاسره(٤)

وقوله واصفاً مصرع المتوكل على الله :

تخفّى له مغتاله تحت غرّة وأولى لمن يغتاله لو يجاهره
فما قتلت عنه المنايا جنوده ولا دافعت أملاكه وذخائره
ولا نصر المعتز من كان يرتجي له وعزيز القوم من عزّ ناصره

---

(١) الجعفري : قصر عظيم بناه المتوكل على الله سنة ٢٤٥ هـ على مقربة من سامراء .

(٢) آض : صار .

(٣) المراد بوحش القصر : نساؤه تشبيهاً لهن ببقر الوحش لجمال اعينهن ، وباطلائه : أطفاله ، والطلا ، ولد الظبيه ساعة يولد ، وبجآذره فتياته ، والجوذر ولد البقرة الوحشية تشبه به المرأة لحسن عينيه .

(٤) مكاسر : جمع مكسر وهو المخبر .

تعرّض نصل السيف من دون فتحه

وغيب عنه في خراسان طاهره

صريع تقاضاه السيوف حشاشة يجود بها والموت حمر أضافره

أدافع عنه باليدين ولم يكن ليثني الأعادي أعزل الليل حاسره

وقوله راثياً آل حميد الذين وصفت جهادهم لك عند الكلام على رثاء أبي تمام :

مضوا يستلذّون المنايا حفيظةً وحفظاً لذاك السؤدد المتقدم

فما طعنوا إلا برمح موصّل ولا ضربوا إلا بسيف مثلم

ولما رأوا بعض الحياة مذلةً عليهم وعز الموت غير محرّم

أبوا أن يذوقوا العيش والذم واقع عليهم فماتوا ميتةً لم تذمّم

على أنك إذا تأملت رائية شاعرنا في رثاء المتوكل على الله رأيت أنه يتصرف فيها تصرّف الشاعر المثقف الذي يعرف كيف يعبر عن مشاعره وانفعالاته وكيف يصف عظائم الأمور وجلائل الأحداث وصفاً صادقاً مستفيضاً ، وكيف يبتديء بسرد ما لديه وكيف يتدرج في ذلك حتى يبلغ قمة بيانه ، وكيف ينتهي : ذلك أنه يقف في صدر هذه القصيدة على أطلال الجعفري الذي كان يلهو ويمرح في ظله بالأمس هاديء البال هانيء العيش في كنف سيده الخليفة الراحل ، فيستوحي الذكريات ويستلهم الآثار التي لم يجمد فيها بعد دم الفقيد ، مقارناً بين ماضي القصر وحاضره وأمسه ويومه متفجعاً لما حل به تفجعاً مرا ينتهي منه إلى تصوير جلاء سكانه عنه ذلك التصوير الدقيق الذي رويته لك مشيراً أثناء ذلك إلى عظمة الخليفة الراحل وجلال ملكه وجمال أيامه

إشارة بارعة يشفعها بوصف مصرعه ، ذلك الوصف الفائق الذي تقدم إيراده ، متبعاً ذلك تنديده بالخليفة الجديد الذي يوجه إليه أحد سهام نقده ويصبّ عليه جام غضبه واصفاً اياه بالغدر والخيانة واضعاً في عنقه تبعة قتل أبيه متمنياً زوال ملكه وانتهاء حكمه في وقت قصير راجياً أن تعود الخلافة إلى من هو أحق بها منه ، الى من يأخذ بثأر الخليفة الراحل من قتلته الأثمة الخونة ، ويسوس الأمور سياسة كلها حزم وعزم ، وليس ثمة شك في أنه يعني المعتز الذي ورد ذكره فيما رويت لك من القصيدة . وهكذا ينشىء من مرثيته هذه وحدة بيانية مطّردة الاجزاء متماسكة الأطراف منسجمة كل الانسجام . وليست هذه القصيدة هي الأولى من نوعها في شعر البحتري . فقد سبق له أن فعل مثل ذلك في ميميته التي رثى بها آل حميد ، ذلك انه استهل هذه القصيدة أيضاً بوقفة على قصر الأسرة النبيلة البائدة ، ناجى فيها اطلاله العافية بلغة الدموع والحسرات نادباً مصارع أبنائه التي تتابعت في أمد قصير ، باكياً لفقدانه إياهم بكاءً صادقاً مرّا ، منوّها بشرف المقاصد التي أوردتهم مناهل الردي ، ثم استطرد إلى وصف قبورهم فقال : انها متفرقة في أطراف الثغور واقعة منها مواقع الشهب من آفاق السماء . فهذا قبر في البذ وهذان قبران في النباج ، وهذا ضريح في الموصل وهذا آخر في القاطول . وخلص من ذلك إلى تصوير المناحات التي أقيمت على أولئك الأبطال في طول المملكة الأسلامية وعرضها ، وبعد أن وصفها وصفاً قصيراً وجّه نظره الى أبي الأسرة فعزّاه - استغفر الله - بل هنّأه بأبنائه لأنهم أعطوا السيف حقه وخلدوا مواقفهم الباسلة في صحف

التاريخ ، وماتوا وكلهم قادة جيوش وأبطال حروب . وختم قصيدته بارسال تحية عاطرة الى أرواح أولئك الشهداء الذين أبوا أن يعيشوا أذلاء فماتوا أحرارا أعزاء . وبهذه المهارة الفائقة يكون البحتري من قصيدته هذه وحدة بيانية أخرى قلما تجد لها نظيراً في دواوين الشعراء . وقد رويت لك أبياتاً قليلةً من هذه القصيدة التي لم ينتبه لها النقاد القدماء والمحدثون مع أنها من أبلغ الرثاء وأحسنه ، فأروي لك الآن مثلاً اخرى منها لتبين مبلغ إجادة الشاعر وإحسانه فيها . اسمع قوله منها :-

أقصر حميد لاعزاء لمغرم

ولا قصر(١) عن دمع وإن كان من دم

أفي كل عام لا تزال مروعاً بفذ نعي تارة أو بتوأم

مضى أهلك الأخيار إلا أقلهم وبادوا كما بادت أوائل جرهم

فصرت كعشٍ خلفته فراخه بعلياء فرع الأثلة المتهشم

أحب بنوك المكرمات ففرقت جماعتهم في كل دهياء صيلم

تدانت مناياهم لهم(٢) وتباعدت مضاجعهم عن تربك المتنسم

فكل له قبر غريب ببلدة فمن منجد نائي الضريح ومتهم

قبور بأطراف الثغور كأنما مواقعها منها مواقع أنجم

وقوله :

ترى البيض لم تعرفهم حين واجهت وجوههم في المأزق المتجهم ؟

---

(١) القصر هنا خلاف المد .

(٢) في الديوان « بهم » والصواب ما أثبتناه .

ولم تتذكر ريّها بأكفهم إذا أوردوها تحت أغبر أقتم ؟
بلى ، غير أن السيف أغدر صاحبٍ وأكفر من نالته نعمة منعم !!

وقوله :

ولا عجب للأسد إن ظفرت بها كلاب الأعادي من فصيح وأعجم
فحربة وحشيٍ سقت حمزة الردى وموت علي عن حسام بن ملجم(١)

الواقع أن هذه القصيدة وحدها تكفي لحملنا على وضع البحتري في طليعة شعراء الرثاء ، فكيف إذا أضيفت اليها الرائية التي يقول فيها المبرد (ما قيلت هاشمية مثلها) . على أن رثاء المترجم وصيفاً ، أحد كبار قادة الأتراك ومحمد ابن يوسف الثغري من النفاسة والجودة بمكان .

إذا لم يخطيء ظني فان مؤرخي الأدب الذين لم يحفظوا للبحتري مقامه بين كبار شعراء الرثاء لم ينصفوه إنصافاً تاماً .

فخره : أما الفخر فان البحتري يحذو فيه غالباً حذو أبي تمام ، وذلك أنه يتبجح بأسفاره وينوّه بمجد آبائه ويتشدّق بحسن منظومه وطيب أخلاقه . وقد رأيت هذا كله عند أبي تمام ، ولكنّ البحتري يضيف إلى ما تقدم فخره بمنادمة الخلفاء وعلوّ منزلته عندهم وذلك ما لم يظفر به

---

(١) قد لا يكون خطائي كبيراً اذا لاحظت ان هذه القصيدة تفضل مراثي أبي تمام لآل حميد كلها رقة شعور ودقة تصوير وجمال تعبير وحسن ترتيب ، وأريد بحسن الترتيب ترتيب الأفكار ترتيباً منطقياً محكماً .

أبو تمام . ونعرض فيما يلي لكل ناحية من نواحي فخر الشاعر ، فنتحدث عنها بايجاز .

كان البحتري قبل أن يلقي عصاه في وادي الرافدين صاحب أسفار كثير التجوال كما مرّ وقد تحدث عن أسفاره هذه كثيراً في شعره . ونحمد له أنه لم يكلف بتقليد أبي تمام في تصويره وداع حليلته اياه وجزعها لفراقه كلما خطر له أن يزور خليفة أو وزيرا أو والياً أو قائداً فانه لم يفعل ذلك إلا نادرا . وحديث السفر عنده حديث عن جور الأيام ونكد العيش وقلة ذات اليد وعن مضاء العزيمة وعلّو الهمة والرغبة في الحصول على المال . ومن طريف فخره بأسفاره قوله :

مالي وللأيام صرّف صرفها حالي وأكثر في البلاد تقلبي
أمسي زميداً للظلام وأغتدي ردفاً على كفل الصباح الأشهب
فأكون طوراً مشرقاً للمشرق الاقصى وطوراً مغرباً للمغرب
وإذا الزمان كساك حلة معدم فالبس لها حلل النوى وتغرب
ولقد أبيت مع الكواكب راكباً أعجازها بعزيمة كالكوكب
والليل في لون الغراب كأنه(١) هو في حلوكته وإن لم ينعب
والعين تنصل من دجاه كما انجلى صبغ الشباب عن القذال الأشيب
حتى تجلى الصبح في جنباته كالماء يلمع من وراء الطحلب

وفخر الرجل بآبائه قليل ، ولكنه على جانب كبير من الغلو والاسراف . فطيء عنده أكرم الناس قاطبة وأشجعهم ، وهي « قد ملكت

---

(١) ربما كان الصواب كأنما .

الأرض قبل أن تملك » ، وقد كان « عرب الحجاز لقومه عندما نزلوه عبيداً ارقاء » وأكبر الظن أن هذا الفخر إنما كان من نزوات الشباب ونزعاته . فقد ورد كل هذا في داليته التي مطلعها :

إنما الغي أن يكون رشيدا فأنقصا من ملامه أو فزيدا

وهي قصيدة تدل مقدمتها على أنها قد قيلت في شرخ الشباب .

أما فخره بفضائله ومناقبه فانه قليل أيضاً ولكنه من جيد شعره ، وهو إذا حدثنا عن نفسه قال لنا إنه شديد البأس سديد الرأي صليب العود حمول لعظائم الأمور صبور على المكروه . ولعلنا لا نخطيء إذا لاحظنا أن أحسن ما له في هذا الباب داليته التي وصف فيها لقاءه الذئب وقتله إياه. والتي نروي أحسنها فيما يلي :

فقل لبني الضحّاك مهلاً فانني
أنا الافعوان الصلُّ والضيغم الورد
بني ناهل مهلاً فان ابن أختكم له عزمات هزل آرائها جدّ
متى هجتموه لا تهيجوا سوى الردى
وإن كان خرقاً ما يحل له عقد(١)
مهيباً كنصل السيف لو ضربت به ذرى أجأ ظلت وأعلامها وهد(٢)
يودُّ رجال أنني كنت بعض من طوته الليالي لا أروح ولا أغدو
ولولا احتمالي ثقل كلّ ملمّة
تسوء الأعادي لم يودّوا الذي ودّوا
ذريني وإياهم فحسبي صرامتي
إذا الحرب لم يقدح لمخمدها زند
ولي صاحب عضب المضارب صارم طويل نجاد ما يفلّ له حدّ

---

(١) الخرق « بكسر الخاء » : الفتى الكريم الخلق .
(٢) أجأ : جبل لطيء .

وباكية تشكو الفراق بأدمع يبادرنها سحاً كما انتثر العقد
رشادك ، لا يحزنك بين ابن همة
يتوق الى العلياء ليس له ند
فمن كان حراً فهو للعزم والسرى
وللبيل من أفعاله لا الكرى(١) عبد
وليل كأن الصبح في أخرياته حشاشة نصل ضمّ إفرنده غمد
تسربلته والذئب وسنان هاجع بعين ابن ليل ماله بالكرى عهد
أثير القطا الكدري عن جتماته وتألفني فيه الثعالب والربد(٢)
وأطلس ملء العين يحمل زورهً
وأضلاعه من جانبيه شوىً نهد(٣)
له ذنب مثل الرشاء يجرّه ومتن كمتن القوس أعوج مُنأدّ
طواه الطوي حتى استمر مريره
فما فيه إلا العظم والروح والجلد(٤)
يقضقض عُصلاً في اسرتها الردى
كقضقضة المقرور أرعده البرد(٥)
سما لي وبي من شدّة الجوع ما به
بيداء لم تعرف بها عيشة رغد
كلانا بها ذئب يحدّث نفسه بصاحبه والجدّ يتعسه الجدّ
عوي ثم أقعى فارتجزت فهجته فأقبل مثل البرق يتبعه الرعد

---

(١) في الديوان (والكرى) ولا معنى لهذا العطف اما قوله (ومن افعاله) فانه حشو لا مبرر له .

(٢) الكدري : غير الصافي . الربد : جمع أربد وهو حية خبيثة .

(٣) أطلس : اغبر . الزور : وسط الصدر او ما ارتفع منه . الشوى . الاطراف او اليدان والرجلان . النهد : المرتفع .

(٤) استمر مريره : اشتدت عزيمته .

(٥) قضقض : اصطكت اسنانه . وانياب عصل : عوج ، واحدها أعصل وأسرة : جمع سُر بضم السين وهو جوف كل شيء وباطنه .

فأوجرته خرقاء تحسب ريشها
على كوكب ينقضّ والليل مسودّ(١)

فما ازداد إلا جرأة وصرامة ... وأيقنت أن الأمر منه هو الجدّ
فاتبعتها أخرى فأضللت نصلها ... بحيث يكون اللبّ والرعب والحقد
فخرّ وقد أوردته منهل الردى ... على ظمأ لو أنه عذب الورد
وقمت فجمّعت الحصى فاشتويته ... عليه وللرمضاء من تحته وقد
ونلت خسيساً منه ثم تركته ... وأقلعت عنه وهو منعفر فرد

إلا أنه شديد الفخر بشعره كثير الاعجاب به - كما مرّ - وفي اعتقاده أن قصائده (منقوشة نقش الدنانير ، ينتقى لها اللفظ كما ينتقى التبر) وهي (جامعة بدد العلى ، تعلقت من قبل الشاعر واتعبت من بعده وهي (سائرة أمام الريح ، غدوتها شهر وروحتها شهر) ومن بليغ فخره في هذا الباب قوله :

هذي نوافلك التي خولتها ... رجعت غرائبها إليك قصائدا
تعطيك شهرتها النجوم طوالعاً ... وتريك أنفسها الجبال خوالدا
متعسّفاتٍ ما تزال رواتها ... تأبى عليها أن تسير قواصدا
وهي القوافي ما تقرّ ثوابتاً ... لمُمدح حتى تعود شواردا
علل لاتواء الذخائر كلما ... جلبت على ملك أباح التالدا(٢)
والبحر لولا أن تسيّر سفنه ... بالريح ما برحت عليه رواكدا

* * *

أما منادمته الخلفاء فقد كانت موضوع فخره في تائيته التي ندد فيها

---

(١) أوجره الرمح : طعنه به في فيه .
(٢) اتواء المال : انفاقه ، التالد : المال .

بعض أقربائه الذين يتمنّون موته بغضاً وحسداً مع أنه لسانهم ومفخرتهم. ولكنه استطرد عند ذكره هذه المنادمة إلى انتفاع الناس بمركزه في بلاط الخليفة * وبذلك أصبح فخره مقبولاً مستساغاً . اسمع قوله في هذا :-

ومن الأقارب من يسرّ بميتتي ... سفهاً وعزّ حياتهم بحياتي
إن أبق أو أهلك فقد نلت التي ... ملأت صدور أقاربي وعداتي
وغدوت ندمان الخلائف نابهاً ... ذكري ، وناعمة بهم نشواتي
وشفعت في الأمر الجليل إليهم ... بعد الجليل فأنجحوا طلباتي
وصنعت في العرب الصنائع عندهم ... من رفد طلّاب وفكّ عناة(١)

وصفه : أنتقل بك الآن الى وصف البحتري الممتلىء حياة وحركة وجمالاً وقد قلت لك عند الكلام على وصف أبي تمام إن الطبيعة تحتل المكان الاول منه وأقول لك الآن ان القصور ، بما فيها من زينات وزخارف ومسرات ومباهج ، تحتل المكان الأول من وصف البحتري . ولا غرابة في ذلك ، فقد قدّر لصاحبنا أن ينادم المتوكل على الله مدة خلافته ، وأن يكون ذا حظوة كبيرة عند ابنه المعتز . وأنت تعرف غرام المتوكل ببناء القصور ورغبته الصادقة في الاستمتاع بالحياة . ولم يكن ابنه المعتز أقل منه ولعاً بالبناء والاستمتاع برغد العيش على قصر حكمه وسوء الحالة في عهده . من أجل هذا حفل وصف البحتري بمشاهد ومناظر لم يقدّر لغيره من الشعراء أن ينعم

---

(١) من هذه الصنائع التي يشير اليها البحتري شفاعته برجال ربيعة ، وقد جيء بهم بعد قمع فتنة قبلية الى المتوكل على الله مكبلين بالحديد . وفي هذه الشفاعة يقول البحتري :

جاءتك اسرى في الحديد أذلة ... مجموعة الأيدي الى الاذقان
فافكك جوامعهم يمنك انها ... سمرت على أيدى ندى وطعان

بها وأن يصفها وصفاً قوامه المشاهدة والخبرة المباشرة ومن هنا أيضاً يمكن القول إنه أرّخ لنا جانباً مهماً من حياة عصره الاجتماعية كما أرخ لنا جانباً مهماً من حياته السياسية : فهو يصور لنا في عينيته التي مطلعها :

شوق إليك تفيض منه الأدمع ...الخ

وميميته التي مطلعها :

هذيري فيك من لاح اذا ما شكوت الحب حرّقني ملاما

جمال المتوكلية(١) وبهجتها وإشراقها ، إلا أنه يصفها لنا في هاتين القصدتين وصفاً مجملاً ، ثم إنه يعود فيفصّل لنا محاسن هذه المدينة في قصائد عديدة تفصيلاً كافياً . مثال ذلك أنه يعطينا في رائيته التي مطلعها :

إن الظباء غداة سفح محجر هيّجن حرّ جوى وفرط تذكر(٢)

فكرةً قوية واضحة عن « حصن الجعفري » ، وهو خير ما في هذه المدينة ، وما يمتاز به من طيب في التربة وجودة في الهواء وأناقة في الفناء وفخامة في البناء وجمال في المناظر وجلال في المشاهد . ويصف لنا في ميميته التي مطلعها :

إن طيفا يزورني في المنام لخليّ من لوعتي وغرامي

قصري « الصبيح » « والمليح » ، وهما من أجمل قصور تلك المدينة ، وصفاً رائعاً مستفيضاً نعلم منه أن في احدهما « بركة حسناء ، إذا توسطها

---

(١) المتوكلية : مدينة بناها المتوكل على الله بقرب سر من رأي سنة خمس واربعين ومائتين هـ فعمرت واكتظت بالسكان . الا أن الناس هجروها بعد قتله فأسرع اليها الخراب .

(٢) محجر : موضع .

الماء القت عليه صبغ الرخام » وبدا كأنه ماء بحر ، وأن بساتينه تسقى بدواليب ليس لها ناضح(١) إلا النعام . ويحدّثنا في يائيته التي مطلعها : « ميلوا إلى الدار من ليلى نحييها » عن هذه البركة أو بركة اخرى للمتوكل تضارعها أو تفوقها حسناً ، حديثاً لا أظنه يغيب عن ذهنك . ويمضي في تصوير هذا الترف الذي يغمر حياة سيده فيصف لنا في ميميته التي مطلعها :

ألا هل أتاها بالمغيب سلامي وهل خبرت وجدي بها وغرامي

قصراً بناه المتوكل على الله في نوع من السفن عظيم يسمى « الزوّ » يقاد بزمام كما يقاد البعير ، ويسّير في الماء كما تسّير العربة على الارض وتنزه فيه على دجلة مستصحباً قيانه وندمانه مطلقاً بزاته في الجو مضيفاً بهجة الصيد إلى لذات الشراب والسماع .

وكما يصف لنا البحتري قصور المتوكل على الله وما فيها من نعيم وصفاء عيش يصف لنا كذلك قصور ابنه المعتز وما فيها من روائع وبدائع وعجائب وغرائب ، وفيقول لنا مرّة إنه بنى قصراً طلى سقوفه بالذهب وصنع بعض حيطانه من الزجاج وأغدق عليه صنوف الزخارف والزينات . وتارة إنه بنى لنفسه صرحاً ممرّداً من قوارير يباهى به صرح سليمان بن داود الذي ورد ذكره في التنزيل ، « فوق صرح ممرّد من قوارير غريب التأليف والتمريد(٢) » .

هذا إلى أنه يصف جولاته في « الزوّ » وسائر أفراحه وأعياده وصفاً رائعاً نفيساً . ومما تدلنا عليه هذه الصفحات من شعر البحتري أن المعتز كان يؤثر دائماً أن (يدشّن) قصوره في أيام الربيع - هكذا فعل في

---

(١) الناضح : ما يستقى عليه الماء من الحيوان .

(٢) من الغريب ان البحتري لم يصف هذا القصر العجيب الا بأبيات قليلة جداً .

(تدشين) « الكامل » القادم وصفه ، وهكذا فعل في (تدشين) صرحه الممرد من قوارير ، وهكذا فعل في تدشين « قصر الساج(١) » . فانظر كيف يتذوّق هؤلاء الناس لذات العيش . وكيف يقرنون أعيادهم باعياد الطبيعة لينالوا اعظم حظ ممكن من السرور ، والانشراح !. على أننا لا نحمد لهم ذلك كثيراً ، فقد كان لهم من فساد ملكهم وانحلال أمرهم ما يحملهم على التفكير في تشييد قصور الاصلاح ، ويدفعهم إلى إقامة مواسم الانشاء والتعمير لمملكتهم المتضعضعة البنيان المتداعية الأركان ، ولكن ما كان ذلك ليشغل بالهم ويثير اهتمامهم وقد جنوا ثمر ما غرسوا ورأوا نتيجة ما عملوا ... لنخلهم وشأنهم أذن ولنعد الى أبي عبادة ليسمعنا قوله في قصري الصبيح والمليح :

قد صفا جانب الهواء ولذّت ... رقّة الماء في مزاج المدام
واستتم الصبيح في خير وقت ... فهو مغنى أنس ودار مقام
ناظر وجهة المليح فلو يسـ ... ـطيع حيّاه معلناً بالسلام
ألبسا بهجة وقابل ذا ذاك ... فمن ضاحك ومن بسّام
كالمحبّين لو أطاقا التقاءً ... أفرطا في العناق والالتزام

ومنها في وصف أحد القصرين :

مستمدّ بجدول من عباب الماء ... كالابيض الصقيل الحسام
واذا ما توسّط البركة الحسناء ... ألقت عليه صبغ الرخام
فتراه كأنه ماء بحر ... يخدع العين وهو ماء غمام

---

(١) انظر قافية البحتري التي مطلعها :

اما الخيال فانه لم يطرق ... الا بعقب تشوف وتشوق

والدواليب إن يدرن ولا نا ضح يمشي بهنّ غير النعام

ومنها :

حلل من منازل الملك كالأنـ جم يلمعن في سواد الظلام
مفحمات تعيي الصفات فما تدرك إلا بالظن والأوهام
فكأنا نحسّها بالأماني أو نراها في طارق الأحلام
شوقتنا إلى الجنان فزدنا في اجتناب الذنوب والآثام

وقوله في الزوّ :

أبى يومنا بالزوّ الا تحسناً لنا بسماع طيب ومدام
غنينا على قصر يسير بفتية قعود على أرجائه وقيام
تظل البزاة البيض تخطف حولنا جآجيء طير في السماء سوام(١)
تحدّر بالدراج من كلّ شاهق مخضّبة أظفارهن دوامي
فلم أر كالقاطول يحمل ماؤه تدفّق بحر بالسماحة طام
ولا جبلاً كالزوّ يوقف تارة وينقاد إمّا قدته بزمام

وقوله في وصف الكامل : (٢)

لمّا كملت رويّه وعزيمة أعملت رأيك في ابتناء الكامل
وغدوت من بين الملوك موفّقاً منه لأيمن حلّة ومنازل
ذعر الحمام وقد ترنم فوقه من منظر خطر المزلة هائل

---

(١) الجآجيء : جمع جوجوء كهدهد وهو الصدر .

(٢) لولا هذه الأبيات لجهلنا امر هذا القصر جهلا تاماً . لأن كتب التاريخ والجغرافيا عند العرب لا تحدثنا عنه بشيء .

رفعت لمخترق الرياح سموكه ... وزهت عجائب حسنه المتخايل

وكأن حيطان الزجاج بجوّه ... لجج يمجن على جنوب سواحل

وكأن تفويف الرخام إذا التقى ... تأليفه بالمنظر المتقابل

حبك الغمام رصفن بين منمّر ... ومسيّر ومقارب ومشاكل(١)

لبست من الذهب الصقيل سقوفه ... نوراً يضيء على الظلام الحافل

فترى العيون يجلن في ذي رونق ... متلهب العالي أنيق السافل

وكأنما نشرت على بستانه ... سيراء وشي اليمنة المتواصل(٢)

أغنته دجلة إذ تلاحق فيضها ... عن صوب منسجم الرباب الهاطل

وتنفست فيه الصبا فتعطّفت ... أشجاره من حوّل وحوامل

مشيّ العذارى الغيد رحن عشية ... من بين حالية اليدين وعاطل

* * *

وافيته والورد في وقت معاً ... ونزلت فيه مع الربيع النازل

وغدا بنوروز عليك مباركاً ... تحويل عام إثر عام حائل

ووصف البحتري قصور العباسيين وأعيادهم وسائر أفراحهم كله على هذا النحو فنجتزيء منه بما تقدم ، بيد أنه مما يجب أن يلاحظ أن البحتري يحسن وصف قصور الملوك وهم أموات كما يحسن وصف قصورهم

---

(١) الحبك : جمع حبيكة ، وحبيكة الغمام ما تكسر او تجعد منه . المنمر : ما احتوى على النمرة وهي النكتة من أي نوع كانت . المسير : ثوب مخطط شبه به الغمام في بعض حالاته .

(٢) السيراء : الحرير الصافي . واليمنة : برد يمني .

وهم أحياء . بل إنه أدق وصفاً وأصدق تصويراً لقصور الأمويات منهم ولعل سبب ذلك مافي هذه من عظة صادقة وعبرة مؤثرة تصهر النفس وتنفذ الى قرارة الوجدان وتسمو بالشاعر الملهم إلى أوج الاحسان والابداع ، وما أشك في أنك فهمت ما أقصد ، فأنا أريد أن اتحدث عن السينية الخالدة ، وقبل أن أتحدث عنها أودّ أن اسأل متى نظمت هذه القصيدة؟ وهل الغرض الأول منها وصف الايوان ؟ .

يخيّل إليّ أن هذه القصيدة نظمت في الأسابيع أو الأشهر القليلة التي تلت مصرع المتوكل والتي أقل فيها نجم البحتري على عهد المنتصر، وأن الغرض الأول منها وصف ما يحسه الشاعر من ألم شديد وحزن عميق على عهد ظفر فيه بكل ما يصبوا إليه من مال وجاه وكل ما يحلم به من ترف ونعيم ، فهي إذن (مذكّرة نفس) كما يقول هيكو عن تأملاته قبل أن تكون قصيدة وصف ، ومع ذلك فقد بلغ ما فيها من وصف منتهى الاجادة والاحسان . وإنه لمن حق البحتري ومن حق الأدب أن نقف عند هذه القصيدة الفريدة ولو وقفة قصيرة لنتفهم بعض ما فيها من فن بارع وجمال رائع .

تقع هذه القصيدة في ستة وخمسين بيتاً يتحدث البحتري في العشرة الأولى منها عن تنكر الايام له وتغير الزمن عليه ، ويشير إلى جفاء المنتصر إياه اشارة المعتز بحسبه وخلقه المعتمد على ما عنده من صلابة العزم وقوة الارادة ، ويحدثنا فيما عدا ذلك من القصيدة بأنه زار أيوان كسرى في هذا الظرف العصيب من حياته طلباً للعزاء والتماساً للعظة بما نزل بآل ساسان من غير الدهر وأحداثه . وهنا يقف البحتري وقفة المتأمل المتدبّر ، فيصف لنا عظمة آل ساسان وضخامة ملكهم وسعة

سلطانهم ، ويصف لنا تارة جمال الايوان وفخامته وأبهته وما يزينه من نقوش وتصاوير يكاد يجري فيها دم الحياة ، ويصف لنا طوراً مجلس خمر نعم به هناك ، ساقيه ولده أبو الغوث ، ونديماه كسرى أبرويز والبلهبذ ، ويصف لنا حيناً ما يملأ نفسه من خواطر وانطباعات تنتقل به من عالم الحس الى عالم النفس ، فيمعن في التفكير ويمعن في التخيل حتى يتراءى له سكان الايوان وكأنهم أحياء يرزقون ويسكب أبو عبادة دموعه الحارة في هذه المرحلة من تأمله وتخيله ، لا لأن الدار داره ولا لأن أهلها أهله، بل لأن أهلها ساعدوا على تحرير بلاده وهي اليمن من نير الاحباش ، ولأنه يحب الاشراف جميعاً سواء في ذلك الاقربون منهم والأبعدون(١) وظاهر أن القصيدة كما أصفها لك وحدة بيانة متماسكة تفيض بالحياة والجمال والانسجام . وهي من هذه الناحية تشبه رائية البحتري في رثاء المتوكل وميميته في رثاء آل حميد .

يقول ابن المعتز ما نصه تقريباً : لو لم يكن للبحتري إلا سينيته في وصف إيوان كسرى لكفى ، فليس للعرب سينية مثلها .. وأنا أزعم أنه ليس للعرب مثلها دون تقيد بالروي .

---

(١) نظمت في مجاراة هذه القصيدة عدة سينيات أحقها بالذكر سينية شوقي ولكننا قد لا نظلم شوقي اذا لاحظنا أن خير بيت له في وصف اطلال الحمراء وهو قوله :

مشت الحادثات في غرف الحمراء مشي النعي في دار عرسي

مأخوذ من قول البحتري :

لو تراه علمت أن الليالي جعلت فيه مأتماً بعد عرسي

واحب ان اشير هنا الى اني لم أروي شيئاً من سينية البحتري على نفاستها لأنها من الشهرة بمكان .

على أن البحتري لم يكن وصاف قصور ومصور زخارف وزينات فحسب ، بل إنه شاعر مبدع كل الابداع في وصف محاسن الطبيعة . اسمع قوله في وصف دمشق للمتوكل على الله :

أمّا دمشق فقد أبدت محاسنها ... وقد وفى لك مطريها بما وعدا
إذ أردت ملأت العين من بلد ... مستحسن وزمان يشبه البلدا
يمسي السحاب على أجبالها فرقاً ... ويصبح النبت في صحرائها بددا
فلست تبصر إلا واكفاً خضلاً ... أو يانعاً خضراً أو طائراً غردا
كأنما القيظ ولى بعد جيئته ... أو الربيع دنا من بعد ما بعدا

وقوله في وصف منازل صالح بن وصيف في الجزيرة :

فكم بالجزيرة من روضة ... تضاحك دجلة ثغبانها(١)
تريك اليواقيت منشورة ... وقد جلّل النور ظهرانها
غرائب تخطف لحظ العيون ... إذا جلت الشمس الوانها

* * *

تسير العمارات أيسارها ... ويعترض القصر أيمانها
وتحمل دجلة حمل الجموح ... حتى تناطح أركانها
كأن العذارى تمشى بها ... إذا هزت الريح أفنانها
تعانق للقرب شجراؤها ... عناق الأحبة أسكانها
فطوراً تقوّم منها الصبا ... وطوراً تميّل أغصانها

---

(١) الثغبان : جمع ثغب وهو ما بقي من الماء في بطن الوادي او الغدير في ظل الجبل .

جنوح تنقّل افياءها كما جرت الخيل أرسانها

أما بعد ، فقد لا أخطيء اذا لاحظت أن البحتري من أغزر شعرائنا مادة في الوصف وأكثرهم تمثيلاً للحضارة الاسلامية وأدقهم تحليلا وأوفاهم تفصيلاً وأنصعهم ديباجة .

هجاؤه ولكن هجاء البحتري على عكس ما تقدم من شعره فانه قليل الجمال ضئيل القيمة من الناحية الفنية . ولم يخطيء النقاد القدماء والمحدثون في اعتباره دون عامة شعره قوة وبراعة ، إذ كل ما يمتاز به هو الفحش والصرامة ، على أن بعضه لا يخلو من ظرف وفكاهة . ولعل هذه الأبيات التي يهجو صاحبنا بها الخثعمي من أخف هجائه وطأة وأقربه الى الظرف والفكاهة وهذه هي :

ألان علمت أن البعث حق وان الله يفعل ما يشاء

رأيت الخثعمي يقل أنفاً يضيق بعرضه البلد الفضاء

سما صعداً فقصّر كل سام لهيبته وغصّ به الهواء

هو الجبل الذي لولا ذراه إذاً وقعت على الأرض السماء

* * *

عتابه : إلا أن عتابه هيّن ليّن ، يغلب عليه الاستعطاف ويشيع فيه الاسترضاء ، وينحط أحياناً إلى درك الاستجداء ، وليس في هذا ما يسوء البحتري أو يخيفه . على أنه مضطر الى انتهاج مثل هذه الخطة في عتابه اضطراراً ، لأنه يعاتب عظماء الدولة وأصحاب الحل والعقد أو من له منزلة كبرى عندهم ، وليس له طبعاً أن يعاتب أحداً من

هؤلاء إلا بهذه اللهجة الرقيقة الناعمة ، هذا اذا اراد أن يحتفظ بمركزه وثروته ، وهو مريد ذلك مهما كان الثمن وعلى هذا كان عتابه مثلاً في اللين وخفة الروح ، بل إنه أقرب الى المديح منه الى العتاب . اسمع قوله معاتباً عيسى بن ابراهيم :-

قل لأبي نوح شقيق الندى ... ومعدن الجود وحلف السماح
أعوذ بالرأي الجميل الذي ... ذوّدته والنائل المستماح
من أن تصدّ الطرف عني وأن ... أخيب من جدواك بعد النجاح
إن كان لي ذنب فعفو وإن ... لم يك لي ذنب ففيم اطراح ؟
أبعد أسباب متان القوى ... من فرط شكر سائر وامتداح
يخبرن عن قلب قديم الهوى ... فيك وعن صدر أمين النواح
أشمت حسادي ، وأخرجتني ... من سيبك المغدى عليّ المراح؟!
فهل لأنس بان من رجعةٍ ؟ ... أم هل لحال فسدت من صلاح؟
لست على سخطك جلد القوى ... ولا على هجرك شاكي السلاح

* * *

فلسفته : ومع أن البحتري يقول لنا بصريح العبارة انه يهوى الثراء ويعشق الحياة الدنيا ولا يدّخر في سبيل الحصول عليهما وسعاً ، فانه يقرر من جهة أخرى أن الدنيا عرض زائل ومتاع كاسد ، سرورها وحزنها صنوان ، ونعيمها وبؤسها سيان ، ويدعو للزهد بها والاعراض عنها ، ويزعم أنه لم يحفل بها حتى في أيام عزا واقناله . وكلماته في الدنيا والحياة والموت وما الى ذلك كثيرة منتشرة في ثنايا ديوانه الضخم أروي لك منها قوله :

إذا عاجل الدنيا ألمّ بمفرح فمن خلفه فجع سيتلوه آجل
وكانت حياة الحي سوقاً إلى الردى
وأيامه دون الممات مراحل

وما لبث من يغدو وفي كل لحظة له أجل في مدة العمر قاتل
وللمرء يوم لا محالة ماله غد وسط عام ماله الدهر قابل
كفاناً اعترافاً بالفناء ورقبة لمكروهه أن ليس لنخذ آمل

وقوله :

يسر بعمران الديار مضلل وعمرانها مستأنف من خرابها
ولم أرتض الدنيا أوان مجيئها فكيف ارتضائيها أوان ذهابها

* * *

لغته وأسلوبه : أشرت في أثناء الكلام على ثقافة البحتري الى أنه رقيق اللفظ جميل التعبير ، معتدل في استعمال الزخرفة البيانية اعتدالاً تاماً . وما أريد أن أقيم البرهان على هذا . فقد مر بك من شعر الرجل ما يؤيده التأييد كله . ولكني أريد أن أقول الآن إنه أي البحتري متساهل بتهذيب شعره الى حدّ ما . كثير الزحاف قليل الاكتراث بقواعد الاعراب ، الا أنه يحسن تأليف الصور الشعرية ويجيد ضرب الامثال إجادة تامة .

فمن الغريب حقاً أن يتنافر كلام البحتري ويضعف تأليفه الى حد قوله :

تدارك شمل الشعر والشعر شارد الش وارد مرذول غريب الغرائب

وقوله : وقصارى المشوق يصرمه الشائق اقصار شوقه أو قصوره

وقوله :

هيهات مارس قلقلاً متيقظاً قلقاً اذا سكن البليد رشيقا(١)

ففي شينات البيت الأول وراءاته وهلهلة نسجه ، وقافات البيت الثاني وصاداته وراءاته وسقم تأليفه ، وقفات البيت الثالث وثقل تركيبه ما يدل على أن البحتري لا يعنى بتهذيب شعره عناية كافية على الدوام . ولا يقل عن هذا غرابة شيوع الزحاف في شعره ، ولعل وجوده في شعر النابغة وامريء القيس وبعض كبار شعراء الجاهلية الآخرين حمله على عدم الاحتراس منه . ولكن تقدم صناعة الشعر ورقي الملكات الفنية على عهده لا يسمحان للناقد النزيه بالاغضاء عن وجود هذا العيب في شعره لأنه يدل على قلة الانتباه الى موسيقى الوزن وعلى عدم تذوقها تذوقاً كافياً . ومن أمثلة الزحاف في شعر البحتري قوله في مطلع قصيدة (كنت) الى وصل سعدي جد محتاج .

وقوله في نفس القصيدة :

إن (أنا) شبهته بالغيث في مدحي غضضت منه فكنت المادح الهاجي

وقوله :

وقلب هائم فيه احتراق يكاد لشدة (الهوى) يبيد

وأغرب من هذا كله إهماله بعض قواعد الاعراب فكثيراً ما رفع الفعل المضارع بعد فاء سببية مسبوقة بما يوجب النصب كما في قوله :

أعيى عليّ فلا هيابة فرق يخشى الهجاء ولا هش فيمتدح

يريغ كاتبه صلحي لينقضني ولم يكن بيننا شر فنصطلح

---

(١) القلقل : المعوان السريع الحركة .

فمما لا شك فيه أن (يمتدح) و (نصطلح) فعلان منصوبان بحكم الفاء السببية المسبوقة بنفي ، ولكنهما في بيتي البحتري مرفوعان . وربما نصب صاحبنا الخبر في غير مبرر ولا سبيل للتأويل كما في قوله :

فهم قوم تبع خير قوم لهم الله بالفخار شهيدا

(فشهيد) خبر مرفوع لا سبيل الى نصبه ولكن البحتري نصبه نزولاً عند ضرورة القافية . وفي الامكان إحصاء هفوات أخرى للمترجم من هذا القبيل الا أن كثرة شعره الجيد المبرّأ من كل عيب تحملنا على عدم التأثر بهذه الزلات في تحديد منزلته الشعرية . كما أننا لم نتأثر بأمثالها أو بما يقرب منها في تحديد منزلة أبي تمام .

أضف الى ذلك قدرته العجيبة على تركيب الصور الشعرية التي يؤلف أجزاءها تأليفاً متقناً ويشيع فيها الحياة والانسجام حتى تجيء وكأنها صور ناطقة متحركة . وقد مرت بك طائفة حسنة من صوره الشعرية الرائعة من أهمها وصفه مقتل أسد على يد الفتح بن خاقان ، ومبارزته هو الآخر ذئباً وقتله اياه . ومر بك أيضاً جانب من مرثيته لآل حميد والمتوكل على الله وهما من أجمل صوره وأجلها شأناً . هذا الى أنه مجيد كل الاجادة في ضرب الأمثال التي يضربها من حين لآخر مضمّناً إياها حكمته ومؤيداً بها وجهة نظره ، فمن ذلك قوله :

وهل خلق الفتى إلا ليهوى ويأنس بالدموع وبالدماء

وقوله :

إذا المرء لم تبدهك بالحزم والحجا
قريحته لم تغن عنك تجاربه

وقوله :

إذا ما الجرح رمّ على فساد تبين فيه تفريط الطبيب

وقوله :

ليس يحلو وجودك الشيء تبغيه التماساً حتى يعز طلابه

وقوله :

واليأس إحدى الراحتين ولن ترى
تعباً كظنّ الخائب المكدود

وقوله :

والأرض لولا العذاة واحدة والناس لولا الفعال أمثال

وقوله :

متى أحرجت ذا كرم تخطّى إليك ببعض أخلاق اللئيم

وقوله :

والمرء لو كانت الشعرى له وطناً
حطّت عليه صروف الدهر من صبب

وقوله :

وما تنبت البطحاء من غير وابل ولا يستديم الشكر غير جواد

وقوله :

وأحب آفاق البلاد إلى الفتى أرض ينال بها كريم المطلب

* * *

هـ - خاتمة :

إذا لم يخطيء ظني فان في أصالة صفحات كثيرة من شعر البحتري وفي أهمية صفحات أكثر من الوجهة التأريخية وفي ما لهذا الشعر على العموم من جمال اللفظ وصفاء الديباجة ، ما يحملنا على الاعجاب به وعلى دراسته بعناية واتقان .

الفصل الثالث

ابن الرومي

أ ـ حياته : اسمه ونسبه · كنيته · ولاؤه في بني العباس· مولده · نشأته · دراسته · ثروته · ضياعها · سبب ذلك · أستسلامه للخيال · شرهه · انحلال جسمه وعقله · غلبة الطيرة عليه · بعض أخباره في هذا الشأن · من أشفق عليه من الطيرة ومن سخر منه · علاقته بآل العباس · تخلّيه عنها · هجاؤه إياهم · وفاته ·

ج ـ شعره : نسجه على منوال من تقدمه من الشعراء · الزعم بأنه كان يقول بوحدة الموضوع · تفنيده · هامش · غزله · غلبة التقليد عليه · أصالة جزء يسير منه · مثل من هذا الجزء · مديحه · كذبه · خيبة أمله في بعض ممدوحيه · انتقامه منهم · موقف محمد بن عبيدالله بن طاهر منه · ما لمديحه من القيمة الشعرية · ماله من القيمة التاريخية · مثل منه ، هجاؤه · صرامته · بذائته · ميله الى الاعتداء عتابه · لينه وشدته · مثل منه · رثاؤه · غلبة الاخلاص عليه · مثل منه ، وصفه · تمثيله كل ناحية من نواحي حياته العقلية والنفسية ، مثل منه · لغته وأسلوبه · إطالته· استهانته بسلامة الأداء · استقصاؤه الدقيق للمعاني والأغراض ·

د ـ خاتمة : ابن الرومي من حيث هو رجل ومن حيث هو شاعر ·

أ- حبانه

حدثتك في الفصل الماضي عن شاعر من أسعد الشعراء حظاً وأعظمهم نجاحاً في شعره ، ألا وهو أبو عبادة البحتري . وأحدثك الآن عن شاعر من أسوأ الشعراء حظاً وأشدهم إخفاقاً ألا وهو علي بن العباس بن جريج أو جريح المكنّي بأبي الحسن والمعروف بابن الرومي وهو مولى عيسى بن عبدالله ابن جعفر بن المنصور ثاني خلفاء بني العباس .

ولد في بغداد لليلتين خلتا من رجب سنة إحدى وعشرين ومائتين ونشأ في كنف الخلافة العباسية ودرس دراسة حسنة نلمس آثارها في أدبه الجم وشعره الجيّد ولكننا نجهل تاريخ نشأته ودراسته . ويدل شعره على أنه ورث ضيعة ولكنه أضاعها ، وداراً ولكنها غصبت منه وثروة ولكنه لم يستطع الأحتفاظ بها وذلك لأنه لم يخلق لكسب المال وتدبيره والقيام عليه ، وإنما خلق للكسل والاسترخاء والاستغراق في الخيال وقرض الشعر في ظلال الخمول والراحة وقد غلبت عليه هذه الناحية حتى اضطرب عقله وفسد تفكيره وساعد على محنته هذه شره شديد فيه ، خلق منه رجل معدة مسرفاً في طعامه وشرابه الاسراف كله ومعنى ذلك أن عوامل أدبية ومادية قوية تضافرت عليه فأفقدته سلامة عقله كما أفقدته سلامة جسمه . وظهر أثر كل ذلك واضحاً قوياً في غلبة الطيرة على عقله ، فقد كان يتطير بكل شيء حتى بما يتيمن به المتشائمون .

افتقده أحد عارفي فضله من الأمراء فقيل له إنه سجين بيته منذ مدة من الزمن بسبب الطيرة فأرسل إليه غلاماً اسمه (إقبال) ليتيمن به ويخرج من منزله فلما تهيأ لزيارة الأمير أدركه الالهام في آخر لحظة

فقال للغلام « أذهب فأنت ناقص ومعكوس اسمك لابقاء » لبث معتكفاً في منزله . وطال اعتكافه فأضر هذا بأهله وتعذّر عليهم الطعام والشراب .

حدث علي بن ابراهيم كاتب مسرور البلخي قال « كنت بداري جالساً فاذا حجارة سقطت بالقرب مني فبادرت هارباً وأمرت الغلام بالصعود الى السطح والنظر إلى كل ناحية من أين تأتي الحجارة فقال : إمرأة من دار ابن الرومي الشاعر قد تشوفت ، وقالت اتقوا الله فينا واسقونا جرة ماء وإلا هلكنا ، فقد مات من عندنا عطشاً ، فتقدمت إلى امرأة عندنا ذات عقل ومعرفة أن تصعد إليها وتخاطبها ففعلت وبادرت بالجرة وأتبعتها شيئاً من المأكول ثم عادت إلي فقالت : ذكرت المرأة أن الباب عليها مقفل من ثلاث بسبب طيرة ابن الرومي وذلك أنه يلبس ثيابه كل يوم ويتعوذ ثم يصير الى الباب والمفتاح معه ، فيضع عينه على ثقب في خشب الباب فتقع عينه على جار له كان نازلاً بازائه وكان أحدب يقعد كل يوم على بابه(١) فاذا نظر إليه رجع وخلع ثيابه وقال لا يفتح أحد الباب ، فعجبت لحديثها وبعثت بخادم كان لي يعرفه فأمرته بأن يجلس بازائه وكانت العين تميل إليه وتقدمت إلى بعض أعواني أن يدعا الجار الأحدب فلما حضر عندي أرسلت وراء غلامي لينهض إلى ابن الرومي ويستدعيه إلى الحضور فاني لجالس ومعي الأحدب إذ وافى أبو حذيفة الطرسوسي ومعه برذعة الموسوس صاحب المعتمد ودخل ابن الرومي فلما تخطى عتبة

---

(١) انتقم ابن الرومي لنفسه من هذا الاحدب بقوله فيه و (هو من احسن الهجاء)

قصرت اخادعه وطال قذاله ... فكأنه متربص ان يصفعا

وكأنما صفعت فقاه مرة ... واحس ثانية لها فتجمعا

باب الصحن عثر فانقطع شسع نعله فدخل مذعوراً وكان إذا فاجأه الناظر رأى منه منظراً يدل على تغيّر حال فدخل وهو لا يرى جاره المتطير منه ، فقلت له يا أبا الحسن أيكون شيء في خروجك أحسن من مخاطبتك للخادم ونظرك إلى وجهه الجميل ؟ فقال قد لحقني ما رأيت من العثرة لأني فكرت أن به عاهة وهي قطع أنثييه :-

قال بردغة : وشيخنا يتطير ؟ قلت نعم فأقبل عليه وأنشده :

لما رأيت الدهر يؤذن صرفه بتفريق ما بيني وبين الحبائب
رجعت إلى نفسي فوطنتها على ركوب جميل الصبر عند النوائب
ومن صحب الدنيا على جور حكمها
فأيامه محفوفة بالمصائب
فخذ خلسة من كل يوم لقيته وكن حذراً من كامنات العواقب
ودع عنك ذكر الفال والزجر واطّرح
تطير جار أو تفاؤل صاحب

فبقي ابن الرومي باهتاً ينظر إليه ولم أدر أنه شغل قلبه بحفظ ما أنشده ، ثم قام أبو حذيفة وبردغة معه فحلف ابن الرومي الا يتطير أبداً من هذا ولا من غيره وأومأ الى جاره فقلت وهذا الفكر أيضاً من التطير فأمسك » (١)

على أنه إذا كان بين الناس من أسف لشذوذ الشاعر وعمل على تخفيف بلواه فقد كان بينهم من يتندر به ويسخر منه وأشهر من فعل هذا علي ابن سليمان المعروف بالأخفش الصغير الذي كان يأتيه فيما يقول

---

(١) زهر الآداب ج٢ ص ١٧٧ طبعة المطبعة الرحمانية بمصر .

صاحب زهر الآداب سحراً ويدق عليه الباب فاذا قيل له من ؟ قال قولوا لأبي الحسن (أنا مرة ابن حنظلة) أو (أنا الشؤم والبلاء) فيتطير الشاعر المسكين ويبقى في منزله أياماً لا يأتي أي عمل . وانتقم ابن الرومي لنفسه من هذا الشاب النزق الذي لا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلاً فهجاه وأقذع في هجائه . وأشفق النحوي في أول الأمر من الهجاء وتوسل إلى الشاعر أن يصفح عنه مستشفعاً إليه ببعض أولي الفضل والأدب فقبل الشفاعة وصفح عن النحوي وأمسك لسانه عنه ولكن يظهر أن هذا كان يجد في ايذاء ابن الرومي سروراً يهون عليه في سبيله احتمال الهجاء فعاد الى الشاعر بهزئه وسخريته وعاد هذا الى هجائه ولكنه تظاهر بعدم الاكتراث بل إنه ذهب الى أبعد من ذلك فكان يحفظ هجاء ابن الرومي له ويميله على أصحابه تفكهاً به وقلة اكتراث له فلما رأى الشاعر أن هجائه لا يؤذيه صرف نظره عنه .

وتسألني عن علاقته بآل العباس وأثرها في تخفيف بلواه ، فأقول لك إنه تخلى عن هذه العلاقة وطعن بامامة أسياده القدماء وقال إنهم أئمة ظلمة غصبوا أبناء عمومتهم العلويين حقهم في الخلافة واستأثروا بما ليس لهم ، وتمنى زوال نعمتهم وانقراض دولتهم :

أجنّوا بني العباس من شنآنكم
وأوكوا على ما في العياب وأشرجو(١)
وخلّوا ولاة السوء منكم وغيهم ... تأحربهم أن يغرقوا حيث لججو
نظار لكم أن يرجع الحق راجع ... الى أهله يوماً فتشجوا كما شجوا

---

(١) أوكو شدوا الوكاء وهو رباط القربة وأشرجوا لفظ مرادف لأوكوا يقول اكتموا بغضاءكم لابناء عمومتكم وبالغوا في الكتمان .

والقصيدة طويلة يرثي بها الشاعر يحيى بن عمر العلوي الذي ثار على العباسيين بالكوفة سنة إحدى وخمسين ومئتين للهجرة فقمعوا فتنته وقتلوه .

تلك كانت أسباب فشل ابن الرومي بل أسباب نكبته الساحقة الماحقة التي رزح تحت أعبائها عشرات الاعوام حتى دسّ إليه القاسم بن عبيدالله ابن وهب الذي كان يخشى معرّة لسانه من أطعمه خشكنانجه مسمومة كان فيها حتفه وكان ذلك سنة ثلاث وثمانين أو أربع وثمانين ومائتين .

ب - أخلاقه :

أما أخلاقه فانها تتناقض تناقضاً يتناسب وشذوذه وفساد تفكيره فهو بشهادة شعره بخيل جواد ، جبان شجاغ ، كذوب صدوق ، حقود متسامح وهكذا ...(١)

ومصدر هذا كله اعتلال صحته واختلال أعصابه وإسرافه على نفسه في كل شيء . فقد كان مسرفاً في طعامه مسرفاً في شرابه مسرفاً في إرضاء شهواته ولذاته ما وجد الى ذلك سبيلاً . ورجل هذا شأنه وذاك ديدنه مقضي عليه حتماً بما قضي به على ابن الرومي ، من اعتلال الجسم واختلال العقل وانحلال الخلق .

جـ - شعره :

لابن الرومي شعر كثير لم يطبع إلا أقله نسج فيه على منوال من

---

(١) راجع في هذا « ابن الرومي حياته من شعره » للعقاد ص ١٠٢ الى ١٥٢ الطبعة الثانية .

تقدمه من الشعراء فمدح وهجا ، وشبب ورثى ، ووصف وضرب الأمثال وجمع الموضوعات المختلفة في القصيدة الواحدة(١) .

وأرجو أن أحدثك فيما يلي عن مختلف ضروب شعره وأبوابه .

غزله : الواقع أن غزل ابن الرومي في جملته لا يحتوي على مقاصد وأغراض غرامية حقيقية . وأنه لا يعدو أن يكون رواية معانٍ مألوفة وأخيلة معروفة طالما رددها الشعراء من قبل ، فقدود الغيد الحسان أغصان ، وأردافهن كثبان ، وخدودهن تفاح ، ونهودهن رمان ، وشعورهن أعناب مهدلة ، وأناملهن عنّاب ، وأجفانهن نرجس ضربه سقيط الطل ، وثغورهن اقحوان ، والحبيب غزال يصيد الألباب بنظراته ، والمحبوه يجرحون خديه

---

(١) يذهب الاستاذ العقاد الى ان قصائد ابن الرومي « موضوعات كاملة تقبل العناوين وتنحصر فيها الأغراض ولا تنتهي حتى ينتهي موّداها وتفرغ جميع جوانبها واطرافها ولو خسر في سبيل ذلك اللفظ والفصاحة » ابن الرومي حياته من شعره ص٣١٦ الطبعة الثانية .

ولكننا اذا رجعنا الى ديوان ابن الرومي رأينا انه يحتوي على قصائد كثيرة تتعدد موضوعاتها وتتنوع اغراضها منها هذه النونية التي يمدح بها ابا الصقر اسماعيل بن بلبل والتي مطلعها :

اجنت لك الوجد اغصان وكثبان فيهن نوعان تفاح ورمان

وهذه البائية التي يمدح بها عبدالله بن عبيدالله والتي مطلعها :

صبا من شاب مفرقه تصابى وان طلب الصبا والقلب صاب

وهذه البائية التي يهجو بها البحتري والتي مطلعها :

ما أنس لا أنس هندا آخر الحقب على اختلاف صروف الدهر والنوب

وقد اعتذر ابن الرومي الى احد ممدوحيه عما صدر به مديحه من التشبيب فقال مشيراً الى قصيدته :

لم يعبها سوى قواف تشاغلن عن المدح فيك بالتشبيب

ولا ادري كيف يوفق الاستاذ العقاد بين ما ذهب اليه وبين هذه الحقائق الناطقة التي لا تقبل الجدل .

بالحاظهم ولكنه يقتص لنفسه فيجرح قلوبهم بتباريح الوجد ولواعج الحب وهكذا . على أنه من الحق أن نقرر أن ابن الرومي يعرض هذه المعاني المألوفة بلغة جذابة وأسلوب رائع يحببانها الى القلوب ويقربانها من النفوس . وأنا الذي لا أختلف كثيراً مع عبيدالله بن طاهر الذي أطلق اسم « دار البطيخ »(١) على نونيته التي مطلعها « أجنت لك الوجد الخ . . » أشعر عند قراءة نسيب هذه القصيدة بشيء لا بأس به من اللذة الفنية . على أن هذه الملاحظات لا تتناول بالطبع داليّة المترجم في وحيد المغنية لأنها تحتوي على غزل إلا يعبر عن عاطفة غرامية صادقة فانه يمثل مهارة فائقة في وصف بدائع الجمال وروائع الغناء . استمع إلى قوله فيها :

وغرير(٢) بحسنها قال صفها ... نلت أمران هيّن وشديد
يسهل القول إنها أحسن الأشـ ... ـياء طراً ويصعب التحديد
تتجلى للناظرين إليها ... فشقيٌّ بحسنها وسعيد
ظبية تسكن القلوب وترعا ... ها وقمريّة لها تغريد
تتغنى كأنها لا تغنّي
من سكون الأوصال وهي تجيد
لا تراها هناك تجحظ عين ... لك منها ولا يدرّ وريد
من هدوّ وليس فيه انقطاع ... وسجو وما به تبليد
مدّ في شأوصوتها نفس كاف ... كأنفاس عاشقيها مديد
وأرق الدلال والغنج منه ... وبراه الشجا فكاد يبيد

---

(١) دار البطيخ : محل تباع فيه الخضر والفواكه ببغداد .

(٢) الغرير هنا : المخدوع .

فتراه يموت طوراً ويحيا مستلذاً بسيطه والنشيد(١)
فيه وشي وفيه حلي من النغـ ـم مصوغ يختال فيه القصيد
في هوى مثلها يخفّ حليم راجح حلمه ويغوى رشيد
ما تعاطى القلوب إلا أصابت بهواها منهنّ حيث تريد
عيبها أنها إذا غنّت الاحـ ـرار ظلوا وهم لديها عبيد

مديحه : ومديح ابن الرومي أكثر كذباً وأشد إيغالاً في التقليد من غزله فقد يقول عن ممدوحه إنه كريم مع أنه من أشد الناس بخلاً ، وشجاع مع أنه من أشد الناس جبناً ، وذكي متوقد الذهن مع أنه من أشد الناس بلاهةً وبلادةً ، وهو لا ينكر شيوع الكذب في مديحه وغلبة الاسراف عليه بل إنه يعترف به ويؤكده ويعقب على قول القرآن عن الشعراء (انهم يقولون ما لا يفعلون) بأنهم لا يقولون ما لا يفعلون فحسب ولكن ما لا يفعل الأمراء أيضاً :

يقولون مالا يفعلون مسبةٌ من الله مسبوب بها الشعراء
وما ذاك فيهم وحده بل زيادة يقولون مالا يفعل الامراء

وغني عن البيان أن ابن الرومي مضطر إلى مجاملة ممدوحيه وإطرائهم بما ليس فيهم من حميد الصفات وجميل الخلال طلباً لمعروفهم وعملاً على إحراز جوائزهم ، على أن هؤلاء لم يكونوا دائماً عند حسن ظنه بهم

---

(١) هكذا في المراجع الموجودة بين يدي وربما كان الصحيح المديد بدلا من النشيد .

فقد رفض إسماعيل بن بلبل وزير المعتضد أن يجيزه على نونيته الطنانة لقوله فيها :

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم
كلّا لعمري ولكن منه شيبان

وسبب امتعاضه من هذا البيت أن الناس كانوا يشكون في نسبته إلى شيبان فرأى أو أراد أن يرى فيه تعريضاً بهذه الشكوك مع أن الشاعر وضح غرضه بقوله بعده مباشرة :

وكم أبٍ قد علا بابن ذرى شرفٍ
كما علا برسول الله عدنان

ولكن ابن بلبل لم يشأ أن يلتفت الى هذا التوضيح وأصر على حرمان الشاعر وأحسب أنه كان يتلمس سبباً لحرمانه فوجد ضالته في البيت الآنف ذكره وقد انتقم ابن الرومي منه أسوأ انتقام

ومن غريب ما ابتلى به ابن الرومي في هذا الباب موقف محمد بن عبدالله ابن طاهر منه فقد كان أديباً عارفاً بالشعر ناقداً له وكان يحسد ابن الرومي اذا أجاد في مدحه ويعيبه اذ أسّف ، ومعنى هذا أنه يحرمه أو يقرب به من الحرمان في كلتا الحالتين . وقد وصف ابن الرومي هذا الموقف الغريب الشاذ بقوله :

قد بلينا في دهرنا بملوك أدباء علمتهم شعراء
ان أجدنا في مدحهم حسدونا فحرمنا منهم ثواب الثناء
أو أسأنا في مدحهم أنّبونا وهجوا شعرنا أشدّ هجاء

قد أقاموا نفوسهم لذوي المد ح مقام الأنداد والنظراء

ولكن مهما يكن من مخالفة مديح ابن الرومي للحقيقة وإمعانه في الكذب والمبالغة فانه من جيد الشعر ونفيسه لطافة معنى وطرافة مبنى وروعة خيال

أضف إلى ذلك أنه يعطينا فكرة واضحة كل الوضوح قوية كل القوة عن بعض شؤون معاصريه الاجتماعية وقد لا أغلو إذا قلت لك إنه خير من وصف المهرجان وما يسبغ عليه وزراء الدولة وأعيانها من أبهة وجلال وروعة وجمال في مآدب يقيمونها وحفلات طرب يحضرونها وزيارات يتبادلونها ونفائس يتهادونها ومدائح يستمعون اليها ويثيبون عليها ، إستمع إلى قوله من قصيدة طويلة يهنيء فيها أحد عظماء آل طاهر بالمهرجان :

زخرفت يوم نعمة حجرات جُدّ موطوءة من الضيفان
حجرات ميّممات بناها من فضول المعروف أكرم بان
ثم قام الكماة صفّين من كـ ـل عظيم في قومه مرزبان
كلهم مطرق الى الأرض مغض وعلى سيفه هنالك حان

* * *

وتجلى على السرير جبين ذو شعاع يحول دون العيان
يمكن العين لحظة ثم ينهى طرفها عن إدامة اللحظان
فله منه حاجب قد حماه كل عين ترومه بامتهان
فاستوى فوق عرشه بوقار وبحلم من الحلوم الرزان
ثم قام المجدّون مثولاً ضاربين الصدور بالأذقان

فشوا(١) سؤدد الأمير وعدوا فيه آلاءه بكل لسان
حين لم يجشموا التزيّد لا بل ما تعدوا ما حصّل الكاتبان
فقضوا من مقالهم ما قضوه ثم آبو بالرفد والحملان(٢)
بعدما أرتعوا الأنامل فيما لا تعداء شهوة الشهوان
من خوان كأنه قطع الروض وان كان في مثال خوان
فوقه الطير في الصحاف وحاشا ذلك الطير من جفاء الجفان
ثم سام الأمير سوم الملاهي وخلا بالمدام والندمان
وقيان كأنها أمهات عاطفات على بنيها حوان
مطفلات وما حملن جنيناً مرضعات ولسن ذات لبان
ملقمات أطفالهن ثدياً ناهدات كأحسن الرمّان
مفعمات كأنها حاملات وهي صفر من درة الألبان
كل طفل يدعى بأسماء شتى بين عود ومزهر وكران
أمه دهرها تترجم عنه وهو بادي الغنى عن الترجمان
غير أن ليس ينطق الدهر إلا بالتزام من أمّه واحتضان
أوتي الحكم والبيان صبياً مثل عيسى بن مريم ذي الحنان
لو تسلى به حديثة رزء لشفى داء صدرها الحرّان
وتغنته بالمدائح فيه كل غيداء غادة مفتان
ذات صوت تهزّه كيف شاءت مثل ما هزّت الصبا غصن بان

---

(١) نشوه تحدثوا عنه .
(٢) الحملان : ما يحمل عليه من الدواب في الهبة .

يثنى فينفض الطـلّ عنـه في تثنّيه مثل حب الجمان
جهوري - بلا جفـاء على السـمع - مشـوب بغنـة الغـزلان

هجاؤه : وما أريد أن أطيل الوقوف عند هجاء ابن الرومي لأنه يقطر سماً ويتطاير شرراً هـذا إلى بذاءة شـديدة فيه وميل واضـح الى الاعتـداء ٠

أفهم أن شـاعراً يهجو انساناً يعتدي عليه ، ويسيء اليـه بالتنقص من قدره او الغض من شعره ولكني لا افهم ان شـاعراً يهجو إنسـانا لم يسيء إليه قط ولم يجتمع به قط ومع ذلك فهذا ما حدث لابن الرومي مع البحتري فانه هجاه في قصيدة تقع في أكثر من مئة بيت وضفه فيهـا ببلادة الذهن وجمود القريحة والسطو على القدماء وإما إلى ذلك مع أنه لم ينافسه ولم يزاحمه في يوم من الأيام ٠ ماذا أقول ؟ بل لم يجتمع به مطلقاً قبل هجائه إياه بل لقد سبق له أن أشار باكرامه والانعـام عليه ٠ وإجمال الخبر أن أبا عيسى ابن ساعد أقرأ البحتري قصيدة لابن الرومي في مدح أبيه وسأله عما ينبغي أن يجيزه به فقال له : أعطـوه لكل بيت ديناراً

الواقع أن الذين وصفوا المترجم بسلاطة اللسان وبذاءة الهجاء كانوا على حق فيما ذهبوا اليـه ٠

عتابه : ومع أن ابن الرومي يرفق في عتابه بعض الرفق ويلين لاصدقائه الذين يعاتبهم بعض اللين فانه لا يلبث أن يقسـو عليهم قسـوة شـديدة ويحاسـبهم على هفواتهم وزلاتهم سـواء أكانت هذه حقيقية أم خياليـة محاسـبة عسيرة ٠ مثال ذلك أن القاسم بن عبيدالله بن وهب كل يستدنيه

ويستدعيه لزيارته ويحضره مجالس لهوه وطربه قبل أن يتقلد منصب الوزارة فلما تقلّد هذا المنصب شغل عنه أو نسيه بعض الشيء فكتب اليه يسأله أن يجري على مألوف عادته في تقريبه والتمكين له في مجلسه وإلا فانه يمزق عرضه تمزيقاً ويجعله أحدوثة الملأ بهجائه إياه :

أدن شخصي اذا شدت لك بستـ ـان وغنّت غناءها غنـاء
حسن علمي إذ ذاك بالحسن المو قع مما يروي القلوب الظماء
وارتفاعي عن الجفاة المسّوين بشدو المجيدة الضوضاء
موجب أن أكون أدنى جليس لك أعلو بحقي الجلساء

* * *

قد بغى قبلك الدعيّ فلم أحفل بأن كان باغياً بغّاء
فاعتبر بابن بلبل إن فيه عبرة لامرىء أعد وعاء(١)
والعلاء بن صاعد قبل هذا قد حمى دون رائدي الأحماء
فارم بالطرف شخصه هل تراه وادعه الدهر هل يجيب دعاء
أنا عبد الانصاف قرن التعدي فاسلك القصد بي وعدّ العداء

* * *

ومن هذا القبيل ما حدث للمترجم مع أبي القاسم التوزي الصطرنجي فانه سأله قضاء حاجة لم يقضها له وربما كان معذوراً في ذلك فما كان منه إلا أن عاتبه عتاباً مراً وصفه فيه بالرياء والتدليس وعدم الوفاء والمروءة . استمع إلى قوله في هذا العتاب :

---

(١) اعد وعاء : اي اعد قلباً يعتبر فيزدجر .

كشفت منك حاجتي هنوات غطّيت برهة بحسن اللقاء

تركتني ولم أكن سيء الظن أسيء الظنون بالأصدقاء

قلت : لما بدت لعيني شنعا ربّ شوهاء في حشا حسناء

ليتني ما هتكت عنكّن ستراً فثويتنّ تحت ذاك الغطاء

قلن : لولا انكشافنا ما تجلت عنك ظلماء شبهة قتماء

قلت : أعجب بكن من كاسفات كاشفات غواشي الظلماء

قد أفدتنّني مع الخبر بالصا حب أن ربّ كاسف مستضاء

قلن : أعجب بمهتد يتمنى أنه لم يزل على عمياء

كنت في شبهة فزالت بنا عنك فأوسعتنا من الازراء

قلت : تالله ليس مثلي من ودّ ضلالاً وحيرة باهتداء

وتمنيت أن تكون على الحيرة العمماية الطخياء

غير أني وددت ستر صديقي بدلاً باستفادة الانباء

قلن : هذا هويّ فعرّج على الحق وخّل الهوى لقلب هواء

ليس في الحق أن تودّ لخل أنه الدهر كامن الأدواء

بل من الحق أن تنّفر عنهن وإلا فأنت كالبعداء

إن بحث الطبيب عن داء ذي الداء لأس الشفاء قبل الشفاء

دونك الكشف والعتاب فقوّم بهما كل خلة عوجاء

وإذا ما بدا لك العرّ(١) يوماً فتتبع نقابه(٢) بالهناء(٣)

قلت : في ذاك موتكن وما الموت بمستعذب - لدى الاحياء

قلن : ما الموت بالكريه إذا كا ن بحق فلا تزد في المراء

أثبت هذا الحوار على طوله لأنه فريد في بابه ولكني مضطر مع ذلك إلى أن أشك في أن يكون ابن الرومي محقاً في توجيهه مثل هذا العتاب القارس إلى رجل يشهد هو فيما بقي من هذه القصيدة أنه من أفضل رجال عصره وأغزرهم علماً وأشرفهم خلقاً .

رثاؤه : ولكن إذا كان ابن الرومي مقلّداً في عامة غزله ، كاذباً متكلفاً في سائر مديحه ، مسرفاً شديد الأسراف في هجاءه وعتابه ، فانه مخلص كل الأخلاص في رثائه ذلك لأنه لا يرثي إلا من رسخ حبه في قلبه وعظم مكانه من نفسه ، وقد قلت لك عند الكلام على رثاء أبي تمام إن له رثاءً مطبوعاً وآخر مصنوعاً ولكني لا استطيع أن أقول لك مثل هذا بالنسبة الى رثاء ابن الرومي لأنه لا يتّجر برثائه كما يتجرّ بمديحه وانما يدّخره للاعراب عن عواطفه والافصاح عن مشاعره ولذلك كان مجموعة عواطف صادقة وأحاسيس كريمة ومشاعر نبيلة ، فقد تطوع مثلاً برثاء البصرة عندما سطا عليها الزنج فقتلوا أهلها وسلبوا أموالها وهدموا دورها واستحلوا منها كل ما حرم الله والضمير والقانون ، وتطوع كذلك برثاء يحيى بن عمرو العلوي المتقدم ذكره ، بل إنه أقدم على تهلكة في رثائه ذلك العلوي المسكين لأنه استطرد إلى التنديد بآل

---

(١) العر : الجرب .

(٢) النقاب : جمع نقب وهو القطع المتفرقة من الجرب .

(٣) الهناء ككتاب : القطران وهو ما يداوي به الجرب .

العباس تنديداً سبق أن رويته لك والى التنديد بآل طاهر الذين تولوا قتل يحيى المذكور والقضاء على قتلته والذين وصفهم الشاعر بأنهم أعداء للنبي وآله ، خصوم للاسلام ، يدينون به في الظاهر ، ويكيدون له في الباطن . وما دام الحديث قد انتهى بي إلى رثاء المترجم يحيى بن عمرو فلأروِ لك مثلاً من هذا الرثاء فانه من خير ما رثى به شاعر مخلص فقيداً عزّ عليه فقده وبرّح به مصابه . قال المترجم :

بني المصطفى كم يأكل الناس شلوكم
لبلواكم - عما قليل - مفرّج
أما فيهم راع لحق نبيه ولا خائف من ربه يتحرج

* * *

أبعد المكنى بالحسين شهيدكم تضيء مصابيح السماء فتسرج
لنا وعلينا لا عليه ولا له تسحسح أسراب الدموع وتنسج
وكنا نرجيه لكشف عماية بأمثاله أمثالها تتبلّج

* * *

أيحيى العلى لهفي لذكراك لهفة يباشر مكواها الفؤاد فينضج
لمن تستجد الأرض بعدك زينة فتصبح في أثوابها تتبرج
سلام وريحان وروح ورحمة عليك وممدود من الظل سجسج
ولا برح القاع الذي أنت جاره يرف عليه الأقحوان المفلّج
ويا أسفي ألا تردّ تحية سوي أرج من طيب رمسك يأرج
ألا إنما ناح الحمائم بعدما ثويّت وكانت قبل ذلك تهزج

عفاء على دار ظعنت لغيرها فليس بها للصالحين معرّج

وهي طويلة وكلها على هذا النحو من النفاسة والجودة .

وصفه : وماذا يقال عن وصف ابن الرومي ؟ .

الواقع أنه سجّل حافل بكل ما يمثل رقة شعوره ودقة إحساسه وحسن تقديره للغناء ، وكثرة اختلافه إلى مجالس اللهو والطرب وشدة تهمه وإيثاره الفقر مع الراحة على القيام بالاسفار وإن أدت هذه الى الغنى : فأنت تنتقل فيه من روضة غناء تترنح أشجارها وتترنم أطيارها وتتبسم أزهارها وتتدفق مياهها وتندى ظلالها ويهب عليها النسيم الطلق فيحمل أنفاسها العطرة ذات اليمين وذات الشمال الى مجلس طرب تصُل أقداحه وتعربد أباريقه وتتناجى قياثيره وتتناغى مزامره الى مائدة قد صّفت جفانها ونظُّمت صحافها واختلفت طعومها وانسجمت الوانها فجاءت مثلاً حياً في سعة البذل وسلامة الذوق ، إلى مخبز تصنع فيه الرقاق بما لا مزيد عليه من اللباقة والسرعة ، الى معمل حلوى يشتغل فيه صانع الزلابية منذ السحر أو حتى السحر إلى خان موحش تداعت أركانه وتزعزع بنيانه وأوشكت أن تنقّض سقوفه ، يأوي اليه المسافرون التعساء في الليالي السود ، الى نهر هائج مائج تعبث به زوبعة هوجاء تقذف الرعب في قلوب ركابه وتهددهم بأن تصنع منهم وليمة لاسماكه وهكذا . وما أعدك أن أروي لك مثلاً لكل ما تقدمت له الاشارة من وصف ابن الرومي فذلك مما يطول ويطول الى درجة الاملال ولكني أروي لك علاوة على ما سبق ذكره من وصف المترجم عند الكلام على غزله وعند

الكلام على مديحه مثالاً واحداً يخيّل إليّ أنه من رائع وصفه وهو قوله في العنب الرازقي(١) ٠

ورازقي مخطف الخصور
كأنه مخازن البلّور
لم يبق منه وهج الحرور
إلا ضياءاً في ظروف نور
لو أنه يبقى على الدهور
قرط آذان الحسان الحور
له مذاق العسل المشور(٢)
ونكهة المسك مع الكافور
وبرد مسن الخصر المقرور(٣)

* * *

باكرته والطير في الوكور
وعذر اللذات في البكور(٤)
بفتية من ولد المنصور
أملاء للعين من البدور
حتى أتينا خيمة الناطور

---

(١) لا وجود لهذا النوع من العنب الآن في العراق ٠
(٢) المشور : المجني ٠
(٣) الخصر : الشديد البرودة ٠
(٤) العذر هنا النجاح ولكنه بتسكين الذال وقد حركت للضرورة ٠

قبل ارتفاع الشمس للذرور
فانقض كالطاوي من الصقور
بطاعة الراغب لا المجبور
ثم جلسنا مجلس المحبور
على حفافي جدول مسجور(١)
أبيض مثل المهرق المنشور(٢)
أو مثل متن المنصل المشهور
ينساب مثل الحية المذعور
بين سماطي شجر مسطور
فتيليت الأوطار في سرور

* * *

وكل ما نقضي من الأموري
تعلّة عن يومنا المنظور
ومتعة من متع الغرور

لغته واسلوبه : وتسألني عن الطابع الذي يمتاز به ابن الرومي من

حيث لغته وأسلوبه فأقول لك إنه يتألف من ثلاثة أشياء مختلفة هي الاطالة ، والاستهانة بسلامة الاداء ، والاستقصاء الدقيق الشامل للمعاني

---

(١) مسجور : مملوء .
(٢) المهرق : ما يكتب فيه .

والأغراض : فقد أطال ابن الرومي إطالة لا عهد لنا بها من قبل فبلغ عدد أبيات همزيته التي يعاتب بها القاسم بن عبيدالله بن وهب والتي مطلعها :

أيها القاسم القسيم رواءا والذي ضمّ وده الاهواءا

ستة عشر ومئتي بيت (٢١٦) ، وبائيته التي يمدح بها أحمد بن ثوابة والتي مطلعها :

دع اللوم إن اللوم عون النوائب ولا تتجاوز فيه حد المعاتب

ثلاثة وثمانين ومئة بيت (١٨٣ . وبائيته التي يمدح بها أبا العباس بن ثوابة ويهجو الكوكبي والتي مطلعها :

أنى هجوت بني ثوابه ؟ ياصاحب العين المصابة

خمسة وسبعين ومئة بيت (١٧٥) . وقل مثل ذلك عن كثير من قصائده . وفي هذا إسراف غير قليل فان شاعراً متكسباً كابن الرومي يستطيع أن يلفق ما شاء من أكاذيب وأباطيل يرضي بها ممدوحه ويحصل على جائزته في خمسين أو أربعين بيتاً أو أقل من هذا المقدار فقد عرف أبو عبادة البحتري وهو معاصر لابن الرومي هذه الحقيقة وعمل بها فخف ظله على معاصريه ولطف موقعه من نفوسهم فقرأواه وأحبوه وأعجبوا به وسموا قصاره (سلاسل الذهب) .

والغريب في أمر ابن الرومي أنه يطيل هذه الاطالة المملة مع أنه يوصي بالاختصار فهو يقول :

كل امريء مدح امرأ لنواله فأطال فيه فقد أراد هجاءه

لو لم يقدّر فيه بعد المستقى عند الورود لما أطال رشاءه

ولكنه يستثني نفسه من هذه الملاحظة المعقولة فيقول :

غيري فأني لا أطيل مدائحي إلا لأوفي من مدحت ثناءه
وأعد ظلماً أن أقل مديحه عمداً وأسخط إن أقل عطاءه

وأحسب أن ما يدعيه المترجم في البيتين الأخيرين غير صحيح فانه يدعي أنه يطيل مدائحه ليوفي ممدوحيه حقوقهم ولكنه ينسى أنه القائل :

يقولون ما لا يفعلون مسبة من الله مسبوب بها الشعراء
وما ذاك فيهم وحده بل زيادة يقولون ما لا يفعل الأمراء

وينسى كذلك أنه هجا أبا الصقر اسماعيل بن بلبل وغيره من ممدوحيه لأنهم لم يثيبوه على مديحه أشنع هجاء . والواقع أنه مجبول على الاطالة ، وما أريد أن أقول إنه ورثها عن أخواله الفرس الذين يذهب البعض إلى أنهم ميالون بفطرتهم إلى الافاضة المفرطة في الكلام ويضرب لهذا مثلاً عبدالحميد بن يحيى الكاتب وعبدالله ابن المقفع ، الذين هما من أشد الكتّاب ميلاً إلى الاطالة . أقول إني لا أرى هذا الرأي لأني لا أملك البرهان القاطع على صحته ، ولكني أزعم أن ابن الرومي مجبول على الاطالة غير قادر على التملص منها . وقد كلفته هذه غالياً إذ كانت إحدى العوامل التي أبعدته عن قلوب ممدوحيه وقد اعتذر مراراً عديدة فمن ذلك قوله معتذراً الى صاعد عن طول قصيدة :

لم أطلها كما أطال رشاءً ماتح ساء ظنه بقليب
حاش لله ليس مثلي تظنّى ظن سوء بمستقاك القريب

غير أني امرؤ وجدت مقالاً مستتباً في كل قرم نجيب
فأطلت المديح ما طال فيهم مع أني قصرت غير مصيب

وليس هذا كل ما جنت الاطالة على ابن الرومي بل إنها أدت الى استهانته بسلامة الاداء فضعف أسلوبه وتطرق الفساد الى لغته فجمع الألفاظ المتنافرة وصرّف الكلمات على وجه غير صحيح ، وعدّى الافعال بغير الطرق التي تعدى بها ، وخاطب الجمع مخاطبة المفرد .

فمن أمثلة كلامه الضعيف التأليف المتنافر الألفاظ قوله :
« لهف » نفسي عليك أيتها البصرة « لهفاً » كمثل «لهب» الضرام

وقوله :

« صبا » من شاب مفرقة « تصاب »
وإن طلب « الصبا » والقلب « صاب »

وقوله :

لم يقاسوا ولم يواسوا خليلا « سوءة سوءة لهم سوءاءا »

وقوله في نفس القصيدة :
وانتفع بالعلا (بذهنك) (واذمم)
كل (ذهن) لا ينفع (الذهناءا)

فأنت ترى أن لامات البيت الاول وهائاته وصادات البيت الثاني

وبائاته وسينات البيت الثالث وواواته وهمزاته وذالات البيت الرابع وهائاته مما لا يستسيغه إنسان يمكن الاعتماد على ذوقه . هذا مع العلم بأن ذهناء أي صاحب ذهن جمع لا وجود له في اللغة العربية . ومن أمثلة تصريفه الكلمات على وجه غير صحيح قوله :

يسمو به جده فيحظى وتارة مجده « فيعلى »

فقوله يعلى خطأ والصواب يعلو .

ومن الأمثلة على تعديته الأفعال بصورة غير صحيحة قوله :

عجباً منه كيف يُسلي ويلهي مع تهييجه على الأشجان

إذ الصواب مع تهييجه الأشجان لأن فعل هيّج من الأفعال التي تتعدى مباشرة .

ومن أمثلة مخاطبة الجمع مخاطبة المفرد قوله :

يابني طاهر طهرتم وطبتم وذكوتم في السر والاعلان
هاكها لا أقول ذاك مدلاً قول ذي نخوة بها وامتناني

فقد كان عليه أن يقول هاكموها . وفي الامكان إعطاء أمثلة أخرى كثيرة لكل ما سبق ذكره من هنات الشاعر وهفواته كما أن له هنات وهفوات عديدة من أنواع أخرى مختلفة رأيت أن أضرب عنها صفحاً رغبة في الايجاز .

ولكن أليس لابن الرومي ما يكفّر عن إطالته واستهانته بسلامة الاداء أو يخفف من وطأتها على الأقل ؟

بلى إن لديه ما يخفف من وطأتها إلى حدٍ بعيد وهو استقصاؤه

الموضوعات التي يعالجها استقصاءً دقيقاً يأتي معه على كل كبيرة وصغيرة ويتغلغل إلى كل جزءٍ من أجزاء الموضوع حتى يستوفيه ويستوعبه ويخرجه تام الهيئة كامل التركيب . وفيما تقدم من غزله ومديحه ووصفه ما يؤيد هذا تأييداً كافياً فانه لم يبق في موضوع كل من الأمثلة المتقدم ذكرها بقية يمكن أن يطمع بها طامع وقد عرف له القدماء هذا فقال عنه ابن خلكان انه « صاحب النظم العجيب ، والتوليد الغريب ، يغوص على المعاني النادرة ، فيخرجها من مكامنها ، ويبرزها في أحسن صورة ، ولا يترك المعنى حتى يستوفيه إلى آخره ولا يبقى فيه بقية »(١) وقال ابن رشيق « وكان ابن الرومي ضنيناً بالمعاني ، حريصاً عليها ، يأخذ المعنى الواحد ويولده ، فلا يزال يقلبه ظهراً لبطن ، ويصرفه في كل وجه ، وإلى كل ناحية حتى يميته ويعلم أنه لا مطمع فيه لأحد »(٢) .

هذه هي حسنة ابن الرومي الكبرى من حيث اللغة والأسلوب وتلك مساوؤه ، ولو أنه أعاد النظر في شعره فهذّبه ونقحه لاجتمع له من نفاسة المعنى وطرافته وسلامة الأداء ولطافته ما يجعله فذاً بين الشعراء .

د - خاتمة :

ابن الرومي نسيج وحده من حيث هو رجل ، ومن حيث هو شاعر . فأما من حيث هو رجل فقد اضطربت أعصابه ، واختلط عقله ، وتناقضت أقواله وأعماله ، وتملكته الشهوة ، واستولت عليه اللذة ، فذهبت

(١) وفيات الأعيان الجزء الأول ص٣٥١ طبعة المطبعة الميمنية بمصر .

(٢) العمدة الجزء الثاني ص١٨٥ طبعة مطبعة السعادة بمصر .

رجوليته ، وماتت إرادته ، وهانت عليه نفسه ، فاستخف به معاصروه ، وسخروا منه ، وتنادروا عليه . وأما من حيث هو شاعر فقد طال نفسه، ورق إحساسه ، واتسع خياله فشمل وصفه كل ما وقع تحت سمعه وبصره أو كاد . وكان من نتائج طول نفسه إلى درجة الافراط أن ركت لغته، ووهن أسلوبه في كثير من الأحيان ، وكثرت أخطاؤه ، ولكن مهما يكن من شيء فانه من فحول شعراء اللغة العربية وما أظن أنه من الصواب في شيء أن نفضله عليهم قاطبة كما يرى فريق من النقاد .

نعم انه ربما كان أكثر شعراء اللغة العربية انتاجاً ولكنه لم يكن أكثرهم غرراً ومحاسن ، وقد لا أكون ممعناً في الخطأ إذا زعمت أن أكثر شعراء اللغة العربية غرراً ومحاسن إنما هو « أبو الطيب المتنبي» لا سلفه ابن الرومي ولا غيره .

الفصل الرابع

ابن المعتز

أ ـ حياته : اسمه وكنيته ونسبه • مولده • نشأته وتعليمه • ابتعاده عن السياسة • سببه • انصرافه الى البحث والدرس من جهة والى النديم والكأس من جهة أخرى • ما يدل على هذا من شعره • معاتبته في أمر عبثه ومجونه • توبته • تحلله منها • تذبذبه بين الغواية والتوبة ، عذره عن ذلك • امتناعه عن اللهو في شهر رمضان • صلاته الغرامية والفنية • ما لحق به من شر السياسة رغم ابتعاده عنها • حبه إثر وفاة المعتضد • إطلاقه • عودته الى لهوه ومرحه • مبايعته بالخلافة وإقصاء المقتدر عنها • فشله في السيطرة على الموقف • غلبة رجال المقتدر على أنصاره • اختفائه • قتله •

ب ـ صفاته : جماله • ظرفه • رغبته في المسالمة • حبه الشديد للعلم • سرعة خاطره •

ج ـ آثاره عامة : ثبت كتبه في فهرس ابن النديم • ما يضاف الى هذا الثبت • كتاب (البديع وطبقات الشعراء في مدح الخلفاء والوزراء) • شعره • أبوابه • ماذا ندرس منه • غزله • مكان ملهمته شرة منه • مثل من غزله فيها • وصفه • ما له من القيمة الاجتماعية • ماله من القيمة التاريخية • مدى تصويره الطبيعة • مثل منوعة منه • شعره السياسي موقفه من أبناء عمه العلويين • مساجلته لهم • تقربه منهم • تنصله مما يرمى به من بغض الامام علي (ع س) • مثل من شعره في هذا الباب • موقفه من المتغلين على السلطان في بغداد والأقاليم • أرجوزته في في المعتضد • كلمة فيها • مثل منها • قهر الرباب وعجائبه • غفلة كتب التاريخ والجغرافيا عنه • مقارنة بين أرجوزة المترجم وأرجوزة ابن عبد ربه في الناصر • مطلع هذه الارجوزة • حكمه وخواطره (في الزهد والآداب والشيب) • أهميتها • مثل منها • لغته وأسلوبه • مكان الزخرفة والبساطة من فنه • متى يؤثر الاولى ومتى يجنح الى الثانية • خصائص لغته •

د ـ خاتمة : منزلته بين الشعراء •

أ - مباهاة :

حدثتك فيما سبق عن مولى من موالي بني العباس رفعه الشعر الى منزلة أمير كبير من أمراء الكلام . وأحدثك الآن عن أمير عباسي لم يتهيأ له الظفر بتاج الملك وصولجان الخلافة فاعتاض عنهما بتاج العلم وصولجان الأدب . هذا الأمير هو أبو العباس عبدالله بن المعتز بالله بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد وقد ولد ببغداد لسبع بقين من شعبان سنة ٢٤٧ للهجرة على رواية الخطيب البغدادي(١) وقيل سنة ٤٦ وقيل ٤٩ ولكن ربما كانت رواية الخطيب البغدادي أقرب من غيرها الى الصواب لقرب ما بين الرجلين . ونشأ في دار الخلافة ودرس علوم اللغة والدين على مؤدبه الخاص أحمد بن سعيد الدمشقي الذي صار فيما بعد أحد رواة شعره . واتصل بأبي العباس المبرّد وثعلب وأبي علي العنزي والبلاذري المؤرخ وأخذ عنهم جميعاً ، وشافه فصحاء الأعراب الذين كانوا يترددون إلى سرّ من رأى في أيامه وروى عنهم . وكان مجلسه ملتقى العلماء والشعراء والكتّاب ، تكثر فيه الرواية وتدور المناقشات العلمية والأدبية المفيدة .

وما كان أدب عبدالله ليتناقض واشتغاله بالسياسة لولا أن الحوادث المؤلمة التي تتابعت على بيته بعد قتل جده المتوكل على الله فسلبته قوته وأفقدته سلطانه الفعلي والتي طالما تحدّث عنها في شعره ، حملته على

---

(١) تاريخ بغداد ج١٠ ص٩٥ الطبعة الاولى .

أن ينبذ السياسة نبذاً تاماً فزهد بالملك ونفض يديه من الخلافة « نفض الأنامل من تراب الميت » وقصر جهوده على أرضاء عقله وجسمه فأدرك من لذة العقل ولذة الجسم ما أراد . ومن يمعن النظر في أخباره وشعره يستخلص منهما أنه رجل بحث ودرس ورجل نديم وكأس يقضي جزءاً غير يسير من وقته في الدرس والتفكير والتأليف وقرض الشعر ، ويقضي جزءاً غير يسير منه كذلك في مغازلة الحسان ومعاقرة الندمان والخلو الى الطبيعة والاستمتاع بجمالها الساحر وبسماع الموسيقى والخروج إلى الصيد وغير ذلك من ضروب اللهو والتسلية . وقد وصف جهده وإقباله على البحث والدرس بقوله :

شغلي إذا ما كان للناس شغل دفتر فقه أو حديث أو غزل

وعبر عن رغبته الصادقة في الاستمتاع بمباهج العيش ولذات الحياة بقوله :

قم نصطبح فليألي الوصل مقمرة كأنها باجتماع الشمل أسحار
والدهر في غفلة نامت حوادثه ونبهتنا إلى اللذات أوتار
أما ترى أربعاً للهو قد جمعت جنك وعود وقانون ومزمار
فخذ بحظ من الدنيا فلذتها تفنى وتبقى روايات وأخبار

ولم يكن ابن المعتز على جلالة قدره وعظم منزلته بنجوة من التأنيب والتقريع في أمر خلاعته واستهتاره فقد حدث أن بعض الخلفاء أنفسهم لامه على ذلك ورغب إليه أن يكبح من جماح شهوانه ، وقد عمل بهذه الرغبة فهجر ندمانه واطرح كأسه :

ونهاني الأمام عن سفه الكأ س فردت على السقاة المدام

إلا أنه لم يلبث أن تحلل من هذه التوبة وعاد سيرته الأولى غير حافل بما يوجه اليه من تقريع وتأنيب :

خليلَيَّ قد طاب الشراب المبرّد وقد عدت بعد النسك والعود أحمد

وإذا صدّقناه ، ولا مانع لدينا من تصديقه في هذا على الأقل ، فانه يؤكد لنا أنه تاب ثم ترامى في أحضان غوايته مراراً عديدة :

كم توبة قد فضضت خاتمها عني وللتائبين رجعات

وهو يلقي التبعة في ذلك على قلبه الذي يقول عنه « إنه مطواع في الغي مكره في الرشد » (إذا شاوره في توبة - قال : لا - واذا قال هذه فتنة قال : أين هي ؟) وقد اعتذر عن ذلك بصراحة بل بسذاجة تامة فقال :

سحرتني الدنيا وعادات لذا تي فجسمي كهل وقلبي صبي

على أنه مما لا شك فيه أن ابن المعتز كان ينقطع عن لذاته ويهجر مجالس لهوه وطربه في أيام شهر رمضان . إلا أنه لا يكاد يلمح هلال العيد حتى يستأنف حياته المرحة الماجنة :

أهلاً وسهلاً بالناي والعودي وكأس ساق كالغصن مقدود
قد انقضت دولة الصيام وقد بشّر سقم الهلال بالعيد
يتلو الثريا كفاغر شره يفتح فاه لأكل عنقود

وقد أحب المترجم جارية اسمها (شرة)(١) سأعرض لمكانها من

---

(١) هكذا يسميها هو في شعره المروي في ديوانه وفي غيره أما صاحب الأغاني فيسميها نشر .

نفسه وشعره عند الكلام على غزله وكان له غلام اسمه « نشوان » ومغنية اسمها « زرياب » وكان يحبهما حباً جماً وله معهما قصص ونوادر عديدة .

ومع ابتعاد عبدالله الشديد عن السياسة فقد نزل به أذاها مرة بعد أخرى حتى كان فيها حتفه . فمن ذلك أنه لما توفى المعتضد سنة ٢٨٩ للهجرة وكان ابنه وخليفته المكتفي غائباً بالرقة ، اعتقل ثلاثة أمراء عباسيين خيف تطلعهم إلى العرش بينهم صاحب الترجمة . وقلق هذا في الليلة التي دخل المكتفي في صبيحتها بغداد قلقاً شديداً وخاف أن تضرب عنقه . وسمع في آخر هذه الليلة حمامة تغني بالقرب منه فقال :

يا نفس صبراً لعل الخير عقباك ... خانتك من بعد طول الأمن دنياك

مرت بنا سحراً طير فقلت لها ... طوباك يا ليتني إياك طوباك

لكن هو الدهر فالقيه على حذر ... فرب مثلك تنزو بين أشراك(١)

ولكن الحادث انتهى بسلام ، فان الخليفة الجديد أمر بالأفراج عن الأمراء المعتقلين واعطاء كل واحد منهم ألف دينار إثر استتباب الأمر له ببغداد ، وعاد عبدالله إلى مرحه ومجونه . ودار الزمان دورته فأجمع رجال الحل والعقد ببغداد عام « ٢٩٦ » للهجرة على خلع المقتدر لحداثة سنه ونقص كفايته وقلبوا نظرهم في آل العباس فلم يجدوا فيهم أكفأ للخلافة من عبدالله . فعرضوها عليه ، فقبلها ولكن على ألا يراق

---

(١) يقال ان ابن المعتز ذكر هذه الأبيات في الليلة التي قتل في صبيحتها فأضاف اليها ابياتاً أشك في نسبتها اليه لركاكتها .

في سبيله دم فأجابوه الى ذلك وعقدوا له البيعة ولقبوه (المرتضى) أو (الراضي) أو (المنصف) أو (الغالب) بالله ولم يخالف عليه سوى غلمان المقتدر الذين عزّ عليهم خروج الأمر من أيديهم ، فأجمعوا على المقاومة . ومع أن الوزراء والقادة والقضاة كانوا جميعاً في جانب عبدالله فقد خسر الموقف وغلب أشياع المقتدر على أعوانه فشتتوهم ومزّقوهم كل ممزّق . وعندما رأى انفضاض الناس من حوله لجأ الى دار أبي عبدالله الحسين بن عبدالله التاجر الجوهري الكبير المعروف « بابن الجصاص » فاختبأ فيها ولكن خادماً لابن الجصاص وشى به إلى المقتدر فأمر باخراجه وتسليمه لمؤنس الخادم فخنقه هذا وسلمه إلى أهله فدفن في خربة بجوار داره في اليوم الثاني من ربيع الآخر عام (٢٩٦)للهجرة وبهذه الطريقة المحزنة انتهت حياة عبدالله التي طالما كانت حياة لهو ومرح وسرور .

ب - صفاته :

وإذا تركنا مجون عبدالله وبحثنا عن صفاته الاخرى فان أهم ما يتكشف عنه البحث هو جمال الصورة وخفة الروح وحب العلم والرغبة في المسالمة وسرعة الخاطر .

وقد غفل مؤرخو عبدالله عن أن يقولوا لنا إنه كان وسيم الطلعة صبيح الوجه بديع القسمات فتدارك هو هذا النقص بقوله في معرض الكلام على شيخوخته :

من بعد ما قد كنت آي فتى كقضيب بان ناعم رطب

فاذا رأتني عين غانيـــة قالت لرائد لحظهـا حسبي

وقـوله :

إذا ما تمشت فيّ عين خريدة فليست تخطاني الى من وراءيا

وقـوله :

أغـدو وجنّني الصبا أميري ملء عيون الغانيات الحور

وغفل مؤرخوه كذلك عن أن يقولوا لنا أنه كان على جانب كبير من رقة الطبع ولطف الشمائل وخفة الروح فتبينا ذلك في شعره واخباره .

روى جعفر بن قدامة أنه كان ذات يوم عند ابن المعتز وبين يديه جارية محسنة تغنيه ولكنها قبيحة الوجه فكان يتعاشق ويتظاهر بالهيام بها فلما قامت قال له أحد جلاسه « أيها الأمير سألتك بالله أتعشق هذه التي ما رأيت قط أقبح منها » فقال وهو يضحك :

قلبي وثّاب إلى ذا وذا ليس يرى شيئاً فيأباه

يهيم بالحسن كما ينبغي ويرحم القبح فيهواه(١)

وحدث عبدالله بن موسى الكاتب أنه دخل على ابن المعتز وهو يشرف على جماعة من البنائين يعملون في داره فانشده :

ألا من لنفس وأحزانها ودار تداعى بحيطانها

أظل نهاري في شمسها شقياً معنّىً ببنيانها

---

(١) الاغاني ج٩ ص ١٣٧ طبع مطبعة التقدم بمصر .

أسوّد وجهي بتبييضها وأهدم كيسي بعمرانها(١)

ومن شعره الدال على فكاهته وخفة روحه هذان البيتان :

طوّل في أيلول شهر الصيام وما قضينا فيه حق المدام
والله لا أرض على الدهر أو يسرق شهر الصوم من كل عام

وهناك مُثل أخرى كثيرة من هذا القبيل مر بك بعضها في أثناء الكلام على حياته وسيمر بك جانب منها في مراحل مختلفة من هذا الحديث .

أما حبه الشديد للعلم فتدلنا عليه آثاره الكثيرة التي سأذكر بعضها لك عما قريب ، وقد وصفه لنا هو بقوله :

شغلي إذا ما كان للناس شغل دفتر فقه أو حديث أو غزل

ومما يجري هذا المجري في الدلالة على حبه الشديد للعلم وأهله هذه الأبيات التي كتب بها إلى أبي العباس أحمد بن يحيى أحد علماء بغداد يستزيره ويتشوق إليه :

ما وجد صاد في الحبال موثق بماء مزن بارد مصفّق
بالريح لم يطرق ولم يرنّق جادت به أخلاف دجن مطبق(٢)
بصخرة إن تر شمساً تبرق فهو عليها كالزجاج الأزرق
صريح غيث خالص لم يمذق إلا كوجدي بك لكن أتقي
يا فاتحاً لكل علم مغلق وصيرفياً ناقداً للمنطق
إن قال هذا بهرج لم ينفق إنا على البعاد والتفرق

---

(١) المصدر نفسه ص١٣٧ .

(٢) الاخلاف : الضروع ، والدجن : السحاب .

لنلتقي بالذكر إن لم نلتقي(١)

وتسألني البرهان على حب صاحبنا للخير ورغبته الصادقة في المسالمة فاكتفي بأن اذكّر ما اشترط على قادة الرأي ببغداد من تحاشي إراقة الدماء في سبيل بيعته وأن أسترعي انتباهك إلى خبر سأذكره في أثناء الكلام على شعره السياسي ينبؤنا أنه عدل عن مساجلة أبناء عمه الطالبين وأخذ يتودد اليهم على أثر اعتذار جماعة منهم إليه وتنصلهم مما نسب الى بعض شعرائهم من ملاحاة بني العباس والطعن على خلافتهم .

وقد مر بك في حديث الجارية الحسنة الغناء القبيحة الوجه ما يدل على سرعة خاطر عبدالله فأضف الآن الى هذا ما رواه جعفر بن قدامة من أنه كان عند المترجم في يوم من أيام الربيع فخرجت عليهم جارية له كان يحبها ويهيم بها وعليها غلالة معصفرة وبيدها جنابى من باكورة باقلاء (والجنابى لعبة للصبيان) فقالت له يا سيدي تلعب معي جنابى فالتفت إليهم وقال على بديهته :

فديت من مر يمشي في معصفرة عشية فسقاني ثم حياني

وقال : تلعب جنابى فقلت له من جدّ بالوصل لم يلعب بهجراني(١)

ومن هذا القبيل ما رواه جعفر بن قدامة أيضاً من أنه كان « عند عبدالله ابن المعتز ومعهم النميري فحضرت الصلاة فقام النميري فصلى صلاة

---

(١) في رواية هذه الأبيات شيء من الخلاف بين الديوان وكتابي الأوراق وتاريخ بغداد . ولكني آثرت رواية أبي بكر الصولي لأنه من رواة ابن المعتز الذين عرفوه معرفة كافية واتصلو به اتصالا مباشرا .

(٢) الاغاني ج٩ ص١٣٦ .

خفيفة جداً ثم دعا بعد انقضاء صلاته وسجد سجدة طويلة حتى استثقله جميع من حضر بسببها وعبدالله ينظر متعجباً ثم قال :

صلاتك بين الملا نقرة كما اختلس الجرعة الوالغ

وتسجد من بعدها سجدة كما ختم المزود الفارغ(١)

حـ آثاره :

أسلفت أن عبدالله رجل بحث ودرس (يقضي جزءاً غير يسير من وقته في الدرس والتفكير والتأليف وقرض الشعر) وأضيف الآن الى هذا أن ابن النديم ذكر له في فهرسه أحد عشر كتاباً وهي الزهر والرياض ، البديع، مكاتبات الاخوان بالشعر ، الجوارح والصيد ، السرقات ، أشعار الملوك ، الآداب ، حلي الأخبار ، طبقات الشعراء ، الجامع في الغناء ، ارجوزته في ذم الصبوح ، وأنا أضيف الى هذا الثبت · فصال التماثيل في تباشير السرور) المنشور بمصر سنة ١٣٤٤ هـ ١٩٢٥ م وديوانه القادم ذكره والذي يحتوي على أرجوزته في ذم الصبوح وعلى أرجوزة له أخرى أهم منها بكثير في المعتضد أسماها كتاباً وأهم كتبه التي نشرت الى الآن البديع)(٢) (وطبقات الشعراء في مدح الخلفاء والوزراء)(٣) فأما الأول فهو رسالة تحتوي على ثمانية عشر نوعاً من أنواع البديع منها الاستعارة والتجنيس والمطابقة · اخترع ابن المعتز أسماها وأورد لها شواهد

---

(١) الاغاني ج٩ ص١٣٧ ·

(٢) نشر المستشرق الروسي (اغناطيوس كرانشقوفسكي) هذا الكتاب سنة ١٩٣٥ مصدراً اياه بدراسة مفيدة لابن المعتز في الانجليزية ونشره محمد عبدالمنعم خفاجي بمصر عام ١٣٦٤ـ١٩٤٥ مصدراً اياه بدراسة حسنة كذلك لنشأة البديع وتطوره ·

(٣) طبع هذا الكتاب في مطبعة جامعة كامبرج سنة ١٩٣٩ م ·

كثيرة من القرآن والحديث وكلام العرب المنظوم والمنثور في الجاهلية والاسلام . ومما يجب التنويه به أن ابن المعتز أول من ألف في البديع ثم حذا حذوه العلماء والأدباء والنقاد فكتبوا فيه كتباً كثيرة . وأما الثاني فهو كتاب تراجم تختلف إيجازاً وإطناباً باختلاف الأحوال التي تحيط بالمؤلف على أني لا أضمن حياده حيال الشعراء المشكوك في ولائهم لآل العباس .

شعره :

بيد أن الذي يعنيني من ابن المعتز قبل كل شيء شعره الذي يعتبر بحق صفوة انتاجه . وهو كثير الأبواب مختلف الانواع قيل بعضه رغبة في محاكاة القدماء وعملاً على إظهار المقدرة البيانية ، فغلب عليه التقليد وشاع فيه التكرار(١) وفقد منه الترتيب . وهذا النوع من شعره يكثر في بابي (المديح والفخر) . وقيل بعضه الآخر إرضاءاً لحاجات العقل والنفس وعملاً على خدمة الأدب والفن فغلب عليه الصدق وشاع فيه الابتكار وعدم التكلف وهذا النوع من شعره يؤلف على وجه التقريب

---

(١) يكرر ابن المعتز اكثر ما يكرر وصف حياته فيحدثنا أنه شرب الخمر وسمع الغناء وظفر بوصل الغيد الحسان وخاض الحروب وقرى الضيفان وقطع البيد القفار تحت دياجير الليل ، مرة على متن ناقة كوماء وتارة على صهوة فرس نجيب. مضيفاً الى ذلك أحياناً وصف البروق والرعود والأمطار والرياض وهو يتشبه في هذا بامريء القيس وطرفه والأعشى وغيرهم من فحول الجاهلية ويقلد مطولاتهم . وليس من شك في أنه شرب ولعب وسمع الغناء ونعم بوصل الغيد الحسان ، كما أنه بغير شك أهل لقرى الضيفان وايواء العفاة الضاربين في البيداء وغيرهم ولكن من المشكوك فيه جداً ان يكون رجل حرب وضرب ورحلة دائمة في الصحراء. وترى قصائده التي يشيع فيها هذا التكرار العجيب في باب الفخر من ديوانه .

بابي (الملح والأوصاف) و (الزهد والآداب والشيب) . على أن الأبواب الأخرى من ديوانه تحتوي على شيء منه غير قليل . ولم يجمع شعر عبدالله حتى الآن جمعاً كاملاً . ففي الجزء الثالث من كتاب « الاوراق » « للصولي » قصائد ومقطوعات كثيرة غير موجودة في ديوانه المطبوع بمصر عام (١٨٩١) م وبيروت عام ١٩١٣ م (وفي ديوان المعاني) (ومعاهد التنصيص) قطع عديدة غفل عنها ناشر الديوان(١) . وقد عالج صاحبنا كل نوع من أنواع القريض فقال المديح والهجاء والرثاء والفخر ووصف الطبيعة والسياسة والاجتماع وأجاد في كثير من هذه الأبواب إجادة تستحق التقدير وتبعث على الأعجاب .

وسأقتصر فيما يلي على دراسة غزله ووصفه وشعره السياسي ، المفرّق في بابي المديح والفخر ، وحكمه وخواطره التي اطلق عليها جامع الديوان « باب الزهد والآداب والشيب » لأن هذه الأبواب من شعره تحتوي على خير ما قال وأحقه بالتمحيص والدرس .

غزله : لعبدالله غزل كثير . نظم بعضه للغزل ذاته وللتعبير عن مقاصد الشاعر وأغراضه الغرامية . ونظم البعض الآخر منه تمهيداً للمديح أو الفخر ، على أن هذا الغزل التمهيدي - إن صحت هذه التسمية - لم يخل في كثير من الأحيان من الاشارة إلى غرام حقيقي . فكل غزل ورد فيه ذكر (شرّة » التي تقدمت لها الاشارة في ترجمته غزل معبر عن صبابة حقيقية وحب صادق وتتخلل غزل عبدالله اسماء كثيرة أكثرها

---

(١) في طبعتي مصر وبيروت لديوان ابن المعتز من النقص والزيادة والمسخ والتشويه لهذا الديوان ما يجعل فائدته محدودة الى الغاية .

دوراناً بالطبع وأدلها على حبه اسم شرة التي يظهر أنها شغلت مكاناً سامياً في قلبه واستأثرت بنصيب كبير من حبه ، ومن الغريب أن كتب التراجم التي عنيت بعبدالله وذكرت أخباره ومثلاً من أشعاره لم تشر إلى حبيبته هذه سوى إشارة غامضة مقتضبة . لكننا إذا درسنا علاقته بها في غزله تبين لنا أنه ظفر بعطفها في فجر غرامه بها ونعم بوصلها مدة من الزمن بعيداً عن أعين الوشاة والرقباء :

ألا أيها القلب الذي هام هيمة بشره حتى الآن هل أنت راجع

إذ الناس عن أخبارنا تحت غفلة

وفي الحب إسعاف وللشمل جامع

وإذ هي مثل البدر يفضح ليله وإذ أنا مسوّد المفارق يافع

إلا أنها لم تلبث أن احتجبت عنه فتعذر لقاؤها عليه واستحال وصلها قطيعه . وبذلها حرماناً . وأكبر الظن أن زواجها كان السبب في احتجابها عنه - فقد تزوجت شرة هذه بقالاً آثرت أن تكون حليلة له على أن تكون حبيبة لابن المعتز . وقد أحفظ عملها هذا سيدها القديم فهجا زوجها وتمنى طلاقها بقوله :

أقول وقد ضاقت بأحزانها نفسي

الا ربّ تطليق قريب من العرس

لئن صرت للبقال يا شرّ زوجة

فلا عجب قد يربض الكلب في الشمس

بيد أن الهجاء لم يشف غلة الشاعر فأخذ يحنّ الى صاحبته حنين

المحب المهجور الى الحبيب النافر الهاجر يستعطفها حيناً ويعاتبها مرة ويداعبها تارة . ولك أن تتصفح باب الغزل في ديوانه لتتبين المكان الواسع الذي تحتله منه هذه النفثات التي أروي لك منها قوله : -

شفعيني يا شر في ردّ نفسي فلقد طال حبس قلبي لديك
وأذني بالرقاد لي إن عيني تستعير الرقاد من عينيك
أوهبي لي صبراً أرد به الدمع فاني أخاف دمعي عليك

وقوله :

وصل الخيال وصدّ صاحبه والحب لا تفنى عجائبه
يا شر إن انكرتني فلكم ليل رأتك معي كواكبه(١)

وقوله :

قد جاءنا العيد يا معذبتي لا تجعليه هماً وأحزانا
قومي فضحي بالهجر فيه لنا وصيّريه يا شر قربانا

ولسنا نعلم أترملت شرة أم طلقت ؟ ولكننا نعلم بالتأكيد أنها استأنفت علاقتها بابن المعتز وقضت حياتها إلى جانبه بدليل أنه طالما تحدث عنها في أيام ضعفه وشتخوخته إن جازت تسميته شيخاً . فمن ذلك قوله :

ضحكت شر إذ رأتني قد شبت وقالت قد فضّض الأبنوس

---

(١) بين الديوان والأوراق خلاف في رواية هذين البيتين وقد آثرت رواية الأوراق .

قلت إن الشباب فيَّ لباق بعد ، قالت هذا شباب لبيس

وقوله :

صدت شرير وأزمعت هجري وصغت ضمائرها إلى الغدر
قالت كبرت وشبت قلت لها هذا غبار وقائع الدهر

قد يقال : ولكن أليس من المحتمل أن يكون زواج شرة قد وقع بعد أن شاب سيدها وأنها لم تسأنف علاقتها به بعد مفارقتها إياه ؟ والجواب عن ذلك لا !! لأن ابن المعتز يخبرنا في أبيات سبق إيرادها (ألا أيها القلب ..الخ) أنه أحب شرة وظفر بوصلها وهو شاب في ميعة الصبا وليس من المرجح أن تقضي شرة أيام شبابها وكهولتها مع ابن المعتز ثم تبحث عن الزواج وتظفر به وهي في سن الشيخوخة . وليس من المرجح كذلك أن يحفل ابن المعتز بزواجها ومفارقتها اياه إذا كانت قد فعلت ذلك بعد أن ذوى شبابها وزالت نظرتها أو أشرفت على الزوال . ومهما يكن من شيء فان بعض غزل عبدالله ولا سيما غزله بشرة غزل صادق يرمز الى عواطف حقيقية ويعبر عن أحاسيس غير مكذوبة .

وصفه : أدلّ من غزل عبدالله على خطرات نفسه وخلجات قلبه وهمسات شعوره وصفه الذي لم يغادر صغيرة ولا كبيرة تستحق التدوين في سجل الأدب الخالد الا أحصاها . فنحن نستطيع بفضل هذا الجزء من شعره أن نتبين حياة المرح والترف التي كان يحياها متنقلاً من قصر الى قصر ومن ضيعة الى ضيعة ، ومن مجلس طرب حافل بالمسرات الى آخر أحفل بها منه . ونستطيع أيضاً بواسطة هذا الوصف أن نعرف شيئاً غير قليل عن

الطبيعة التي كان يغازلها ويناجيها ونستطيع كذلك أن نظفر في هذا الوصف بمعلومات اجتماعية وتاريخية تجمع بين الفائدة والطرافة الى حد بعيد ٠ والآن لنطف في هذا الحقل الفسيح الغني كل الغنى بصنوف الزهر المتعدد الأشكال المتنوع العطور والألوان ولنقف عند بعض أزهاره ورياحينه وقفات قصيرة فهذه قطعة يخبرنا فيها الشاعر أنه قضى بنهر فروّخ يوماً (طيباً ساراً) شهد فيه حفلة سباق ضمت أنجب الخيل وأكرم الفتيان وأحرصهم على الاستمتاع بلذات الحياة ٠٠ وهذه ثانية تروي لنا أن المترجم كان كثير الاختلاف الى قرية عامرة تغطيها غابات الكرم بقرب سامراء اسمها « القادسية » يظهر من وصف الشاعر لها أنها كانت مصيفاً له ولأضرابه من الأمراء والكبراء ٠ ولا تعرف كتب الجغرافية القديمة منها سوى الاسم ٠٠ وهذه ثالثة يصف فيها الشاعر أوطاراً قضاها بين سمر الندمان ونقر العيدان في قصر اسمه « قصر بسطام » لا تعرف كتب التاريخ والجغرافية القديمة عنه شيئاً كذلك ٠٠ وهذه رابعة يحدثنا فيها عبدالله حديثاً طريفاً ٠ عن عهد سعيد قضاه في « المطيرة » بقرب « دير عبدون » ٠٠ وهذه خامسة تخبرنا بجولة بديعة في قرية يعدّها الشاعر « موسم العشاق » تدعى « الياسرية »!!٠٠ وأمثال هذه القطع في شعر ابن المعتز كثيرة جداً تجدها مبعثرة في أبواب ديوانه المختلفة ، وكلها من الأهمية والنفاسة بحيث تستحق أن تدرس ٠ أما ما يتصل من وصفه بالطبيعة فأنه كثير ومتنوع انواعاً مختلفة لأنه وصف منها كل ما شعر أنه جديد بالوصف ، ولذلك كان شعره فيها أشبه بمجموعة صور شمسية تمثل الصامت والناطق ، والجامد والمتحرك ، والحسن

والقبيح أحياناً ، مثال ذلك أنه بينا يصف مزنة «يلطم وابلها خد الارض» الى أن تتقيها هذه « بالغدران والخصر » اذا هو يصف طوفاناً مخرّباً حصل في دجلة فاجتاح الدور والقصور والبساتين ومن بينها قصره وبستانه !. وبينا هو يصف حمامة يشرب على غنائها الكأس تلو الكأس اذا هو « ينعت » حية « رقشاء » كأن جلدها « كمّ درع قده بطل » وبينا هو يصف « نسيماً يبشر الارض بالغيث كذيل الغلالة المبلول » اذا هو يصف « هاجرة يأكل حرها صبر الركائب » وهكذا .

ولكي أعطيك فكرة صحيحة عن وصف ابن المعتز أروي لك مثلا مختلفة منه يمثّل كل منها لوناً من ألوان الحياة التي تجذب انتباهه وتوقظ خياله وتغذّي شعوره . ها هو ذا يصف الزهر فيقول في البنفسج :

بنفسج جمعت أوراقه فحكت ... كحلاء تشرب دمعاً يوم تشتيت
كأنه وحقاق القضب تجمعه ... أوائل النار في أطراف كبريت

ويقول في الآذريون :

كأن آذريونها ... والشمس فيه بادية
مداهن من ذهب ... فيها بقايا غالية(١)

ويقول في نيلوفر على بركة :

وبركة تزهو بنيلوفر ... ألوانه بالحسن منعونه
نهاره ينظر من مقلة ... شاخصة الأجفان مبهوتة

---

(١) الغالية : طيب .

كأنما كل قضيب له يحمل في أعلاه ياقوته

وها هو ذا يصف الفواكه فيقول في التفاح :

كأنما التفاح لما بدا يرفل في أثوابه الحمر
شهد بماء الورد مستودع في أكر من جامد الخمر
كأننا حين نحيا به نستنشق النّد من الجمر

ويقول في ليمونة :

يا حبّذا ليمونة تحدث للنفس الطرب
كأنها كافورة لها غشاء من ذهب

ويقول في النارنج :

وأشجار نارنج كأن ثمارها حقاق عقيق قد ملئن من الدر
مطالعها بين الغصون كأنها خدود عذارى في ملاحفها الخضر
أتت كل مشتاق بريا حبيبه
فهاجت له الأحزان من حيث لا يدري

ويقول فيه أيضاً :

كأنما النارنج لما بدت صفرته في حمرة كاللهيب
وجنة معشوق رأى عاشقاً فاصفرّ ثم أحمرّ خوف الرقيب

وها هو ذا يصف الخمر وزجاجتها فيقول :

وندمان سقيت الراح صرفاً وأفق الصبح مرتفع السجوف
صفت وصفت زجاجتها عليها كمعنى دقّ في ذهن لطيف

ثم ها هو ذا يصف فتياناً خرجوا الى الصيد في آخر ليل ومعهم بزاتهم

فيقول :

وفتيان سروا والليل داج ... وضوء الصبح متهم الطلوع
كأن بزاتهم أمراء جيش ... على أكتافهم صدأ الدروع(١)

وها هو ذا يصف ليلاً رقيق الهواء رائع الاضواء فيقول :

يارب ليل سحر كله ... مفتضح البدر عليل النسيم
تلتقط الانفاس برد الندى ... فيه فتهديه لنار الهموم

ثم ها هو ذا يصف ليلة من ليالي صيف بغداد مغايرة تماماً لذلك الليل الجميل فتقول :

بث بجهد لا أذوق غمضا ... مسهداً يضرب بعضي بعضا
قد قطع الجرجس جلدي عضاً ... مصاعداً يلدغ أو منقّضا(٢)
كشرر القدح إذا ما ارفضا ... يدمن إسخاطك حتى ترضى

اذا لم يخطيء ظني فان وصف ابن المعتز الذي لم أرو لك منه سوى مثل قليله جداً دليل فذّ على ما عنده من يقظة الخاطر وقوة الملاحظة ودقة التصوير .

شعره السياسي : وقد قلت لك في ترجمة عبدالله ان الحوادث المؤلمة

---

(١) هكذا في ديوان المعاني أما في الديوان فتحل كلمتا (ورود) و (حديد) محل كلمتي (طلوع) و (دروع) . هذا الى أني أحب ان أسجل هنا ان لعبدالله شعراً كثيراً في الصيد كما ان له شعراً كثيراً في الخمر . وقد اقتصرت على مثال واحد فقط من كل من هذين البابين رغبة في الايجاز وقد لا يخلو من فائدة ان نلاحظ ان التقليد والتكرار غالبان على هذين البابين من ديوان ابن المعتز .

(٢) هكذا في الاوراق وفي الديوان مكان هذا الشطر « منتهشاً يقرصه منقضاً » ورواية الاوراق أصح .

تتابعت على بيته بعد مقتل جده المتوكل على الله حملته على أن ينبذ السياسة نبذاً تاماً فزهد بالملك ونفض يديه من الخلافة .. وأقول لك الآن ان هذا لا يعني أنه هجر التفكير في السياسة وإنما يعني انه هجر العمل لحسابها . ورجل كعبدالله لا يمكن أن يطّرح الشؤون العامة وأن ينسى أو يتناسى ما يجري حوله من الحوادث التي تتعلق بحياة أمته وكيان أسرته . إذن فقد كان يفكر في السياسة ويقول فيها الشعر والشعر الجيد الكثير(١) ولكي نفهم حقيقة تفكيره في السياسة فهماً صحيحاً يجب أن نلاحظ أن له فيها موقفين مختلفين هما موقفه من أبناء عمه العلويين وموقفه من المتغلبين على السلطان في بغداد والأقاليم . وقد غلبت الخصومة على موقفه من أبناء عمه حيناً من الزمن فعاتبهم أمَّض عتب ونقدهم أشد نقد وأعنفه . ومعلوم أن الامامة كانت موضوع هذا النزاع وكان دفاعه عن حقوق بيته فيها قائماً على أمرين ، أحدهما : أن العباسيين هم ابناء عم رسول الله (ص ع) . وأن الفاطميين ابناء بنته وبنو العم أمّس رحماً وأولى بالارث من بني البنت :

لكم رحم يا بني بنته ولكن بنو العم أولى بها(٢)

---

(١) يقع شعر عبدالله السياسي على الاكثر في بابي (المديح) و (الفخر) من ديوانه ، على ان في بابي (المعاتبات) و (الزهد) مثلا قليلة منه .

(٢) اقدم من عبر عن هذه الفكرة بكلام منظوم . مولى لتمام بن العباس بن عبدالمطلب هجا عبيدالله بن ابي رافع كاتب رسول الله (ص ع) لعلويته بقوله :

جحدت بني العباس حق ابيهم فما كنت في الدعوى كريم العواقب
متى كان اولاد البنات كوارث يجوز ويدعى والداً في المناسب

وثانيهما هو أن آل العباس نزعوا مقاليد الملك والخلافة من أيدي بني أمية بحد السيف . ولذلك فانهم أحق بزعامة المملكة الاسلامية من غيرهم . وقد ضرب عبدالله على هذا الوتر مراراً عديدة :

قتلنا أميـــة في دارها فنحن أحق باســـلابها

وكانت هذه الخصومة المرة ناشئة عن سعاية أشخاص كانوا يلفقون الشعر في الطعن ببني العباس وينسبونه لبعض شعراء الطالبيين ويرونه لابن المعتز فيجيب عليه بما تقدمت له الاشـــارة . وقد ألهم الله جماعة من الطالبيين بينهم أبو الحسين محمد بن الحسن المعروف بابن البصري ، والقاسم بن اسماعيل وهما من شعراء الطالبيين المتهمين بملاحاة بني العباس أن يجتمعوا بابن المعتز ويحلفوا له أنهم ما قالوا شيئاً مما نسب إليهم ، فقبل هذا منهم واعتذر إليهم وكف عن هذه المساجلة البغيضة وقال أشعاراً تودد فيها الى آل ابي طالب وتمنى ان يكونوا وآله يداً واحدة :

ـــ وقد تسابق الشعراء الى انتحال هذا المعنى بين مقصر ومجيد في صدر الدولة العباسية ولكن احداً منهم لم يبلغ مبلغ مروان بن ابي حفصة في قوله :

انى يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات وراثة الاعمام

واخيراً جاء عبدالله فقال بيته هذا . وقد نقض جعفر بن عفان الطائي وصفي الدين الحلي هذه الحجة التقليدية فقال الاول رداً على مروان بن ابي حفصة :

لم لا يكون وان ذاك لكائن لبني البنـات وراثة الاعمـام
للبنت نصف كـامل من ماله والعم متروك بغير ســهام

وقال الثاني رداً على ابن المعتز بقصيدة يعارض بها بائيته التي يقول فيها : « لـكم رحم » البيت :

بنو البنت ايضاً بنو عمـه وذلك ادنى لأنـــابها

فغفر الله لهم جميعاً .

بني عمّنا عودوا نعد لمودة فانا إلى الحسنى سراع التعطف
وإلا فاني لا أزال عليكم محالف أحزان كثير التلهف
لقد بلغ الشيطان من آل هاشم مبالغه من قبل في آل يوسف

وقد بلغ من رغبته بقطع دابر الشحناء بين آل العباس وآل أبي طالب وإحلال الوفق محلها أن قال لأبي الحسين العلوي المتقدم ذكره : « لئن ملكت من هذا الأمر شيئاً - يعني الخلافة - لأجعلنّ البطنين بطناً واحداً ولأزوجنّ هؤلاء من هؤلاء ، وهؤلاء من هؤلاء ولا أدع طالبياً يتزوج بغير عباسية ولا عباسياً بغير طالبية حتى يصيروا شيئاً واحداً وأجري على كل رجل منهم عشرة دنانير في الشهر ، وعلى كل امرأة خمسة دنانير ، وأجعل لهم من الدنيا ناحية تفي بذلك » (١) .

ولعبدالله في التنصل مما نسب إليه من بغض علي وأبنائه شعر كثير يروي الصولي خاصة منه في الجزء الثالث من « أوراقه » شيئاً غير قليل. ومن نفائس شعره في هذا الباب قوله :

رثيت الحجيج فقال العدا ة سبّ علياً وبنت النبي
أآكل لحمي وأحسو دمي ؟ فيا قوم للعجب الأعجب !!
عليٌّ يظنون بي بغضه فهلا سوى الكفر ظنوه بي
إذن لا سقتني غداً كفه من الحوض والمشرب الأعذب

---

(١) الاوراق للصولي الطبعة المصرية ج٣ ص١٠٩ .

بلى قرمطيين متّوا إليه بالنسب الأفجر الأكذب
سببت فمن لامني فيهم فلست بموصىً ولا معتب
مجلي الكروب وليث الحرو ب في الرهج الساطع الأصهب
وبحر العلوم وغيض الخصوم متى يصطرع وهم يغلب
يقلّب في فمه مقولاً كشقشقة الجمل المصعب

والقصيدة طويلة معظمها مثبت في الديوان وكلها من الشعر المختار نكتفي منها بما تقدم رغبة في الاختصار ٠

أما موقفه من المتغلبين على السلطان في بغداد والأقاليم فهو موقف الحاكم الشرعي من مختلسي ملكه وغاصبي سلطانه ، فآل الصفار لصوص محتالون ، وآل طولون فراعنة مصر على عهد الشاعر ، وصاحب الزنج « شيخ ضلال شر من فرعون » وإسحق البيطار « أعلم خلق الله بالماخور » ورأيه في ملوك الطوائف جميعاً وفي رجال الفتن والاضطرابات في كل مكان مدوّن بتفصيل ومهارة في كتابه النفيس الذي وضعه في سيرة المعتضد والمثبت في فصل النون من باب المديح من ديوانه ، وهو عبارة عن أرجوزة تقع في تسعة عشر وأربعمائة بيت أدى فيها للتاريخ والأدب خدمة كبرى مزدوجة ٠

عرض ابن المعتز في هذه الارجوزة لشؤون الدولة العباسية التي بلغت أقصى دركات الفوضى والانحلال في الفترة التي تقع بين مقتل المتوكل على الله عام (٢٤٧) للهجرة وتبوّء المعتضد دست الحكم عام (٢٧٩) للهجرة وإلى الاصلاحات التي قام بها هذا الخليفة فشرحها باسهاب وعقّب عليها بما يتفق ورأيه في السياسة ٠ إلا أن هذا لا يمنعنا

من القول بأنه مخلص كل الاخلاص في تعقيبه على هذه الحوادث وأن الأعمال التي بسطها ونقدها وأنحى على القائمين بها باللوم الشديد والتقريع الممّض لم تكن في الحقيقة سوى جرائم فظيعة ارتكبت في سبيل تحقيق مطامع أثيمة وأغراض شخصية غير مشروعة . ومع أن الارجوزة - كما يرويها الديوان - ممسوخة مسخاً قبيحاً من عدة وجوه ولا سيما من حيث الترتيب فانها تحتوي على صور صادقة لأهم الحوادث التي جرت في الفترة التي أشرت إليها آنفاً . ومما ينبغي التنويه به أن عبدالله استطاع أن يخلع مسحة شعرية جميلة على حقائق التاريخ المرة القاسية في كثير من أقسام هذه الارجوزة . إسمع قوله في وصف سطوة رؤساء الجند وقوتهم وسوء تصرفهم في شؤون الناس وانهماكهم في لذاتهم وعكوفهم على إرضاء شهواتهم وأهوائهم وأخيراً ما آل إليه أمرهم على يد المعتضد :

بالتّل والجوسق والقطائع ... كم تمّ من دار لهم بلاقع

كانت تزار زمناً وتعمر ... ويّتقى أميرها المؤمّر

وتصهل الخيل على أبوابها ... ويكثر الناس على حجّابها

فكم هناك والجاً كريما ... وراجعاً مدفّعاً مظلوما

وواقفاً ينظر من بعيد ... مخافة العقاب والتهديد

حتى إذا ما ارتفع النهار ... ضجت بها الأصوات والأوتار

ودارت السقاة بالمدام ... وارتكبت عظائم الآثام

ثم انقضى ذاك كأن لم يفعل ... والدهر بالأنسان ذو تنقل

فما بكت عليهم السماء ... لمّا أتيح لهم القضاء

ولم يقتصر ابن المعتز في أرجوزته هذه على ذكر الحوادث السياسية والحربية التي جرت في أيام المعتضد أميراً كان أم خليفة ، بل إنه وصف آثاره الأخرى ولا سيما قصر (الرباب) الذي كان يحتوي على عجائب وغرائب يدهش لها العقل والذي غفل التاريخ عن ذكره رغم جلالة قدره وخطورة شأنه فلم يرو الطبري ولا ابن الأثير ولا ياقوت ولا ابن خرداذبة عن انشائه وعجائبه الآتي ذكرها شيئاً . قال ابن المعتز :

وما بنى بان من الخلائف ... ولا ملوك الروم والطوائف
كما بنى من أعجب البناء ... لا زال فينا دائم البقاء

* * *

فمن رأي مثل الرباب قصرا ... كم حكمة فيه تخال سحرا
والنهر والبستان والبحيره ... قد جمع الماء اليها طيره
وللبزاة معها وقائع ... فغائص في جوفها وواقع
وبعضها يذبح بالأكف ... مأسورة قد رميت بحتف
وما رأى الراؤون مثل الشجرة ذات غصون مورقات مثمرة
ولم تكن غرساً ترابه الثرى ... ولم تكن من شجر يسقى بما
لكنها تخبر عن حكيم ... موفّق مجرّب عليم
مفكر من قبل أن يقولا ... ويحسن التفهيم والتمثيلا
كأنها من شجرات الجنة ... أنزلها إلهنا ذو المنه

والقبة العلياء والأترجه مُلّك فيها أربعين حجه

هذه المناظر البديعة التي تزيّن قصر الرباب ولا سيما الشجرة التي لم تغرس في أرض ولم تسق من ماء ، وهذه القبة العلياء وتلك الأترجة مما جهله التاريخ وجهلناه نحن تبعاً له ، إلا أن ابن المعتز أحاطنا بكل ذلك علماً ، فلنسجل له هذه اليد المشكورة(١) .

وقد جاراه أحمد بن عبد ربه بنظم مزدوجة دوّن فيها تاريخ عبدالرحمن الناصر خلال ثلاثة وعشرين عاماً ، تبتديء بمفتتح القرن الرابع للهجرة وصف حوادثها بالترتيب سنةً بعد سنة . وليس من شك في أنه قد استطاع أن يؤرخ الناصر كما أرّخ عبدالله المعتضد ، وفي أنه وفّق أيضاً الى ما وفّق إليه سلفه من الناحية الفنية . وأول أرجوزته قوله :

سبحان من لم تحوه أقطار ولم تكن تدركه الأبصار

وأنت تجد هذه الأرجوزة اللطيفة في الجزء الثالث من العقد الفريد .

حكمه وخواطره : وأخيراً لنلمّ بحكم عبدالله وخواطره في (الزهد والآداب والشيب) إلمامة وجيزة لأنها مظهر لامع من مظاهر ظرفه الأخاذ وعقله الراجح وأدبه الجم لانها تطلعنا على نواحي عديدة من

---

(١) مما يحسن ذكره بهذا الصدد ان المعتضد بنى قصراً عظيماً آخر اسماه (قصر الثريا) هنأه ببنيانه ابن المعتز فقال من قصيدة :

سلمت أمير المؤمنين على الدهر ولا زلت فينا باقياً واسع العمر
حللت الثريا خير دار ومنزل فلا زال معموراً وبورك من قصر

حياته الخاصة ، ونواحي عديدة كذلك من الحياة العامة على عهده . فهو يحدثنا مرة بأنه قد شاب وأنه (أبغض نفسه في شيبه) فكيف يطمع بأن (تحبه الخود الكعاب) ويقول لنا تارة : إن الجهل قد استحكم في بيئته واستحوذ على أهل زمانه وان الفضل واقف منه موقف البائس المحروم من الغني المجدود المستمتع بكل حول وسلطان ، ويؤكد لنا طوراً أن الذين يحسدونه وأهل بيته لو عرفوا حقيقة حالهم لعلموا أنهم يحسدونهم على مالا يحسد عليه انسان . أتحب أن أروي لك مثلاً قليلة من هذه الخطرات الشيّقة القيّمة؟ اسمع قول عبدالله معاتباً نفسه على استمراره في غوايته وقد بلغ الأربعين:

فتنت قلبك العيون الملاح واغتباق بقهوة واصطباح
وقدود كأنهن غصون وخدود كأنها التفاح
أنت في الأربعين مثلك في العشرين قل لي متى يكون الفلاح؟

وقوله في وصف المخاوف التي كانت تساوره بسبب المصائب الفادحة التي نزلت بآله تباعاً سراعاً بعد مقتل جده المتوكل على الله :

من يشتري حسبي بأمن خمول من يشتري أدبي بحظ جهول
ساء الزمان وأوجعتك صروفه فعسى الزمان يسرّ بعد قليل

وقوله موصياً بالصبر على حسد الحاسد :

اصبر على حسد الحسو د فان صبرك قاتله
والنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

لغته وأسلوبه : والمعروف أن ابن المعتز رجل زخرفة يتعشقها

ويتذوقها ويتميز بها ٠

ولكنك إذا رجعت الى شعره وتأملته رأيت أنه يمثل أسلوبين مختلفين كل الاختلاف يصطنع الشاعر أحدهما اذا تحدّث عن الشراب والغناء والأزهار والفواكه والرياحين وما الى ذلك ٠ ويصطنع الآخر اذا تحدّث عن السياسة والاجتماع وما يمت اليهما بصلة ٠

فأما الأول فشعاره الزخرفة وخاصته براعة التشبيه التي عرف بها فهو القائل « اذا قلت كأن ولم آت بعدها بالتشبيه ففضّض الله فاي » ٠ وقد مرّ بك من تشبيهات الرجل ما يمثل نفاد حسه وسعة خياله ودقة تفكيره تمثيلاً تاماً ٠ وأما الثاني فشعاره البساطة وخاصته حسن التأليف وسلامة الأداء ٠ ولك أن ترجع الى ما رويت لك من قصيدة عبدالله التي يبرأ بها من خصومة علي بن أبي طالب (ع س) ومن أرجوزته التي يؤرخ بها خلافة المعتضد وما ألمّ ببيته ومملكته من الحوادث الجسام منذ مصرع جده المتوكل على الله لتتبين كيف يتخلى عن الزخرفة ويقتصر على سلامة الأداء اذا أراد الدفاع عن رأي أو حاول سرد حادثة تاريخية ٠ وليس من شك في أن المترجم خفيف الظل لذيذ الجرس حبيب الى النفس في كل من أسلوبيه المختلفين هذين ٠ أما لغته فانها لا تخلو من الركاكة أحياناً ، ولكنها في جملتها صحيحة التأليف جميلة التركيب تكثر فيها أدوات التشبيه ويغلب عليها الجلاء ويشيع فيها الانسجام وتبرأ من وحشي اللفظ وحوشيه براءةً تامة ٠ على أنها إن امتازت بشيء فانما تمتاز بالعذوبة والرقة(١) ٠

---

(١) احب ان اسجل هنا أني درست لغة عبدالله وأسلوبه دراسة اجمالية ـــ

د ـ خاتمة :

يقول محمد بن يحيى الصولي وهو من أقرب الرواة والنقاد القدماء الى المترجم وأعرفهم به في تحديد منزلته الشعرية ما نصه « ومنزلة عبدالله في الشعر منزلة شريفة وقع من قوم افراط في أمره وتقديمه »(١) ويمضي في حديثه فيقول لنا ان أبا العباس أحمد بن يحيى يقول « هو أشعر أهل زمانه »(٢) وان عبيدالله ابن عبدالله بن طاهر يقول « هو أشعر قريش لأنه ليس فيهم من له مثل فنونه لأنه قال في الخمر ، والطرد ، والغزل ، والمديح ، والهجاء ، والمذكر والمؤنث ... فأحسن في جميعها ، وهو حسن التشبيه ، مليح الألفاظ ، واسع الفكر »(٣) وهنا يستطرد الصولي فيقول « وهو يأخذ كثيراً من الناس ويستعين فيحسن، وكثيراً ما يتكيء على نفسه ، وهو يفضل أشباهه بألفاظ لهملوكية »(٤).

ويعود الصولي الى النقل فقيول لنا « وسمعت بعض العلماء يقول ـ أول الشعراء المتقدمين في صفة الخمر الأعشى ثم الأخطل ثم أبو نواس ثم الحسين ابن الضحاك ثم عبدالله بن المعتز » .

« فقلت أنا هو أيضاً عندي متقدم في الغزل لأن الشعراء الذين أحسنوا في الغزل حتى تفردوا به وكان الغزل قطعة من شعرهم معروفة قليلون وخاصة من عمل في المذكر والمؤنث .

ـــ لان كتب للأدب تختلف في رواية شعره اختلافاً كبيراً . أما ديوانه فانه مغلوط ومشوه الى درجة لا يصح معها الاعتماد عليه .

(١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) الاوراق الصولي ج٣ ص١١٣ .

« وهو أول من حصّل هذا ، وجعله فنيّن وأضاف إليه فناً ثالثاً سماه مجوناً حتى تقدم فيه من سبقه وتبعه الناس »(١) .

ويذهب صاحب معاهد التنصيص الى أنه « أشعر بني هاشم على الاطلاق وأشعر الناس في الأوصاف والتشبيهات »(٢) .

أما أنا فأزعم أنه رابع اربعة في عصره هم - أبو تمام ، والبحتري، وابن الرومي ، وهو . يفضله زملاؤه الآنفو الذكر من حيث فصاحة اللفظ ، ومتانة السبك ، ونقاء الديباجة ، وطول النفس ، ويفضلهم هو من حيث خفّة الروح وجمال التشبيه . أما من حيث هو شاعر قرشي أو هاشمي . فأحسب أنه أكبر شعراء بني هاشم الى عهده . هذا مع العلم بأنه بلا نزاع خير من مثّل حياة القصور وما فيها من تفكير وأدب ولهو وعبث من الشعراء .

---

(١) المصدر نفسه ص١١٤ .

(٢) معاهد التنصيص ج١ ص١٤٦ .

الباب الخامس

في شعراء القرن الرابع للهجرة

الفصل الاول

أبو الطيب المتنبي

أ ـ حياته : اسمه ونسبه وكنيته ولقبه • سببه (حاشية) مولده نشأته وتعليمه • خروجه الى بادية الكوفة • أثرها في نفسه • زيارته بغداد ، سببها • سفره الى الشام • تطوافه في انحاء هذا القطر • تنبؤه • سجنه : حاله في السجن • استتابته واطلاقه • استئنافه حياة التشرد في الشام • تكسبه بالمديح • اصراره على التفكير في الثورة • اتصاله ببدر ابن عمار • مدائحه له • مفارقته اياه • اتصاله بالحسن بن عبيدالله ابن طغج • مديحه له • توسل أحد العلويين له في أن يمدحه • استجابته • ما جرى له من التكريم بهذه المناسبة • اتصاله بآل حمدان : عند أبي العشائر • عند سيف الدولة • كيف تكونت صلته به • حظوته عنده كيد الحساد له • توتر علاقته بالأمير الحمداني • معاتبته اياه • ما نشأ عن هذه المعاتبة • عودة المياه الى مجاريها بين الرجلين • حادث مؤسف آخر بينه وبين سيف الدولة • ما قاله من الشعر في هذا الحادث • صلته بسيف الدولة على العموم : كيف افترقا • سفره الى الشام ، الى الرملة • الى الفسطاط • ما وعده كافور نظير زيارته اياه اخلافه هذا الوعد • اقامته في العاصمة المصرية • فراره الى الكوفة اقامته فيها • مساهمته في حياتها العامة • استئناف سيف الدولة صلته به في الكوفة • هدايا وشعر • زيارته بغداد • امتناعه عن مدح المهلبي • تألب شعراء بغداد

عليه • ترفعه عنهم • دعوة ابن العميد اياه • قبولها • مدائحه لابن العميد • دعوة عضد الدولة البويهي اياه • استجابته • ما قال من الشعر في عضد الدولة • عودته الى الكوفة • مقتله •

ب - صفاته : بخله ، تيهه ، سذاجته ، اقدامه ، اباؤه • وفاؤه ، عفته ، سرعة خاطره غزارة حفظه ، تشاؤمه •

ج - ديوانه : شروحه وطبعاته ، غزله : عناصره • مثل من جيده • فخره : أنواعه • مثل منه • وصفه : براعته في كل فن من فنون الوصف • تصويره عتاق الخيل • وصفه محاسن الطبيعة • شذرات مختلفة من بدائع وصفه • مديحه : مساوئه ومحاسنه • ماله من القيمة الأدبية والتاريخية • سيفياته • مكانتها الممتازة • تصويره هزائم الروم بلا قتال مراراً عديدة • مثل من شعره في هذا الباب • هجاؤه : صرامته وبذاءته ، أغرب ما فيه • عتابه • ميزته • رثاؤه • اتهامه ببرودة العاطفة • تفنيده • مثل من جيد رثائه • فلسفته : مادتها • تناقضها •

لغته وأسلوبه : غلو القدماء في احصاء عيوبهما • خصائصهما • بعض ما يمثلهما من شعره •

د - خاتمة : الفصل بينه وبين أبي تمام والبحتري •

أ - حياته :

لم يشهد القرن الرابع للهجرة نشأة أغراض جديدة للفريض العربي ولكنه شهد تفوقاً عظيماً في معالجة الأغراض القديمة . شهد تفوّق المتنبي في وصف الحرب والسياسة وضرب الأمثال ، وشهد تفوّق الشريف الرضي في الرثاء والغزل والفخر والأخوانيات . ومعلوم أن الأول كان زعيم الحركة الأدبية في النصف الأول من هذا القرن وأن الثاني كان زعيم الحركة الأدبية في النصف الثاني منه وعلى هذا أبدأ بالأول فأقول هو أحمد بن الحسين بن مرة بن عبدالجبار الجعفي(١) المكنّى بأبي الطيب والملقب بالمتنبي(٢) .

---

(١) ذكر الرواة بعض اجداد المترجم بشيء من الاختلاف واكبر الظن بأنهم صنعوا له هذا النسب بعد وفاته لانه لم يكن يتحدث عن نسبه بشيء وانما كان يكتفي بالقول ان آباءه كرام واجداده امجاد ولكنه يفضل ان يشرفوا به بدلا من أن يشرف هو بهم :

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي وبنفسي فخرت لا بجدودي

بيد اننا اذا استعنا بسيرته في صدر حياته على معرفة نسبه امكنا ان نتبين ان نسبه لم يكن من الرفعة بحيث يحب . وان والده ربما كان في الحقيقة سقاءاً كما يقول خصومه . وغني عن البيان ان هذا لا يغض من شأنه بحال من الاحوال بل انه يدعو الى اكباره والاعجاب به لانه استطاع ان يرتفع بفضل قوة عزيمته وعلو همته من بيئة فقيرة خاملة الى منزلة رجل من اعظم رجال الأدب العربي ومهما يكن من اختلاف الرواة في اسماء آبائه واجداده فانهم مجمعون على أنه عربي جعفي ، وجعفي هذه قبيلة قحطانية يمنية تقطن الكوفة ككثير من القبائل اليمنية .

(٢) لقب بالمتنبي لادعائه النبوة كما سيجيء . او لقوله :

أنا في أمة تداركها الله غريب كصالح في ثمود
ما مقامي بأرض نخلة الا كمقام المسيح بين اليهود

ومصدر القول الثاني هو . وعندي ان الاول أصح .

وقد ولد سنة ٣٠٣ هـ في محلة كنده بالكوفة ونشأ حيث ولد وتلقى علومه الأولى في مدرسة خاصة بالعلويين يظهر أنها ذات صبغة ممتازة . ولكن هذا لا يعني أنه ينتمي الى أسرة عريقة في المجد والغنى لأن كل ما في حياته وآثاره يجعل هذا أمراً مستبعداً وقد قيل انه تلقى علومه الأولى في الشام ولكن الصواب ما قدّمناه . وخرج مع أبيه الى البادية وهو غلام في وقت غير معروف بالضبط ولبث بها مدة من الزمن ويغلب على الظن أنهما خرجا اليها فراراً من القلاقل والاضطرابات التي كانت تجري في الكوفة على أيدي القرامطة . ولا نزاع في أنه أفاد الشيء الكثير من هذه الاقامة في البادية فصح جسمه وفصح لسانه وخلص طبعه وقد أشار الى هذا محمد بن يحيى العلوي الزيدي الذي عرفه صغيراً وروى بعض أخباره فقال انه رجع من البادية وقد استحال بدوياً قحاً(١). ولم ينس المتنبي أيامه الجميلة التي قضاها في بادية الكوفة بل انه تغناها وحنّ إليها في صدر قصيدة مدح بها سيف الدولة سنة ٣٤٤هـ قال فيها :

تذكرت ما بين العذيب وبارق(٢) مجرَّ عوالينا ومجرى السوابق
وليلاً توسدنا الثويّة تحته(٣) كأنّ ثراها عنبر في المرافق
وصحبة قوم يقتلون قنيصهم بفضلات ما قد كسروا في المفارق

وزار صاحبنا بغداد في شرخ صباه ولكن ليس من اليسير تعيين الوقت

---

(١) تاريخ بغداد ج٤ ص١٠٣ طبعة مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٤٩ هـ
(٢) موضعان بظاهر الكوفة .
(٣) الثوية : موضع بقرب الكوفة .

الذي زارها فيه والغرض الذي زارها من أجله بيد أنه من المحتمل أن يكون قد لجأ اليها في جملة من لجأ اليها من سكان الكوفة عندما أغار القرامطة على مدينتهم سنة ٣١٩ هـ .

والظاهر أنه لم يجد في عاصمة الخلافة العباسية من يحفل بشعره أو يعتد بأدبه لأنه لو وجد فيها شيئاً من هذا القبيل لأثر الاقامة فيها على الرحيل الى الشام ، ولكنه لم يجد في بغداد ولا في الكوفة شيئاً مما يصبو اليه من مال وجاه وشهرة ولذلك عوّل على أن ينشد هذا كله أو بعضه في بلد آخر فرحل الى الشام سنة ٣٢١ هـ كما يرجح أبو العلاء فأكثر من التجوال فيها وجاب حاضرتها وباديتها وعرف كثيراً من أهلها ومدح عدداً كبيراً من عظمائها ونبلائها وأوساطها أيضاً واستعان بجوائزهم التي كانت تكبر حيناً وتصغر حيناً حتى تبلغ الدينار الواحد(١) أو بعضه على ما يكابد من شظف العيش ورقة الحال .

على أنه كان يرمي في تطوافه الى غرض أكبر من هذا بكثير فقد كان يبحث في بوادي هذا القطر عن قوم يبلغ من سذاجتهم أن يصدّقوه ويؤمنوا به إذا دعاهم الى القول بأنه نبي أو إله ، من يدري ؟

وقد ظفر بهؤلاء القوم في باديه حمص فدعاهم الى أمر بالغ في كتمانه بعد فشله فيه .

ولكني لا أكاد أشك في أنه دعاهم الى الايمان به على أنه نبي ان لم يكن لعبادته على أنه إله وما اظنك تستكثر هذا على من يقول :

---

(١) مدح المتنبي علي بن منصور الحاجب بقصيدة عصماء مطلعها :

بأبي الشموس الجانحات غواربا اللابسات من الحرير جلابيا

فأجازه عليها بدينار واحد فسميت القصيدة من أجل ذلك (بالدينارية) .

أي محل أرتقي أي عظيم أتقي
وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق
محتقر في همتي كشعرة في مفرقي

ويقول :

أمط عنك تشبيهي بما وكأنه فما أحد فوقي ولا أحد مثلي

وسواء أدعا المتنبي أعرابه إلى عبادته على أنه إله أم الى الايمان به على أنه نبي ، فانه ما كاد يتصل خبره بلؤلؤ نائب الاخشيديين في حمص حتى أسرع الى اخماد فتنته والقاء القبض عليه فاذا هو سجين يئنّ في الأغلال ، وليس من العسير أن نتصور حال ذلك البائس الشقيّ الذي تضافر عليه السجن والفقر والغربة فقد ألحت عليه الحاجة ونال منه الضيق حتى قبل معونة رجل ألب عليه ودعا السلطان الى الوقيعة به يعرف بأبي دلف ، رأى في معونته وهو في مثل تلك الحالة شماتة ما بعدها شماته وفي هذا يقول صاحبنا من أبيات :

أهون بطول الثواء والتلف والسجن والقيد يا أبا دلف
غير اختيار قبلت برّك بي
والجوع يرضي الأسود بالجيف

ومرّت الأيام بعد الأيام وشاعرنا يكابد آلام السجن ومرارة الفاقة. وتولى إمارة حمص بالنيابة عن الاخشيديين إسحق بن كيغلغ فرأي الشاعر أن ينتهز هذه الفرصة وبعث اليه قصيدته المعروفة التي مطلعها :

أيا خدّد الله ورد الخدود وقدّ قدود الحسان القدود

يستعطفه فيها ويسأله الافراج عنه . وقد بنى رجاءه على أمرين : أحدهما أنه صبي لا تقام عليه الحدود الشرعية :

تعجل فيّ وجوب الحدود وحدي قبل وجوب السجود(١)

وثانيهما أنه أراد ولم يفعل وفرق أي فرق بين الفعل والارادة :

وكن فارقاً بين دعوى أردت ودعوى فعلت بشأو بعيد

ورأى اسحق أن يضع حداً لآلام الشاعر فاستتابه وخلّى سبيله . وعاد هذا الى سابق عهده يمدح الناس ويستدرّ مسكة رمقه من هذا المديح . بيد أنه مما يبعث على الاستغراب حقاً أنه وهو في تلك الحالة المحزنة لم ينزل عن مطية غروره ولم يمسك عن التعريض بل عن التصريح برغبته في الخروج على السلطان وهدم النظام القائم واقامة آخر مقامه بحد السيف وهو يقول هذا لممدوحيه في صدور مدائحه في غير غموض ولا ابهام . فمن أغرب ما وقع له في هذا الباب قوله في قصيدة يمدح بها محمد بن عبدالله الخصيبي قاضي أنطاكية :

لله حال أرجيها وتخلفني وأقتضى كونها دهري ويمطلني

مدحت قوماً وإن عشنا نظمت لهم

قصائداً من إناث الخيل والحصن

تحت العجاج قوافيها مضمرة إذا تنوشدن لم يدخلن في أذن

فلا أحارب مدفوعاً إلى جدر

ولا أصالح مغروراً على دخن(٢)

مخيّم الجمع بالبيداء يصهره حر الهواجر في صم من الفتن

---

(١) جلي أن المتنبي ادعى صغر السن ليكون بمأمن من العقوبة .

(٢) الدخن : الفساد .

فواضح أنه يريد اعلان حرب شعواء على الدولة لا يقنع منها بدون استيلائه على الحكم واستئثاره بالسلطان ، وهو يقول هذا لأحد ممثلي الدولة في غير خوف ولا وجل ، وهذا لا يزجره ولا ينهاه ولا ينصحه بالعدول عن هذا التفكير الخاطيء بل انه بدلاً من هذا كله يقبل مدحته ويجيزه عليها . أفعل به ذلك استخفافاً بقدرته على تحقيق مقاصده وأغراضه أم خوفاً من معرّة لسانه أم مشاركة له في ميوله وأهوائه ؟ كل هذا ممكن ولكن لا سبيل الى الجزم بشيء منه . وما أريد أن أمعن في الكلام على هذه الناحية من أحوال المتنبي فأنا عائد اليها في مكان آخر من هذا الفصل والذي اريد أن أقوله الآن إنه لبث متجولاً في أنحاء سورية ناقلاً بضاعته الكاسدة أحياناً ، الرائجة بعض الرواج حيناً من واد الى واد ومن ناد الى آخر حتى انتهى به المطاف الى بدر بن عمار الأسدي الذي عيّن حاكماً لطبرية سنة ٣٢٩ فتقدم اليه بمدحة مطلعها :

أحلماً نرى أم زماناً جديدا أم الخلق في شخص حيّ أعيدا

وقبل بدر مدحة الشاعر وأحسن جائزته وضمه الى حاشيته فمدحه هذا في أثناء اقامته عنده بعدّة قصائد أفضلها فيما أظن لاميته التي يصف فيها قتله أسداً بضربة سوط واضطراره آخر الى الفرار والتي يقول فيها منوهاً بهذه الحادثة :

أمعفّر الليث الهزبر بسوطه لمن ادّخرت الصارم المصقولا

والتي سأذكر بعض عيونها في مكان آخر من هذا الحديث .

ولكن ابن كرّوس نديم بدر بن عمار ساءه أن يستأثر هذا الشاعر

الطاريء بعطف الأمير ويستولي على قلبه فأخذ يكيد له وينال منه ويعمل على ابعاده عن قلب الأمير وساعده على ذلك جهل المتنبي آداب معاشرة الأمراء وطرق التزلف اليهم فلم يكن مثلاً يرافق الأمير فيما يعرض له من أسفار ولم يكن يشرب الخمر معه الا بمشقة . وأحسّ الشاعر أنه فقد عطف الأمير فتركه واستأنف تطوافه الذي انتهى به الى الحسن بن عبيدالله بن طغج حاكم الرملة وأحد أمراء البيت المالك في الفسطاط ومدحه بميميته التي يقول في مطلعها :

أنا لائمي إن كنت وقت اللوائم علمت بما بي بين تلك المعالم

فوقعت القصيدة من نفسه أحسن وقع وأجازه عليها جائزة سنية واستبقاه مدّة من الزمن استحكمت فيها صلات المودة بين الرجلين . وحدث للمتنبي في أثناء إقامته بالرملة حادث لا بد لنا من الوقوف عنده لعظم دلالته على علو منزلة الشاعر واتساع شهرته واعتداله في استغلال تلك المنزلة وهذه الشهرة ذلك أن أبا القاسم طاهر بن الحسن بن طاهر العلوي رغب أن يمدحه المتنبي بشيء من شعره ورجا الأمير الحسن بن عبيدالله أن يتوسط في تحقيق هذه الرغبة وبذل الأمير وساطته في الموضوع ولكنّ المتنبي لم ينزل على رغبة العلوي والأمير الا بشق النفس . ولما نزل على رغبتهما ونظم في العلوي المذكور بائيته التي يقول فيها :

إذا علويّ لم يكن مثل طاهر فما هو إلا حجّة للنواصب

وذهب اليه لينشده اياها نزل له هذا عن سريره وأجلسه بمكانه وجلس بين يديه ، فكان بهذا أول ممدوح يجلس بين يدي مادحه وكان

أبو الطيب أول شاعر قدر له أن ينال مثل هذا الشرف .

ولم يطل الوقت حتى سطع نجم الحمدانيين بحلب وقامت دولتهم في شمالي سورية فعقد المتنبي النية على أن يكون شاعرهم إذا تسنى له ذلك وقصد أول من قصد منهم أبا العشائر نائب سيف الدولة في أنطاكية ومدحه بعدة قصائد أجودها - فيما أحسب - قافيته التي مطلعها :

أتراها لكثرة العشاق تحسب الدمع خلقة في المآقي

وان لم يكن مطلعها هذا من حسان مطالعه .

ولكنه لم يرد أن يكون شاعر أبي العشائر وانما كان يريد أن يتخذه وسيلة الى ابن عمه سيف الدولة الذي سبق له أن أحبه ومدحه عندما أدّب جماعة من الثائرين على السلطان سنة ٣٢١ هـ (فيما يقول الديوان) بقصيدة مطلعها :

ذكر الصبا ومراتع الآرام جلبت حمامي قبل وقت حمامي

ولم ينشدها إياه لأنه لم يكن قد اتصل به بعد . وكان أبو العشائر عند حسن ظن الشاعر به فقد قدمه الى ابن عمه الأمير عندما زاره سنة ٣٣٧ هـ وأثنى عليه ثناءً عاطراً . ولست أشك في أن شهرة المتنبي كانت قد سبقته الى سيف الدولة وأن هذا كان يعرفه ويقدر نبوغه وعبقريته ولكن هذه هي الطريق التي اختارها المتنبي الى سيف الدولة لسبب لا نعلمه . ومهما يكن من شيء ، فقد أعرب الأمير للشاعر عن استحسانه له واعجابه به ودعاه الى أن يكون شاعره الرسمي ووعده مرتباً سنوياً قدره (٣٠٠٠ دينار) نظير ثلاث قصائد فقط في كل سنة .

وما أريد أن أترك هذه المرحلة من الحديث دون أن اسجل ان حظوة المتنبي لدى سيف الدولة هي الغاية التي كان يتوخاها من امتناعه على صغار الأمراء الذين كانوا يرغبون بمديحه من أمثال الحسن بن عبيدالله بن طغج وطاهر بن الحسن العلوي فقد كان يبالغ في تقليل العرض - كما يقول أصحاب الاقتصاد - ليشتد الالحاح في الطلب وليبلغ الثمن أعلى حد ممكن من الارتفاع . ولم يسرع المتنبي الى تلبية طلب سيف الدولة بل اشترط عليه زيادة على ما تقدم اعفاءه من تقبيل الأرض بين يديه والانشاد واقفاً بحضرته .

فقبل سيف الدولة هذا الشرط وانتظم الشاعر في حاشية الأمير مستقبلاً عصره الذهبي ومجده الخالد وسلّمه سيف الدولة الى (الرّواض) « ليعلموه الفروسية والطراد والمثاقفة » وهذا ما يقوله الرواة أو ليتحققوا مبلغ مهارته في هذا كله وهذا ما أذهب إليه ، فلما استوثق من كفايته بوأه مقامه الرفيع في حاشيته فصار ينادمه ويسامره ويحضر مجالسه الخاصة والعامة ويطّلع على خفايا أحواله ويرافقه في غزواته ويساهم في حروبه مبلياً بين يديه أحسن البلاء والى هذا يشير صاحبنا بقوله :

وإني لتعدو بي عطاياك في الوغى فلا أنا مذموم ولا أنت نادم

وعلى هذا كان المتنبي أول شاعر يساهم في بناء المفاخر التي يؤرخها ويصورها في شعره ، وعرف الأمير قدر شاعره وخطورة المقام الذي سيحفظه له في القريض العربي وأدرك أن الأجيال ستتغنى بما يقول فيه من بدائع الشعر وروائعه على مرّ الدهور . فأقبل عليه اقبالاً شديداً

وأحبه حباً جماً وتفنن في تشجيعه وإثارة مواهبه فكان يفيض عليه الهبات تلو الهبات ويوليه من الحفاوة مالا يولي أحداً فشق هذا على من بحضرته من العلماء والأدباء والشعراء وصاروا يحسدون الشاعر على مكانه من الأمير ويكيدون له ويثلبونه ويحطون من قدره ، وتزعم أبو فراس وهو ابن عم سيف الدولة وأخو قرينته وتلميذه هذه الحركة لأن المتنبي كان يضن عليه بمديحه ولأنه في أغلب الظن كان موقناً أن المتنبي لا يعتد بأدبه ولا يحفل بشاعريته فيروى أنه قال لابن عمه ذات يوم : « إن هذا المتشدق كثير الادلال عليك وأنت تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار على ثلاث قصائد ويمكن أن تفرّق مائتي دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره »(١) .

وما أظن أن أبا فراس يجرؤ على مواجهة ابن عمه بمثل هذا الكلام السخيف وهو النصح له بتفريق مائتي دينار على عشرين شاعراً يأتون بخير من مديح المتنبي فليس هذا مما يواجه به رجل كسيف الدولة وليس هو أيضاً مما يقوله رجل كأبي فراس ولكن إلا يكن أبو فراس قد قال هذا لابن عمه في المتنبي فانه قد قال له الشيء الكثير فيه مما حمل الرواة على تلفيق هذه الرواية أو التزيّد فيها ، ومع ذلك فقد كان مديحه يبطيء أحياناً على سيف الدولة وكان هذا يؤذي الأمير إيذاءً

---

(١) الصبح المنبي للبديعي ص٤٥ طبعة مطبعة الاعتدال بدمشق سنة ١٣٥٠هـ

شديداً فكان ينتقم لنفسه بالايعاز الى من بحضرته من صغار الشعراء بأن يمدحوه ، وبالمبالغة في إكرامهم على مدائحهم هذه ، على أنه من الجائز أن يكون تصرف سيف الدولة هذا محض مداعبة غايتها تحريض الشاعر على نظم روائع المديح التي يبذّ بها هؤلاء وغيرهم من الشعراء ولكن المتنبي كان يفهم هذا التصرف على أنه مكايدة ومغايظة ويتحمله على مضض فلما تكرر هذا من سيف الدولة لم يجد بداً من أن يعاتبه بميميته الخالدة التي مطلعها :

واحرّ قلباه ممن قلبه شبم ومن بجسمي وحالي عنده سقم

وقد تلطّف في صدر هذه القصيدة فمدح سيف الدولة مدحاً رائعاً نفيساً ، ولكنه عاد فعاتبه عتاباً مراً شفعه بفخر لا يخلو من كبرياء وصلف وان كان صحيحاً صادقاً في جملته . وليس من المستبعد أن يكون أبو فراس حاضراً إنشاد هذه القصيدة ولكن من المستبعد أن يعترض عليها كل هذه الاعتراضات التي يبيّن فيها مآخذها ويرد أكثر عيونها الى أصول جاهلية واسلامية وأكبر الظن عندي أن خصماً من خصوم المتنبي صنع هذه الاعتراضات في وقت متأخر ونحلها أبا فراس كما أنه من المستبعد أيضاً أن يتغير موقف سيف الدولة من الشاعر بهذه السرعة الغريبة فيضرب وجهه بدواة بين يديه ثم يقبل رأسه ويجلسه الى جنبه ويجيزه بألف دينار ثم بألف دينار أخرى لارتجاله هذا البيت :

إن كان سرّكم ما قال حاسدنا فما لجرح إذا أرضاكم ألم

على أني لا أرتاب من ناحية أخرى في أن هذه القصيدة أحدثت استياءاً شديداً في مجلس سيف الدولة ولا أستبعد ان كاتباً من كتابه يعرف (بالسامري) خرج في أثر الشاعر ليقتله - كما يزعم - تزلفاً الى الأمير فكّر عليه الشاعر وهزمه . ولست أستبعد كذلك أن يكون أمراء البيت الحمداني وبينهم أبو العشائر نفسه قد ائتمروا بالشاعر ليقتلوه لتطاوله على زعيمهم وعميدهم وتهديده بالانتقال الى خصومه الاخشيديين:

لئن تركن ضميراً(١) عن ميامننا ليحدثّن لمن ودّعتهم ندم

وأن جماعة من غلمان أبي العشائر كمنوا للشاعر في مكانٍ ما ، وأن أحدهم رماه بسهم فوقع في نحر فرسه وأنه حمل عليهم وجرح واحداً منهم فانهزموا وقد حملوا جريحهم ، وأنه اختفى على أثر هذه الحادثة في بيت صديق له ولسيف الدولة ، وأن هذا الصديق أحسن الوساطة بينه وبين الأمير فرضي هذا عنه وأدخل عليه بعد أن هيّيء لهذا الدخول تهيئة حسنة فأنشده أبياتاً يعتذر بها اليه هذه هي :

ألا ما لسيف الدولة اليوم عاتبا
فداه الورى أمضى السيوف مضاربا

ومالي إذا ما اشتقت أبصرت دونه
تنائف لا أشتاقها وسباسبا ؟

وقد كان يدني مجلسي من سمائه أحادث فيها بدرها والكواكبا

حنانيك مسؤولاً وليبك داعياً وحسبي موهوباً وحسبك واهبا

أهذا جزاء الصدق إن كنت صادقاً ؟
أهذا جزاء الكذب إن كنت كاذبا

---

(١) ضمير (بضم الضاد) : جبل عن يمين الراحل من الشام الى مصر .

وان كـان ذنبي كـل ذنب فانـه محا الذنب كل المحو من جاء تائبا

وبهذا ختمت تلك الحادثة المؤسفة التي كادت تتحول الى كارثة ، على أن بقاء السبب يقتضي بقاء المسبب فقد أبطأ مديح المتنبي على سيف الدولة مرة اخرى وشق هذا الابطاء على الأمير فتنكر للشاعر واستقبله ذات يوم في ميدان حلب استقبالاً فاتراً كان له أسوء الأثر في نفسه . فكتب اليه أبياتاً يستنكر فيها ذلك الاستقبال ويعتذر عن ابطائه في تقديم المديح وينوّه بأهمية مديحه له ، هذه هي :

أرى ذلك القرب صار ازورارا وصار طويل السلام اختصارا
تركتني اليوم في خجلةٍ أموت مراراً وأحيا مرارا
أسارقك اللحظ مستحيياً وأزجر في الخيل مهري سرارا
وأعلم اني اذا ما اعتذرت إليك أراد اعتذاري اعتذارا
كفرت مكارمك الباهرا ت إن كان ذلك مني اختيارا
ولكن حمى الشعر إلا القليل همّ حمى النوم إلا غرارا
وما أنا أسقمت جسمي به ولا أنا أضرمت في القلب نارا
فلا تلزمّني ذنوب الزما ن إليّ أساء وإياي ضارا
وعندي لك الشرّد السائرا
ت لا يختصص من الأرض دارا
فاني إذا سرن من مقولي وثبن الجبال وخضن البحارا
ولي فيك مالم يقل قائل وما لم يسر قمر حيث سارا
فلو خلق الناس من دهرهم لكانوا الظلام وكنت النهارا

أشـــدهم في ندىً هـزةً وأبعدهم في عدوٍ مغـــارا
سـما بك همّي فوق الهموم فلست أعدّ يساراً يسارا
ومن كنت بحراً له يا عليّ لم يقبل الدر إلا كبـارا

ولكننا إذا استعرضنا تاريخ الرجلين خلال الأعوام التسعة التي اصطحبا فيها رأينا أنهما كانا في الغالب متقاربين متحابين يؤثر كل منهما صاحبه بأفضل ما عنده من حب وإعجاب ومودة واكبار حتى كانت حادثة اعتداء ابن خالويه على الشاعر فأسفرت عن افتراقهما الى غير تلاق . وبيان الحادثة أن نقاشاً جرى في مجلس سيف الدولة بين أبي الطيب اللغوي وابن خالويه النحوي في مسألة من المسائل لم يشترك المتنبي فيه فدعاه سيف الدولة الى المساهمة في الحديث فساهم بما قوى رأي أبي الطيب وضعّف رأي ابن خالويه ، وغضب الأخير فأخرج مفتاحاً في كمّه ضرب به وجه الشاعر فأسال دمه ولم يتدخل سيف الدولة في الحادث بقول ولا عمل فثقل هذا كثيراً على شاعره أو قل آلمه إيلاماً شديداً فخرج من المجلس وقد استقر رأيه على الرحيل من حلب ولبث أياماً قليلة استأذن بعدها الأمير بالخروج الى ضيعة له بقرب معرّة النعمان فأذن له ولكنه عدل الى دمشق عن الضيعة المشار اليها وبهذا ختم ذلك الدور الخطير من حياة المترجم ، وكان ذلك سنة ٣٤٦ هـ .

ووصل أبو الطيب دمشق فكتب عاملها وهو يهودي يعرف بابن مالك (أو ابن ملك) الى سيّده كافور يعلمه وصول الشاعر الى مدينته فأمره هذا بايفاده اليه ولكن العامل طلب في أثناء ذلك الى المتنبي أن يمدحه

فرفض ودفعه هذا الى الانتقام فكتب الى كافور بما يدل على أن الشاعر كاره له منحرف عنه وضاقت دمشق بأبي الطيب فتركها الى الرملة حيث الحسن بن عبيدالله بن طغج صديقه القديم فاستقبله هذا استقبالاً رائعاً وأكرمه وخلع عليه وسأله أن يمدحه فاعتذر اليه بهذه الأبيات :

ترك مدحيك كالهجاء لنفسي وقليل لك المديح الكثير
غير أني تركت مقتضب الشعـ ـر لأمر مثلي به معذور
وسجاياك مادحاتك لا لفظي وجود على كلامي يغير
فسقى الله من أحب بكفيـ ـك وأسقاك أيهذا الأمير

وتبودلت الرسائل بين الرملة والفسطاط بشأن زيارة الشاعر للعاصمة المصرية فأسفرت عن موافقته عليها ولكن يظهر أنه لم يوافق على هذه الزيارة الا بعد أن حصل على وعد بتقليده منصباً ذا شأن والا فما معنى قوله في أول قضيدة يمدح بها كافور :

اذا كسب الناس المعالي بالندى فانك تعطي في نداك المعاليا
وغير كثير أن يزورك راجل فيرجع ملكاً للعراقين واليا
فقد تهب الجيش الذي جاء غازياً لسائلك الفرد الذي جاء عافيا

إن هذا يعني بالطبع أن الأسود كان قد قطع على نفسه عهداً بتقليد الشاعر منصباً ذا شأن ولكنه عدل عن هذا عندما رأى بعد مطامعه وسعة مطامحه واكتفى باعطائه الدراهم والدنانير واثقاً أن هذا هو كل ما يجب أن يفعله به . وقد ذكّره المترجم وعده هذا وطالبه بانجازه في قصائد

عديدة ثم كفّ عن ذلك عندما ظهر له أن الأسود عبث به وسخر منه وهو ولا يريد أن يعطيه شيئاً أكثر من المال . وقبل أن أتحدث اليك عما أزمع المتنبي عمله بعد خيانة كافور له أحب أن ألاحظ أنه (اي المتنبي) غلا في طلب الولاية وتهالك كثيراً على الجاه والسلطان وكان ينبغي له قبل كل شيء أن يترفع عن العبد وما في يده من أمور الدنيا وإذا كان هذا قد غاب عن ذهنه باديء بدء فلا أقل من أن يتلافى خطأه بعدم الالحاح على الأسود في استنجازه وعده . قد تقول إنه يريد أن يكبت خصومه ويغيظ حساده وأن يبرهن لسيف الدولة نفسه أنه يجد عند غيره أكثر مما يجد عنده . وأجيب بأن هذا في حد ذاته عمل تافه لا ينبغي أن يطيل التفكير فيه شاعر عظيم له مثل عبقرية المتنبي وشهرته ومكانته . ولو سلمنا جدلاً أن هذا عمل مقبول فانه لا ينجي الشاعر من نقد التاريخ ومؤاخذته إياه على إلحاحه في مطالبة كافور بتوليته بعد أن تبين له أن تحقيق هذه المحاولة على جانب كبير من الصعوبة ، وأعود الى ما ازمع المتنبي عمله بعد أن تحققت خيانة كافور له فأقول : إنه عمل على الخروج من مصر فاستأذن الأسود في السفر الى الرملة لاستحصال مال له هناك فأبى أن يأذن له ووعده أن يبعث الى الرملة من يأتيه بالمال على جناح السرعة . وهنا أدرك صاحبنا أنه سجين لا يملك من أمره شيئاً فعوّل على الفرار من مصر وأعد لهذا الأمر الخطير عدته متكتماً في ذلك أشد التكتم وانتهز فرصة انشغال الناس بعيد الأضحى من سنة ٣٥٠ هـ فخرج ومعه غلمانه وأمواله وتجنب الطريق المعروفة وركب المجاهل وأعانه بعض أصدقائه من زعماء القبائل على تذليل ما يلقى من

الصعاب فقطع المسافة بين الفسطاط والكوفة في نحو من ثلاثة أشهر قضى منها شهراً في موضع كثير الماء والكلأ اسمه « حسمى » والرحلة - كما ترى - في منتهى الأهمية والخطورة ، ولكنه خرج منها ظافراً منتصراً وعندي أن فوزه فيها وحده يكفي للدلالة على أنه مثل أعلى في الاقدام والجرأة والصبر وشدة البأس والعلم بأحوال البادية ومجاهلها ومناهلها . وقد وصل الكوفة في ربيع الأول من سنة ٣٥١ هـ فقضى فيها معظم بقية أيام حياته . ولم تكن حياته فيها حياة خمول ودعة وإنما كانت حياة جد ونشاط ومساهمة في الأمور العامة ومن الأدلة على ذلك أن قرمطياً من بني كلاب ظهر في سواد الكوفة سنة ٣٥٢ هـ واراد الاستيلاء عليها فقاتله أهلها دفاعاً عن أنفسهم ، وكان المتنبي في مقدمتهم وقد قتل أحد غلمانه في المعركة ولم يغب عن بال « دلير بن لشكروز » وهو القائد الذي ندبته حكومة بغداد لقمع هذه الفتنة أن يقدّر موقف أبي الطيب حق قدره فبعث إليه خلعاً نفيسةً وفرساً نجيباً عليه حلية ثقيلة وقد شكر أبو الطيب لهذا القائد أريحيته بقصيدة عصماء مطلعها :

كدعواك كل يدعي صحة العقل ومن ذا الذي يدري بما فيه من جهل

ولا أريد أن أترك هذه الحادثة دون أن الاحظ انها تدل دلالة قاطعة على براءة الشاعر مما يتهمه به بعض المستشرقين ويشايعهم فيه بعض النقاد المصريين من أنه داعية من دعاة القرامطة لأنه لو كان كذلك لما حارب هذا القرمطي وساهم في القضاء على فتنته مساهمةً فعالةً .

وعندما عاد أبو الطيب الى الكوفة رأى سيف الدولة ان يبرهن له

أن صداقته له باقية كما كانت لم تتغير ولم تتبدل فبعث إليه سنة ٣٥٢هـ بهدية نفيسة أجاب عليها بقصيدة كلها شوق وحنين وولاء وإكبار مطلعها:

مالنا كلنا جوٍ(١) يارسول أنا اهوى وقلبك المتبول

وفي غضون هذه السنة توفيت خولة أخت سيف الدولة الكبرى فرثاها رثاءاً بليغاً وعزّى أخاها تعزيةً حارة . وفي سنة ٣٥٣ هـ كتب إليه سيف الدولة بخط يده كتاباً يدعوه فيه للعودة الى حلب فرد عليه بقصيدة تدل على أنه قبل الدعوة :

فهمت الكتاب أبرّ الكتب فسمعاً لأمر أمير العرب

وطوعاً له وابتهاجاً به وإن قصر الفعل عما وجب

ولكنه آثر أن يلبي دعوة ابن العميد الذي استزاره في تلك الآونة فرحل في ١١ صفر من سنة ٣٥٤ هـ الى أرّجان بدلاً من حلب .

ومعنى هذا أنه لم يكن ينوي اجابة سيف الدولة إلى ملتمسه رغم تظاهره بالموافقة عليه .

ونعود قليلاً الى الوراء فأقول لك ان أبا الطيب صعد بغداد سنة ٣٥٢ فقضى فيها تسعة أشهر كان في أثنائها ضيف علي بن حمزة اللغوي احد رواة ديوانه واتصل بأبي الحسن محمد وزير معز الدولة المعروف بالمهلبي وزاره أكثر من مرة ولكنه لم يمدحه كما أنه لم يمدح الخليفة العباسي وهو المطيع لله اذ ذاك . والمعروف أنه لم يمدح المهلبي لأنه

---

(١) جو : حزين حزناً شديداً .

لم يستحسن سلوكه فقد كان الرجل لاهياً مستهتراً كثير العبث والمجون ولكني أرجّح أنه أتى بغداد لغرض غير مديح أولى الأمر فيها فقد خاصمهم يوم كان في صحبة سيف الدولة مخاصمةً شديدة وهجاهم تبعاً لرغبة الأمير الحمداني تعريضاً وتصريحاً ، فمن هجائه الصريح للخليفة العباسي قوله :

فوا عجباً من دائل أنت سيفه أما يتوقّى شفرتي ما تقلّدا
ومن يجعل الضرغام للصيد بازه تصيّده الضرغام فيما تصيّدا
رأيتك محض الحلم في محض قدرة
ولو شئت كان الحلم منك مهنّدا
وما قتل الأحرار كالعفو عنهم
ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا
اذا أنت أكرمت الكريم ملكته وان أنت أكرمت اللئيم تمردا
ووضع الندى في موضع السيف بالعلا
مضر كوضع السيف في موضع الندى
ولكن تفوق الناس رأياً وحكمةً كما فقتهم حالاً ونفساً ومحتدا
يدق على الأفكار ما أنت فاعل فيترك ما يخفى ويؤخذ ما بدا

ومن تعريضه الشديد بمعز الدولة قوله :

فدتك ملوك لم تسمّ مواضيا فانك ماضي الشفرتين صقيل
اذا كان بعض الناس سيفاً لدولة
ففي الناس بوقات لها وطبول

بل لقد هجا العباسيين والبويهيين والاخشيديين جميعاً في لاميته التي بعث بها الى سيف الدولة من الكوفة فقال مادحاً سيف الدولة وهاجياً لهم:

ليس إلاّك يا علي همام سيفه دون عرضه مسلول
كيف لا تأمن العراق ومصر وسراياك دونها والخيول

لو تحرفت عن طريق الأعادي ربط السدر خيلهم والنخيل
ودرى من أعزه الدفع عنه فيهما أنه الحقير الذليل
أنت طول الحياة للروم غازٍ فمتى الوعد أن يكون القفول
وسوى الروم خلف ظهرك روم فعلى أي جانبيك تميل
قعد الناس كلهم عن مساعيـ ـك وقامت بها القنا والنصول
ما الذي عنده تدار المنايا كالذي عنده تدار الشمول

فلهذا السبب يخيل إلي أن المتنبي لم يقصد بغداد لمديح ولاة الأمور فيها وإنما قصدها لغرض آخر . وقد شق على المهلبي عدم مديح المتنبي إياه فانتقم لنفسه باغراء من حوله من الشعراء بالرجل فهجوه وأكثروا من الوقيعة فيه والتندر عليه ولكنه لم يجبهم . وقد قيل له في ذلك فقال فرغت من اجابتهم بقولي لمن هم أرفع طبقة منهم :

أرى المتشاعرين غروا بذمي ومن ذا يحمد الداء العضالا
ومن يك ذا فم مرّ مريض يجد مراً به الماء الزلالا

وذكر أمثلة أخرى من شعره في هذا الباب أهمها قوله :

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل

ومع أن أبا الفضل بن العميد وزير آل بويه الكبير لم يكن من محبي أبي الطيب وعشاق فضله وأدبه فقد رأى أنه من الحق عليه أن يستزيره ويتعرض لمديحه ويكرمه وقد فعل ذلك فزاره المتنبي في أرجان واستقبله استقبالاً حاراً دالاً على التكريم والحفاوة ومدحه الشاعر بثلاث قصائد

ومقطوعات قليلة كلها من متوسط شعره أو هي دون ذلك فأجازه عليها جوائز نفيسة وخلع عليه خلعاً كثيرة .

وفي أثناء زيارة المتنبي لابن العميد ورد كتاب من عضد الدولة أمير شيراز يستدعيه فيه لزيارته فلبّى الشاعر الدعوة بعد تلكّؤ ، وقصد شيراز حاضرة الأمير فبالغ هذا في إكرامه والاحتفاء به والانعام عليه ومدحه هو بخمس قصائد وطردية وصف فيها غابة « دشت الأرزن » ورثى عمته التي توفيت في أثناء إقامته بشيراز بمنظومة سابعة .

وأحسن ما قال في عضد الدولة نونيته التي وصف بها « شعب بوان » والتي قد لا أغلو إذا قلت لك إنها أحسن ما نظم في فارس على الاطلاق .

وفي شعبان من سنة ٣٥٤ هـ استأذن أبو الطيب عضد الدولة بالعودة الى الكوفة في قصيدته التي مطلعها :

فدىً لك من يقصّر عن مداكا فلا ملك إذاً إلا فداكا

فأذن له الأمير وخلع عليه وسافر من شيراز يريد الكوفة فلما قارب بغداد خرج عليه فاتك الأسدي خال (ضبّة) الذي هجاه المتنبي وأمه هجاءاً قبيحاً في قصيدته التي مطلعها .

ما أنصف القوم ضبه ... الخ

وكان يتربص به الدوائر ، فقاتله بين النعمانية والصافية وهما موضعان يقربان مما كنا نسّميه قبل زمن قصير « البغيلة » ونسميه اليوم النعمانية فدافع الشاعر عن نفسه دفاعاً صادقاً إلا أن فرسه كبابه فأحاط به

خصومه وقتلوه وقتل معه ابنه محسّد وغلامه مفلح وثلاثة أشخاص آخرين . وللرواة في قتله أقوال أخرى مختلفة ولكن الأشهر ما ذكرناه وكان مقتله في أواخر رمضان من سنة ٣٥٤ وقد تحاشيت ذكر اليوم الذي قتل فيه لأن الرواة يختلفون فيه وأحسب أنه من العسير تعيينه بالضبط .

ب - صفاته :

وحديث صفات المتنبي طويل معقد لأن صفاته نفسها متشعبة معقدة متناقضة ، وقد عالجه (أي الحديث » نقاد كثيرون قدماء ومحدثون وكتبوا فيه الفصول الطوال والقصار ولكن يخيل إلي أنه لا تزال فيه بقية تقتضي الوقوف عنده والتأمل فيه . والرجل كثير الطمع شديد الجشع بخيل إلى أبعد حدود البخل تياه مسرف في التيه ساذج عظيم الحظ من السذاجة ولكنه شجاع مقدام أبيّ وفي عفيف الذيل طاهر الجيب سريع الخاطر سرعة لا تعدلها إلا سرعة حفظه . وخصلة أخرى لا أدري أأعدها من من حسناته أم من سيئاته ؟ ولكن ربما كان الافضل أن أعدها من حسناته ألا وهي التشاؤم فانه من أشد شعراء العربية تشاؤماً وأكثرهم برماً بالحياة والناس .

وما أريد أن أحدثك عن طمع الشاعر وبخله فأنت تعرف هذا من أخباره وتعرفه من شعره وتعرفه أيضاً من أقوال النقاد الذين أرخوا حياته ودرسوا أخلاقه ولكني أحب أن اسأل : ما مصدر طمعه وبخله ؟ ماسر تغلغلهما فيه وتمكنهما منه ؟

مصدرهما من غير شك ما عرف في شطر حياته الأول من فقر مدقع وفاقة ملحّة وحاجة شديدة إلى المال ، يضاف إلى ذلك ما يعتلج في صدره ويدور برأسه من مطامع واسعة ومطامح بعيدة المدى يقوم المال منها مقام الروح من الجسد . وشيء ثالث له أثره فيما نعرف من طمع الرجل وبخله وهو معرفته بالاختبار حرص الناس على المال وشحّهم به وتهالكهم على جمعه وتكديسه لمبرر ولغير مبرر . هذه هي أسباب طمع الشاعر وبخله وما أحسبه مسؤولاً عنها في كثير ولا قليل .

أما كبرياؤه فمنشؤها فيما يبدو لي رد فعل نفسي شديد ذلك أنه خلق ذكياً جريئاً شجاعاً فصيحا عظيم الحفظ ولكن قليل جدا هم الذين كانوا يكترثون لفضائله ويحفلون بمواهبه فكان هذا يحز في نفسه ويبعث فيها الألم ولا يلبث هذا الألم أن يستحيل إعجاباً بالذات واحتقاراً للآخرين وقد تعاظم على مرّ الأيام حتى أصبح علةً نفسيةً مزمنة ، أو جنة لا يرجى منها الشفاء ولكن الذي يعجزني فهمه وتعليله تعليلاً منطقياً صحيحاً هو هذه السذاجة التي تدفعه الى أن يقول كل ما يخطر بباله ويدور بخلده في غير تحفظ ولا احتياط .

هو يمدح أكابر الناس وأواسطهم وأصاغرهم أيضاً ليحصل على ما يحفظ به رمقه ويمسك عليه حياته فما معنى تحدثه اليهم في صدور قصائده عما يحلم به من حروب طاحنة يثيرها وغارات ماحقة يشنها ودول يقوض أركانها وسلطان يشيد بنيانه ويقيم دعائمه على أسس من الحديد والدم ، أترى أنه من المعقول أن يمدح المغيث بن علي العجلي

فيقول له في ختام قصيدته وبعد أن يشكو له الزمان شكوى مرة :

وإن عمرت جعلت الحرب والدةً ... والسمهرّي أخاً والمشرفي أبا
بكل أشعث يلقى الموت مبتسماً ... حتى كأن له في قتله أربا
قح يكاد صهيل الجرد يقذفه ... من سرجه مرحاً بالعز أو طربا
الموت أعذرلي والصبر أجمل بي ... والبر أوسع والدنيا لمن غلبا

أم ترى أنه من المعقول أن يمدح علي بن ابراهيم التنوخي فيقدم بين يدي مديحه هذه الأبيات :

أحاد أم سداس في أحاد ... ليلتنا المنوطة بالتنادي
كأن بنات نعش في دجاها ... خرائد سافرات في حداد
أفكر في معاقرة المنايا ... وقود الخيل مشرفة الهوادي
زعيم للقنا الخطيّ عزمي ... بسفك دم الحواضر والبوادي
إلى كم ذا التخلف والتواني؟ ... وكم هذا التمادي في التمادي؟
وشغل النفس عن طلب المعالي ... ببيع الشعر في سوق الكساد
وما ماضي الشباب بمسترد ... ولا يوم يمر بمستعاد

أم ترى أنه من المعقول أن يقول في مقدمة إحدى مدائحه لسيف الدولة :

أهم بشيء والليالي كأنها ... تطاردني عن كونه وأطارد
وحيد من الخلان في كل بلدة ... إذا عظم المطلوب قل المساعد

ما هذا الشيء الذي يهم به أهو المال ؟ إن سيف الدولة أغدق عليه العطاء حتى تركه يقول :

تركت السرى خلفي لمن قلّ ماله
وأنعلت أفراسي بنعماك عسجدا

أم هو الجاه ؟ فقد أوتي منه ما لا يكاد يحلم به شاعر . وقد قلت لك إنه لما دخل على طاهر بن الحسين لينشده مدحته إياه نزل هذا عن سريره وأجلسه بمكانه وجلس هو بين يديه . أترى أن رجلا يتمتع بمثل هذه المنزلة يمكن أن يعد نفسه محروماً من الجاه ؟ إذن ما هذا الشيء الذي يهم به ؟ هو الملك ، هو السلطان من غير شك . وللمتنبي أن يهم بالوصول إلى الملك ، والاستيلاء على السلطان إذا كان يجد في نفسه استعداداً لتحقيق مثل هذه الآمال العالية ولكن ليس له أن يشير الى هذا أو يعرض به في صدر قصيدة يمدح بها ولي نعمته . ومما يجري هذا المجري في السذاجة وقلة الانتباه والتدبر حنينه إلى سيف الدولة وتفضيله إياه على كافور في قصائد يمدح بها كافوراً ويسأله أن يقلده (ضيعة أو ولاية) أترى أن كافوراً لا يفهم قوله :

فلو كان ما بي من حبيب مقنع ... عذرت ولكن من حبيب معمم

رمى وأتقى رميي ومن دون ما اتقى

هوىً كسر كفي وقوسي وأسهمي

أم أنه لا يفهم قوله :

أما تغنط الأيام فيّ بأن أرى ... بغيضاً تنائي أو حبيباً تقرب

ولله سيري ما أقل تئية ... عشية شرقي الحدالى وغرب(١)

عشيه أخفى الناس بي من جفوته ... وأهدى الطريقين الذي أتجنب

إنني على يقين من أن كافوراً يفهم هذا كل الفهم ويدرك مغزاه كل الادراك وأن المتنبي يعلم هذا حق العلم ولكنه يؤثر الاستسلام لرغائبه

---

(١) تيئة : أناة وتريثاً . الحدالى : موضع بالشام ، وغرب جبل هناك .

والاندفاع في تيار عواطفه .

بيد أن له حسنات كثيرة تشفع له عند المؤرخ الناقد وتحمله على الاقلال من معاتبته ومحاسبته ، ذلك أنه جرى أبي وفي عفيف ، وقف الى جانب سيف الدولة في أحرج مواقفه وأخطر معاركه وتعرض معه للموت مراراً عديدة وأفلت من يد كافور على شدة كيده وعظم بطشه وسعة سلطانه وأبى على سيف الدولة أن يقبل الأرض بين يديه وأن ينشده واقفاً ، وثار عليه ثورة عنيفة عندما شعر أنه يستخف بمقامه ويستهين بمكانته وخرج من مملكته مغاضباً عندما وقف من اعتداء ابن خالويه عليه موقف المتفرج . ولكنه وفى له مع ذلك فحفظ عهده وأقام على وده وحن إليه بعدما سكن غضبه وثاب اليه رشده حنين الصديق الوفي إلى صديقه الحميم بل حنين المحب المتيم الى حبيبه الذي لا يريد به بدلاً ولا يبغي عنه حولاً .

ورثى أبا شجاع فاتكاً أحر رثاء وأصدقه دون أن يرجو مثوبة او ينتظر شكراً .

وشاعرنا الى هذا كله عفيف الذيل طاهر النفس لا تستهويه لذة ولا تستعبده شهوة ولذلك كانت القراءة وركوب الخيل أحب الأشياء الى نفسه :

أعز مكان في الدنا سرج سابح وخير جليس في الزمان كتاب

وقد حدثتك حتى الآن عما يمتاز به من الناحية الخلقية الصرف فلا أحدثك بشيء مما يمتاز به من الناحية الأدبية وأبرز ما يمتاز به من هذه الناحية سرعة خاطره التي لا يكاد يصدقها العقل فقد كان يقول الشعر متى شاء وفي أي موضوع شاء ويجيد فيه ما شاء ، حتى لقد اتهمه ابن

كروس نديم بدر بن عمار باعداد ما يقول في شتى المناسبات كأنه كان ينظر من وراء حجب الغيب الى ما يحدث في مجلس بدر بن عمار وغيره ويهيء ما ينبغي أن يقال فيه من الشعر ليخدع سامعيه ويحملهم على الظن بأنه يقوله ارتجالاً . ولذلك . أعد ابن كروس فيما يقول الديوان : « لعبة لها شعر في طولها تدور على لولب ، إحدى رجليها مرفوعة وفي يدها طاقة ريحان تدار فاذا وقفت حذاء انسان شرب فوضعها من يده ونقرها فدارت » ولما دارت الكؤوس في مجلس شراب الامير وتمكنت الخمر من الرؤوس أخرج هذه اللعبة وأخذ يديرها ويصرفها فقال أبو الطيب :

وجارية شعرها شطرها ... محكمة نافذ أمرها
تدور وفي يدها طاقة ... تضمنها مكرها شبرها
فان أسكرتنا ففي جهلها ... بما فعلته بنا عذرها

وأديرت فوقفت جذاء أبي الطيب فقال :

جارية ما لجسمها روح ... بالقلب من حبها تباريح
في يدها طاقة تشير بها ... لكل طيب من طيبها ريح
سأشرب الكأس من اشارتها ... ودمع عيني في الخد مسفوح

وأدارها فوقفت حذاء بدر فقال :

ياذا المعالي ومعدن الأدب ... سيدنا وابن سيد العرب
أنت عليم بكل معجزة ... ولو سألنا سواك لم يجب

أهـــذه قابلتك راقصـةً أم رفعت رجلها من التعب

وقال أيضا :

ان الأمـير أدام الله دولتـــه لفاخر كسبت فخراً به مضر
في الشرب جارية من تحتها خشب ما كان والدها جنّ ولا بشـر
قامت على فرد رجل من مهابته وليس تعقل ما تأتي وما تذر

وأديرت فسقطت فقال :

مـا نقـلت في مشيئة قـدماً ولا أشـتكت من دوارها ألمـا
لم أر شـخصاً من قبل رؤيتهـا يفعـل أفعالها ومـا عـزما
فـلا تلمهـا على تواقعهـــا أطربهـا أن رأتك مبتسما

ونظم فيها عدة مقطعات أخرى حفظ بعضها في الديوان ولـم يحفظ بعضها الآخر ولكننا نكتفي من وصفه لها بما تقدم .

ومع أنه قال الشعر ارتجالاً في حضرة سيف الدولة مراراً عديدة فقد رأى هذا أن يمتحنه ويتبين بصورة لا تقبل الشـك مبلغ قدرته على الارتجال فأرسـل اليه ذات يوم بيتين في كتمان السر سـأله أن يجيزهما في الحال فأجازهما فوراً بعشرة أبيات من جيـد الشعر . وهذان همـا البيتان اللذان أرسـلهما سيف الدولة :

أمنّي تخاف انتشار الحديث وحظي فـي سـتره أوفر
فان لم أصنه لبقيا عليك نظرت لنفسي كمـا تنظـر

أما ما أجازهما به المتنبي فهو قوله :

رضاك رضاي الذي أوثر وسرّك سري فما أظهر
كفتك المروءة ما تتقي وآمنك الودّ ما تحذر
وسركم في الحشا ميث اذا أنشر السر لا ينشر
كأني عصت مقلتي فيكم وكاتمت القلب ما تبصر
اذا ما قدرت على نطقه فاني على تركه أقدر
أصرف نفسي كما أشتهي وأملكها والقنا أحمر
دواليك يا سيفها دولة وأمرك يا خير من يأمر
أتاني رسولك مستعجلاً فلبّاه شعري الذي أذخر
ولو كان يوم وغى قاتماً للبّاه سيفي والآ شقر
فلا غفل الدهر عن أهله فانك عين بها ينظر

وهناك نوادر أخرى عجيبة من هذا القبيل رأيت أن أضرب عنها صفحاً رغبة في الايجاز ٠

وحافظة أبي الطيب أشبه بقدرته على الارتجال قوةً وعمقاً وسعة وما أظنك بحاجة الى أن أروي لك قصة الرجل الذي نزل لأبي الطيب عن « كتابه » لأنه حفظه في دقائق معدودة مع أنه يتألف من نحو من ثلاثين ورقة ٠

ولا أدل على سعة هذه الحافظة مما جرى لصاحبها مع أبي علي الفارسي فقد قال له هذا ذات يوم « كم جاء من الجمع على وزن فعلى فقال حجلى وضربى جمع حجل وظربان(١) ٠ قال أبو علي فسهرت تلك الليلة التمس

---

(١) الحجل ذكر القبج ٠ الظربان دويبة منتنة كالهرة ٠

لهما ثالثاً فلم أجد . وقال في حقه ما رأيت رجلاً في معناه مثله » وهذه الجملة الأخيرة ذكرها ابن جني في مقدمة شرحه الديوان وقال « ولو لم يكن له من الفضيلة إلا قول أبي علي هذا فيه لكفاه . لأن أبا علي ، على جلالة قدره في العلم ونباهة محله واقتدائه بسنة ذوى الفضل من قبله، لم يكن ليطلق عليه هذا القول إلا وهو مستحق له عنده »(١) وما كان لرجل له ذكاء أبي الطيب الخارق وفكره الثاقب وعلمه الواسع أن ينخدع بالحياة والناس من حيث هو شاعر إن لم يكن من حيث هو رجل فقد وقف منهما موقف المتشائم الذي لا يحفل بظواهر الأمور ولا يقف عند توافه الأشياء ونقدهما أصرم نقد وبرم بهما أشد البرم وأظهر عيوبهما وعدّد مساوئهما في مدائحه وأهاجيه وغيرها من صنوف شعره وأشهد أنه كان على حق عندما قال :

ألا ليت شعري هل أقول قصيدة

فلا أشتكي فيها ولا أتعتب

حـ آثاره :

لأبي الطيب ديوان ضخم آتاه الله من الذيوع والانتشار ما لم يؤت أي ديوان آخر فقد تداوله الناس وتدارسوه واختلفوا فيه فأعجب به قوم وعابه آخرون في حياة صاحبه وفعلوا به مثل ذلك طوال هذه المدة التي

---

(١) ذكرى ابي الطيب بعد الف عام لعبدالوهاب عزام ط مطبعة (الجزيرة - بغداد) سنة ٩٣٦ ص٣٠٠ .

تقع بين مقتل صاحبه وبين يومناهذا وسيفعلون به مثل ذلك إلى ما شاءالله .

وقد شرح أكثر من أربعين شرحاً في مقدمتها شروح المعري والعكبري والواحدي وطبع طبعات كثيرة أقربها الى الكمال طبعة الدكتور عبدالوهاب عزام التي لو احتوت على بعض الشروح الضرورية وسلمت مما فيها من أخطاء مطبعية قليلة لكانت خير طبعات هذا الديوان .

غزله : وأول باب أتناوله بالحديث من أبواب هذا الديوان غزله . وهو كثير نظم معظمه تمهيداً للمديح وقليل منه تمهيداً للفخر وهناك نتف أقل من هذا القليل مستقلة ، على أن استقلال هذه النتف لا يعني أنها تمتاز بتصوير ما تنطوي عليه من عواطف وتشف عنه من أحاسيس ومشاعر . كلا فانها تقليدية ككل غزل الشاعر . وما أريد أن أطيل الوقوف عند هذا الغزل الذي يتفق الجميع على أنه متكلف مصطنع ولكني أحب أن أصفه لك وصفاً مجملاً لأنه يؤلف جزءاً ضخما من انتاج الرجل ولأنه لا يخلو من جمال فني ذي بال .

وأنا إذ أصف لك هذا الغزل مضطر الى أن ألاحظ أنه يحتوي احياناً على معان مألوفة أو قل مبتذلة كتشبيه وجه الحبيب بالشمس وشعره بالليل وثغره بالبرق وريقه بماء الغمام والخمر وما الى ذلك . وينطوي أحياناً على غلو عجيب لا عهد لنا به من قبل فدموع الشاعر تروي (عيس حبيبته) و (تكفي مزادها) عند الرحيل وجسمه من فرط السقام بحيث لو ألقي في شق قلم (لما غير من خط كاتب) وهكذا ، ولكنه يشتمل أحياناً على

معان طريفة فيها شيء غير قليل من الجمال واللطف وفيها شيء غير قليل كذلك من الجدة والابتكار ولكن ليس فيها شيء يمكن أن يسمى شعوراً أو عاطفةً ، وأمثلة ذلك كثيرة منها هذان البيتان :

وما شرقي بالماء إلا تذكراً ... لماء به أهل الحبيب نزول
يحرّمه لمع الأسنة فوقه ... فليس لظمآن إليه وصول

وهذان البيتان :

مثّلت عينك في حشاي جراحة ... فتشابها كلتاهما نجلاء(١)
نفذت علي السابري(٢) وربما ... تندق فيه الصعدة السمراء

وهذان البيتان :

لبسن الوشى لا متجملات ... ولكن كي يصّن به الجمالا(٣)
وضفّرن الغدائر لا لحسن ... ولكن خفن في الشعر الضلالا

وهذان البيتان ايضا :

حسان التثني ينقش الوشي مثله ... إذا مسن في أجسامهن النواعم
ويبسمن عن در تقلدن مثله ... كأن التراقي وشحت بالمباسم

فأنت ترى أن هذه الأمثلة جميلة حقاً ولكن مصدر جمالها ما فيها من معنى دقيق ولفظ قوي سهل ولا شيء غير ذلك .

---

(١) نجلاء : واسعة .

(٢) السابري : درع دقيقة النسج في احكام .

(٣) كلف الصاحب بن عباد على شدة عدائه للمتنبي بمعنى هذا البيت ، فلم يجد بداً من أن يسرقه فسرقه سرقة قبيحة في قوله :

لبسن برود الوشي لا لتجمل ... ولكن لصون الحسن بين برود

ومما يحبب غزل شاعرنا علاوة على ما تقدم خطرات لطيفة يتحدث فيها عن طهارة حبه ونزاهة غرامه ويحاول أن يرفع نفسه أو هو يرفعها تماماً الى مصاف العذريين الذين يعشقون الجمال للجمال ويشقون بالحب للحب استمع الى قوله :

عواذل ذات الخال فيّ حواسد ... وإن ضجيع الخود مني لما جد

يرد يداً عن ثوبها وهو قادر ... ويعصي الهوى في طيفها وهو راقد

متى يشتفي من لاعج الشوق في الحشا

محب لها في قربه متباعد

اذا كنت تخشى العار في كل خلوة

فلم تتصباك الحسان الخرائد

وقوله في قصيدة :

وقد استقدت من الهوى فأذقته ... من عفتي ما ذقت من بلباله

فليس من شك في أنه يلذ لدارس الأدب العربي أن يسمع هذه النغمة الرفيعة الحلوة التي انقطعت عن سمعه منذ جميل بثينة وقيس لبني وحلت محلها صيحات المتشدقين باتيان المآتم والمنكرات من أمثال بشار وأبي نواس ، وهمسات أولي الريب من امثال البحتري وابن المعتز . على اني أحب ان ألفتك بصورة خاصة الى هذا البيت الذي اعجب به القدماء اعجاباً شديداً أشاركهم فيه وهو :

يرد يداً عن ثوبها وهو قادر ... ويعصي الهوى في طيفها وهو راقد

فان شاعرنا لم يقنع من نفسه أن يكون عفيفاً في يقظته اذا خلا بحبيبته حتى كان عفيفاً في رقاده أيضاً حيث يأبى عليه عقله الباطن أن

يستجيب لدواعي اللذات ونوازع الشهوات . والبيت بعد كل هذا مبتكر كل الابتكار علاوة على أنه في منتهى الكرم والنبل ولك أن تقول مثل هذا في قوله :

وقد استقدت .. البيت .

فخره : أصدق من غزل المتنبي فخره الذي ملأ نفسه وفاض على لسانه فنطق به صبياً وما انفك يردده ويتغناه حتى آخر أيام حياته وليس من شك في أنه على جانب كبير من الفصاحة والشجاعة والاباء والوفاء والعفة وحدة الذهن وغزارة الحفظ ولكنه لو أضاف الى هذه المزايا السامية الكثيرة مزية أخرى واحدة وهي التواضع لكان ذلك في مصلحته ومصلحة الأدب ولكن العناية الآلهية لم ترد له ذلك فكثر زهوه واشتد غروره وأسرف في التحدث عن نفسه حتى أنه قسم عدداً غير قليل من مدائحه بينه وبين ممدوحيه واستأثر بأفضل القسمين فليس في مديح إميميته التي مطلعها :

ملامي النوى في ظلمها غاية الظلم لعل بها مثل الذي بي من السقم

ما يرتفع الى مثل قوله :

يحاذرني حتفي كأني حتفه وتنكزني الأفعى فيقتلها سمي(١)

طوال الرديني ات يقصفها دمي وبيض السريجيات يقطعها لحمي

. . . .

كأني دحوت الأرض من خبرتي بها

كأني بنى الاسكندر السدّ من عزمي

---

(١) تنكزني : تعظني بأنفعها .

وليس في مديح ميميته التي مطلعها :

لا افتخار الا لمن لا يضام مدرك أو محارب لا ينام

ما يرتفع الى قوله في نفسه :

ضاق ذرعاً بأن أضيق به ذر عاً زماني واستكرمتني الكرام
واقفاً تحت أخمصي قدر نفسي واقفاً تحت أخمصّي الأنام

ولكنه كان يتواضع بعض الشيء لسيف الدولة فاذا فخر في أثناء مديحه له قنع أن يكون موضع اعجابه ومحل تقديره :

إذا شاء أن يلهو بلحية أحمق أراه غباري ثم قال له الحق

أو عمد الى مصارحته بأنه (مدينة الشعر) على حد قول جرير « منها يخرج واليها يعود » وأن عليه أن لا يشرك شاعراً معه في جوائزه :

أجزني إذا أنشدت شعراً فانما بشعري أتاك المادحون مردّدا
ودع كل صوت غير صوتي فانني
أنا الطائر المحكي والآخر الصدى

أو ختم به الكرماء على أن يكون هو خاتمة الشعراء :

لا تطلبن كريماً بعد رؤيته إن الكرام بأسخاهم يداً ختموا
ولا تبال بشعر بعد شاعره قد أفسد القول حتى أحمد الصمم

وصفه : وما أحدثك بشيء جديد إذا قلت لك انه أبرع من وصف الحرب من شعراء اللغة العربية فان النقاد القدماء والمحدثين مجمعون على هذا . ولكني أحب أن أزعم أنه من ابرع وصّاف الطبيعة والحياة والاجتماع عندنا وتفوقه في فن من فنون الوصف لا ينبغي أن ينسينا براعته في فنونه الأخرى وما أريد أن أنكر أنه لم يكثر من وصف الرياض والحياض والجبال الشم والبطاح الخضر والجنان الفيح ولكنه وصف

الخيل مراراً عديدة وصفاً منقطع النظير ووصف (شعب بوان) و (بحيرة طبرية) و (غابة دشت الأرزن) وخروج عضد الدولة للصيد فيها ، وقتل بدر بن عمار أسداً بالسوط وارغامه آخر على الفرار وأشياء أخرى كثيرة وصفاً كله قوة وبراعة . إستمع الى وصفه الخيل في يائيته التي مدح بها كافور :

وجرداً(١) مددنا بين آذانها القنا فبتن خفافاً يتبعن العواليا
تماشى بأيدٍ كلما وافت الصفا نقشن بها صدر البزاة حوافيا
وتنظر من سود صوادق في الدجى
يرين بعيدات الشخوص كما هيا
وتنصب للجرس الخفي سوامعاً يخلن مناجاة الضمير تناديا
تجاذب فرسان الصباح أعنة كأن على الأعناق منها أفاعيا
بعزم يسير الجسم في السرج راكباً
به ويسير القلب في الجسم ماشيا

ووصفه فرسه في بائية يمدح بها كافور أيضاً :

ويوم كليل العاشقين كمنته أراقب فيه الشمس أيان تغرب
وعيني إلى أذني أغرّ كأنه من الليل باق بين عينيه كوكب
له فضلة عن جسمه في اهابه تجيء على صدر رحيب وتذهب
شققت به الظلماء أدني عنانه فيطغى وأرخيه مراراً فيلعب
وأصرع أي الوحش قفّيته به وأنزل عنه مثله حين أركب(٢)

---

(١) تعرب جرد منصوبة على المفعولية لأنها معطوفة على عدة مفاعيل في البيت السابق وهو :

ولكن بالفسطاط بحراً أزرته حياتي ونصحي والهوى والقوافيا

(٢) درس ناقد معاصر هاتين القصيدتين فقسمهما بين المتنبي وسيف الدولة وكافور وأهمل وصف الخيل فيهما على طرافته اهمالا تاماً ولا ادري لماذا فعل ذلك.

ووصفه الخيل في نونية مدح بها سيف الدولة :

قد الجياد الى الطعان ولم يقد ... الاّ إلى العادات والأوطان

كلّ ابن سابقة يغير لحسنه ... في قلب صاحبه على الأحزان

إن خلّيت ربطت بآداب الوغى

فدعاؤها يغني عن الأرسان(١)

فأنت ترى أنه تحدث في المثال الأول عن حوافر خيله فقال انها تنقش أمثال صدور البزاة في الصخور وناهيك بما في ذلك من الدلالة على الصلابة والقوة ، وعن أبصارها فقال إنها ترى الأشياء البعيدة في غسق الليل كما هي . وعن أسماعها فقال انها تنفذ الى همسات الضمائر والأرواح ، وعن قوة عزمها فقال إنها تسّير الجسوم في السروج والقلوب في الأجسام ، وفي المثال الثاني عن غرة فرسه فقال انها تتألق تألق الكوكب الوقاد ، وعن إهابه فقال ان له فضلة تجيء وتذهب على صدره ، وعما يعتريه من أحوال نفسية اذا أدنى عنانه اليه واذا أرخاه . وعن شدة عدوه فقال انها لا تتيح لأي الأوابد الافلات منه وعن وفرة نشاطه فقال انها لا تقل عند النزول عنه عما كانت عليه قبل الركوب . وفي المثال الثالث عن جمال خيل الممدوح فقال انه ينسي أصحابها همومهم وأحزانهم ، وعما دربّت عليه من آداب القتال فقال انها تستغني معه عن الأرسان .

وما أظنك تعاتبه بعد هذا كله على أنه نسي أو أهمل صفة من صفات

---

(١) للمتنبي شذرات اخرى عديدة في وصف الخيل ولكن أظن أني رويت احسن ما له في هذا الباب . :

الخيل الأدبية أو المادية .

أما وصفه شعب بوان فانه حديث مستفيض يصف فيه تعدد أجناسه واختلاف لغاته ولهجاته وكثرة أشجاره وطيب ثماره وجميل أثره لا في نفسه ونفوس أصحابه فحسب بل وفي نفوس خيلهم أيضاً فهو يجري على لسان جواده ذلك الحوار الرائع الذي لا أظن أن شاعراً سبقه اليه ، ودونك الآن هذا الوصف لتشاركني في تذوق جماله وتقدير ماله من القيمة الفنية الممتازة :

مغاني الشعب طيباً في المغاني ... بمنزلة الربيع من الزمان

ولكنّ الفتى العربي فيها ... غريب الوجه واليد واللسان

ملاعب جنة لو سار فيها ... سليمان لسار بترجمان

طبت(١) فرساننا والخيل حتى ... خشيت وإن كرمن من الحران

غدونا تنفض الأغصان فيها ... على أعرافها مثل الجمان

فسرت وقد حجبن الحرّ عني ... وجئن من الضياء بما كفاني

وألقى الشرق منها في ثيابي ... دنانيراً تفر من البنان

لها ثمر تشير إليك منه ... بأشربة وقفن بلا أوان

وأمواه تصلّ بها حصاها ... صليل الحي في أيدي الغواني

ولو كانت دمشق ثنى عناني ... لبيق الثرد صينيّ الجفان(٢)

يلنجوجي ما رفعت لضيف ... به النيران ندّيّ الدخان(٣)

---

(١) طبت : دعت .

(٢) لبيق : حاذق .

(٣) يلنجوجي : نسبة الى يلنجوج وهو البخور .

تحلّ به على قلب شجاع وترحل منه عن قلب جبان
منازل لم يزل منها خيال يشيّعني إلى النوبنذجان
يقول بشعب بوّان حصاني أعن هذا يسار إلى الطعان
أبوكم آدم سنّ المعاصي وعلمكم مفارقة الجنان
فقلت ، إذا رأيت أبا شجاع سلوت عن العباد وذا المكان

وأخيراً ما رأيك في هذا البيت الذي يصف المتنبي به سيفاً :

رقّت مضاربه فهن كأنما يبدين من عشق الرقاب نحولا

وفي هذا البيت الذي يصف به أسداً :

يطأ الثرى مترفقاً من تيهه فكأنه آس يجس عليلا

وفي هذا البيت الذي يصف به بحيرة طبرية :

كأنها في نهارها قمر حفّ به من جنانها ظلم

الواقع أن المتنبي شاعر مبدع في كل فن من فنون الوصف لا في وصف الحرب فقط كما ترى جمهرة النقاد .

مديحه : ومديح المتنبي كثير ، وهو كثير الهنات والهفوات أيضاً ، وهي هنات وهفوات تتعلق بالأخيلة والمعاني مرة والألفاظ والتعابير تارة . فما أظن أن أبا الطيب يفخر كثيراً بمعنى هذا البيت :

لو استطعت ركبت الناس كلهم الى سعيد بن عبدالله بعرانا

أو بمعنى هذين البيتين :

علّ الأمير يرى ذلي فيشفع لي الى التي تركتني في الهوى مثلا

أيقنت أن سعيداً آخذ بدمي لما بصرت به بالرمح معتقلا

وما أظن كذلك أنه يفخر كثيراً بتركيب هذا البيت :

جفخت(١) وهم لا يجفخون بهابهم شيم على الحسب الأغر دلائل

أو بتركيب هذا البيت :

ونهب نفوس أهل النهب أولى بأهل المجد من نهب القماش

ولكن مهما يكن من أمر هذه الهنات وتلكم الهفوات فاننا نستطيع - أستغفرالله - بل إننا مضطرون الى أن نقرر أن مديح الرجل في جملته رائع فخم كثير الحسنات جم الفوائد عالي الطبقة يتحدث عن السياسة فيجيد الحديث ويصوّر الوقائع الحربية الفاصلة فيبدع في التصوير ، ويصف أخلاق الرجال وفضائلهم الحقيقية فلا يقصر في الوصف. وما أعني باجادته حديث السياسة والحرب مدائحه سيف الدولة دون غيرها وانما أعني مديحه كله سواء في ذلك مديح بدر بن عمار وآل حمدان وكفور وابن العميد وعضدالدولة وغيرهم . على أنه مما لا شك فيه أنه يبلغ اوج شاعريته في تصوير حروب سيف الدولة المتوالية الطاحنة ولم لا يفعل ذلك وهو يتقاض نظيره ثلاثة آلاف دينار في السنة عدا الاقطاعات والهدايا والخلع ؟ أضف الى ذلك أنه كان يجد في سيف الدولة مثله الأعلى في الرجولية وشدة البأس وقلة المبالاة بالأخطار وكرم الطباع وتقدير العلم والأدب وتشجيع الملكات الراقية والمواهب الممتازة(٢) :

---

(١) جفخت : فخرت .

(٢) يختلف النقاد المحدثون في تقدير أثر سيف الدولة في المتنبي وبالعكس وعندي أن سيف الدولة كان متمماً للمتنبي فلولاه لما وجد ابو الطيب الرجل الذي يملأ نفسه ويستثير اعجابه ويستنزل آيات شاعريته .

أحبك يا شمس الزمان وبدره وان لامني فيك السهى والفراقد
وذلك لأن الفضل عندك باهر وليس لأن العيش عندك بارد

أما مدائح المتنبي لسيف الدولة فانها تتألف من ٢٨ قصيدة و٣١ مقطوعة تتضمن « ١٥١٢ » بيت لم تتفتق عن مثلها قريحة شاعر في الجاهلية ولا في الاسلام . وانك لتستعرض هذه المجموعة فلا تدري أتدهش لخطورة مالها من الأهمية التاريخية أم لعظم مالها من القيمة الفنية ! وما أعدك أن أستعرض هنا ما سجل أبو الطيب من حروب سيف الدولة واعماله المجيدة في الداخل والخارج على شدة رغبتي في ذلك لأن هذا الفصل أضيق بكثير من أن يتسع لمثل هذه المحاولة ولكني أكتفي بأن أروي لك ما سجل أبو الطيب من هزائم الروم المنكرة لمجرد سماعهم بأن سيف الدولة خرج لحربهم فقد وقع لهم ذلك مراراً عديدة ، وقع لهم ذلك في أواسط سنة ٢٤١ هـ ولم تشر كتب التاريخ الى هذه الهزيمة ولا ديوان المتنبي أيضاً ، وانما استدللنا عليها بقول المتنبي في أثنا قصيدته التي مطلعها :

واحر قلباه .. البيت

والتي يعاتب بها سيف الدولة :

فوت العدو الذي يممته ظفر في طيه أسف في طيه نعم(١)

---

(١) يقول : أسفت لفرار العدو الذي فاتك على ان فراره ظفر لك ونعمة على جيشك لأنه انتصر دون ان يتكبد خسارة ما .

قد ناب عنك شديد الخوف واصطنعت

لك المهابة مالا تصنع البهم(١)

ألزمت نفسك شيئاً ليس يلزمها أن لا يواريهم أرض ولا علم

أكلما رمت جبشاً فانثنى هرباً تصرفت بك في آثاره الهمم

عليك هزمهم في كل معترك وما عليك بهم عار إذا انهزموا

أما ترى ظفراً حلواً سوى ظفر

تصافحت فيه بيض الهند واللمم(٢)

فواضح أن هناك عدواً منهزماً وأن هزيمته لم تكن نتيجة قتال وانما كانت نتيجة خوف ورعب وأن هناك معقباً لهذا العدو أحزنه فوته وان كان هذا الفوت في حد ذاته ظفراً لامعاً . وقد انهزم الروم دون قتال في سنة ٣٤٤ هـ هزيمة أخرى أشنع من هذه غفلت عنها كتب التاريخ ولكن الديوان يروي لنا خبرها في شيء غير قليل من الدقة والتفصيل ، وإجمال الحادثة أن سيف الدولة كان قد بنى سنة ٣٤٣ هـ على الحدود الرومية الاسلامية قلعة تعرف بقلعة الحدث(٣) كانت قذىً في عيون الروم وشجى في حلوقهم ، فأجمعوا أمرهم على أن يهدموها ويطردوا المسلمين من الموضع الذي تقوم عليه وأعدوا لهذا الأمر عدته فأرسلوا في السنة التالية جيشاً يتألف من ٤٠٫٠٠٠ رجل أو أكثر وأحاطوا بالقلعة

---

(١) البهم : كصرد : جمع بهمة وهو الرجل الشجاع .

(٢) اللمم : جمع لمة وهو ما جاوز شحمة الأذن من الشعر .

(٣) خلد المتنبي بناء هذه القلعة في حينه ووصفه أروع وصف في ميميته التي مطلعها :

على قدر اهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

واتخذوا ما يمكن اتخاذه من التدابير للحيلولة دون وصول الخبر الى سيف الدولة ولكن كتمان خبر كهذا شيء مستحيل فما عتم الخبر أن بلغ مسامع سيف الدولة وخف هذا في الحال لنجدة القلعة وحاميتها المحصورة فما كاد يشرف على معسكر الروم حتى شملهم الذعر واستولى على قلوبهم الفزع ، وانهزموا لا يلوون على شيء كأنهم أمام بطل من أبطال الأساطير وكان هذا نصراً مؤزراً آخر لم ينشأ عن قتال وانما نشأ عن مهابة تغلغلت في أعماق النفوس وخوف نفذ الى قرارات القلوب والأرواح . وفي هذا يقول المتنبي هذه القصيدة الفذة التي لو لم يقل غيرها في سيف الدولة لكانت كافية لتخليدهما معاً ، وهي :

ذي المعالي فليعلون من تعالى ... هكذا هكذا ، وإلا فلالا

شرف ينطح النجوم بروقيـ(١)ـه وعز يقلقل الأجبالا

حالُ أعدائنا عظيم وسيف الد ... ولة ابن السيوف أعظم حالا

كلما أعجلوا النذير مسيراً ... أعجلتهم جياده الاعجالا

فأتتهم خوارق الأرض ما تحـ ... ـمل إلا الحديد والأبطالا

خافيات الألوان قد نسج النقـ ... ـع عليها براقعاً وجلالا

حالفته صدورها والعوالي ... لتخوضنّ دونه الأهوالا

وليمضّن حيث لا يجد الرمـ ... ـح مداراً ولا الحصان مجالا

لا ألوم ابن لاونٍ ملك الرو ... م وإن كان ما تمنى محالا

أقلقته بنيّة بين أذنيـ ... ـه وبان بغى السماء فنالا

كلما رام حطّها اتسع البـ ... ـني فغطى جبينه والقذالا

---

(١) الروق : القرن .

يجمع الروم والصقالب والبلـ ـغر فيها ويجمع الآجالا
وتوافيهم بها في القنا السمر كما وافت العطاش الصلالا(١)
قصدوا هدم سورها فبنوه وأتوا كي يقصروه فطالا
واستجرّوا مكايد الحرب حتى تركوها لها عليهم وبالا
رب أمر أتاك لا تحمد الفـ ـعّال فيه وتحمد الأفعالا
وقسيٍّ رميت عنها فردت في قلوب الرماة عنك النصالا
أخذو الطرق يقطعون بها الرسـ ـل فكان انقطاعها إرسالا
وهم البحر ذو الغوارب إلا أنه صار عند بحرك آلا
ما مضوا لم يقاتلوك ولكـ ـنّ القتال الذي كفاك القتالا
والذي قطع الرقاب من الضر ب بكفيك قطّع الآمالا
والثبات الذي أجادوا قديماً علّم الثابتين ذا الاجفالا
نزلوا في مصارع عرفوها يندبون الأعمام والأخوالا
تحمل الريح بينهم شعر الها م وتذري عليهم الاوصالا
تنذر الجسم أن يقيم لديها وتريه لكل عضو مثالا
أبصروا الطعن في القلوب دراكاً قبل أن يبصروا الرماح خيالا
وإذا حاولت طعانك خيل أبصرت أذرع القنا أميالا
بسط الرعب في اليمين يميناً فتولوا وفي الشمال شمالا
ينفض الروع أيدياً ليس تدري أسيوفاً حملن أم أغلالا

---

(١) الصلال : جمع صلة وهي ارض ممطورة بين ارضين لم يصبهما مطر .

ووجوهاً أخفها منك وجه تركت حسنها له والجمالا
والعيان الجليّ يحدث للظن زوالا وللمراد انتقالا
وإذا ما خلا الجبان بأرض طلب الطعن وحده والنزالا
أقسموا لا رأواك الا بقلب طالما غرّت العيون الرجالا
أي عين تأملتك فلاقت ـك وطرف رنا إليك فآلا؟
ما يشك اللعين في أخذك الجيش فهل يبعث الجيوش نوالا
ما لمن ينصب الحبائل في الأر ض ومرجاه أن يصيد الهلالا ؟
إن دون التي على الدرب والأحدب والنهر مخلطاً مزيالا(١)
غصب الدهر والملوك عليها فبناها في وجنة الدهر خالا
وحماها بكل مطّرد الأكعب جور الزمان والأوجالا
فهي تمشي مشي العروس اختيالاً وتثنى على الزمان دلالا
في خميس من الاسود بئيس(٢) يفترسن النفوس والأموالا
وظبى تعرف الحرام من الحلّ فقد أفنت الدماء حلالا
إنما أنفس الأنيس سباع يتفارسن جهرة واغتيالا
من أطاق التماس شيء غلاباً واغتصاباً لم يلتمسه سؤالا
كل غاد لحاجة يتمنّى أن يكون الغضنفر الرئبالا

وانهزم الروم سنة ٣٥٢ للهجرة هزيمة منكرة ثالثة دون قتال ، لا تقل

---

(١) المخلط المزيال : الرجل الكثير المخالطة والمزايلة للامور والمراد به هنا سيف الدولة .

(٢) البئيس الشديد البئس

شناعة وبشاعة عن الهزيمتين السالفتين واجمال ذلك « كما يقول الديوان » لا كما تقول كتب التاريخ التي تسكت عن هذه الحادثة أيضاً كل السكوت أن سيف الدولة مرض في هذه السنة فانتهز الروم هذه الفرصة وجاءوا بجيش جرّار نزل على طرسوس وحاصرها فأرسل أهلها الى سيف الدولة يستغيثونه ويستنجدونه ويهددونه بالاستسلام اذا هم لم ينجدوا فخف الامير الحمداني لنجدتهم رغم اعتلال صحته ، فلما اتصل خبره بالدمستق أفرج عن طرسوس وولى على عقبه قافلاً الى بلاده دون أن يصنع شيئاً. وكان هذا نصراً مؤزّرا ثالثاً لسيف الدولة لم ينشأ عن قتال وانما نشأ عن مخافة مستحكمة الحلقات ومهابة تفعل فعل الجيوش في نفوس الأعداء . وكان أبو الطيب يومئذ بالكوفة عائداً من الفسطاط وسيف الدولة يراسله ويبعث له الهدايا من حين لآخر كما مرّ . فكتب اليه بهذه المناسبة يستدعيه الى حلب ويؤمنه على نفسه فاجابه بقصيدة وصف فيها هذا النصر المؤزّر وصفاً بليغاً أقتطف لك منه هذه الأبيات :

وغرّ الدمستق قول العداة ... إن علياً ثقيل وصب

وقد علمت خيله أنه ... إذا همّ وهو عليل ركب

أتاهم بأوسع من أرضهم ... طوال السبيب قصار العسب(١)

تغيب الشواهق في جيشه ... وتبدو صغاراً إذا لم تغب

ولا تعبر الريح في جوّه ... إذا لم تخط القنا أو تثب

---

(١) الضمير في قوله (أتاهم) عائداً الى (أهل الثغور) المذكورين في بيت سابق والسبيب : شعر الناصية والعرف والذنب . والعسب : جمع عسيب وهو عظم الذنب والمراد بهذا خيل العدو يقول : أتاهم بخيل لا تتسع لها ارضهم .

فغرّق مدنهم بالجيوش وأخفت أصواتهم باللجب
فأخبث به طالباً قتلهم وأحبب به تاركاً ما طلب
نأيت فقاتلهم باللقاء وجئت فقاتلهم بالهرب
وكانوا له الفخر لما أتى وكنت له العذر لما ذهب
سبقت إليهم مناياهم ومنفعة الغوث قبل العطب
فخرّوا لخالقهم سجداً ولو لم تغث سجدوا للصلب

إن الذي نعرفه من أمر كبار القادة وكبار الشعراء هو أن الأولين يخوضون المعارك ويفتحون الممالك أو يقتحمونها الى حين ، وأن الآخرين يمجدون ظفرهم ويشيدون بشجاعتهم ومهارتهم ويهنئونهم بالفوز المبين فأما أن ينتصر القائد بمجرد سمعته مراراً عديدة على عدوه التام الأهبة الكامل الاستعداد فهذا ما لم يحدث - فيما أعلم - لأحد سوى سيف الدولة من القواد ولم يسجله أحد سوى أبي الطيب من الشعراء .

هجاؤه : وكما نظم أبو الطيب أجمل المديح وأروعه ، نظم كذلك أقبح الهجاء وأوجعه وأشنعه . وهجاؤه يمتاز بالصرامة والبذاءة وليس في صرامته ما يبعث على الاستغراب ، فان المتنبي رجل فتك وبطش يقسو على خصومه قسوة هائلة ولا يحجم عن أن ينزل بهم الضربات القاصمة والنكبات الماحقة اذا تسنى له ذلك ولكن الجدير بالاستغراب حقاً هو هذه البذاءة التي كان على الشاعر أن يعصم منها أدبه وينزه عنها لسانه وقلمه . ومن غريب أمره في الهجاء أنه ربما جمع بين أجمل فرائد

الحكم وأقبح أنواع السباب في القصيدة الواحدة فليس طبيعياً أن يكون قائل :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم
والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم
و : ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

هو قائل ما في نفس القصيدة التي تنتظم هذه الأبيات من كلام بذيء لا تستحي من قراءته وسماعه العذراء فحسب بل الرجل الكريم الذي تعصمه مروءته أن يقرأ أو يسمع ما يأباه له كرمه ولا يسمح به أدبه . وقد رويت لك مثلاً من أخف هجاء المترجم وأقله صرامة عند الكلام على زيارته بغداد فلا حاجة الى المزيد منه .

عتابه : أما عتابه فانه نسيج وحده ، ذلك أنه يكشف النقاب عما يكنّ في صدره من حب خالص وولاء صادق حتى يخيّل لك أنه سيترامى على أقدام صاحبه ليستندي قلبه ويحصل على رضاه مهما كان الثمن :

مالي أكتّم حباً قد برى جسدي وتدّعي حب سيف الدولة الأمم
إن كان يجمعنا حب لغرته فليت أنّا بقدر الحب نقتسم
قد زرته وسيوف الهند مغمدة وقد نظرت إليه والسيوف دم
فكان أحسن خلق الله كلهم وكان أحسن ما في الأحسن الشيم

ولكنه لا يلبث أن ينتفض للدفاع عن عاطفته المجروحة وكرامته المهانة انتفاض الأسد الجريح فيبرق ويرعد ويرغي ويزبد ويتوعد بكل ما تصل اليه يده من شر وأذى ان لم يقض حقه وترع حرمته وتحفظ كرامته :

كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم ... ويكره الله ما تأتون والكرم

ما أبعد العيب والنقصان من شرفي ... أنا الثريا وذان الشيب والهرم

ليت الغمام الذي عندي صواعقه ... يزيلهن إلى من عنده الديم

أرى النوى تقتضيني كل مرحلة ... لا تستقل بها الوخادة الرسم

لئن تركن ضميراً عن ميامننا ... ليحدثن لمن ودعتهم ندم

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ... أن لا تفارقهم فالراحلون هم

شر البلاد مكان لا صديق به ... وشر ما يكسب الانسان ما يصم

وشر ما قنصته راحتي قنص ... شهب البزاة سواء فيه والرخم

بأي لفظ تقول الشعر زعنفة ... تجوز عندك لا عرب ولا عجم

هذا عتابك إلا أنه مقة ... قد ضمن الدر الا أنه كلم

ولك أن تقارن بين عتاب المتنبي هذا وبين ما قدمت من عتاب البحتري في موضعه لتتبين مبلغ حرص الأول على مكانته وكرامته وحرص الثاني على رضى الممدوح وجائزته كائناً ثمنهما ماكان .

رثاؤه : وقد اتهم بعض النقاد أبا الطيب بالعجز عن الرثاء الرقيق الفياض بالمشاعر والانفعالات ، وعزا ذلك الى نضوب معين العاطفة في قلبه ، ولكنها تهمة باطلة فأبو الطيب رقيق العاطفة جياش الشعور مرهف الاحساس ولكن هذا لا يعني أن يصطنع النفاق ويعمد الى الكذب فيزعم أنه حزين شديد الحزن وما هو من الحزن في شيء وأنه متفجع ملتاع وما هو من التفجع والالتياع في كثير ولا قليل .

للمتنبي رثاء كثير ولكنّ الذين آلمه فقدهم حقيقة ممن رثى قليلون جداً . هو شاعر سيف الدولة وصديقه ، هذا صحيح ، ولكنه لا يعني أنه لا بد له من أن يجزع لفقد والدته وأن يحزن أشد الحزن لوفاة أختيه وابنه الرضيع أبي الهيجاء ومملوكه يماك . أما عضد الدولة فانه ضيف طاريء عليه وهو لا يعرف عن عمته المتوفاة ببغداد أكثر مما يعرف عن أية أمرأة غريبة لا تجمع بينها وبينه جامعة ولا تربطه بها رابطة . ولسنا نعرف شيئاً عن صلته بمحمد ابن إسحاق التنوخي الذي رثاه بعدة مراث قصيرة فيها شيء لا بأس به من التفجع المصطنع وليس فيها شيء من اللوعة الصادقة والعاطفة الحقيقية .

هو إذن معذور إذا الجأ لسرد الآراء الفلسفية المتعلقة بالحياة والموت والى تعداد فضائل المرثي واطراء مناقب المعزّى وطلب العزاء والسلوان له في أكثر مراثيه لأنه لا شيء لديه غير هذا . على أنك اذا أردت أن تعرف قدرة أبي الطيب على الرثاء الرقيق المؤثّر فماعليك إلا أن تقرأ قوله في رثاء جدته :

لك الله من مفجوعة بحبيبها ... قتيلة شوق غير ملحقها وصما
أحن الى الكأس التي شربت بها ... وأهوى لمثواها التراب وما ضما
بكيت عليها خيفة في حياتها ... وذاق كلانا ثكلُ صاحبه قدما
ولو قتل الهجر المحبين كلهم ... مضى بلد باق أجدّت له صرما
أتاها كتابي بعد يأس وترحة ... فماتت سروراً بي فمت بها غما
رقا دمعها الجاري وجفت جفونها ... وفارق حبي قلبها بعد ما أدمى
ولم يسلها إلا المنايا وإنما ... أشد من السقم الذي أذهب السقما

وقوله في رثاء صديقه أبي شجاع فاتك الرومي :

الحزن يقلق والتجمل يردع والدمع بينهما عصيٌّ طيّع
يتنازعان دموع عين مسّهد هذا يجيء بها وهذا يرجع
النوم بعد أبي شجاع نافر والليل معي والكواكب طلّع

* * *

برّد حشاي إن استطعت بلفظة
فلقد تضرّ إذا تشاء وتنفع

أترى أن هذه الأبيات كلام جاف لا عاطفة فيه ولا شعور أم ترى أنها حسرات تجيش ودموع تترقرق وتنهدات كلها أحزان وآلام ؟

فلسفته : وتسألني رأيي فيما يزعمه ويحاول أن يقيم عليه الدليل بعض النقاد المعاصرين من أن المتنبي فيلسوف وأجيب بأن هذا زعم غير صحيح بل إنه إقحام للرجل على الفلسفة ولها عليه والواقع أنه شاعر عظيم كثير التجربة واسع الخبرة بالحياة والناس جم الاطلاع قرأ القرآن والحديث وخطب الراشدين وما نقل الى العربية من أقوال فلاسفة اليونان والهنود والفرس وحكم عقلاء الشعراء كزهير بن أبي سلمى والنابغة الذبياني والأفوه الأودي وغيرهم . ووعى منها الشيء الكثير ان لم يكن وعاها كلها فكان له من هذا ثروة فكرية ضخمة تمده بروائع الحكم وشوارد الأمثال كلما احتاج الى شيء من هذا . على أنه من المهم أن نعرف السبب الذي يدفعه الى تسجيل خطراته الفلسفية في كثير من قصائده ومقطوعاته ، أهو الرغبة في تقرير مذهب فلسفي أم

هو الرغبة في تأييد وجهة نظر يقتضيها مديح ممدوح أو الترفيه عن خاطر صديق مكدود أو التعبير عن عاطفة مكبوتة وشعور مكظوم ؟ .

إنك اذا رجعت الى ديوانه وتدبرت حكمه وأمثاله وتأملتها طويلاً رأيت أن السبب الثاني هو الذي يمليها عليه ، ثم هو بعد هذا وذاك متناقض يقول الشيء وضده فهو يقول في مكان :

إلف هذا الهواء أوقع في الأنـ ـفس أن الحمام مُرّ المذاق
والاسى قبل فرقة الروح عجز والأسى لا يكون بعد الفراق

ومعنى هذا أنه ليس في قرارة هذا الانسان أو في غرائزه ما يحبب اليه الحياة ، ويرغّبه فيها ، ولكن إلفة هذا الهواء هي التي تخدعه عن حقيقتها وتحمله على الركون اليها والتمسك بها في غير ما تعقل ولا تدبر ولكنه يقول في مكان آخر :

ولذيذ الحيـــاة أنفس في النفـ ـس وأشهى من أن يملّ وأحلى
وإذا الشيخ قال أف فما ملّ حيـــاة وانما الضعف مـلاّ

ومعنى هذا أن حب الحياة أمر غريزي فطري يسيّرنا ويسيطر على حركاتنا وسكناتنا وليس في وسعنا أن نتخلص منه أو نتمرد عليه . ويقول في مكان :

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر

ومعنى هذا أنه زاهد بالحياة معرض عنها لا يجمع منها حطاماً ولا يدّخر فيها مالاً ولكنه يقول في مكان آخر :

وفي الناس من يرضى بميسور عيشه ومركوبه رجلاه(١) والثوب جلده

---

(١) هكذا في الديوان وربما كان الصواب فمركوبه .

ولكنّ قلباً بين جنبي ماله مدى ينتهي بي في مراد أحدّه -

ومعنى هذا أنه مفتون بالدنيا فتنة شديدة محب لها حباً لا ينتهي الى عزاء أو سلوان . ويقول :

ومراد النفوس أصغر من أن تتعادى فيه وأن تتفانى

ومعنى هذا أنه يدعو للرفق والتسامح والمسالمة ، ولكنه لا يكاد يلفظ هذا البيت حتى ينقضه نقضاً بما يدعو للكفاح والنضال والتطاحن في الأبيات التالية :

غير أن الفتى يلاقي المنايا كالحات ولا يلاقي الهوانا
ولو أن الحياة تبقى لحي لعددنا أضلنا الشجعانا
وإذا لم يكن من الموت بدّ فمن العجز أن تكون جبانا

الواقع أن المتنبي شاعر قبل كل شيء ، وبعد كل شيء ، ولكنه يعرف الأدب والتاريخ والفلسفة والحياة والناس معرفة تلهمه خطرات فلسفية كثيرة تستقيم مرة وتتناقض تارة وتصيب حيناً وتخطيء حيناً آخر .

لغته وأسلوبه : وقد أحصى القدماء كل كبيرة وصغيرة من سقطات المتنبي التي تتعلق بلغته وأسلوبه ونسوا أن يحسبوا حساباً للزمن الذي حصل فيه معظم هذه السقطات ، فقد حصل معظمها يوم كان الشاعر يجوب القفار ويتنقل بين الأمصار ماشياً على قدميه لأنه لا يملك راحلة يستخدمها في أسفاره :

ومهمه جبته على قدمي تعجز عنه العرامس الذلل

ويوم كان الشاعر من نحافة البنية بحيث يقول عن نفسه :

برتني السرى بري المدى فرددتني أخف على المركوب من نفسي جرمي

ويوم كان الشاعر لا يرتدي سوى الغليظ الخشن من الثياب :

لسريّ لباسه خشن القط ن ومروي مرو لبس القرود

وما أظن أنه من العدل أن تطلب الى الشاعر الذي لا يملك ما يسد به رمقه أن يقدم لنا إنتاجاً راقياً سليماً لا يتطرق اليه الضعف في ناحية من نواحيه فلا كلمة نابية ولا تعبير ركيك ولا تشبيه مبتذل ولا خيال غير مستحسن ٠

إن الظروف التي تكتنف حياة الشاعر فتؤثر في جسمه وعقله وتسيطر على تفكيره لا ينبغي أن تهمل في حساب الناقد النزيه ٠ ونحن نستطيع أن نقسم حياة أبي الطيب الى دورين مختلفين كل الاختلاف :

أحدهما ـ دور شقاء وبؤس وفقر وتشرد يبتديء بطفولته وينتهي بدخوله بلاط سيف الدولة ٠

وثانيهما ـ دور رخاء ويسر واستقرار نسبي يبتديء بانتظام الشاعر في حاشية الأمير الحمداني وينتهي بمقتله ٠

وقد قلت لك ان معظم هفواته التي يحاسبه عليها القدماء حساباً لا رحمة فيه ولا شفقة حصل في الدور الأول من حياته ٠ ومع ذلك فاننا اذا قسنا سيئاته من حيث اللغة والأسلوب الى حسناته في هذا الدور نفسه ٠ رجحت الثانية على الأولى رجحاناً ظاهراً ودفعتنا دفعاً الى عده في طليعة شعراء اللغة العربية فصاحة لفظ ومتانة تعبير وبراعة مثل وجمال حلية بيانية ٠ استمع الى قوله في صدر قصيدة يمدح بها المغيث بن علي بن بشر العجلي ٠

فؤاد ما تسليه المدام وعمر مثل ما يهب اللئام

ودهر ناسه ناس صغار وإن كانت لهم جثث ضخام
وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام
أرانب غير أنهم ملوك مفتحة عيونهم نيام
بأجسام يحر القتل فيها وما أقرانها ألا الطعام(١)
وخيل ما يخر لها طعين كأن قنا فوارسها ثمام(٢)
خليلك أنت لا من قلت خلي وان كثر التجمل والكلام
ولو حيز الحفاظ بغير عقل تجنب عنق صيقله الحسام
وشبه الشيء منجذب اليه وأشبهنا بدنيانا الطغام
ولو لم يعل إلا ذو محل تعالى الجيش وانحط القتام

* * *

ومن خبر الغواني فالغواني ضياء في بواطنه ظلام

* * *

وما كل بمعذور ببخل ولا كل على بخل يلام

وقوله في مديحها :

يروع ركانة ويذوب ظرفاً فما يدرى أشيخ أم غلام

* * *

أقامت في الرقاب له أياد هي الأطواق والناس الحمام

---

(١) يقوا، يكثر فيهم الموت ولكنهم لا يموتون الا بالتخمة .
(٢) الثمام : نبات ضعيف .

وقوله في رهط الممدوح :

نصرّعهم بأعيننا حياء وتنبو عن وجوههم السهام

وقوله من أخرى :

أطاعن خيلاً من فوارسها الدهر
وحيداً وما قولي كذا ومعي الصبر
وأشجع مني كل يوم سلامتي وما ثبتت الا وفي نفسها أمر
تمرّست بالآفات حتى تركتها تقول أمات الموت أم ذعر الذعر
وأقدمت إقدام الأتّي(١) كأن لي
سوى مهجتي أو كان لي عندها وتر
ذر النفس تأخذ وسعها قبل بينها فمفترق جاران دارهما العمر
ولا تحسبّن المجد زقاً وقينةً فماالمجد الا السيف والفتكة البكر
وتضريب أعناق الملوك وأن ترى
لك الهبوات(٢) السودوالعسكر المجر(٢)
وتركك في الدنيا دوياً كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر
إذا الفضل لم يرفعك عن شكر ناقص
على هبة فالفضل فيمن له الشكر
ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر

وقوله في أخرى :

أحق عافٍ بدمعك الهمم أحدث شيء عهداً بها القدم
وإنما الناس بالملوك وما تفلح عرب ملوكها عجم

---

(١) الأتي : السيل .
(٢) الهبوات : الغبرات .
(٣) المجر : الكثير .

لا أدب عندهم ولا حسب ولا عهود لهم ولا ذمم
في كل أرض وطئتها أمم ترعى بعبد كأنها غنم
يستخشن الخز حين يلمسه وكان يبرى بظفره القلم

وقوله في مديح أخرى :

كأن الهام في الهيجا عيون وقد طبعت سيوفك من رقاد
وقد صغت الأسنة من هموم فما يخطرن إلا في فؤادي

وقوله متغزلاً من أخرى :

هام الفؤاد بأعرابية سكنت بيتاً من القلب لم تمدد له طنبا
مظلومة القد في تشبيهه غصناً مظلومة الريق في تشبيهه ضربا

وبعد : أترى أني مسرف اذا قلت لك ان فصاحة اللفظ ومتانة التعبير وجودة المثل وجمال الزخرفة البيانية على اختلاف أنواعها من تشبيه واستعاره وطباق هي الخصائص التي تمتاز بها لغة أبي الطيب وأسلوبه حتى في أيام بؤسه وشقائه واضطراب حاله وتشرده ، أما في عهد الاستقرار النسبي عند سيف الدولة وأقول نسبي لأنه حصل على المال ولم يحصل على طمأنينة البال ، فقد كان محاطاً بجيش من الخصوم والحساد لا ينقطعون عن الكيد له والطعن عليه . أقول : أما في هذا العهد فقد ازدهرت تلك الخصائص ازدهاراً باهراً تمثله سيفياته التي سبق أن

أفضيت لك برأيي فيها عند الكلام على مديحه ورويت لك مثلاً منها تكفي للدلالة على وجاهة هذا الرأي وقل مثل ذلك في كافورياته التي رويت لك منها مثلاً قليلة جداً عند الكلام على وصفه ولكنك تستطيع أن تجدها في ديوانه وتقرأ منها ما تشاء .

لقد كان على الصاحب بن عباد وأشياعه أن يعلموا أنهم باحصائهم عيوب أبي الطيب وزلاته وغلّوهم في هذا الاحصاء انما يضيفون الى مجده مجداً والى فخره فخراً .

د ـ خاتمة :

يتفق النقاد القدماء على أن أكبر شعراء العربية ثلاثة هم :

أبو تمام والبحتري والمتنبى . ويرى أبو العلاء أن أبا تمام والمتنبي حكيمان والبحتري هو الشاعر وعندي أنه لا سبيل للمقارنة بين البحتري وصاحبيه لأنه مبرز في نوعين من القريض لم يكونا من رجالهما ألا وهما : وصف القصور ، والغزل الرقيق .

ولكني لا أجد بأساً في المقارنة بين أبي تمام والمتنبي فكلاهما صاحب فكر قبل أن يكون صاحب خيال ، وكلاهما رائد معان قبل أن يكون رائد ألفاظ وكلاهما مؤثر للّفظ الفصيح والتعبير البليغ وان كانا يختلفان من ناحية الزخرفة البيانية فأبو تمام يتكلفها في كثير من الاحيان تكلفاً

والمتنبي لا يأتيها في الغالب إلا عفوً وكلاهما مجيد في وصف الحرب والسياسة وكلاهما بعد كل ذلك صاحب حكم باهرة وأمثال سائرة ، ولكن يخيّل إليّ أن نصيب أبي تمام من هذا كله أقل بكثير من نصيب صاحبه بل اني أذهب الى أبعد من ذلك فأزعم أنه يختفي تحت شعاع عبقرية أبي الطيب كما يختفي القمر تحت شعاع الشمس .

الفصل الثاني

أبو فراس الحمداني

أ ـ حياته : اسمه ونسبه وكنيته • مولده ونشأته • إتصاله بسيف الدولة • إمعان هذا في اصطفائه وتقريبه • تفانيه في خدمة سيف الدولة • فساد ذات بينهما • سببه • بعض ما نشأ عنه • أسره • إساءة الروم معاملته في خرشنه • نقله الى القسطنطينية • ما لقي فيها من تبجيل ورعاية • عرض فداء منفرد عليه • رفضه إياه • الافراج عنه • وفاته •

ب ـ أخلاقه : كرمه • شجاعته • خفة طبعه • بعض أخباره الدالة على ظرفه ومرحه • هفواته الثلاث وما تدل عليه •

ج ـ شعره : ديوانه • طبعاته • غزله • ما كان منه غرامياً وما لم يكن • رمزيته • مديحه • ما له من القيمة التاريخية • مثل منه • فخره • ميزته • ما جرى له مع جماعة من كلاب • وصفه • ما جرى له مع بني جعفر • تصويره • فخره بحسن سيرته • مثل منه • إخوانياته • مالها من الدلالة على أخلاقه • مثل منها • روميّاته • على ماذا تحتوي • مثل منها • لغته وأسلوبه • بعض هفواته • أمثاله • تشبيهاته • مثل منها •

د ـ خاتمة : منزلته بين كبار شعراء الفروسية •

أ - حياته :

حُدثتك في الفصل السابق عن سوقة رفعه الشعر الى مجالسة الملوك ومعاشرة الأمراء والوزراء ، وأحدثك الآن عن أمير لم يقل الشعر الا لأنه فنّ من أرفع الفنون ووسيلة من أحسن الوسائل للتعبير عن أغراض البطولة والفروسية ، ومما هو جدير بالذكر أن هذين الشاعرين المختلفي المنبت والمحتد والغاية مدينان معاً بالشيء الكثير من شاعريتهما لشخصية سيف الدولة الجذابة وحروبه وأعماله الباهرة وتشجيعه الأدبي والمادي ، هذا إلى أنهما تخاصما فيه خصومة مرة وتنافسا في عطفه وتقديره تنافساً شديداً ، وما أشك في أنك عرفت الآن أن الأمير الشاعر الذي سيدور حوله البحث هو الحارث بن سعيد بن حمدان المكنّي بأبي فراس شاعر الفرسان وفارس الشعراء .

يختلف مؤرخو الأدب القدماء في ولادة أبي فراس بعض الاختلاف فمنهم من يقول إنه ولد سنة عشرين وثلاثمائة ومنهم من يقول إنه ولد سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة . ثم هم جميعاً لا يعنون بمسقط رأسه فلا يعيّنه أحد منهم . ولكنّ مؤرخي الأدب المحدثين يتلافون هذا النقص فيقولون لنا إنه ولد « بمنبج » وهي مدينة تابعة لحلب(١) . ويخيّل إليّ أنه ليس في هذه الاقوال جميعاً ما يمكن الاعتماد عليه والاطمئنان إليه . فما أظن ان ابا فراس ولد سنة عشرين او احدى وعشرين وثلاثمائة للهجرة لأنه عاش اربعين سنة بدليل قوله :

---

(١) خرج على هذا الاجماع الدكتور سامي الدهان ناشر ديوان ابي فراس ومترجمه الى الفرنسية فانه ذهب الى ان ابا فراس ولد في الموصل .

أبعد الأربعين محرّمات تماد في الصبابة واغترار

ولأنه قتل سنة سبع وخمسين وثلاثمائة للهجرة باجماع المؤرخين. فاذا كان أبو فراس قد عاش أربعين سنة كما يقول هو وإذا كان قد قتل سنة سبع وخمسين وثلاثمائة كما يقول المؤرخون كافة ، فيجب أن يكون قد ولد سنة ثماني عشر وثلاثمائة للهجرة على اقل تقدير . وما أظن أن أبا فراس ولد بمنبج لأننا إذا تتبعنا تأريخ أبيه في السنوات العشر الأخيرة من حياته رأينا أن « الموصل » كانت مقره دائماً ولذلك يمكننا أن نرجّح ترجيحاً يشبه الجزم أن أبا فراس ولد في الموصل عاصمة آبائه وأجداده ومقر ملكهم وعظمتهم . وقد أفترض المحدثون ان المترجم ولد بمنبج لأنه كان يحكمها حكماً اقطاعياً ولكن حكمه أياها لا يعني أنه ولد فيها .

وقد قتل والده في الموصل سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة للهجرة ، قتله أبن أخيه ناصرالدولة لأنه ضمن الموصل سراً من الراضي بالله وجاء ليتسلمها منه وكان يحكمها بطريق الضمان ، فبعث اليه جماعة من غلمانه قتلوه (عصروا مذاكيره) وعلى هذا ، وبصورة باتة ، نشأ ابنه الحارث يتيماً في الموصل(١) فكفله ابن عمه وزوج شقيقته سيف الدولة ونشأه أحسن تنشئة وربّاه أفضل تربية . وأبو فراس شديد الاعتزاز بهذه النشأة عظيم

---

(١) يذكر الدكتور سامي الدهان ان والدة ابي فراس طافت به في حواضر الحمدانيين متنقلة بين آمد ، وميافارقين ، وماردين ، والرقة . ديوان ابي فراس ج٢ ص١٠٢ ولا ادري من أين اخذ هذا .

الفخر بهذه التربية وقد ذكرها ونوّه بها في شعره مراراً عديدة فمن ذلك قوله من قصيدة :

وكيف ينتصف الأعداء من رجل ... المجد أوله والعز آخره

ومن سعيد بن حمدان ولادته ... ومن علي بن عبدالله سائره

وعلي بن عبدالله هو سيف الدولة .

ولم تكد سن أبي فراس تسمح بتدريبه على اقتحام المخاطر وخوض المعامع ومعالجة قضايا السياسة والادارة حتى أخذ ابن عمه يستصحبه في غزواته ويستخلفه على أعماله ، مريداً بذلك أن يكون نابغة الحرب والسياسة في وقت واحد كما كان هو . ويحدثنا أبو فراس أنه كان يستغرب كثيراً تعريض ابن عمه إياه للسيوف والحراب مع أنه يحبه حباً لا مزيد عليه . إلا أنه أدرك سر موقف ابن عمه منه عندما نادى به في مجمع حافل بكبار الأمراء والقواد فارساً مقداماً وبطلاً هماماً مثنيا على شجاعته أحسن ثناء ، مطرياً أقدامه وبسالته أجمل اطراء :

يامن يحاذر أن تمضي عليّ يد ... مالي أراك لبيض الهند تسمح بي؟

وأنت بي من أضن الناس كلهم ... فكيف تبذلني للسمر والقضب؟

ما زلت أجهله فضلاً وأنكره

وأوسع النفس من عُجب ومن عجب

حتى رأيتك بين الناس محتفياً ... تثني عليّ بوجه غير متّئب(١)

فعندها وعيون الناس ترمقني ... علمت أنك لم تخطيء ولم أصب

---

(١) متئب : منقبض .

وكان أبو فراس يقابل عطف سيف الدولة الشديد هذا بالتفاني في خدمته والاخلاص لشخصه والذود عن حياض دولته ٠

يا سيف ، سيف الدولة الماضي إذا
نبت السيوف وخان كل مصمم

إرم الكتائب بي فانك عالم أني أخو الهيجاء غير مذمم
وعلّي أن القى الفوارس معلماً وعلّو جدّك عدتي وعرمرمي
أنا سيفك الماضي وليس بقاطع سيف إذا هو لم يشدّ بمعصم

وقد مكث هذان الاميران المتحابان سنين كثيرة وهما أشبه بأخوين بل بحبيبين ٠ حدث الثعالبي في اليتيمة قال : « نظر سيف الدولة ذات يوم الى نفر من جلسائه فيهم أبو فراس وقال لهم : من منكم يجيز هذا البيت ، وليس له إلا سيدي - يريد أبا فراس - والبيت هو :

لك جسمي تعلّه فدمي لم تحله

فأجازه أبو فراس على الفور بقوله :

أنا إن كنت مالكاً فلي الأمر كله

فسر سيف الدولة ببيت أبي فراس سروراً عظيماً واقطعه ضيعة بمنبج غلتها الف دينار في السنة ٠

وكان يبدو بعيداً كل البعد أن تفسد علاقة أبي فراس بسيف الدولة ، الا أن هذا حصل فعلا ٠ ويحار المؤرخون في تعليل هذه الظاهرة الغريبة فيعزوها بعضهم الى كلمة ثقيلة كتب بها أبو فراس من الأسر الى سيف الدولة وهي: « مفاداتي ان ثقلت عليك ائذن لي أن أكاتب بها ملوك خراسان » ولكن هذا غير صحيح ، فقد ساءت علاقة أبي فراس بسيف الدولة قبل أن يؤسر ٠

والذي أراه ، أن علاقتهما ساءت بسبب قتال نشب بين أبي فراس وبين نفر من الحمدانيين يظهر أنه لم يكن محقاً فيه ولكنه كان يأمل مع ذلك أن يقف سيف الدولة الى جانبه وينصره على خصمه عملاً بالنظرية القائلة « أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » إلا أن سيف الدولة خيّب امله بالانتصاف لخصمه منه فشق عليه ذلك كثيراً وكتب اليه يقول :

قد كنت عدّتي التي أسطو بها
ويدي إذا اشتد الزمان وساعدي
فرميت منك بغير ما أملته
والمرء يشرق بالزلال البارد
فصبرت كالولد التقي لبره
أغضى على الم لضرب الوالد
ونقضت عهداً كيف لي بوفائه
ومن المحال صلاح قلب فاسد(١)

وإذاً فقد (رمي) أبو فراس من سيف الدولة بغير ما أمل . واذاً فقد فسد قلب أبي فراس على سيف الدولة فساداً لا صلاح بعده أبداً ، وأصبح هذا يشك في أخلاصه ويرتاب بسلوكه ويصغي الى أقوال الوشاة فيه وكان هؤلاء وهم من الحمدانيين أنفسهم واقفين له بالمرصاد فكانوا يوغرون صدر أبن عمه ومربيه وولي نعمته عليه بالحق وبالباطل . وكان أبو فراس عالماً بما يحاك حوله من الدسائس ولذلك كان يحذّر خصومه من بني عمه عاقبة عملهم مرة ويهددهم بكشف ما يعرف من أسرارهم تارة فيقول في تحذيره :

بني عمنا لا تنشبوا الحرب بيننا
بني عمنا لا تقطعوا اليد باليد

---

(١) هكذا يروي العاملي هذا البيت في كتابه « ابو فراس الحمداني » ص٢٤ ط ١ اما الدهان فيرويه على أن عجزه « وسقيت دونك كأس هم صارد » ولا شك أن رواية العاملي اكثر ملاءمة واقرب الى الصواب .

ويقول في تهديده :

وعندي من الأخبار مالو ذكرته إذن قرع المغتاب من ندم سنّا

ولكن هذا لم يجده نفعاً ، فقد استمر كيد خصومه له وأشتد نفور سيف الدولة منه واعراضه عنه .

ولم يعمل هو من جانبه شيئاً لتلافي الخطر وإزالة سوء التفاهم ، فتوترت علاقته بابن عمه ، وأول ما نعرف من آثار هذا التوتر هو أن سيف الدولة استعرض ذات يوم خيله أمام نفر من بني حمدان فيهم أبو فراس ، ورغب اليهم أن يأخذ كل منهم الفرس الذي يشتهيه ، فأخذ كل منهم ما أعجبه سوى أبي فراس ، فانه امتنع عن تلبية رغبة ابن عمه امتناعاً تاماً وقال في ذلك :

غيري يغيره الفعال الجافي ويحول عن شيم الكريم الوافي

لا أرتضي وداً إذا هو لم يدم عند الجفاء وقلة الانصاف

تعس الحريص وكل ما يأتي به عوضاً عن الالحاح والالحاف

إن الغني هو الغني بنفسه ولو انه عاري المناكب حاف

ما كل ما فوق البسيطة كافياً وإذا قنعت فكل شيء كاف

ما كثرة الخيل العتاق بنافعي شيئاً ولا عدد السوام الضافي

خيلي - وان قلّت - كثير نفعها بين الصوارم والقنا الرعّاف

ومكارمي عدد النجوم ومنزلي مأوى الكرام ومنزل الاضياف

وظاهر أن البيتين الأول والثاني تعريض شديد بسيف الدولة ، وأن الأبيات الأخرى تشير الى ترفع أبي فراس عن عطائه واستطالته بما

عنده من كرم الطبع وعلّو المنزلة ونباهة الشأن .

وفي ذات يوم من أيام شوال سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة للهجرة كان أبو فراس في سبعين من رجاله على مقربة من منبج ، فدهمه ألف فارس من الروم ، وأشار عليه أصحابه بالانسحاب أمام هذا العدو المتفوق بعدده تفوقاً ساحقاً ، ولكنه رأى أن الانسحاب كائناً سببه ما كان فرار معيب ، وأقدم على الموت ، الا أنه سقط جريحا في المعركة ، ثم أسعف وأخذ أسيراً الى (خرشنة) وهي مدينة رومية على ساحل البحر الأبيض ، فسجن بها مدة من الزمن ثم أخذ الى القسطنطينية فقضى فيها بقية أيام أسره التي استغرقت نحواً من أربعة أعوام .

وقد استغرب المؤرخون إبطاء سيف الدولة عن تقديم فداء ابن عمه ، ولكن أهناك محل للاستغراب ونحن نعلم ما نعلم من فساد علاقة الرجلين ؟..

وقد زاد أبو فراس في الطين بلة بارساله الى سيف الدولة في أيام أسره الأولى قصيدة يقول فيها :

تشبّث بها أكرومةً قبل فوتها ... وقم في خلاصي صادق العزم واقعد
متى تخلف الايام مثلي لكم فتىً ... طويل نجاد السيف رحب المقلّد
يدافع عن أعراضكم بلسانه ... ويضرب عنكم بالحسام المهند

وواضح أن هذه اللغة لا يحتملها رجل له أنفة سيف الدولة ومكانته . يضاف إلى ذلك أن سيف الدولة كان يطلق أسرى الروم نظير إطلاقهم أسرى المسلمين أو نظير فدية . وقد حدث أنه لما وقع أبو فراس

أسيراً في أيديهم كان عندهم ثلاثة آلاف أسير من المسلمين زيادة على من بيد سيف الدولة من أسراهم . وغير مستبعد أن تضيق خزانة الأمير الحمداني ذرعاً بفداء هذا العدد الضخم من الاسرى . فلهذه الاسباب كلها بقي أبو فراس هذه الاعوام العديدة في الأسر .

وصحيح أن الروم أساءوا معاملته في خرشنة فسجنوه في سجن ضيق وألبسوه ثوباً من صوف وكبّلوه بالحديد ، الا أنهم أحسنوا معاملته كل الاحسان عندما نقلوه الى القسطنطينية ، فأفردوا له داراً خاصة وعينوا له خدماً وعرضوا عليه الفداء منفرداً فأباه . وبلغ من احترامهم إياه أنهم كانوا إذا رأوه طأطأوا رؤوسهم له إعظاماً :

إذا عاينتني الروم كفّر صيدها كأنهم أسرى لديّ وفي كبلي

وحسمت مسألته آخر الأمر على يده . ذلك أنه توسط بين القسطنطينية وحلب ، فحمل ابن عمه على مهادنة الروم وإعطائهم مائتي ألف دينار هي كل ما يطلبونه نظير إطلاق أسرى المسلمين . وكانت هذه أول هدنة بين الروم وسيف الدولة .

وعاد أبو فراس بمن معه من المسلمين الى بلاد بني عمه سنة خمس وخمسين وثلاثمائة للهجرة ، فسرّ الناس بذلك ولا سيما سيف الدولة سروراً لا حد له .

ولم تطل حياة سيف الدولة بعد الافراج عن ابن عمه . فقد توفي سنة ست وخمسين وثلاثمائة للهجرة ، ثم لم تطل حياة أبي فراس هو الآخر ، فقد قتل سنة سبع وخمسين وثلاثمائة للهجرة في نزاع

دار بينه وبين أبي المعالي ابن سيف الدولة وخليفته في كرسي إمارته. وقد لخص ابن الأثير حادثة قتله بما خلاصته : أن أبا فراس كان بحمص فحصلت بينه وبين أبي المعالي وحشة فاستدعاه الى مقابلته فامتنع وانحاز الى قرية قريبة من حمص اسمها (صدد) فأنفذ إليه أبو المعالي ثلة من الجند على رأسها غلام أبيه (قرعويه) وأخذه الجند على حين غرة فاستأمن أصحابه وكان هو في جملة المستأمنين . الا أن قرعويه (أو فرغويه) أمر أحد جنوده بقتله فقتله ، وكان ذلك في ربيع الآخر من سنة سبع وخمسين وثلاثمائة للهجرة . وهناك أقوال مختلفة تتعلق بمقتل أبي فراس لا أرى فائدة في إيرادها هنا .

ب ـ أخلاقه :

قلت لك ان أبا فراس نشأ يتيماً وان ابن عمه وزوج شقيقته سيف الدولة تولى تربيته وتعليمه ، وأقول لك الآن إنه في جده وهزله صورة صادقة من ابن عمه هذا فقد كان فارساً مقداماً وجواداً مفضالاً أبياً وفياً صريحاً عف اللسان طاهر اليد خفيف الطبع دمث الروح يستميله الجمال ولكنه لا يسيطر عليه . ويستخفه الغناء ولكنه لا يصده عن أداء شيء من واجباته .

روي أن مغنية بارعة قدمت حلب من بغداد ولم يشأ أبو فراس أن يستمتع بغنائها قبل سيف الدولة فكتب اليه يستحثه على احضارها والاستماع لغنائها هذه الأبيات :

محلك الجوزاء بل أرفع ... وصدرك الدهناء بل أوسع

وقلبك الرحب الذي لم يزل ... للمجد والهزل به موضع

وفضلك المشهور لا ينقضي وفخرك الذائع لا يدفع
رفّه بقرع العود سمعاً غدا قرع العوالي جل ما يسمع(١)

ومن هذا القبيل ما يحكي من أن سيف الدولة وعد أبا فراس باحضار أبي عبدالله بن المنجم والغناء بحضوره ولكنه لم يسارع الى انجاز هذا الوعد فكتب اليه أبو فراس :

« قد تقدم وعد سيدنا سيف الدولة باحضار أبي عبدالله بن المنجم والغناء بحضوره وأنا سائل في ذلك ، فان رأى سيف الدولة أن يتطول بأنجاز ما وعد فعل انشاء الله » وشفع الكتاب بهذين البيتين :

أيا سيداً عمني جوده بفضلك نلت السنا والسناء
وكم قد أتيتك من ليلة فنلت الغنى وسمعت الغناء(٢)

فأجابه سيف الدولة بكتاب قال فيه « إنه مشغول بقرع الحوافر عن المزاهر » ومن نفيس ما كتبه أبو فراس الى سيف الدولة في هذا الصدد الأبيات التالية :

يا أيها الملك الذي أضحت له جمل المناقب
نتج الربيع محاسناً القحنها غر السحائب
راقت ورق نسيمها فحكت لنا صور الحبائب
حضر الشراب فلم يطب شرب الشراب وأنت غائب

---

(١) يتيمة الدهر ج١ ص٢٣ طبعة دمشق
(٢) ابو فراس الحمداني ص٥٢ الطبعة الاولى .

وقد عز على الأستاذ السيد محسن الأمين مؤرخ أبي فراس في أعيان الشيعة أن يفرغ أبو فراس الى الشراب ويتحدث عنه وودّ لو يكون كاذباً في هذا شأن الشعراء في كثير من أقوالهم ، ولكني لا أشك في أن أبا فراس صادق في ما حدّثنا به عن لهوه ولعبه لأن شعره وأخباره تدل على هذا دلالة صريحة قاطعة . أضف الى ذلك أن أبا فراس يشرح موقفه من الغرام واللهو شرحاً لا لبس فيه ولا ابهام فيقول :

لقد ضلّ من تهوى هواه خريدة ... وقد ذلّ من تقضي عليه كعاب
ولكنني - والحمد لله - حازم ... أعز إذا ذلت لهن رقاب
ولا تملك الحسناء قلبي كله ... وان ملكتها روقة وشباب
وأجري ولا أعطي الهوى فضل مقودي
وأهفو ولا يخفى عليّ صواب

وليس الشراب ولا السماع مما يعاب به أمير مترف أبرز صفاته الشعر والفروسية ، ولكني أحب أن أحاسب أبا فراس على ثلاث هفوات عاتبه على بعضها أصدقاؤه وأعداؤه في أيام حياته . هذه الهفوات الثلاث هي أولاً اقدامه على قتال ألف من الروم بسبعين رجلاً ليسوا على استعداد للدفاع عنه . ثانياً ، مناداته باسمه أو كنيته ساعة اشتباكه بالروم في هذه المناسبة ، لأن كشف النقاب عن شخصيته يغري خصومه بالاستماتة في سبيل قتله أو أخذه أسيراً وقد حدث الشق الثاني فعلاً . ثالثاً ، الحاحه بطلب الفداء على سيف الدولة الحاحاً لا يقدم عليه رجل له مثل بطولة

أبي فراس ورجوليته فليس من شك في ان صدور هذه الهفوات الثلاث عن أبي فراس يعني أن نصيبه من الأناة والروية وضبط النفس والصبر على المكروه لم يكن بالدرجة التي يصورها لنا في شعره .

علويته : وأبو فراس علوي الرأي يؤمن بحق آل علي في الخلافة ويتوجع لما أصابهم ، ويرثي لما حل بهم ويندد بآل العباس ويذكر عيوبهم ويعدد مساوئهم ويقارن بينهم وبين أقطاب البيت العلوي فيقرر ان الفرق عظيم بين هؤلاء وأولئك :

ليس الرشيد كموسى في القياس ولا
مأمونكم كالرضا إن أنصف الحكم

ومن رأيه أن قرابة العباسيين من النبي (ص) لا تنفعهم شيئاً لأن أعمالهم لا تقربهم منه بل إنها تبعدهم عنه مراحل كثيرة .

هيهات لا قربت قربى ولا رحم ... يوماً إذا أقصت الأخلاق والشيم
كانت مودة سلمان له(١) رحماً ... ولم يكن بين نوح وابنه رحم(٢)

حـ ـ شعره :

لأبي فراس شعر كثير طرق فيه كل باب من أبواب القريض وعالج

---

(١) الضمير في له عائد الى النبي « ع س » الوارد ذكره في بيت سابق .

(٢) هذان البيتان والبيت السابق « ليس الرشيد » الخ من قصيدة عصماء لأبي فراس يرد بها على محمد بن سكرة الشاعر العباسي المعروف لأنه هاجم آل علي مهاجمة عنيفة بقصيدة يقول في اولها :

بني علي دعوا مقالتكم ... لا ينقص الدر وضع من وضعه

كل غرض من أغراضه مقلاً في بعضها مكثراً في البعض الآخر(١) . وقد طبعت مجموعة من شعره باسم « ديوان أبي فراس » ثلاث مرات في بيروت أسوأ طبع وأردئه وأبعده عن التحقيق والتمحيص . وجمع السيد محسن الامين العاملي طائفة حسنة منه ضمت قصائد ومقطوعات كثيرة لا وجود لها في الديوان المطبوع في كتابه المسمى « أبو فراس الحمداني » المنشور بدمشق عام ١٩٤١ وعني به أخيراً الدكتور سامي الدهان أحد أدباء سورية عناية صادقة فطبعه طبعة علمية متقنة راجع في سبيل إنجازها كثيراً من نسخ الديوان المخطوطة والمحفوظة في خزائن كتب الشرق والغرب ، فظهر في ثلاثة أجزاء احتوى الجزء الأول منها على ترجمة الديوان الى الفرنسية(٢) ، واشتمل الجزءان الثاني والثالث على متن الديوان مشفوعاً بشروح وتعليقات وفهارس كثيرة نافعة . ولو أن الدهان استطاع ان يصدّر الديوان بمقدمة أقرب الى التحقيق والضبط من المقدمة الحاضرة لكان عمله فريداً في بابه . ومهما يكن من شيء فان عمل الأديب الدهان هذا جدير بالثناء والتقدير .

غزله : رأيت فيما تقدم أن أبا فراس يقول :

ولا تملك الحسناء قلبي كله وإن ملكتها روقة وشباب

ومعنى هذا أن الحسناء تملك بعض قلب الشاعر ، وأنه قد عرف الحب واكتوى بناره وعانى همومه وآلامه . وليس هذا أمراً مستبعداً بالنسبة الى

---

(١) أحب أن أتقدم الى القارىء باني لم ادرس شعر ابي فراس كله وانما اقتصرت منه على ما بدا لي انه جدير بالدرس وهو معظمه .

(٢) ترجم الناشر ديوان ابي فراس الى الفرنسية لأن اخراجه اياه بهذه الطريقة المتقنة هو عمله العلمي الذي نال به اجازة الدكتوراه من السوربون .

أمير خفيف الطبع ، رقيق الشعور ، دقيق الاحساس ، يعرف الجمال ويتذوقه ويتحدث عنه وفي شعره ما يدل على بعض صلاته الغرامية فهو يقول :

أساء فزادته الاساءة حظوة حبيب على ما كان منه حبيب

يعد عليّ الواشيان ذنوبه ومن أين للوجه الجميل ذنوب

فواضح أن هذين البيتين يمثلان أميراً محباً أساء إليه حبيبه فغفر له وصفح عنه ، بل إن إساءة هذا الحبيب زادته حظوة عنده . ولكنك اذا نظرت في عامة غزل أبي فراس رأيت أنه غزل جاف تقليدي لا تترقرق في حواشيه دمعه ولا تجيش في ثناياه حسرة ، ولك أن تقرأه لتتبين ما في هذا الزعم من الصحة .

ستقول وما رأيك في غزل رائيته الشهيرة التي مطلعها : (أراك عصي الدمع شيمتك الصبر) والتي يقول فيها :

تسائلني من أنت وهي عليمة وهل بفتىً مثلي على حاله نكر

فقلت كما شاءت وشاء لها الهوى

« قتيلك » قالت « أيهم فهم كثر »

فقلت لها « لو شئت لم تتعنتي ولم تسألي عني وعندك بي خبر »

فقالت « لقد ازرى بك الدهر بعدنا »

فقلت « معاذ الله بل أنت للدهر

وما كان للأحزان لولاك مسلك

إلى القلب لكنّ الهوى للبلى جسر »

فأيقنت أن لا عز بعدي لعاشق وأن يدي مما علقت به صفر

وقلبت أمري لا أرى لي راحة إذا الهم أسلاني ألح بي الهجر

فعدت الى حكم الزمان وحكمها
لها الذنب لا تجزى به ولي العذر

* * *

فلا تنكريني يا ابنة العم إنه ليعرف من أنكرته البدو والحضر
ولا تنكريني إنني غير منكر إذا زلت الأقدام واستنزل النصر

وأجيب بأني أزعم أن غزل هذه القصيدة رمزي يدور حول سيف الدولة وموقفه من أبي فراس في الأسر وأن الوعد(١) الذي قال أبو فراس « إن الموت دونه » هو وعد سيف الدولة بفداء ابن عمه وأن قول أبي فراس (تسائلني من أنت وهي عليمة) إشارة بارعة الى قول سيف الدولة « ومن يعرفك بخراسان » .

قد تقول ولكن أبا فراس صريح في مؤاخذة سيف الدولة يعاتبه ويحاسبه في أمر فدائه غير هياب ولا وجل وهو والحالة هذه في غنى عن اصطناع الرموز والألغاز ، وأجيب بأن هذا صحيح ، ولكن الشاعر المتفنن الملهم يلذ له أن يعبر عن مقاصده وأغراضه بصور وأشكال مختلفة . ومهما يكن من شيء فانه اذا صح ما أذهب اليه من أن غزل هذه الرائية رمزي لم يبق من غزل أبي فراس ما يلفت انتباه الباحث على أنه غزل حقيقي .

مديحه : أصدق من غزل أبي فراس مديحه . وما أشك في أنك

---

(١) يضع بعض الروايات كلمة (وصل) موضع كلمة (وعد) في قول ابي فراس (معللتي بالوعد والموت دونه) واكبر ظني ان ابا فراس استعمل في بيته كلمة (وعد) لا (وصل) .

ستقول : أيكون لأبي فراس ، وهو الأمير الفارس الجواد مديح يقوله في أحد من الناس ؟

ولكن لا داعي للاستغراب ، فأبو فراس انما يمدح سيف الدولة ، وهو إذا مدح سيف الدولة فكأنه يمدح نفسه . ولقد أصاب عندما قال مخاطباً إياه بهذا الصدد :

ولو لم يكن فخري وفخرك واحداً لما سار عني بالمدائح سائر

إذن لأبي فراس مديح ، وهذا المديح عبارة عن ملحمة يصور فيها الشاعر رجولية ابن عمه النادرة وبطولته الفذة ، وكرمه الفياض ، ويصف أعماله وحروبه في الداخل والخارج . فهذه قصيدة تخبرنا أن سيف الدولة فتح دمشق وأصلح شؤونها ونظم أمورها وأعاد فيها الأمن والعدل الى نصابهما . وهذه أخرى تنبئنا أنه هزم الدمستق قائد الروم الأعلى هزيمة منكرة بعدما جرحه وأسر أبنه قسطنطين وعدداً كبيراً من بطارقته . وهذه ثالثة تذكر لنا أن كلاباً شقت عصا الطاعة فعاقبها سيف الدولة عقوبة صارمة قضت على حركتها قضاءً مبرماً وشتت شمل رجالها ووقع نساؤها في قبضته فآمنهن وأكرمهن وعاملهن بأحسن ما يعامل به الكريم الظافر حرائر بني عمه .

وأحب أن أقف عند هذه القصيدة لأنها فريدة في بابها . فأبو فراس يخبرنا فيها أن نساء بني كلاب أنتخبن من بينهن سيدة أو فتاة لا ادري، ربما كانت اصبحهن وجهاً وأفصحهن لساناً ، وقلدنها مهمة طلب العفو من سيف الدولة وخرجت هذه حتى أتت الأمير الحمداني وأدت رسالتها فابها الى ملتمسها وأمر ببذل الأمان وردّ ما نهب من الأموال . فلما عادت فاجابها الى ملتمسها وأمر ببذل الأمان وردّ ما نهب من الأموال . فلما عادت

هكذا ناجحة رابحة استقبلها جيش عرمرم من السيدات والفتيات ، يفدّينها ويطرينها ويثنين عليها ويهتفن بحياة سيف الدولة وحياة العرب . ويظهر أن هؤلاء الكلابيات قد أعجبن كثيراً أبا فراس ، فهو يقول لسيف الدولة: إن هؤلاء الجميلات قد سلبن قلوبنا وأسرن نفوسنا وعلى هذا ينبغي أن يردددن ألينا قلوبنا ونفوسنا لنرد إليهن ما أخذنا من متاعهن . وقد شوّهت هذه القصيدة بنقل معانيها على هذه الصورة ، فأرويها لك كفارة عن هذا العمل :

وما أنس لا أنس يوم المغار ... محجّبةً لفظتها الحجب
دعاك ذووها بسوء الفعال ... لما لا تشاء وما لا تحب
فوافتك تعثر في مرطها ... وقد رأت الموت من عن كثب
وقد خلط الخوف لما طلعت ... دلّ الجمال بذلّ الرعب
تسارع في الخطو لا خفّة ... وتهتز في المشي لا من طرب
فلما بدت لك دون البيوت ... بدا لك منهن جيش لجب
وما زلت مذ كنت تأتي الجميل ... وتحمي الحريم وترعى الحسب
وتغضب حتى إذا ما ملكت ... أطعت الرضا وعصيت الغضب
فكنت حماهن إذ لا حمى ... وكنت أباهن إذ ليس أب
فوليّن عنك يفدينها ... ويرفعن من ذيلها ما انسحب
ينادين بين خلال البيوت ... لا يقطع الله نسل العرب
أمرت وأنت المطاع الكريم ... ببذل الأماني ورد النهب
وقد رحن من مهجات القلوب ... بأوفر غنم وأغلى نشب

فان هن يا ابن الكرام السراة ردين القلوب ردين السلب

وقد أشار أبو فراس الى هذه الحادثة إشارة موجزة في قصيدة أخرى وصف بها حروب سيف الدولة وأعماله في الداخل والخارج أروي لك منها هذه الأبيات :

قد ضج جيشك من طول القتال به وقد شكك إلينا الخيل والابل

وقد درى الروم مذ جاورت أرضهم

أن ليس يعصمهم سهل ولا جبل

فالنفس جاهدة والعين ساهرة والجيش منهمك والمال مبتذل

توهمتك كلاب غير قاصدها وقد تكنفك الأعداء والشغل

حتى اتقتك بفرسان أسنتها سود البراقع والأستار والكلل

اذا لم يخطيء ظني فمديح أبي فراس لابن عمه سيف الدولة صورة صحيحة كاملة لدور من أمجد أدوار التاريخ العربي وأعظمها قدراً وأجلها شأناً .

فخره : وكما كان مديح أبي فراس سجلاً حافلاً بمآثر البطولة الرائعة وآثارها الخالدة ، كان فخره كذلك . فانه إنما يتحدث فيه عن جلائل أعماله وأحاسن أفعاله ، وعن مآثر بني عمه الحمدانيين ومفاخرهم حديثاً يصور الواقع وينطوي على الحقيقة في كثير من الأحيان . فمن أمثلة ذلك أن كلاباً ثارت على سيف الدولة غير ثورتها التي تقدمت لها الاشارة ، وضربها الأمير الحمداني ضربة قاضية . وولى

العصاة الأدبار ، فمروا في طريقهم ببالس ، إحدى مدن سورية وهناك وجدوا أبا فراس في قلة من أصحابه ، فباغتوه بالقتال وعليهم « كثير بن عوسجة » وصمد لهم ابو فراس فقاتلهم وهزمهم ، فلما رأوا ما آل اليه أمرهم من الاندحار والانكسار قدموا خضوعهم الى أبي فراس ورجوه أن يلتمس لهم صفح ابن عمه ومغفرته ، فقبل رجاءهم وحمل سيف الدولة على الصفح عنهم والرأفة بهم ، وفي ذلك يقول :

سلي عنا سراة بني كلاب ببالس عند مشتجر العوالي
لقيناهم بأسياف قصار كفين مؤونة الأسل الطوال
فولى ابن عوسجة كثير وساع الخطو في ضنك المجال
يرى (البرغوث)(١) إذ نجاء منا
أجل عقيلة وأحب مال
تدور به إماء بني قريض وتسأله النساء عن الرجال
يقلن له السلامة خير غنم وكل الذل في ذاك المقال
وعادوا سامعين لنا فعدنا الى المعهود من شرف الفعال
ونحن متى رضينا بعد سخط أسونا ما جرحنا بالنوال

ومن هذا القبيل ما حدث لأبي فراس مع بني جعفر فقد انتقض هؤلاء على سيف الدولة فوجه اليهم حملة قوية بقيادة أبي فراس وصبّحهم هذا فقتل عدداً من رجالهم واستاق ماشيتهم . فلما رأت نساؤهم عجز رجالهن عن المقاومة خرجن الى أبي فراس يلتمسن عفوه وصفحه فأمر بالكف عن القتال ثم برد ما نهب من الأموال ثم بتعويض بني جعفر من ماله الخاص عن مالم يمكن رده إليهم من أموالهم وفي هذا يقول :

---

(١) يظهر ان البرغوث اسم حصان الثائر المهزوم .

ولما أطعت الغيض والجهل ساعة

دعوت بحلمي أيها الحلم أقبل

بنيات عمي هن ليس بريننى بعيد التجافي أو قليل التفضل

شفيع النزاريات غير مخيّب وداعي النزاريات غير مخذّل

رددت برغم الجيش ما حاز كله وكلفت مالي غرم كل مضلل

فأصبحت في الأعداء أي ممدح وإن كنت في الأصحاب أي معذّل

على أن أبا فراس لا يحدثنا في فخره عن كرمه وشجاعته وشدة بأسه فحسب وانما يحدثنا عن ورعه وصلاحه وحسن سيرته ، فيقول لنا إنه من العفة بحيث لا يظلم أحداً كما أنه من المنعة بحيث لا يظلمه أحد . وانه ينصف خصومه من نفسه كما ينتصف لنفسه منهم :

لست بالمنتضيم من هو دوني اعتداءً ولست بالمستضام

أبذل الحق للخصوم إذا ما عجزت عنه قدرة الحكام

رب أمر عففت عنه اختياراً حذراً من أصابع الأيتام

إخوانياته : وتسألني عن إخوانيات أبي فراس فأقول لك انها مظهر آخر رائع من مظاهر كرمه وشممه وفتوته ومروءته ، فانه يخبرنا فيها أنه يخدم صديقه اذا حضر ويرعاه اذا غاب ويشكره اذا أحسن ويغفر له اذا أساء . بل انه يذهب الى أبعد من هذا ، فيتمنى أن يسيء صديقه اليه ويتجنى عليه ليقابله بالاحسان والغفران . ولنفرض أن أبا فراس يبالغ في هذا ، فانه يمثل على كل حال مبلغ رغبته في محاسنة اخوانه ومطايبتهم ، وفي ذلك مافيه من الكرم والنبل . اسمع قوله في مسامحة صديق :

لـم أواخـذك بالجفاء لأني واثق منـك بالوداد الصريح
فجميل العدو غير جميـل وقبيـح الصديق غير قبيـح

وقوله في تحديد موقفه إزاء اخوانه :

ما كنت منـذ كنت إلا طوع خـلاني
ليست مؤاخـذة الاخوان من شـاني

يجني الخليل فاستحلي جنايته حتى أدل على عفوي وإحساني
إذا خليـلي لـم تكثر إسـاءته فأين موقع احساني وغفراني
يجني عليّ وأحنو دائماً أبداً لا شيء أحسن من حان على جان

* * *

رومّياته : وماذا يقال عن روميات أبي فراس ؟

الواقع أنها لباب شعره وصفوة انتاجه ، وقد تحدث فيها عن نكبتـه في مختلف مراحلها فوصف في قصيدة لقـاءه الروم ووقوعه أسـيراً في أيديهم وحث سيف الدولة على الاسراع في مفاداته « قبل أن تفوته هذه الاكرومة »(١) وصور في أخرى سـوء حاله في الأسر واستشراء جروحه، وتنكر اخوانه له ، وجزع والدته لما أصابه وتفجعها لفراقه(٢) وأشار في ثالثة الى زيارة والدته سيف الدولة والتماسها منـه التعجيل بفـدائه

---

(١) مطلع القصيدة :

دعوتك الجفن القريح المسهد لدي النوم القليل المشرد

(٢) مطلع القصيدة :

مصابي جليل والعزاء جميـل وظني أن الله سـوف يديل

وخيبتها في ذلك ، واستطرد الى ما يلقى هو واخوانه من أسرى المسلمين في سجون الروم من عنت وارهاق(١) . وعتب في رابعة على سيف الدولة لتعقيبه على رسالته التي استئذنه فيها بمكاتبة ملوك خراسان في أمر مفاداته بكتابته اليه « ومن يعرفك في خراسان »(٢) . وتغزل في خامسة غزلاً يغلب على ظننا أنه يرمز به الى علاقته بابن عمه سيف الدولة وموقف هذا منه في أيام محنته وأشار الى حادثة أسره ونوّه بمآثره ومفاخره ومحاسنه ومحامده(٣) . واستعرض في سادسة حياته وأخلاقه وسعي بعض بني عمه فيه عند عميدهم سيف الدولة وتغافله عنهم وتحدث عن أسره وما نشأ عنه من ضرر بالمصلحة العامة ، وعاتب سيف الدولة عتاباً يجمع بين اللين والشدة(٤) . وهكذا .

وأحوال أبي فراس كما تصورها روميّاته مختلفة كل الاختلاف متناقضة أشد التناقض . فمن قوة الى ضعف ، وصبر الى جزع ، ورضى الى سخط ، ولكنها في الغالب أقرب الى الضعف وما يمت اليه بصلة .

وقد يعجبك أن أروي لك مثلاً من هذه المجموعة الخالدة .

---

(١) مطلع القصيدة :

يا حسرة ما أكاد أحملها آخرها مزعج وأولها

(٢) مطلع القصيدة :

أسيف الهدى وقريع العرب الام الجفاء وفيم الغضب

(٣) مطلع القصيدة :

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر أما للهوى نهى عليك ولا أمر

(٤) مطلع القصيدة :

أما لجميل عندكن ثواب وما لمسيء عندكن متاب

اسمع قول أبي فراس وقد أحفظه الدمستق بقوله : انما أنتم كتّاب ولا علم لكم بالحرب :

أتزعم يا ضخم اللغاغيد أننا
ونحن أسود الحرب ، لا نعرف الحربا ؟

فويلك ، من أردى أخاك بمرعش
وجلل ضرباً وجه والدك العضبا ؟

وكم جمعتنا الحرب من قبل هذه
فكنا بها أسداً وكنت بها كلبا !

وويلك من للحرب ان لم نكن لها
ومن ذا الذي يضحي ويمسي لها تربا ؟

بأقلامنا أجحرت(١) أم بسيوفنا
وأسد الشرى قدنا اليك أم الكتبا؟

رعى الله أوفانا ، اذا قال ذمة
وأنفذنا طعناً وأثبتنا ضربا

وقوله من قصيدة يعاتب بها سيف الدولة :

أمن بعد بذل النفس فيما تريده
أثاب بمر العتب حين أثاب ؟

فليتك تحلو والحياة مريرة
وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عامر
وبيني وبين العالمين خراب

اذا صح منك الود فالكل هين
وكل الذي فوق التراب تراب

وقوله وقد حسنت حاله في الأسر بعد نقله الى القسطنطينية ونجحت وساطته بين ابن عمه وبين الروم في أمر مفاداة الأسرى وعقد هدنة بين حلب والقسطنطينية :

---

(١) أجحرت : لجئت الى الجحر وهو الغار .

ولله عندي في الأسار وغيره مواهب لم يخصص بها أحدقبلي

حللت عقوداً أعجز الناس حلها وما زال عقدي لا يذم ولا حلي

إذا عاينتني الروم كفّر(١) صيدها(٢)

كأنهم أسرى لديّ وفي كبلي

وأوسع أياً ما حللت كرامة كأني من أهلي نقلت إلى أهلي

فأبلغ بني عمي وقل لبني أبي بأني في نعماء يشكرها مثلي(٣)

وما شاء ربي غير نشر محاسني

وأن يعرفوا ما قد عرفتم من الفضل

لغته وأسلوبه : على أنك اذا تأملت شعر ابي فراس وجدت انه لا يخلو من هفوات قليلة منها قوله : وأنت الذي أهديتني كل مقصد » يريد عرّفتني . فاستعماله أهدى بمعنى هدى خطأ كان في إمكانه تحاشيه ، ومن يدري لعله لم يقع فيه وانما وقع فيه الرواة . ومنها قوله : « ومن خطب الحسناء لم يغله المهر » فان قوله : « لم يغله المهر » لا يعبّر عن قصده ، هو يريد أن يقول : ان من خطب الحسناء أدى مهرها وان كان غالياً ولكن الجملة المذكورة لا تؤدي هذا ، ، ولو أنه قال ومن خطب الحسناء لم يثنه المهر لكان كلامه صحيحاً وواضحاً . ومنها قوله :

هل تعطفان على العليل لا بالأسير ولا القتيل

---

(١) كفر : أحنى رأسه تعظيما .

(٢) الصيد : جمع أصيد : وهو الرافع رأسه كبراً

(٣) في رواية هذا البيت خلاف بين العاملي والديوان طبعة الدهان وقد آثرت رواية العاملي

فانه ينفي في هذا البيت أن يكون أسيراً كما ينفي أن يكون قتيلاً، مع أنه كان أسيراً دون أدنى ريب ولا ادل على ذلك من انه بعث بالقصيدة التي استهلها بهذا البيت الى سيف الدولة من خرشنة وتنص الروايات جميعاً على أنه نظم هذه القصيدة وقد ساءت حاله في الأسر . ومنها قوله :

كلما أبلت الديار الليالي كان ذاك البلى عليّ بلاءً

فليس من شك في أن هذا البيت نظم للجمع بين كلمتي بلى وبلاء في مجانسة غثة . ولكن هذه الهفوات ليست من الكثرة بحيث تغض من شعر أبي فراس وتحط من شأنه . وخصائص الشاعر الغالبة عليه هي فصاحة اللفظ ومتانة السبك وجمال التعبير . وقد مرّ بك من شعره ما يمثل هذه الخصائص تمثيلاً تاماً . ومما تجب الاشارة اليه في هذا المقام أمثال أبي فراس التي يرصّع بها كلامه من حين لآخر ومنها قوله :

ومن أضيع الأشياء مهجة عاقل يجوز على حوبائها حكم جاهل

وقوله :

وما أخوك الذي تدنو مناسبه لكن أخوك الذي تصفو ضمائره

وقوله :

لعمرك ما الأبصار تنفع أهلها إذا لم يكن للمبصرين بصائر
وهل ينفع الخطّي غير مثقف وتظهر إلا بالصقال الجواهر

ومن امثاله الشهيرة قوله :

إذا مت عطشاناً فلا نزل القطر

وقوله :

وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

وقوله :

وللناس فيما يعشقون مذاهب

وقوله :

إن الغني هو الغني بنفسه ولو انه عار المناكب حاف
ما كل ما فوق البسيطة كافياً فاذا قنعت فكل شيء كاف

ولم يكن أبو فراس من شعراء التشابيه ومع ذلك فان له تشابيه قليلة ولكنها رائعة منها قوله :

أنظر الى زهر الربيع والماء في برك (البديع)(١)
واذا الرياح جرت عليـ ـه في الذهاب وفي الرجوع
نثرت على بيض الصفا ئح بيننا حنق الدروع

وقوله :

والماء يفصل بين زهـ ـر الروض في الشطين فصلا
كبساط وشي جرّدت أيدي القيون(٢) عليه نصلا

وقوله :

والبدر منتصف الضياء كأنه متبسّم بالكف يستر فاه

---

(١) البديع : اسم بستان .

(٢) القيون : جمع قين وهو الصيقل .

- خاتمة -

أبو فراس شاعر فارس يؤيد أقواله بأعماله وتبرر بسالته حماسته ، وهو يعيد برجوليته الصادقة وشعره المتين الجزل الى الذاكرة ما يتحدث به الناس عن مهلهل ابن ربيعة وعمرو بن كلثوم وعنترة العبسي من شجاعة خارقة ، وشهامة نادرة ، وشاعرية فذة . الا أنه يفضل أولئك الشعراء الفرسان بدقة تفكيره ولطافة تعبيره وتطرقه الى كثير من الأغراض التي لم تخطر لهم على بال .

الفصل الثالث

الشريف الرضى

أ ـ حياته : اسمه ونسبه وكنيته ولقبه • مولده • نشأته وتعليمه • بعض أساتذته • نبوغه المبكر في قرض الشعر • مثل من أوائل شعره • حفظه القرآن • توليه نقابة الطالبيين للمرة الاولى • تطلعه الى منصب الخلافة • تنبؤ أبي اسحق الصابي له بصيرورته خليفة • تعقيبه على هذه النبوءة • مناوشات صريحة بينه وبين القادر بالله • استقالته من نقابة الطالبين • قبولها • جمع عدة مناصب خطيرة له بينها النقابة • برمه بها جميعاً • كلفه بالحياة العقلية • وفاته • من رثاه من الشعراء • قبره •

ب ـ أخلاقه •

ج ـ آثاره : ما نشر منها وما لم ينشر • شعره • غزله • سرّ تفوقه فيه • العناصر التي تغذيه • المثلث الفذ • رثاؤه • جودته • كثرته • بماذا يمتاز • مثل منه • فخره • أهناك ما يبرره • موضوعاته • ما فيه من تحفظ • مديحه • أغراضه • مثل منه • لغته واسلوبه • تأثرهما بدراساته وتأليفه • مشخصاتهما • ملاءمه لغته لموضوعاته • اعتداله في استعمال المحسنات البيانية • اقتصاره في كثير من شعره على موضوع واحد •

د ـ خاتمة : منزلته بين شعراء اللغة العربية •

أ ـ حياته :

والآن لنتحدث عن شاعر نبيل آخر لا يشكّ أحد في أنه أشرف نسباً وأوفر أدباً وأجود شعراً وأعمق اثرا في الأدب العربي من ابي فراس ٠

هذا الشاعر النبيل هو الشريف أبو الحسن الرضي(١) محمد بن الحسين الملقب (بالطاهر ذي المناقب) الذي تولى نقابة الطالبيين وامارة الحاج وزعامة ديوان المظالم مراراً عديدة(٢) وأمه فاطمة بنت الحسين بن الحسن الملقب (الناصر الأصم) أو (الأطروش) وهو ملك بلاد الديلم والجبل المتوفى عام ٣٠٤ للهجرة ٠ ونسب كل من أبويه ينتهي الى الحسين بن علي عليهما السلام ٠

---

(١) لقبه القادر بالله « الرضي ذا الحسبين » ٣٩٤ هـ كما لقب اخاه في نفس السنة « المرتضى ذا المجدين » ٠

(٢) للشريف الرضي في ابيه شعر كثير من احسنه عندي هذه الأبيات التي يرسم فيها صورة صادقة لكفايته النادرة وشخصيته الممتازة وأثره الحسن في سياسة الدولة قال :

وهذا ابي الأدنى الذي يعرفونه ... مقدم مجد اول ومخلف
موألف ما بين الملوك اذا هفوا ... وأشفوا على حز الرقاب وأشرفوا
اذا قال ردوا غارب الحلم راجعوا ... وان قال مهلا بعض ذا الجد وقفوا
وبالامس لما صال قادر ملكهم ... واعرض منه الجانب المتخوف
تلافاه حتى سامح الضغن قلبه ... وأسمح لما قيل لا يتألف
وكان ولي العقد والعهد بينه ... وبين بهاء الملك يسعى ويلطف
ولما التقى نجوى عقيل لنبوة ... ومد لهم حبل من الغدر محصف
لوي عطفه لي القنى رقابهم ... ولو لسواه استعطفوا ما تعطفوا
وسل مضراً لما سما لديارها ... فهب ونام العاجز المتضعف
تولجها كالسيل صلحاً وعنوة ... فأبقى ورد البيض ظمىء تلهف

الخ الخ ٠٠٠

ولد ببغداد عام ٣٥٩ للهجرة ونشأ في كنف والده الجليل أفضل نشأة وأحسنها وتلقى علوم اللغة والدين على جماعة من خيرة علماء العصر منهم ابن السيرافي النحوي المشهور ، وأبو الفتح عثمان بن جنّي الذي صار فيما بعد من المعجبين بفضله وأدبه(١) ومحمد بن النعمان كبير علماء الأمامية في القرن الرابع للهجرة وصاحب الارشاد والملقب « بالمفيد »(٢).

ولسنا نعلم بالضبط متى قال الشعر ولكن من الراجح جداً أنه نظمه وأجاد في نظمه قبل بلوغه العاشرة ، تدلنا على ذلك قصيدة له رائعة تفجّع فيها لاقصاء والده عن أعماله واعتقاله في فارس سنة ٣٦٩ للهجرة، ينص الديوان على أنه قالها « وسنه فوق العشر بقليل » وأنا اروي لك مثلاً من هذه القصيدة لتتبين مبلغ نبوغ ذلك الصبي الممتاز قال :

---

(١) برهن ابن جني على هذا الاعجاب بشرحه رائية الشريف التي مطلعها :

القي السلاح ربيعة بن نزار أودي الردى بقريعك المغوار

والتي يرثي فيها ابراهيم بن ناصر الدولة الحمداني وقد عرف له الشريف هذا الفضل فمدحه بقصيدة بليغة مطلعها :

أراقب من طيف الحبيب وصالا ويأبى خيال أن يزور خيالا

ورثاه عند موته بقصيدة رقيقة مطلعها :

ألا يا لقومي للخطوب الطوارق وللعظم يرمى كل يوم بعارق

(٢) من طريف ما يحكى بصدد أخذ الرضي العلم عن المفيد ان الأخير رأى في منامه كأن فاطمة الزهراء عليها السلام دخلت عليه وهو في مسجده فقدمت اليه الحسنين وطلبت اليه ان يعلمهما ويفقههما ، فاستيقظ وقد ملأه العجب من هذه الرؤيا الغريبة . فلما أصبح وجلس للتدريس في مسجده دخلت عليه فاطمة أم الرضي والمرتضى في جماعة من جواريها وقدمت اليه ولديها طالبة اليه ان يعلمهما ويفقههما . فبكى بكاء شديداً وقص عليها رؤياه ووعدها ان لا يدخر وسعاً في سبيل تثقيف ولديها (شرح ابن ابي الحديد الجزء الاول الصفحة ١٣ - ١٤ طبع دار الكتب العربية الكبري بمصر .)

نصافي المعالي والزمان معاند ... وننهض بالآمال والجدّ قاعد

منها :

أيا غدوة ساء الحسين صباحها ... وسرّ العدى فيها الزمان المعاند
لحققت عندي أن كل صبيحة ... مجاجة سمّ والليالي أساود
يعرّفك الاخوان كل بنفسه ... وخير أخ من عرّفتك الشدائد
وطاغ يعير البغي غرب لسانه ... وليس له عن جانب الدين ذائد
شننت عليه الحق حتى رددته ... صموتاً وفي أنيابه القول راقد
يدل بغير الله عضداً وناصراً ... وناصرك الرحمن والمجد عاضد
يعيّر رب الخير بالي عظامه ... ألا نزهت تلك العظام البوائد(١)

ومنها :

تفرّد بالعلياء عن أهل بيته ... وكل يهاديه الى المجد والد

وتختلف الأشجار(٢) في ثمراتها
اذا شربت بالري والماء واحد

* * * *

قد تقول ولكن الا يمكن أن يكون الشريف قد هذب هذه القصيدة عندما شب أو اكتهل وأدخل فيها هذه الخواطر الرائعة والحكم الباهرة؟ وأجيب بأني لا أميل لمثل هذا الفرض لانه لو فعل ذلك لنقاها من

---

(١) تشير الابيات الأربعة المنتهية بهذا البيت الى قول المطهر وزير عضد الدولة لوالد الشريف عند القاء القبض عليه « كم تدل علينا بالعظام النخرة » .

(٢) في الديوان طبعة بيروت (الآمال) والصواب ما اثبتناه . على أني احب أن أسجل ان في هذه الطبعة كثيراً جداً من امثال هذا الخطأ وسأصحح كل ما يتيسر تصحيحه منها اعتماداً على مصادر مخطوطة على ان أذكر الخطأ الوارد في الديوان وان أشير الى هذه الطبعة بـ رمز (ط . ب) .

هـذا البيت :

ضجرت من العلياء فاخترت عزلها كأنك قد أفنت نداك المحامد

ومن هذا البيت الذي يفيض تحذلقاً :

منيت بشوق ينحر الدمع سيفه اذا حادثته بالصقال المعاهد

ولو فعل ذلك لأشار اليه كما أشار الى تهذيبه قصائد عديدة قالها في أيام حداثته منها قصيدة مطلعها :

المجد يعلم أن المجد من أربي ولو تماديت في غبيٍ وفي لعب

* * *

ولكن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.على أن المترجم حفظ القرآن بعد ان جاوز الثلاثين .

وكما نبغ صاحبنا في قرض الشعر قبل بلوغه العاشرة نبغ كذلك في بلوغ المناصب السامية والمراكز الرسمية الممتازة في وقت مبكر جداً، فقد ولي نقابة الطالبيين في حياة والده الطاهر وأخيه المرتضى ولما يتجاوز الحادية والعشرين ينص على ذلك الثعالبي في اليتيمة(١) والديوان في مقدمة قصيدة مطلعها :

الآن أعربت الضنون وعلا على الشك اليقين

نصاً لا غموض فيه ولا إبهام ويظهر أن هذا النجاح الرائع المبكر حدى بصاحبنا الى أن يمعن في الجري وراء أمانيه العالية وآماله الواسعة البعيدة المدى ، فأخذ يفكر في الاستيلاء على الخلافة :

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبي ص٢٩٨ طبعة دمشق .

لو كنت أقنع بالنقابة وحدها لغضضت حين بلغتها آمالي
لكنّ لي نفساً تتوق إلي التي ما بعد أعلاها مقام عالي

ورأى أبو اسحق الصابي - الكاتب والشاعر المعروف والذي كان صديقاً حميماً له - علو همته وسموّ مواهبه وسعة مطامحه وسرعة تقدمه فتنبأ له بالخلافة وسأله أن يذكر له هذه النبؤة و (أن يحفظه في أولاده وأهله متى تحققت) :

أبا حسن لي في الرجال فراسة نعوّدت منها أن تقول فتصدقا
وقد خبرتني عنك أنك ماجد سترقى من العلياء أبعد مرتقى
فوفيتك التعظيم قبل أوانه وقلت أطال الله للسيد البقا
وأضمرت منه لفظة لم أبح بها الى أن أرى إطلاقها لي مطلقا
فان عشت أو إن مت فاذكر بشارتي
وأوجب بها حقاً عليك محققا
وكن لي في الأولاد والأهل حافظاً
إذا ما اطمأن الجنب في مضجع البقا(١)

• • •

وقد أجاب الشريف أبا اسحق على هذه الأبيات بقصيدة مطولة أروي لك منها قوله :

سننت لهذا الرمح غرباً مذلّقا وأجريت في ذا الهندواني رونقا
وسوّمت ذا الطرف الجواد وانما شرعت له نهجاً فخب وأعنقا
لئن برقت مني مخايل عارض بعينيك تقضي أن يجود ويغدقا
فليس بساق قبل ربعك مربعاً وليس براق قبل جوك مرتقى

---

(١) هكذا في شرح ابن أبي الحديد . وفي الديوان (ط . ب) موضع (بقا) (لقا) وقد انكر ابو اسحق ان يكون قد قال هذه الأبيات في الشريف عندما شاعت، وادعى انه قالها في ابي الحسن علي بن عبدالعزيز حاجب النعمان

ومضى صاحبنا في غلوائه حتى خاطب (القادر بالله) بقوله في قصيدة مدحه بها سنة ٣٨٢ هـ :

عطفاً أمير المؤمنين فاننا ... في دوحة العلياء لا نتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت ... أبداً كلانا في المفاخر معرق
إلا الخلافة ميّزتك فانني ... أنا عطل منها وأنت مطوّق

• • •

ويقال ان الخليفة العباسي عقب على هذه الأبيات بقوله (على رغم أنف الشريف) وليس هذا مستبعداً . على أن الشريف لم يلبث أن ضاق ذرعاً بمنصبه نظراً لما يلقى فيه من أوصاب ويعاني من صعاب ومشاكل . فان ديوانه يحدّثنا بأنه قدّم استقالته من نقابة الطالبيين وكررها وأصر عليها سنة ٣٨٤ للهجرة وذلك في مقدمة قصيدة يقول فيها مخاطباً نفسه :

محمد طالما شمّرت فيها ... فدونك فاسحب الذيل الرفّلا
ونم مستودعاً صوناً وأمناً ... فقد أسلفتها جزعاً وثكلاً
فان أتبعث هذا الامر لهفاً ... فانك أعزب الثقلين عقّلا
يراه المستغر عليّ طوقاً ... فيغبطني به وأراه غلّا

• • •

ولكن القائمين بالامر كانوا أحرص على الانتفاع بكفايته من أن يتركوه يحيا حياة الهدوء والعزلة . فقد أعادوا اليه نقابة الطالبيين وأضافوا

اليها امارة الحاج وزعامة ديوان المظالم سنة ٣٨٨ للهجرة فيما يقول ابن خلكان(١) . وأقوال المؤرخين في تاريخ توليه هذه الاعمال ، مضطربة متناقضة . ولذلك رأيت أن أقتصر على رواية ابن خلكان الآنف ذكرها.

على أنه مما لا شك فيه أن الشريف كان شديد الضيق بالتبعات الجسام الملقاة على عاتقه يبرم بها ويتذمر منها ، ولا أدل على ذلك من هذه الأبيات التي اقتطفها لك من قصيدة رجا فيها بهاءالدولة البويهي أن يريحه من تحمل أعباء هذه التبعات ، قال :

يا ملبسي النعمى التي أورقت ... عودي مراراً وكست أعظمي

ومطلعي في رأس عادية ... تخسأ طرف الجذع الأزلم(٢)

نزع العلى عني كالباسها ... والغنم بالبذلة كالمغرم

أكرم عنها وبها مرة ... كلاهما عندي من الانعم

وكيف نوم المرء من تحته ... دون الكرى مضطرب الأرقم

بين خصافي نعله شوكة ... إن شدّد الوطء عليها دمي

فاملك بها رقّي وحرر بها ... عنقي ورقّ الحر للمنعم

وحز بها ما بقي العمر لي ... صفاء قلبي وصفايا فمي

غوثك منها يا غياث الورى ... قد ثقل العبء على المهرم(٣)

الخ الخ ...

• • •

(١) وفيات الاعيان ج٢ ص٢ طبعة المطبعة الميمنية بمصر .

(٢) عادية بناية عالية والجذع الأزلم الدهر .

(٣) المهرم أقصى الكبر .

بيد أنه مما يجب التنويه به أن هذه الحياة الحافلة التي يحياها الشريف لم تكن لتعوقه عن ممارسة أشغاله العقلية الجليلة ، فقد كان يدرس ويفكر ويؤلف ويقول الشعر كما لو كان متفرغاً لهذه الأمور تفرغاً تاماً . وسيمر بك عند الكلام على آثاره ما يؤيد هذا كل التأييد . وقد لا أغلو اذا لاحظت أن كثرة أشغاله العلمية والأدبية والسياسية والادارية هي التي عجّلت بوفاته فقد توفي رحمه الله سنة ٤٠٦ للهجرة(١) ولما تتجاوز سنه السابعة والاربعين . وقد رثاه شعراء عصره وفي مقدمتهم تلميذه الوفي مهيار الذي رثاه بقصيدتين رنانتين سأروي لك مثلاً منهما عند الكلام على رثائه في الفصل القادم . ويجمع مؤرخو الرضي على أنه دفن بداره في مسجد الانباريين بالكرخ الا أن صاحب عمدة الطالب يقول انه نقل الى كربلاء حيث دفن بجوار قبر أبيه في حرم جده الحسين عليه السلام(٢) وليس ثمة ما يؤيد هذا القول . وقد لا يخلو من فائدة أن أقول لك ان للشريف قبراً معروفاً في الكاظمية ولكن ليس هناك ما يدل على أنه حقيقة قبره .

ب - أخلاقه :

يؤكد مؤرخو الشريف بالاجماع أنه مثل فذ في أحاسن السجايا وأطايب الأخلاق ، فهو رمز الاباء والأنفة وعنوان المروءة والعفة ،

---

(١) يتفق مؤرخو الشريف على انه توفى سنة ٤٠٦ للهجرة باستثناء ابن ابي الحديد فانه يذهب الى ان وفاته كانت سنة ٤٠٤ هـ .

(٢) عمدة الطالب طبعة النجف ص ٢٠٠

ورجل الشجاعة والشهامة ، تلتقي في شخصه النبيل خفة روح الأديب بعفة الناسك المتقشف وأريحية الشاعر الهائم في أودية الخيال بالمعية الأداري الحازم القمين بمعالجة عظائم الأمور . ولولا اجتماع هذه المزايا النادرة المتضادة في شخصه لما آثره ولاة الأمور بأرفع المناصب السياسية والأدارية والدينية وأخوة الشريف المرتضى الذي يفضله علماً ويكبره سناً على قيد الحياة .

حـ ـ آثاره :

وكما كان الشريف رجل السياسة والفضيلة الذي يشار اليه بالبنان كان علماً من أعلام الحركة العقلية في القرن الرابع للهجرة . فقد ألف في التفسير والحديث والتاريخ والنقد وغير ذلك كتباً كثيرة وصلنا بعضها ولما يزل بعضها الآخر في طيات الخفاء واليك ثبت كتبه كما يستخلصه من كتابي عمدة الطالب والمجازات النبوية وهي :

١ ـ أخبار قضاة بغداد .

٢ ـ تلخيص البيان عن مجازات القرآن .

٣ ـ الحسن من شعر الحسين : وهو مجموع يحتوي على المختار من شعر الحسين بن الحجاج .

٤ ـ حقائق التأويل في متشابه التنزيل ، وهو كتاب ضخم نشر الجزء الخامس منه في النجف عام ١٩٣٦ .

٥ ـ خصائص الأئمة .

٦ ـ ديوانه وهو في جزئين ضخمين طبع مرتين كانت الأخيرة منهما في بيروت عام ١٩١٠ للهجرة .

٧ ـ رسائله وهي في ثلاثة أجزاء .

٨ - الزيادات في شعر أبي تمام .

٩ - سيرة والده .

١٠ - المجازات النبوية وهو كتاب جليل يحتوي على ٣٦٠ حديثاً نبويا يشتمل كل منها على (مجاز طريف أو كناية دقيقة) وقد طبع ببغداد سنة ١٣٢٨ للهجرة طبعة سقيمة وبمصر عام ١٣٥٦ هـ طبعة علمية متقنة أنجزها الاستاذ محمود مصطفى « مدرس الأدب بكلية اللغة العربية من الجامعة الازهرية »(١) .

---

(١) للأستاذ محمود مصطفى كلمة طريفة في اطراء فائدة هذا الكتاب وبيان أهميته احب ان اقتطف لك منها ما يلي قال : « وقد كنا قبل ذيوع هذا الكتاب لا يكاد الأديب - مهما بلغ من الأطلاع - يجمع من ذلك عشرة او دونها . الست تراهم في مقام الاحتجاج لفضل رسول الله في البلاغة وتصريفه لأعنة الفصاحة لا يذكرون الا قوله عليه الصلاة والسلام « اياكم وخضراء الدمن » وقوله « هدنة على دخن » وقوله « الآن حمي الوطيس » وقوله« ان من البيان لسحراً » الى قليل مما اقتصرت عليه الكتب المتداولة بيننا .

فأما هذه الكثرة المستفيضة فاننا لم نعهدها في غير هذا الكتاب ولا لغيرها هذا العالم الجليل الذي رأى من البر بجده ان يذيع فضله على هذا النحو الذي تراه في كتابه .

ولم يكتف رحمه الله بايراد هذه الآثار سرداً لا تعقيب معه بل انه جلا محاسن هذه الآيات بشرحها وبيان مبلغ البلاغة فيها . ولقد جاء هذا الصرح فائدة للمطلع على الكتاب ، فهو لا يزال متنقلا من تحقيق لغوي الى تطبيق على علم البلاغة الى سياق الشاهد من كلام العرب . اما ما يجنيه القاريء من الحذق والتوسع في الفهم والتقليب للأساليب على وجوهها المعتبرة في نظر البليغ ـــ

١١ - نهج البلاغة : وهو سفر معروف يحتوي على منتخبات من خطب الامام علي (ع) وكتبه وحكمه طبع في مصر وايران طبعات عديدة مشفوعاً بشرح ابن أبي الحديد مرة وشرح الشيخ محمد عبده تارة ومجرداً من كل شرح طوراً .

وما أريد أن أتحدث اليك عن كتب الشريف التي هي الآن في متناول يدي ، فليس عندي ما أضيفه الى ما قيل فيها من قبل . ولكني أود أن أحدثك عن شعره وهو كثير ، متعدد الأبواب متنوع المقاصد والأغراض . أرجو أن أحدثك فيما يلي عن اهم اغراضه وانواعه .

غزله : قدمت أن الشريف الرضي كان نقيباً للطالبيين وأميراً للحجاج وزعيماً لديوان المظالم ، وجمع هذه المناصب له يعني أنه رجل فقهٍ وإفتاء ، ورجل جدٍ وعمل ، وبعبارة أخرى رجل دين من الطراز الاول . وغني عن البيان أن رجال الدين آخر من ينتظر منهم صوغ قصائد النسيب والتغني بصبابات الحب والهيام ، إلا أن الشريف الرضي مع ذلك شاعر غزل منقطع النظير أو قليله على أقل تقدير في تاريخ الأدب العربي فما أظن أن أديباً سليم الذوق مرهف الحس يجد فيما يصح من شعر كبار الشعراء العشاق كجميل بثينة وقيس بن ذريح وقيس بن الملوّح أو في

ـــ فذلك اجلى ما يتجلى في هذا الشرح . واجدي ما يجديه المؤلف على الناظر في كتابه . فانه يخرج من طول الممارسة للفهوم المختلفة من الأسلوب الواحد والموازنة بينها . وتفضيل الفاضل منها والحكم على راجحها ومرجوحها يخرج من كل ذلك بملكة صناع هي عدة الأديب في ممارسة كلام العرب والتذوق لمحاسنه .. المجازات النبوية ص ٥٥٤ طبعه مصطفى البابي الحلبي بمصر .

قصائد عمر بن أبي ربيعة أو في غراميات ابن زيدون نفسه غنىً عن نسيب الشريف الحافل بضروب العواطف والانفعالات وصنوف الأشواق والصبابات ومعلوم أن ينبوع الغزل الأصيل الذي يهز الحس ويحرك الشعور وينفذ الى قرارة النفس انما هو الحب والحب فقط ! فهل ذاق الشريف لوعة الحب ؟؟ .

انه لمن العبث ومن البله في وقت واحد أن نطلب الى التأريخ الاجابة على هذا السؤال . فما كانت تقاليد القرن الرابع للهجرة لتسمح أن يسجل التأريخ على رجل له حسب الشريف الرضي وعلمه ومكانته الدينية أنه عشق امرأة حسناء أحلها من نفسه أسمى محل وخضع لسلطان جمالها القاهر أتم خضوع ، ولكن ان جهل التأريخ هذا أو علمه ولم يجرؤ على تدوينه فان الشريف قد دوّنه لنا في شعره غير هيابٍ ولا وجل . فقد قال لنا بصريح العبارة انه اصطلى نار الحب وأصلاها نفس الانسان الذي قدح زندها بين جنبيه والا فما معنى قوله :

يشكو الحبيب اليّ شدة شوقه وأنا المشوق وما يبين جناني

وقوله :

لك الله من مطلولة القلب بالهوى قتيلة شوق والحبيب قريب
أقل سلامي إن رأيتك خيفةً وأعرض كيما لا يقال مريب(١)
وأطرق والعينان يومض لحظها إليك وما بين الضلوع وجيب

---

(١) لم تعد هذه الحيطة على الشريف بالنتيجة المتوخاة لأنه لم يكن هو وحبيبته بمأمن من اقوال الوشاة وتهم المرجفين وهو يعترف بذلك في نفس القطعة :

يقولون مشغوف الفؤاد مروع ومشغوفة تدعى به فتجيب
وما علموا أنا على غير ريبة بقاء الليالي نغتدي ونؤوب

فواضح أن للشريف في البيت الأول (حبيباً يشكو اليه شدة الشوق) وفي الأبيات الأخرى حبيبة (قتلها الشوق اليه) على قرب دارها منه ، وهو يلقاها من حين لآخر ولكنه يحييها باختصار ويتظاهر بالاعراض عنها تجنباً لاثارة الشبهات . « ويطرق » اذا لقيها « وعيناه تومضان » نحوها. وهذه معان لا تجدها في نسيب أي شاعر آخر . وهي ان دلت على شيء فانما تدل على حب حقيقي متقابل وغرام متبادل بين الشريف وبين هذه الحسناء . وقد لا أكون بعيداً كل البعد عن الحقيقة اذا لاحظت أن هذه الحبيبة الفاتنة التي تحدّث عنها الشريف فيما سلف هي التي يعنيها بقوله:

ومقبّل كفي ودت لو أنه ... أومى إلى شفتي بالتقبيل

جاذبته فضل العتاب وبيننا ... كبر الملول وذلة المملول

ولحظت عقد نطاقه فكأنما ... عقد الجمال بقرطق(١) محلول

جذلان ينفض من فروج قميصه ... أعطاف غصن البانة المطلول

من لي به والدار غير بعيدة ... من داره والمال غير قليل

وفي هذه الأبيات اعتراف آخر بعلاقة غرامية أكيدة وإلا فأي شاعر يحدّثك عن حبيبته فيقول لك انها قبلت يده . هذا الى أن الشريف يفصّل بقوله : (من لي به والدار .. البيت) ما أجمل بقوله (قتيلة شوق والحبيب قريب) . والواقع أن هذه الاعترافات الصريحة تثبت بصورة لا تقبل الجدل أن بطلة هذا النسيب لم تكن من عرائس الخيال وانما كانت من

---

(١) قرطق كجندب لبس معروف معرب كرته .

بنات حواء وأنها عاقرت الشريف كأس الحب وشاطرته آلامه وأشجانه، وقد عرفنا موقفه منها فيما سبق وهو موقف تكتنفه الحيطة ويسوده التحفظ فما موقفها هي الأخرى منه ؟ اننا اذا سألناه عن ذلك أجاب بأنها لا تقل عنه حرصاً على الكرامة واعتداداً بالنفس ومحافظةً على الشرف : (وصونك من دون الرقيب رقيب) .

أحبك حباً لو جزيت ببعضه أطاعك مني قائد وجنيب

* * *

جاذبته فضل العتاب وبيننا كبر الملول وذله المملول

هي إذن عاشقة معشوقة ومقامها يستدعي أن تلقى الشريف من حين لآخر وان تقبل يده اجلالاً واعظاماً ، ولكنها مع ذلك لا تنيله شيئاً سوى الصدود والاعراض . وقد رأيت أن صاحبنا يطلب منها الجزاء فما تظن أنه يطلب ؟ اننا اذا صدقناه ولا مانع لدينا من تصديقه فانه لا يطلب سوى النظرة النزيهة البريئة :

عشقت ومالي يعلم الله حاجة سوى نظري والعاشقون ضروب

وبعد : ألا تظن أن بين قول الشريف (أقل سلامي ... البيت) وقوله :

ولقد أطلت الى سلوك شقتي وجعلت هجرك والتجنب زادي

قرابةً محكمة الأواصر ؟ وأن لقوله (جاذبته فضل العتاب ... البيت) صلة أي صلة بقوله :

كم ليلةٍ جرّعته في طولها غصص الملام ومؤلم التقريع

تفلي أنامله التراب تعللاً وأنامل في سني المقروع

لو حيث يستمع السرار وقفتما لعجبتما من عزه وخضوعي

إذا لم يخطيء ظني فاننا قد عثرنا على مفتاح غزل الشريف واهتدينا الى سره الذي لا غبار عليه ، ولم يبق سوى أن نعين العناصر التي تغذيه وتشيع فيه الحيوية والجمال واللطف وهذه عبارة عن ما رأيت من منع لا هوادة فيه ولا رحمة ، ولوعة مشبوبة تحسها في كل قصيدة ومقطوعة منه وعفة صادقة لا تعمّل فيها ولا تكلف تعصم صاحبنا من الانغماس في الآثام والانحدار الى مزالق الشهوات كلما واتته الظروف وتهيأت له الفرص(١)

ولست أنكر أن هناك عقولاً كثيرةً يصعب عليها أن تتصور رجلا وامرأة متحابين لا تربطهما عقدة الزواج يقضيان الليل معاً وهما في نجوة من الرقباء ثم يفترقان على غير ريبة ، ولكنني أومن بهذا وأدين بأمكانه واعتقد أنه جرى قبل الشريف وبعده وسيظل جارياً ما دامت هناك قلوب تتبادل الحب وعقول ترقبها بدقة وتسوسها بحكمة وصرامة .

وقد امتازت حجازيات الشريف كما امتاز سائر غرامياته بهذا المثلث الفذ الذي يتألف من المنع واللوعة المبرحة والعفة الصادقة والك أن تقرأ

---

(١) تحدث الشريف في شعره عن طهارة حبه مراراً عديدة . فمن طريف ما وقع له في هذا الباب قوله :

وكم ليلة بتنا على غير ريبة علينا عيون للنهى ومسامع
نفض حديثاً عن ختام مودة معاقلها أحشاؤنا والأضالع
يكاد غراب الليل عند حديثنا
يطير ارتياحاً وهو في الوكر واقع
خلونا فكانت عفة لا تعفف وقد رفعت في الحي عنا الموانع
سلوا مضجعي عني وعنها فاننا رضينا بما يخبرن عنا المضاجع

خجازياته وغرامياته الأخرى واحدة واحدة لتتبين أني لم أكذبك الحديث .

رثاؤه : وكما امتاز الشريف بغزله الرقيق المفعم صبابة وكآبة امتاز كذلك برثائه البليغ المفعم صفاءاً ومودة ووفاءاً واخلاصاً . هذا الى أن رثاءه الجيد من الكثرة بحيث يثير دهشة النـاقد .

إن لأبي تمام والبحتري والمتنبي مراثي بليغة ولكن الجيد من رثاء كل منهم قليل : فأنت لا تستطيع مثلاً ان تعد لأبي تمام خمس مراث من الطراز الأول . وقل مثل ذلك عن البحتري والمتنبي . ولكن مراثي الشريف الممتازة تعد بالعشرات .

إقرأ رثاءه لوالده ووالدته وعمه أحمد بن موسى وللصاحب ابن عباد وأبي اسحق الصابي وابراهيم بن ناصر الدولة الحمداني وأبي حسان المقلد زعيم بني عامر وابن ليلى داعيته في البادية وعميد الجيوش أبي منصور المرزباني الكاتب تجد أنه أجاد في رثائهم جميعاً اجادة فائقة . وما يصح في رثائه لهؤلاء يصح في أغلب مراثيه . ومما هو جدير بالذكر أن أكثر مراثي الرجل على جانب كبير من طول النفس ، فلاميته في رثاء الصاحب بن عباد (١١٢) أثنا عشر ومئة بيت وميميته في رثاء والده (٨٩) تسعة وثمانون بيتاً ودالية في رثاء أبي اسحق الصابي (٨٢) اثنان وثمانون بيتاً ، وهمزيته في رثاء والدته (٦٩) تسعة وستون بيتاً ، ولكنك لا تكاد تعثر في هذه المراثي الطوال على ما تعيبه أو تستهجنه . على أن أهم ما يمتاز به رثاء الشريف عاطفة صادقة تجيش في قلبه نحو من يريد أن يخلده في شعره وصورة حية من شخصية الفقيد تمثله أتم تمثيل

وأصدقه . توفي الصاحب بن عباد وكان ملء الأفواه والأسماع والأبصار غزارة علم وغفارة جود ورجاحة عقل وفصاحة لسان ونباهة ذكر وجلالة قدر ، وكان الى هذا محباً للشريف معجباً بفضله وأدبه وقد عبّر عن ذلك الحب وهذا الاعجاب بطلبه اليه نسخة من ديوانه فما كان من صاحبنا الا أن بكاه بقيصدة عصماء أقتطف لك منها الأبيات التالية :

أكذا المنون تقطر الابطالا ... أكذا الزمان يضعضع الاجبالا
أكذا تصاب الأسد وهي مدلّة ... تحمي الشبول وتمنع الأغيالا؟
أكذا تقام عن الفرائس بعدما ... ملأت هماهمها الورى أوجالا؟
أكذا تحط الزاهرات عن العلى ... من بعد ما شأت العيون منالا ؟
أكذا تكب البزل وهي مصاعب ... تطوي البعيد وتحمل الأثقالا؟
أكذا تغاض الزاخرات وقد طغت ... لججاً وأوردت الظماء زلالا ؟
يا طالب المعروف حلّق نجمه ... حط الرحال(١) وعطل الاجمالا
وأقم على يأس فقد ذهب الذي ... كان الأنام على نداه عيالا
من كان يقري الجهل علماً ثاقباً ... والنقص فضلاً والرجاء نوالا
خبر تمحّض بالأجنة ذكره ... قبل اليقين وأسلف البلبالا
حتى إذا كشف الظنون يقينه ... عط القلوب وأسقط الأحمالا(٢)
الشك أبرد للحشا في مثله ... يا ليت شكّي فيه دام وطالا

---

(١) في الديوان ط . ب (الحمول) .

(٢) في الديوان ط . ب « جلى » بدلا من كشف و « صدع » بدلا من « عط » .

يا طود كيف وأنت عادي الذري ... ألقى بجانبك الردى زلزالا
كم حجة في الدين خضت غمارها ... هدر الفنيق تخمطاً(١) وصيالا
بسنان رمحك أو لسانك موسعاً ... طعناً يشق على العدا وجدالا
. . . . . .
ما كنت أخشى أن تزل لحادثٍ ... قدم جعلت لها الركاب قبالا
. . . . . .
طرح الرجال لك العمائم حسرةً ... لما رأوك تسير أو إجلالا
قالوا وقد فجئوا ينعشك سائراً ... من ميّل الجبل العظيم فمالا
وتبادروا عطّ الجيوب وعاجلوا ... عضّ الأنامل يمنة وشمالا
ما شققوا الا كساك وألمّوا ... إلا أنامل نلن منك سجالا(٢)

ألا ترى أن هذه الأبيات صورة صادقة من شخصية الصاحب بن عباد في أبهته وعظم سلطانه وسعة معروفه ووفرة علمه وأدبه وفي منزلته من قلوب معاصريه ؟ ثم ألا ترى أنها مثل رائع من ولاء الشريف له واعجابه به وجزعه على فقده ؟

أتريد مثلاً آخر من هذا الرثاء الذي يمتاز بصدق عواطف الشاعر

---

(١) الفنيق : الفحل ، التخمط : الجلبة .

(٢) يعجبني ان اروي هنا كلمة للمرحوم السيد عبدالمطلب الذي ترجمت له في نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر يقرض بها هذه القصيدة وهي قوله « ان لامية الرضي في رثاء الصاحب بن عباد سيدة القريض لأنه ليس فيها على طولها بيت ركيك واحد » .

المتفجع واتقانه تصوير مواهب المرثي وسجاياه إتقاناً تاماً ؟ هاك طرفاً من قصيدةٍ رثى بها الشريف صديقه أبا اسحق الصابي . قال :

أعلمت من حملوا على الأعواد ؟ أرأيت كيف خبا ضياء النادي؟
جبل هوى لو خرّ في البحر اغتدى من وقعه متتابع الأزباد
ما كنت أعلم قبل حطك في الثرى أن الثرى يعلو على الأطواد
بعداً ليومك في الزمان فانه أقذى العيون وفتّ في الأعضاد
لا ينفد الدمع الذي يبكى به أن القلوب له من الأمداد
كيف انمحى ذاك الجناب وعطّلت
تلك الفجاج وضلّ ذاك الهادي

منها :

ثكلتك أرض لم تلد لك ثانياً أنى ومثلك معوز الميلاد
من للبلاغة والفصاحة إن همى ذاك الغمام وعبّ ذاك الوادي
من للملوك يجزّ في اعدائها بظبى من القول البليغ حداد
من للممالك لا يزال يلمّها بسداد أمر ضائع وسداد
من للجحافل يستزلّ رماحها ويرد رعلتها بغير جلاد(١)
من للموارق يسترد قلوبها بزلازل الابراق والارعاد
وصحايف فيها الأراقم كمّن مرهوبة الاصدار والايراد
حمر على نظر العدو كأنما بدم يخط بهن لا بمداد

---

(١) رعلتها : كثرتها .

يقدمن إقدام الجيوش وباطل أن ينهزمن هزائم الأجناد

• • •

ألا تلمس في هذه الأبيات عواطف الصديق الأمين يبكي صديقه بدموع الوفاء وينثر على قبره زهر الولاء والاخلاص ؟ ألا تتبين فيها من ناحية أخرى شخصية الكاتب العبقري الذي خدم الدولة بعلمه ومواهبه أصدق خدمة ، وأفادها بخبرته وتجربته أكبر فائدة ، فساهم في حل أزمات كثيرة وتذليل صعوبات جمة وأعان على إخماد فتن عديدة في غير إراقة دماء ولا إزهاق نفوس ؟ هذا إلى أنه مثل في لطافة الاداء وبراعة الانشاء . على أني قد لا أنصف الشريف إذا لم أرو لك ولو أبياتاً قليلة جداً من رثائه لوالدته ذلك الرثاء الذي لم تؤد حقوق الأمومة البارة ولم تصوّر عواطف البنوّة المفجوعة فيما أعلم بأصدق ولا أبلغ منه . إليك مثلاً من هذا الرثاء :

أبكيك لو نقع الغليل بكائي وأقول لو ذهب المقال بدائي

وأعوذ بالصبر الجميل تعزّياً لو كان بالصبر الجميل عزائي

طوراً تكاثرني الدموع وتارةً آوي إلى أكرومتي وحيائي

كم عبرة موّهتها بأناملي وسترتها متجملاً بردائي

أبدي التجلد للعدو ولو درى بتململي لقد اشتفى أعدائي

ما كنت أذخر في فداك رغيبة لو كان يرجع ميت بفداء

فارقت فيك تماسكي وتجملي ونسيت فيك تعزي وإبائي

. . . . . .

كم زفرة ضعفت فصارت أنة تممتها بتنفس الصعداء

لهفان أنزو في حبائل كربة ملكت عليّ جلادتي- وغنائي

. . . . . .

كيف السلو وكل موقع لحظة أثر لفضلك خالد بازائي

. . . . .

فخره : ولم يكن الشريف أبلغ من نظم النسيب والرثاء فحسب ، بل إنه أبرع من نظم الفخر غير مدافع ولكن ما عناصر فخره ؟ وبعبارة أخرى ما موضوعات هذه القصائد والمقطعات الفخرية التي تؤلف جزءاً غير يسير من ديوانه ؟

إنك إذا تأملتها ملياً ودرست ما فيها من مقاصد وأفكار رأيت أن الشاعر شديد الفخر بآبائه دائب الاشارة إلى تاريخهم الحافل بعظائم الأمور وجلائل الأعمال كثير التحدث بما له من مضاء العزيمة وعلوّ الهمة وبعد المطامح يمزج ذلك بشكوى مرة من الزمن الذي يبرم به دائماً ويحمّله تبعة الحيلولة بينه وبين دست الخلافة وتذمر شديد من أبنائه الذين يصفهم مرةً بالجهل وتارة بالجبن وآونة بالخيانة وطوراً بعبادة المال وأحياناً كثيرة بالرياء . وقد يتمثل بكبار الآباة الذين كرهوا الذل وآثروا العز كمصعب بن الزبير ويزيد بن المهلب وشبيب ابن شيبة ، فيبدي إعجابه بهم ويثني على إبائهم وأنفتهم أحسن الثناء . أما الأمنية القصوى التي ما فتئت تشغل ذهنه وتأسر لبه وتحتل المكان الأول من قصائده فهي إثارة حرب شعواء تثل العروش وتحل معاقد التيجان وتقيم

صرح دولة الحق على أنقاض دولة الباطل . ويلوح أن مصائر كثير من العلويين الذين ثاروا في مختلف الأطراف فلم يقدّر لهم الفوز ما برحت ماثلة في مخيلة الرضي ، لذلك لم يسترسل في الجري وراء امانيه ولم يداعب شبح الفوز وما يمكن أن ينشأ عنه من نتائج براقة وإنما افترض في كثير من الأحيان فشل محاولته ولكنه عزىّ نفسه بأنه إن لقي حتفه في هذا السبيل فانه إنما يموت في سبيل الواجب ويضّحي نفسه على مذبح الكرامة والشرف :

هبني الرمح بكفي فارس بطل أكرهه حتى انحطم

هبني العضب ذليقاً حدّه ثلم البيض ضراباً وانثلم

وسأذكر مثلاً من فخره عند الكلام على لغته وأسلوبه .

مديحه : وعلى ماذا ينطوي مديح الشريف ؟ !!

يمتاز هذا المديح على العموم يخلوه من الغلو والاسراف في تصوير مواهب الرجال وأخلاقهم وأعمالهم لأنه لا يقال طلباً لجوائز الملوك وغيرهم من العظماء . وما ظنك بشاعر يمدح الصاحب بن عباد ليعبّر عن شعوره الودي الصادق نحوه ثم لا يرسل المدحة إليه خشية أن يتهم بطلب المال(١) بل ما ظنك بشاعر يمدح الخليفة العباسي فيقول له في أثناء مديحة :

عطفاً أمير المؤمنين فاننا في دوحة العليا لا نتفرق

... الأبيات

ستقول وإلى ماذا يرمي المترجم اذن في مديحه؟ وأجيب بأنه يرمي الى

---

(١) مطلع القصيدة التي تشير اليها هذه الفقرة هو :

اباء أقام الدهر عني واقعدا وصبر على الأيام انأى وابعدا

غرضين كبيرين : أحدهما توثيق أواصر القربى أو المودة كأن يمدح أباه أو أخاه أو عمه أو بعض أساتذته أو أحد أصدقائه الأصفياء .

وثانيهما مجاملة أولي الكلمة النافذة في الدولة سعياً وراء تحقيق مطامح سياسية :

واني لأرجو من علائك دولةً تذلل لي فيها الرقاب العواند
ويوماً يظل الخافقين بمزنةٍ رذاذ غواديها الرؤوس الشوارد
لأعقد مجداً يعجز الناس حله وتنحلّ من هام الأعادي معاقد
فمن ذا يراميني ولي منك جنة ومن ذا يدانيني ولي منك عاضد

لغته وأسلوبه : قلت لك إن الشريف حفظ القرآن وفسرّه وشرح مجازاته في كتابين جليلين . وإنه جمع من كلام جده النبي ٣٦٠ ستين وثلاثة مئة حديث يشتمل كل منها « على مجاز طريف أو كناية دقيقة » في كتاب أسماه المجازات النبوية . وجمع كذلك مختار خطب جده الامام علي وكتبه وحكمه في كتاب أسماه نهج البلاغة . وأقول لك الآن إن هذه الممارسة الدائمة للقرآن والحديث وكلام الامام علي قد أثرت في لغته وأسلوبه أحسن تأثير فصفت ديباجته ورقت حاشيته ووضحت عبارته وجمع بين جزالة اللفظ وفخامته ومتانة التعبير وعذوبته وخلا شعره من الفضول والحشو فكان مصداق قوله :

لا يفضل المعنى على لفظه شيئاً ولا اللفظ على المعنى

وشيء آخر أحب أن ألفت انتباهك إليه وهو ملاءمة لغته لكل موضوع يطرقه ، فهي لغة مرنة ذات أجراس مختلفة ونبرات عديدة متباينة

ترق وتلين وتظرف في موضوع ، وتصلب وتشتد وتجلجل في موضوع آخر ، (تسمعك سجع الحمام) في حين (وتسمعك زئير الأسد) في حين آخر ، ولك أن تتذوق ما فيها من رقة وعذوبة في هذه القصيدة الغرامية الفياضة بالعواطف وهي :

ياصاحب القلب السليم(١) أما اشتفى
ألم الجوى من قلبي المصدوع

لأسأت(٢) بالمشتاق حين ملكته
وجزيت فرط نزاعه بنزوع

هيهات لا تتكلفنّ لي الهوى
فضح التطبع شيمة المطبوع

كم قد نصبت لك الحبائل طامعاً
فنجوت بعد تعرض لوقوع

وتركتني ظمآن أشرب لوعتي(٣)
أسفاً على ذاك اللمي الممنوع

قلبي وطرفي منك هذا في حمى
قيظ وهذا في رياض ربيع

قمر إذا استخجلته بعتابه
لبس الغروب ولم يعد لطلوع(٤)

كم ليلة جرّعته في طولها
غصص الملام ومؤلم التقريع

أبكي ويبسم والدجى ما بيننا
حتى أضاء بثغره ودموعي

---

(١) في الديوان (ط . ب) الصحيح
(٢) في الديوان (ط . ب) أأسأت
(٣) في الديوان (ط . ب) غلتي
(٤) هذا البيت هو العاشر في رواية الديوان (ط . ب) وهو خطأ

تفلي أناملـه التراب تعللاً وأناملي في سـني المقروع
لو حيث يستمع السرار وقفتما لعجبتما من عزه وخضوعي
أبغي هواه بشافع من غيره شر الهوى مـا نلته بشفيع
مـا كان إلا قبلة التسليم أر دفهـا ٠ الفراق بضمّة التوديع
كمدي قديم في هواك وإنمـا تاريخ وصلك كان منذ أسبوع
أهون عليك إذا امتلأت من الكرى أني أبيت بليـلة الملسـوع
قد كنت أجزيك الصدود بمثله لو أن قلبك كان بين ضلوعي

٠ ٠ ٠

وفي هذه الابيات التي اقتطفها لك من إحدى حجازياته :

وما مغزل أدماء تزجي بروضـة طلاً قاصراً عن غاية السرب وانيا(١)
لها بغمات خلفه تزعج الحشـا كجسّ العذاري يختبرن الملاهيا
يحور إليها بالبغام فتنثني كما التفت المطلوب يخشى الأعاديا(٢)
بأروع من ظمياء قلبا ومهجـةً غـداة سـمعنا للتفرق داعيا
توّدعنا ما بين شـكوى وعبرة وقد أصبح الركب العراقي غاديا
فلم أر يوم النفر(٣) أكثر ضاحكاً ولم أر يوم النفر أكثر باكياً

* * *

---

(١) المغزل : ذات الغزال ٠ وأدماء ذات لون يضرب الى البياض أو السواد ٠

(٢) يحور : يرجع ٠

(٣) يوم النفر : هو يوم نفور الحجاج من منى

أما ما فيها - أي لغة الشريف - من صلابة وجلجلة وفخامة فما أشك في أنك تحسه خلال هذه الأبيات التي يفخر فيها بآبائه :-

فيمن تغيرني بفيك رغامها ... أبتالدي في المجد أم بطريف
أبمعشري وهم الألي عاداتهم ... في الروع ضرب طلى(١) وخرق صفوف
من كل وضّاح الجبين مغامرٍ ... عند العظائم باسمه مهتوف
فاذا قرعت فهم (صدور ذوابلي) ... ومن العدو معاقلي وكهوفي
فاذهب بنفسك حاسماً أطماعها ... عن صل وادٍ او هزبر غريف(٢)

. . .

وفي ثنايا هذه الأبيات التي يعلن فيها تصميمه على إثارة حرب شعواء :

لست للزهراء إن لم ترها ... كوعول الهضب يعجمن اللجم
تستجنّ البيد من فرسانها ... بين بغداد إلى أرض الحرم
بعجاج يملأ الأفق دجىً ... وطعان يخضب الأرض بدم
شرّعاً تفتر عن إعناقها ... قلل القور وغيطان الأكم(٣)
كالردى أقدم والغيث همي ... والدجى طبّق والسيل هجم

---

(١) الطلى : بضم الطاء جمع طلية أو طلاة وهي العنق أو أصلها .
(٢) الغريف : بيت الأسد .
(٣) تفتر : تضحك . والاعناق : ضرب من السير . والقلل : جمع قلة وهي أعلى الشيء . والقور : جمع قارة وهو جبيل صغير . والغيطا ما انخفض من الارض .

حاملات كل غضبان به من (لمام) الغيض مسّ ولمم(١)
كالصقور الغلب الحاظهم كالجذى يلمعن من خلف اللثم(٢)

. . .

أتعتقد أن لغة النسيب ولغة الفخر في الأمثلة التي تقدمت سيّان من حيث نوع الكلمات ورنينها مفردة ومركبة ؟ إني إذن لفي ضلال مبين !!

. . .

أما نصيب الشريف من المجاز والطباق وما يجري مجراهما من المحسنات البيانية فموفور ، إلا أنه لا يدل بحال من الأحوال على أنه يعصر ذهنه في سبيل شيء من هذه الزخرفة وإنما يأخذ منها ما جرى على لسانه عفواً وما أظنك تحس شيئاً من التكلف في هذا الطباق (فعز اشتياقي والدموع خواضع) وفي هذا الطباق (وننهض بالآمال والجد قاعد) وفي هذا التشبيه الذي يصور يوم حرب عبوساً :

لم يبق غير شفافة(٣) من شمسه كمضيق وجه الفارس المتلثم

وفي هذا التشبيه :

ضاق الزمان فضاق فيه تقلّبي كالماء يجمع نفسه في الجدول

وفي مايزين هذين البيتين من مجازات واستعارات :

أرسى النسيم بواديكم ولا برحت حوامل المزن في أجداثكم تضع

---

(١) اللمم : طرف من الجنون .
(٢) الغلب : غلاظ الأعناق ، والجذي جمع جذوة .
(٣) شفافه : البقية الضئيلة من كل شيء .

ولا يزال ـجنين النبت ترضعـه على قبوركم العراضـة الهمع

. . .

وما من شـك في أن صاحبنا جمع الموضوعات المختلفة في قصائد كثيرة جرياً وراء تقاليد عصره الأدبية ، ولكنه من ناحيـة اخرى نظم قصائد كثيرة وكثيرة جداً لم يتطرق فيها إلى أكثر من موضوع واحـد من ذلك حجازياته التي بلغ عددها الأربعين وسـائر غرامياته وطائفـه كبرى من فخرياته ، ومراثيه للأقرباء والاصدقاء وهي تعد بالعشرات كما أسـلفت . وهذا الجزء من شـعره يؤلف ديواناً ضخماً لاتقع فيه عين القاريء على قصيدة لم تراع فيها وحدة الموضوع .

. . .

د ـ خاتمة :

ولكن ما منزلة الشريف بين شـعراء اللغة العربية ؟

يقول الثعالبي في اليتيمة « هو أشـعر الطالبيين من مضى منهم ومن غبر على كثرة شـعرائهم المقلّين . ولو قلت إنه أشـعر قريش لم أبعد عن الصدق(١) ويشايعه بن خلكان في هذا .

أما أنا فأزعم أنـه من الظلم للشريف أن يقتصر في تقديمـه على شـعراء آل أبي طالب أو شـعراء بني هاشـم أو شـعراء قريش عامة وإن كان بينهـم عمر بن أبي ربيعـة ويزيد بن معاويـة والوليد بن يزيد

(١) يتمية الدهر ج ٢ص ٢٩٧ طبع دمشق .

وعبدالله بن المعتز وأزعم كذلك أنه في طليعة شعراء اللغة العربية كافّة صدق عاطفة ، ورقة شعور ، وخصب خيال ، وفصاحة لغة وصفاء أسلوب . وأنه فارس حلبتي الرثاء والفخر الذي لايشق له غبار وإمام الغزل العذري العفيف في كل زمان وفي كل مكان .

الفصل الرابع

مهيار الديلمي

أ ـ حياته : اسمه ونسبه وكنيته • ما تقوله كتب التراجم عنه • فلته• استنباط حياته من ديوانه • منزلته • احتيال طائفة من العظماء على مديحه • منحه الجوائز سلفا وتكرارها أحياناً • الحصول على مديحه بوعود كاذبة • هجاؤه لمن فعل هذا به •

ب ـ أخلاقه : طمعه • عفته • وفاؤه • إخلاصه •

جـ ـ تعرّبه : غلبة الثقافة عنده على العرق •

د ـ شعره : لمحة تاريخية • مقارنة بين ديوانه المطبوع بمصر وبين نسخة مخطوطة منه • أبوابه • غزله • مادته •مثل منه • إخوانياته • مميزاتها • مثل منها • وصفه • أحسن ما فيه • مديحه • الباعث على نظمه • خاصته • مثل منه• رثاؤ • سر تفوقه فيه • عناصره •ميزته • مثل منه •

هـ ـ خاتمة : مقارنة بينه وبين استاذه الشريف •

أ - حياته :

حدثتك في الفصل الماضي عن شاعر عربي صميم ، عربي في نسبة ودمه ولغته وأدبه ، وأحدثك الآن عن شاعر فارسي في نسبه ودمه ، عربي في لغته وأدبه .

هذا الشاعر الفارسي دماً ونسباً والعربي لغةً وأدباً هو تلميذ الشريف الوفي أبو الحسن وقيل أبو الحسين مهيار الديلمي بن مرزوية أحد شعراء العراق الأفذاذ في القرنين الرابع والخامس للهجرة . وأخباره في كتب التراجم قليلة جداً : فكل ما يحدثنا به ابن خلكان عنه إذا استثنينا بعض عبارات الثناء والاطراء التي صاغها له والتي اقتبسها عن دمية القصر للباخرزي هو : (أنه كاتب فارسي) وأنه (كان مجوسياً فأسلم) « ويقال إن اسلامه كان على يد الشريف الرضي أبي الحسن محمد الموسوي وهو شيخه وعليه تخرّج في نظم الشعر وأن الخطيب البغدادي رأى الناس يقرأون ديوانه عليه في جامع الخلفاء وأنه توفي ليلة الاحد لخمس خلون من جمادى الآخرة عام ٤٢٨ للهجرة(١) أما ما يحدثنا به ابن الجوزي في الجزء الثامن من كتابه « المنتظم في تاريخ الملوك والأمم » فيزيد على ما تقدم أن مهيار أسلم سنة ٣٩٤ للهجرة وأنه صار علوياً متطرفاً وأن امرأة كانت تخدمه عثرت في بيته على هميان فيه ألفا دينار تركه بعض الحجاج الخراسانيين فأخبرته بذلك فلم يتغير وإنما اكتفى بأن عاتبها على نبشه عتاباً رقيقاً ، وأن ساعياً سعى به الى جلال الدولة البويهي فقبض عليه وأطلقه(٢)

---

(١) وفيات الأعيان ج٢ ص ١٤٩-١٥٠ طبعة المطبعة الميمنية بمصر .

(٢) كان موضوع هذه السعاية اتهام مهيار بمال كثير يجب أن ينزل عنه لجلال الدولة لأنه لا حق له في أن يكون مثرياً كما يظهر - وقد استطاع الشاعر ان يبرىء نفسه من هذه التهمه فأطلقه الملك البويهي واعتذر اليه .-

وأنت ترى أن هذه الأخبار القليلة لا تدلنا على مسقط رأس الرجل ولا تذكر لنا تأريخ ولادته ولو بصورة تقريبية ولا تروى لنا شيئاً عن دراساته الأولى إذ لا يعقل أنه تلقى على الشريف الرضي مثلاً مباديء النحو والصرف وما يجري هذا المجري من المعلومات الأولية. ولكن الديوان يعوضنا عن بعض هذه الخسارة : فهو يحدثنا بأشياء كثيرة يتصل بعضها بمنزلة الشاعر الأدبية وبعضها بنصيبه من الحياة الدنيا وبعضها بأخلاقه : فأما ما يحدثنا به مما له علاقة بمنزلته الأدبية فكثير ، وهو يدل بمجموعه على أن الرجل واسع الشهرة بعيد الصيت حائز لأعجاب المتأدبين من ملوك عصره ووزرائه وسائر عظمائه متمتع بجوائزهم ، بل إن هؤلاء كانوا يخطبون وده ويتفننون في الحصول على مدائحه ويجزلون صلته أحياناً قبل الحصول عليها : فمن ذلك أن جلال الدولة البويهي

- وفي ذلك يقول من قصيدة مدح بها جلال الدولة :

أتعرف يامولى الملوك كقصة ... بليت بها بالأمس والحر يبتلى
أبعد قنوعي بالثماد تعففا ... وهجري أبواب الملوك تعزلا
وظلمي فضلي واهتضامي توحدي ... مخافة أن أوذى وان أتبذلا
يسيء رعاع الناس عندك سمعتي ... ويشعر أني حزت مالا موثلا
ويغري بافقاري وأنت الذي ترى ... لمثلي أن يغنى وأن يتمولا
ولكنها ما غيرت لك شيمة ... كرمت بها الا قليلا كلا ولا
. . . . . .

حبست ولكن كان حبساً مشرفاً ... أناف بذكري واعتقالا مجملا
ولم أر مثلي مستضاماً مكرماً ... ولا كاسباً للعز من حيث ذللا
لئن عد قوم نكبة حبس ليلة ... لقد كنت منكوباً من الناس مقبلا
. . . . . .

سيعلم من جر السعاية أنه ... بكرهي الى ما ساق نفعي توصلا

أنعم على وزيره « الاستاذ الأجل أبي سعد بن عبدالرحيم » بلقب « عميد الكفاة » وخلع عليه خلعة سنية تتألف من ثياب فاخرة وفرس سابق في حليته الذهبية ودواة محلاة بالذهب أيضاً ، وكان يومئذ بواسط فكتب الوزير إلى مهيار يصف له ما أغدق عليه من الألطاف ويحتال عليه في حمله على تهنئته ووصف ما خصّ به من الهديا والخلع وذلك بأن زعم له « أنه رأى في المنام أنه ينشد قصيدة بوصف هذه الحادثة السارة» وكان مهيار عند حسن ظن صديقه الوزير به فكتب إليه يهنئه ويصف التحف التي أهديت إليه بقصيدة رنانة مطلعها :

أيقظني للبرق وهو نائم جهالةً والعربي حازم

ومن هذا القبيل ما فعله مؤيد السلطان حاكم عُمان في الخليج العربي فقد كان هذا يكاتب مهيار ويقضي حوائجه ، وقد حدث أنه بعث له بهدية نفيسة أنفذها إليه دون أن يسبقها مديح مع رسول خاص اسمه « وشاح » إلا أن الرسول خان الأمانة وقاسم الشاعر الهدية فما كان من هذا إلا أن أرسل إلى مؤيد السلطان قصيدة عصماء يشكر فيها معروفة ويشكو الرسول ويطالب بالتعويض ، اروي لك منها الأبيات التالية :

رغائب من يديه فجأتني وفين رضىً بآمالي الرغاب
وزدن على حساب مناي لكن وشاح لم يكن لي في حساب
أمرت بها كعرضك لم يدنّس بلاغش يشوب ولا ارتياب
من الذهب الصريح فصار مما يبدل في يديه إلى الذهاب
وقاسمني منصفةً عليه وجاهدني ليحبسه كتابي
مكارم سقتهن إلى محب ففاز بها مغير لم يحاب

بعثت بها الخؤون فضاع سرب أمنت عليه غائرة الذئاب

ولولا أنّ خدمته وقته وحرمة عز بابك والجناب

لما سلم البعوض على عقاب ولا عض الهزبر بشرّ ناب

أدلّ بكم فأفحمني وكانت نواحيه ما آكل للسباب

فجل عن الهجاء بذاك عندي وقل بما أتاه عن العتاب

ثلاث سنين حولاً بعد حول

بكفّ « وشاح » مقتسم نهابي

وأنت خفير مالك أو يؤدى إليّ ولو بمنقطع التراب

إذا أنصفتني فعليك ديناً غرامة ما تجمّع في الحساب

ومما يجب التنويه به في هذا المقام سفارة أبي الحسن المختار بن عبيدالله الذهبي وهو من أولي الفضل والوجاهة بين مهيار وبين بعض الأمراء والكبراء فقد سفر هذا الأديب الوجيه المعجب بمهيار بينه وبين الصاحب « عميد الحضرة » أبي طاهر بن حمّاد فحمل الأخير على مطالبة الشاعر بالمديح وإرسال الجائزة إليه سلفاً . وقد لبى الشاعر الطلب ومدح عميد الحضرة بقصيدة مطلعها :

نظرة منك ويوم بالجريب حسب نفسي من زمان وحبيب

وسفر بينه وبين الكاتب الجليل أحمد بن عبدالله فحمله على ابتدائه بالزيارة والعطاء وبتكرارهما وقد نوّه مهيار بهذا في قصيدة مطلعها :

هويً لي وأهواء النفوس ضروب ..

يقول فيها :

أأنسى لك النعمى التي تركت فمي ... يصعّد يبغي شكرها ويصوب ؟
ملكت فؤادي عند أول نظرة ... كما صاد عذرياً أغنّ ربيب
وكنت أخاف البابليّ وسحره ... ولم أدر أن الواسطيّ خلوب
وغناك أقوام بوصف مناقبي ... فرّنح نشوان وحنّ طروب
رفعت منار الفخر لي بزيارة ... وسمت بها مغناي وهو جديب
وكنت لداءٍ جئتني منه عائداً ... شفاءاً وبعض العائدين طبيب
وأنهلتني من خلقك العذب شربة ... حلت لي وما كل الدواء يطيب
ولما جلا لي حسن وجهك بشره ... تبين في وجه السقام قطوب
أجبت وقد ناديت غيرك شاكياً ... وذو المجد يدعى غيره فيجيب

بيد أنه إن كان بين معاصري مهيار من يزوره ويكرر زيارته دون سابق معرفة ، ويصله مرة بعد أخرى قبل أن يمدحه بشيء ، فقد كان بينهم من يشتهي مديحه ويبخل بصلته ، فيسأله المديح ويعده الجائزة السنية حتى إذا نزل على رغبته ومدحه بما أراد غدر به ولم يعطه شيئاً وقد انتقم مهيار لنفسه من هؤلاء فلذعهم بقوارص أروي لك منها قوله :

أمدح المثرين ظناً بهم ... ربما يقمر بالظن الكذوب
كل وغد الكف منبوذ الحيا ... طيب المحضر مسبوب المغيب
يمنع الرفد وتلقى وفده ... قحة البخل بادلال الوهوب
يطلب المدح لأن يفضحه ... وهو قبل المدح مستور العيوب

ولكن أكان مهيار فقيراً ؟ أم كان على العكس من ذلك ؟

تخبرنا كتب التراجم أنه كان كاتباً ! ولكنها لاتقول لنا متى تقلد هذا العمل الديواني وما نوعه ، وخصوصاً ما مقدار أجره عليه ؟ ومع ذلك فاننا نعلم علماً لاشك فيه أن مهيار لم يكن فقيراً كما أنه لم يكن غنياً وإنما كان متوسط الحال ، وهو نفسه يحدثنا بهذا حيث يقول :

ما أبصر الدهر بما أريده ... لو كان في الحكم عليّ يقتصد !!

أنزلني منزلة بين الغنى ... والفقر لم يبخل بها ولم يجد

وشر أقسامك حظ وسط ... أرعن لم تخمل به ولم تسد

. . . . .

ب- أخلاقه :

أما أخلاقه فمن الممكن استنباط أهمها من شعره إذ في مقدورنا أن نقرر استناداً الى هذا الاستنباط أنه يمتاز بالطمع والعفة والوفاء والاخلاص . وأؤجل الكلام على إخلاصه للبحث عن إخوانياته كما أني أترك الكلام على القناعة التي قاده إليها جشعه وإلحافه في السؤال للبحث نفسه . وأتحدث إليك عن طمعه : فقد كان لسوء الحظ كثير الطمع شديد الجشع يدلك على هذا قوله :

صلونا فانا مجدبون بمنزل ... يضيق على الأيام بالحر رحبه

يعزّ عليكم كيف يرجع مرملاً ... غلام من الآداب والمجد كسبه

. . . . .

وقوله :

يقولون دار الناس ترطب أكفهم ومن ذا يداري صخرة ويذيبها

ولكنه أعني مهيار يؤكد لنا فيما عدا ذلك أنه عالي الأخلاق عفيف الذيل بعيد عن الخنا :

عذيري من باغ يودّ لنفسه نزاهة أخلاقي ويمسي يعيبها

ومن نفس القصيدة :

ولله نفس من نهاها عذولها ومن صونها - يوم العذيب - رقيبها(١)

ومن اخرى :

يفسق كفي بينهن وفمي فتكاً ويمسي مئزري حصينا

. . . . .

أما حسنة مهيار الخليقة الكبرى فهي الوفاء وقد نوّه بهذا مراراً عديدة في شعره فمن قوله فيه :

رعى الله قلبي ما أبرّ بمن جفا وأصبره في النائبات وأحملا
وكرّم عهدي بالصديق فانه قليل على الحالات أن يتحوّلا

ومن قوله فيه :

رعى الله قلباً ما أبر بمن جفا وأثبت عهداً والعهود طوائح
وأوسع ذرعاً بالوفاء وصونه إذا ضاق ما تطوي عليه الجوانح

---

(١) اخذ هذا من استاذه الشريف حيث يقول :

عفافي من دون التقية زاجر وصونك من دون الرقيب رقيب

وقد أيدّ مهيار هذه الأقوال بأعماله الكثيرة المشرّفة في هذا الباب فمن ذلك أنه أقام على ولائه لأبي طالب محمد بن أيوب أجزل ممدوحيه صلة له وأفاهم نصيباً من مدحه عند إقصائه عن منصبه وتنكر الأيام له وإعراض الناس عنه وزاد على ذلك أن مدحه بقصيدة نفيسة مطلعها :

لا عداك الغيث يا دار الوصل كل منحل العرى واهي العزال(١)

قال فيها :

حول الناس وجوهاً عنكم وتساقوا فيكم كأس التقالي
وأبت نفسي على النأي فما اسـ ـطاع تحويلي ولا رام انتقالي

ولما ترك الكافي الأوحد (وهو من ممدوحي مهيار الأسخياء) ولاية الري اعتزل الناس في بروجرد إحدى مدن فارس الا أنه كان كثير الشوق إلى مهيار يبعث إليه بتحياته مع كل من يمر به من زوار العراق . فما كان من المترجم إلا أن شد الرحال من بغداد إلى بروجرد ليجدد العهد بممدوحه القديم ولينشده قصيدة رائعة أعرب فيها عن تمسكه بحبل ولائه وإقامته على عهده أيما إعراب اليك طرفاً منها :

اليوم أنجز ماطل الآمال فأتتك طائعة من الاقبال
بمنى وفين له وهنّ غوادر ولقحن قربك بعد طول حيال
قطع المنى(٢) يستام ذاك بنفسه مسترخصاً والدهر فيه يغالي
فأتى يدوس الهول نحوك شوقه والشوق مشّاء على الاهوال
يلقى الخطوب بمثلها من همة قطعت جبالا في ابتغاء جبال

. . . . .

(١) في الديوان طبعة مصر (منهل) .
(٢) هكذا في الديوان طبعة مصر وربما كان الصواب « الفلا » .

ويكاد رثاء مهيار كله يكون برهاناً صادقاً على وفائه فقد رثى أستاذه الرضي بقصيدتين هما من أنفس ما قيل في الرثاء لم يعز فيهما الشريف المرتضى ولم يمدحه ومعنى هذا أنه لم يقلهما ابتغاء أجر . ورثى المفيد المتقدم ذكره في ترجمة الشريف الرضي بقصيدة من أروع قصائده مع أنه لم يكن بينهما سوى مودة طفيفة أشار إليها بقوله :

إن كان حظي من وصالك قبلها حظ المغبّ ونهزة المتقلّل

فلأعطينك من ودادي ميتاً جهد المنيب ورجعة المتنصل

. . . . .

ورثى صديقه أحمد بن عبدالله الكاتب المتقدم ذكره بقصيدة هي من غرر شعره إن لم أقل من غرر القريض العربي كله ولم يفعل ذلك إلا بدافع الوفاء . ولو استقصيت رثاء مهيار لأقمت براهين أخرى كثيرة على وفائه ، ولكن فيما تقدم كفاية .

حـ ـ تعربه :

ومع أن مهيار فخر غير مرة بفارسيته كما فخر كثير من الشعراء الغرباء بأنسابهم ، فالواقع أنه تعرب بروحه وشعره إلى حد بعيد . فقد قال وهو يصف إحدى قصائده :

متى تكن سلول أو باهلة آباء شعر فأبوها دارم

وقال في وصف أخرى :

حاضرة تحسبها بادية تدّيرت دارات خبت فالبرق

وقال يصف شعوره نحو شبه جزيرة العرب :

ولقد أحن إلى زرود وطيبتي ... من غير ما فطرت عليه زرود
ويشوقني عجف الحجاز وقد ضفا ... ريف العراق وظله الممدود
ويطرّب الشادي فلا يهتزني(١) ... وينال مني السائق الغريد

وقال يحث على ترك المدن والعيشة في البادية :

رم العلا بين بيوت أهلها ... مقلّباً في طرقها مقلقلا
ولا تكن إلا أخا صريمة ... متى نبت دار به تحولا(٢)

بل إنه ذهب الى أبعد من ذلك فتشبه في فخره بأجواد البادية وادعى إيقاد النار للسارين وعقر الكوم العشار للضيفان والقيام على خدمتهم بأسلوب حاتمي :

وطارق والليل قد مدّ له ... على بياض الطرق الدجونا
فرفعت ناري له لسانها ... تريه أي وجهة يأتينا(٣)
كأنها تخاف في ضلاله ... أن يطرق البيت الذي يلينا
والكلب يستاف البيوت طوياً ... (٤)جنبيه حتى يلج الدخينا
يكفر تحت كشحه خيشومه ... تسمع من نباحه أنينا

---

(١) هكذا في الديوان طبعة مصر وربما كان الصواب (بهتاجني) .

(٢) أخرت هذا البيت عملا بضرورة سياق الكلام وهو مقدم في الديوان على سابقه .

(٣) لاوجو لهذا البيت في الطبعة المصرية ولكني أرويه عن نسخة مخطوطة سأتحدث عنها فيما بعد . أما البيت الذي يليه فانه في غير هذا المكان في الطبعة المصرية ولكني رويته هكذا عن النسخة المخطوطة التي تقدمت لها الاشارة .

(٤) هكذا أرويه وفي الطبعة المصرية (شطريه) ويستاف يشتم ولم أجد فيما بين يدي من معاجم اللغة معنى لكلمة دخين وربما كانت تعني موقد النار او ما يقرب منه .

قمت له من رقدة معسولة ... أكره عنها الجنب والجفونا
ثم انخت خيرها عقيلة ... بليف حتى اعترق الوتينا
وقلت للجازر قم فاختر له ... على مناه الرخص والسمينا
جدلاء(١) قد بات خماصاً أهلها ... والضيف قد نام بها بطينا

والآن وقد أريتك مهيار بمظهره الحاتمي أحب أن أعود بك إلى أول القصيدة لتراه بمظهره العذري قال :

أمن خفوق البرق ترزمينا ... حني فما أمنعك الحنينا
سرى يمينا وسراك شامة ... فضلّة ما تتلفّتينا
هبّ كما تخاطفت هندية ... مخلصة أجهدت القيونا
فكم أراك بثنيات الحمى ... على البعاد الثغر والجبينا
وكم ذكرت روضه وغدره ... والعمم الملتف والمعينا
نعم تشاقين ونشتاق له ... ونعلن الوجد وتكتمينا
فأين منا اليوم أو منك الهوى
وأين نجد والمغورونا
سقى الحيا عهد الحمى أعذب ما
تسقي السموات به الأرضينا

. . .

ألا ترى في هذه الأبيات أعرابياً عاشقاً من أعراب عذرة يتطلع إلى برق تألق من ناحية تقيم فيها حبيبته فهيّج غرامه وحرّك أشجانه

---

(١) الجدلاء : الشديدة الأسر .

وأسال دموعه وأثار في نفسه شتى الخواطر والذكريات فأخذ يصعّد الأنفاس الحارة ويتابع الزفرات الجياشة .

ألا تذكرك - أي الأبيات - جميل بثينة وقيس لبنى ومجنون ليلى .

قد تقول : وأين أثر العرق إذن ؟ والجواب على ذلك أن الثقافة أشد نفوذاً وأقوى تأثراً من الجنس إذاكانت على جانب كبير من العمق والقوة وليس من شك في أن ثقافة مهيار العربية من العمق والقوة بحيث غلبت على عقله وسيطرت على ضميره ونفذت إلى أعماق نفسه . أضف إلى ذلك أن مهيار فخور بولائه في آل الرسول (ص) وقد نوه بهذا مراراً كثيرة في شعره : فمن ذلك قوله من قصيدة رثى بها أهل البيت عليهم السلام :

حبكم كان فكّ أسري من الشر ك وفي منكبي له أغلال

كم تزمّلت بالمذلة حتى قمت في ثوب عزكم أختال

وقوله من قصيدة رثى بها الطاهر أبا أحمد والد الشريف الرضي :

رثاك نسيب وده وولاؤه محق إذا زنّ(١) القصيّ بأبطال

ومولاكم فيكم على ما شرطتم وإن بان عنكم في عموم وأخوال

أفتشك بعد هذا أن مهيار عربي بروحه وأدبه عروبة صادقة ؟

. . . . .

---

(١) زن : اتهم .

د ـ شعره :

المعروف أن مهيار شاعر وكاتب ، ويستشف من كلام الباخرزي أنه كاتب ممتاز إلا أننا لم نقف حتى الآن على شيء من نثره وأكبر الظن أنه ضاع فيما ضاع من التراث العربي الأدبي . بيد أن شعره مجموع في ديوانه الضخم الذي يقع في أربعة مجلدات . ويظهر أن مهيار عني بشعره فجمعه وعلق عليه وأذاعه في الناس . فقد رأيت أن الخطيب يحدثنا أنه رآه في جامع الخلفاء والناس حوله يقرأون ديوانه عليه وهذا يعني أن شعره كان مجموعاً ومتداولاً في أيام حياته .وهنا أحب أن أقول إني وقفت قبل نحوٍ من خمسة وثلاثين عاماً على نسخة مخطوطة من ديوانه كتبت للسيد علي خان صاحب « أنوار الربيع » و « سلافة العصر » المتوفى سنة ١١٢٠ أو ٢١ هـ .كانت في حوزة آل السيد حيدر الشاعر الحلي الكبير ولم تكن هذه النسخة تشتمل على كل شعر مهيار إلا أن السيد حيدر عثر على ماينقصها منه فكتبه بخطه وهكذا باتت أسرته تملك ديوان مهيار مخطوطاً بأكمله . ويؤسفني أن ألاحظ أن النسخة التي طبع عليها ديوان مهيار بمصر عام ١٩٢٥ كثيرة النقص والخطأ بالقياس الى نسخة آل السيد حيدر فمن أمثلة نقصها أن النونية التي مطلعها : « أمن خفوق البرق ترزمينا ... الخ » لاتحتوي على هذا البيت الذي تقدمت روايته وهو « فرفعت ناري ... البيت » .

ومن أمثلة نقصها كذلك أن اللامية التي رثى بها مهيار المفيد لا تحتوي على هذا البيت :

بكرت عليك بدرّها ربعيّة وطفاء تحلب من ضروع حفّل

أما أغلاطها ولاسيما الناشيء منها عن التصحيف فكثيرة جداً ويكفي أن تتصفح الديوان لتقف على عدد غير يسير منها . ومع ذلك أروي لك

من تلك الأغلاط مثالين اثنين لتتمكن من تكوين فكرة عنها . ورد في مطلع مرثية مهيار للطاهر ابي أحمد بالديوان :- « كذا تنقضي الأيام حالا على حال » والصحيح : « كذا ينقص الاسلام » .وورد البيت التالي في الديوان هكذا :

وتقول للعذال مغضبةً شيبته من حيث لا يدري

والصحيح :

وتقول للعذال مرضيةً لشيبته من حيث لا يدري

ولكي تتحقق وجاهة هذا التصحيح أروي لك البيت الذي يتقدم البيت المذكور وهو :

واستسقيت لظماي ريقتها فاستشهدت بالآي في الخمر

أفترى أن البيت « وتقول للعذال ... الخ » يمكن أن يصح على الوجه الذي ذكره الديوان وبناءً على ما تقدم رأيت أن أعتمد على ذاكرتي فيما أورد هنا من شعر مهيار ما أمكنني ذلك على أن أثبت وجوه الخلاف بين ذاكرتي وبين الديوان في هوامش الصفحات حرصاً على أمانة النقل وسأشير إلى طبعة مصر برمز (ط . م) .ويتألف شعر مهيار من الغزل والمديح والرثاء وشكوى الزمان والناس والوصف ونعرض فيما يلي لهذه الأبواب جميعاً .

غزله : ليس لمهيار غزل مستقل يعتد به ولكن له في مقدمات مدائحه وهي تؤلف الكثرة الكبرى من شعره : غزل قلما تفتقت عن مثله قريحة شاعر ووجود هذا الغزل في مقدمات المدائح يعني بالطبع أنه لا يعبر عن صبابةٍ حقيقيةٍ ولكنه يستعيض عن العاطفة الصادقة بأمرين هما رقة

الخيال ودقة المعنى . فأنت تقرؤه دون أن تحسّ فيه دبيب الحب الصادق إلا أنه يستهويك بخيال كله لطف ورقة ومعنٍ رائعة بارعه تبلغ منتهى الدقة أحياناً اسمع قوله :

أمكنت العاذل من قيادها ... فنتزع الرحمة من فؤادها

ولوّنت أخلاقها فقد غدا ... بياضها يشفّ عن سوادها

والغانيات عطفةً وصدفة ... يجنى لك الحظل من شهادها

لا يملك الراقد من أحلامه ... إلا كما يملك من ودادها

. . . . . .

آه على الرقة في خدودها ... لو أنها تسري إلى أكبادها(١)

بالبان لي دين على ماطلة ... يميس غصن البان في أبرادها

سلّطت الوجد على جوانحي ... تسلّط الخلف على ميعادها

* * *

فايس من شك في أن هذه القطعة لا تعبّر عن حب يدل على نفسه كما يدل نفس اللطيمة على وجودها . ولكن أظن أنك توافقني على أنها رقيقة الخيال دقيقة المعنى إلى حد بعيد ولعلك تشاطرني خاصةً إعجابي بهذين البيتين « آه على الرقة ... » و « سلطت الوجد... البيت » فتمني سريان الرقة من الخدود الى القلوب وتسليط الوجد على جوانح المحب تسليط الخلف على مواعيد الحبيب معنيان جميلان جديدان هما على جانب عظيم من الرقة والدقة . وما أزعمه في هذه القطعة أزعمه في الأبيات التالية التي أختارها لك من قصيدة أخرى قال مهيار :

---

(١) في الديوان « ط . م » فؤادها

بكر العارض تحدوه النُّعامى فسقيت الغيث يا دار أماما(١)
وتمشت فيك أرواح الصبا يتأرّجن بأنفاس الخزامى

. . . . . .

أين سكانك ؟ لا أين هم أحجازاً يمموها أم شآما ؟(٢)
صدعوا بعد التآم فغدت بهم أيدي الموامي تترامى

. . . . . .

يا لواة الدين عن ميسرة والضنينات وما كنّ لئاما
قد وقفنا بعدكم في ربعكم فنهبناه استلاماً والتثاما(٣)

. . . . . .

قل لجيران الغضا آه على طيب عيش بالغضا لو كان داما

. . . . . .

حملوا ريح الصبا نشركم قبل أن تحمل شيحاً وخزامى(٤)
وابعثوا أشباحكم لي في الكرى إن أذنتم لجفوني أن تناما
وقف الظامي على أبوابكم أفيقضي وهو لم يشف أواما

---

(١) في الديوان « ط . م » فسقاك الري . النعامى بضم النون : ريح الجنوب أو هي بينها وبين الصبا .
(٢) في الديوان « ط . م » أقبلوها .
(٣) في الديوان « ط . م » :
قد وقفنا قبلكم في ربعكم فنقضناه استلاماً والتزاما
(٤) في الديوان « ط . م » وتماما .

ما يبالي من سقيتن اللمى منعكن الماء عذباً والمداما

. . . . . .

أشتكيكم وإلى من أشتكي أنتم الداء فمن يشفي السقاما

. . .

فتمنيات الشاعر لدار حبيبته لا تقل طيباً عمّا يتمنىّ لها من أنفاس الصبا العطرة وشكواه إلى اللواتي يزعم أنهن سحرن عقله وصرمن حبله بالغة منتهى التلطف والترفق وتقييده زيارة الخيال بالاذن لجفونه في أن تنام معنى لم يسبق إليه فيما أظن . واليك الآن مثلاً آخر من هذا النسيب المطرب المرقص . قال مهيار :

أما وهواها عذرةً وتنصّلا لقد نقل الواشي إليها فأحلا(١)

سعى جهده لكن تجاوز حدّه وكثّر فارتابت ولو شاء قللا

وقال ولم يقبل ولكن أسبّه على أنه ما قال إلا ليقبلا(٢)

وطارحها أني سلوت فهل رأى لهالذم - مثليعن هوىمثلها سلا

أأنفض طوعاً حبها عن جوانحي وإن كان حباً للجوانح مثقلا ؟

أبى الله والقلب الوفيّ بعهده وإلف إذا عدّ الهوى كان أوّلا

أيا صاحبي نجواي يوم سويقةٍ أناةً ! وإن لم تسعدا فتجملا

---

(١) تشير الأبيات الأولى من هذه القصيدة الى الوشاية الكاذبة التي أدت الى سجن مهيار ليلة واحدة والى نظم هذه القصيدة كما أوضحنا ذلك في حينه . وامحل ! كذب .

(٢) في الديوان (ط . م) :

وقال فلم تقبل ولكن تلومت على أنه ما قال الا لتقبلا

سلا ظبية الوادي وما الظبي مثلها وإن كان مصقول الترائب أكحلا

أأنت أمرت البدر أن يصدع الدجى

وعلّمت غصن البان أن يتميلا ؟

وحرّمت يوم البين وقفة ساعةٍ على عاشق ظن الوداع محللا ؟

جمعت عليه حرقة الدمع والجوى وما اجتمع الداءان إلا ليقتلا

هبي لي عيني واحمالي كلفة الأسى على القلب إن القلب أصبر للبلا

أراك بوجه الشمس والبعد بيننا فأقنع تشبيهاً بها وتمثلا

وأذكر عذباً من رضابك مسكراً فما أشرب الصهباء إلا تعللا

* * * *

ليس التحدث عن أقاويل الوشاة وأراجيفهم شيئاً جديداً في الأدب العربي ولكن يغلب على الظن أن هذا التحليل الذي أتى به مهيار لمسعى الواشي الأثيم جديد في بابه ولا سيما قوله بأن واشيه باء بالفشل ولكنه يسبه على سوء نيته ، وليست المقارنة بين وجه الحبيبة وبين الشمس ، وبين ريقها وبين الصهباء معنىً مستحدثاً ولكن قناعة مهيار « برؤية » حبيبته « في وجه الشمس » تشبيهاً وتمثّلا » وتعلله بشرب الصهباء لحرمانه من لمى تلك الحسناء زيادتان طريفتان غير مبتذلتين .

* * *

إخوانياته أو شعره في الزمان والناس :

وكثيراً ما شفع مهيار غزله في مدائحه بشكوى الزمان أو ذم الناس

أو بهما معاً وربما اشتد سخطه أحياناً فبدأ قصائده بشيء من هذه الشكوى أو ذلك الذم كما فعل في بائيته التي مطلعها :

« قالوا رضيت قلت ما أجدي الغضب » الخ ...

وغني عن البيان أنه لم يكن أول من شكى الزمان والاخوان في القريض العربي وإنما سبقه إلى ذلك في الجاهلية والاسلام شعراء لا يحصون. ومع ذلك فشعره في هذا الباب جدير بأن يقرأ وأن يتمثل به لأنه مفعم إخلاصاً وحيوية . وقد رأيت أن غزله يستعيض من صدق العاطفه برقة الخيال ودقة المعنى فلاحظ الآن أن إخوانيته أو كلماته في ذم الزمان والناس تعتمد على الأمر الواقع ، والحقيقة الملموسة دون أن تستغني عن طرافة الخيال ودقة التصوير . وما هي إلا أن تقرأها حتى تتبين خلالها النظرات المريبة والابتسامات الخادعة والمجاملات المعسولة الكاذبة والعبادة الأثيمة للمال والاستهانة المزرية بالفضيلة المملقة . وأنت إذا تأملت شعر مهيار في هذا الباب رأيت أن نقمته الشديدة على الناس ناشئة عن سببين هما البخل والرياء . فمهيار شاعر متكسب ومعنى هذا أنه يعتمد في حياته على كرم الناس ، ولكن الأسخياء بالمال قليلون وقليلون جداً ، وهذه القلة في عددهم تغيظ مهيار وتثير حنقه وتدفعه إلى التذمر الشديد حيناً وإلى القنوط حيناً آخر . وقد مرّ بك من شعره عند البحث عن أخلاقه ما يؤيد ذلك . وهو إذا صدّقناه سليم النية حسن السريرة يخلص لصديقه في البعد كما يخلص له في القرب ويمحضه الود في السر كما يمحضه إياه في العلن :

ما أنا من صبغة أيامكم ولا الذي إن قلّبوه انقلبا

ولا ابن وجهين ألمّ حاضراً من الصديق وألوم الغيبا
قلبي للأخوان شطوا أو دنوا وللهوى ساعف دهر أو نبا

وهو يطلب إلى الناس أن يشاطروه حسن نيته ويشاركوه في صفاء طويته ولكن المخلصين من الناس أقل من الأسخياء منهم بالمال . وكان هذا يسوء مهيار أيضاً ويحمله على الضيق بالناس وعلى المقت لهم ما وجد إلى مقتهم سبيلا . ويظهر أن نقمة مهيار الشديدة على الناس عادت عليه بأجزل الفوائد ، فقد انتهى به النفور من شحهم إلى القناعة، والاشمئزاز من رياثهم إلى الانفراد والعزلة . اسمع قوله في القناعة :

وجد الجميم فعافه وتبقلا وجرى له الوادي فصدوأوشلا(١)
ورأى الكثير مع المذلة هادماً حسب الكريم وعرضه فتقللا(٢)
. . . . . .
تلحو على البخل الضنين بماله أفلا تكون بماء وجهك أبخلا
أكرم يديك عن السؤال فانما قدر الحياة أقل من أن تسألا
. . . . . .
ولقد أضم إليّ فضل قناعتي وأبيت مشتملاً بها متزملا
وأرى العدو على الخصاصة شارةً تصف الغنى نيخالني متمولا(٣)

---

(١) الجميم : النبت الكثير : وتبقل طلب البقل وهو ما نبت في بذرة لا في اروعة ثابتة وأوشل : طلب الوشل وهو القليل .

(٢) في الديوان (ط . م) من المذلة .

(٣) في الديوان (ط . م) الغدو بدلا من العدو وتخالي بدلا من يخالي .

وقوله في الحث على القناعة والوحدة :

إني لأسغب زهداً والثرى عمم ... نبتاً وأظمأ وغرب الغيث مسكوب

ولا أرق لحرص خاب صاحبه ... سعياً ويعلم أن الرزق مكسوب

عقبى الطماعة في مال يمن به ... عصارة لا يغطي خبثها الطيب

طهّر خلالك من خل تعاب به ... واسلم وحيداً فما في الناس مصحوب

• • •

وقوله وهو يتحدث عن وحدته :

يا من يلوم على اشتمالي قاعداً ... والأرض واسعة الفروج لنهضتي

ويرى الرجال وكلهم متكثر ... بصحابة فيلومني في وحدتي

إعذر أخاك فما تهجّر مشمساً ... حتى تقلّص عنه ظل الدوحة

كيف اعترافي بالصديق وكيف لي ... بالفرق بين محبتي من بغضتي

وقلوب أعدائي الذين أخافهم ... مغلولة لي في جسوم أحبتي

• • •

وصفه : ولم تشتمل مدائح مهيار على لطائف غزله ونقداته للحياة والناس فحسب وإنما اشتملت على بدائع وصفه أيضاً وما أريد الطواف بك في مدائح مهيار كلها ولا أكثرها بل ولا في كثير منها بحثاً عما تنطوي عليه من بدائع الوصف ولكني أقف بك عند قصيدة واحدة وصف فيها بيتاً بناه أحد أصدقائه إذا قرأت وصفه خيلّ لك أنه بني بقوة السحر. ولابد من وصف هذا البيت لك نثراً لتتذوق وصفه نظماً . وقد سبق

إلى هـذا جامع الديوان فشرح عجائب البيت المذكور وغرائبه بكلام طويل أثبته هنا كاملاً غير منقوص لفائدتـه : قال جامـع الديوان : « واتخذ بعض أصدقائـه من أولاد الرؤسـاء الكتاب في داره بيتاً من الخيش في وسـطه بركة مثمنة قد نصبت فيها صومعة للحركات مربعة لها أربع منائر مجوفة في جوانبها الأربعة ، يتوسـطها عمود عالٍ في صورة الأسـطوانة ينزل إليه الماء من حوض مشرف مرفوعٍ بناؤه على سـماء البيت مصوب إليه بالحركات حتى إذا اسـتقر الماء في قرار البركة فاض منه ثم من الأربعة الجوانب فيضاً يعلو حتى يكاد بفضل قوته يلحق بسقف البيت وقد عملت لها تماثيل من الصفر يسمى كل واحدٍ منهـا باسـم . فتؤخذ آلتها فتركب على ذلك العمود الأوسـط ثم تدار بحركـة من الحركات فترش الماء على سـائر من يحويه البيت أو يقاربـه فمن التماثيل صورة تسمى الخركاة(١) إذا نصبت وأديرت تشكل الماء عليهـا بشكل (الخركاة) وبقي معلقا لا يفيض ولا يسـيل حتى تقطع حركتها ويوضع عليها من جوانبها الشموع اللطاف المسرجة فتدور فيها من غير أن تطفئها ومنهن صورة تسمى « العروس » يجعل لها ذلك العمود كالكرسـي فتدور راقصة عليه وتوصل في دورانها الماء إلى رأسـها بيدها . ومنهن صورة تسمى « الجمل » على هيئته إذا نصبت سـارت مسيره بالماء المحرك لها ومنهن صورة سـموها (الطنبلهب) في هيئـة رجل فاشـب(٢) إذا نصبت وأريد بعض حاضري البيت بالبلل صوب سـهمه ذلك إليه فأصابه

---

(١) الخركاة (كما ورد في محيط المحيط) بالفارسـية القبة التركية ، ويقال في تعريبها خرقاهة وقد وردت في شـعر مهيار بالهمزة كما سـيجيء .

(٢) الناشـب الذي يحمل النشاب وهي السهام .

فكيفما هرول لينجو منه كان الماء تابعاً له مادام في عرصة البيت ثم يخرج الماء من هذه البركة إلى بستان في صحن الدار متناهٍ في الحسن فيه صنوف النخل والسّرو وغير ذلك من الشجر وأنواع الرياحين والزهر مما يروق مثله وهواء هذا البيت مجلوب من « بادهنج(١) » قد شيد على سطحه مفتوح الجناحين لمهب الجنوب والشمال . فدخل مهيار رحمه الله على هذا الصديق ذات ليلة ، فسأله التعريج على هذا البيت والنظر إلى عجائبه ففعل . ولما نصبت التماثيل وجاءت النوبة إلى المعروف (بالطنبلنب) ركب نحوه وصوب إليه فبلّ ثيابه وكان فعله في قلة نفع الفرار منه على ما قدّمناه فعند ذلك سئل ذكر البيت وما حواه ووصف الدار والبستان والبركة والبادهنج فقال واصفاً الحال بما يزيد حلاوة ويروق موضع الاصابة(٢) فيه عند مشاهدة الموضع ، ممازحاً للرجل بغرامة ما بلّه من ثيابه :

وفيحاء من دورهم(٣) زرتها ... وأخلق بها جنة أن تزارا

تلجلج في وصفها المحدثون ... وحدّث رضوان عنها فحارا

تعرّب قاسمها عادلاً ... فخط وتحسبه العين جارا

صحوناً طوالاً كما تقتضي ... شجاعتنا وحصوناً قصارا

---

(١) البادهنج : المنفذ الذي تجيء منه الريح وسماه بعضهم « راووق النسيم » وقد قال فيه أبو الحسن الأنصاري :

ونفحة بادهنج أسكرتنا ... وجدت لروحها برد النعيم

صفا جري الهوي فيه رقيقاً ... فسميناه راووق النسيم (الديوان)

(٢) في العبارة شيء من الغموض وربما كان ويروق لموضع الاصابة منه .

(٣) الضمير في دورهم عائد الى الملوك في بيت سابق .

وشق لبستانها عن ثريٍ ... إذا طلع النبت فيه أنارا

وقد بث في ظل شجرائه ... عيون الأذى رقبة واستتارا

تخفّر منها بمسلوبةٍ ... سوى ورق ألحفته أزارا

من الهيف حين يجور النسيم ... على غصنها لا تطيق انتصارا

تحول عرضت له بالسمان ... وصغرى تجنبت منها كبارا

ومنشورة سترت نفسها ... فخاطت قميصاً ولاثت خمارا

وعزت فصانت سوى ساقها ... وما إن أباحته إلا اضطرارا

تشمّر عنه جلابيبها ... لعادته أن يخوض الغمارا

فكادت تواريه ظناً به ... ومن حسنها أنه لا يواري

تشككني وهي طوع الريا ... ح تتبعها يمنة أو يسارا

أتدنو لتسعفني بالغنا ... ق في مثلها أم تصد ازورارا ؟

وتجلو عليك بثات الفسيل ... إذا كست السعفات الثمارا

غدائر غيد يظفرنها ... وتأبى عليهنّ إلا انتشارا

جلبنا له الماء من شاهق ... جزانا بحسب الصعود انحدارا

وما سال حتى أسلنا اللجين ... ولا عز حتى أهنا النضارا

إذا ما تحلّق مستعلياً ... تعلّق بالطبع يبغي الفرارا

فثور خمساً إذا ما نطقن ... بأخباره خلت نقعاً مثارا

إذا جادهن ندى جدنه ... وإن فرّ طرن إليه نفارا

هوّين الأمانة حتى اجتهدن ... ليقضينه ماءه المستعارا

تروس(١) عليهن في وسطهن كبرى تعول بناتاً صغارا

برزن يخيّلن للناظرين صوامع من حولها أو منارا

إذا سدّدت لطعان قناً حذفن إليها نصولا طرارا

حوتهن معجزة الآيتين تجود الحيا وتمدّ البحارا

فمن بين خركاء مضروبة على تلعة حملتها اغترارا

تولى مجاريها فوقها من الماء شمحاً كريماً نجارا

إذا ما أدير لها مرة لتعجب جادت فدارت مرارا

لها آية لم تكن قبلها ولكن ظهرنا عليها اقتدارا

ترى ظلها جامداً مائعاً وتحمل ضدين ماء ونارا

ومثل العروس عروس تديم يداها على منكبيها النثارا

إذا ما جلوها أبت حشمة بكرسيها أن تطيق القرارا

طلبنا لها الكفء من قومها فعزّ وكان سوى الكفء عارا

فعدنا نزرّ عليها السجوف فترضى بها عفة واختفارا

وكالظبي يظلم باسم الجمال فيطغى إباء ويغضي اغتفارا

ويزبد فوه لغاماً إذا تفرق عن شفتيه استطارا

يسير رويداً إذا ما اعتدت كبود المطايا عطاشاً حرارا

ولولا الذي فعل الطنبلنب لقد أنجد المدح فيه وغارا

ولكنه خافر للذما ... م جاورته فاساء الجوارا

---

(١) تروس : تتبختر .

بغاني فلم أنج مع نهضتي ... ورحب خطائي منه فرارا
رماني فأصمى بسهم له ... يدور مع المتقي كيف دارا
إذا هو فوّقه للإياب ... ألقى جروحاً تضل السبارا
فردّى ردائي وجاءت ايـ ... ـك درّاعتي تبتغي منك ثارا
قتيلي لديك فلا تذهبن ... عليك دماء ثيابي جبارا
وبيت إذا الدهر ضام الشتاء ... تعوّذ منه به فاستجارا
صحبت الخريف به في المصيف ... وذكرني الليل فيه النهارا
وأهدي الهواء له ناشر ... جناحين لو حملاء لطارا
تنّصت للريح مستفهماً ... بأذنين لا يحملان السرارا
إذا عبرت مطلقات الرياح ... بسلكنه ظلن فيه أسارى
فتلفظ منها السموم الشرار ... ويلقى الينا النسيم الخيارا
غرائب روضت يا ابن الكرام ... برأيك منها الشموس النوارا(١)
وباهلت بالأرض فيها السما ... ء فاعترفت خجلاً وانحصارا

هذه هي درة قلادة مهيار في الوصف ، أما إذا أردت المزيد فاقرأ وصفه للعود ولقدح ذهبي بديع الصنع في دالية مطلعها : « أري طرفها أن الخضابين واحد » ووصفه البحر في بائية أولها : « سلا دار البخيلة بالجناب » ووصفه السفينة في رائية مطلعها : « بين الصفا فثنية الحجر » وفي قافية أولها : « أروّض الوادي أم ابيض الغسق » ووصفه خلعاً نفيسه

---

(١) الشموس النوار : الممتنعة النافرة .

أفيضت على الصاحب أبي القاسم ابن عبدالرحيم في بائية مطلعها : « أفاح قوم إذا دعوا وثبوا » ووصفه خلعاً نفيسة كذلك بينها دواة ذهبية عجيبة أنعم بها على عميد الكفاة أبي سعد بن عبدالرحيم في ميمية مطلعها : « أيقظني للبرق وهو نائم » اقرأ هذا كله وما أشك في أنك ستجد وصف مهيار على الدوام صادقاً دقيقاً يجمع سعة الخيال ونفاذ الحس إلى براعة في التصوير تبعث على الاعجاب !٠قد تقول : ولكن أليس لمهيار وصف سوى هذا الذي نجده في أثناء مدائحه ؟

والحق أن له غرراً وصفية كثيرة صوّر فيها كل ماوقع تحت بصره مما هو جدير بالوصف ٠ فهذه قطعة تصف المرآة وهذه ثانية تصف السرير وهذه ثالثة تصف النخلة وهذه رابعة تصف الرمان وهذه خامسة تصف السمك وهكذا ٠ ولكني آثرت الاقتصار على خير ما قال في هذا الباب ٠ وإليك مثلاً من وصفه المستقل عن مديحه وهو وصفه ملك الشطرنج :

ومؤمر بين الرجال مقدّم ... في الأرض وهو مدّبر مأمور

باق يخاف الحتف وهو متى يمت ... فله معاد عاجل ونشور

ويسير ما سار الجيوش أمامه ... ويقودها فيقيم وهو يسير

كثرت منازله وضاقت طرقه ... فكأنه بمكانه مأسور

مديحه : ولكن ما قيمة مديح مهيار هذا الذي تتقدمه طرائف الغزل وترافقه الخواطر الاجتماعية القيمة وتتخلله بدائع الوصف ؟ : أكذبك إذا قلت لك إنه صادر عن أي شيء آخر سوى الرغبة في الحصول على المال ٠ ومهيار يعلن ذلك ويؤكده بصراحة ما بعدها

صراحه كما رأيت. نعم !! إنه يعطيك فكرة صحيحة أو شبه صحيحة عن الممدوح لأن مهيار يتوخى قدر الامكان وصف ممدوحه بما هو فيه أو بما يتظاهر به أمام الناس. فاذا مدح وزيراً محنكاً ذا خبرة سياسية واسعة وصفه بالحنكة والدهاء وبعد النظر وما إلى ذلك . وإذا مدح كاتباً ممتازاً من كتّاب الدواوين وصفه بأصالة الرأي وذكاء الطبع والقدرة على الانشاء وإذا مدح زعيماً شهماً غزير الجود شديد البأس وصفه بما يمثل شهامته ويدل على كرمه وشجاعته ، وإذا وفق ممدوح فاضل على سبيل الفرض الى الجمع بين كثير من هذه المزايا المختلفة صوّره مهيار لقارئيه بكل ما يمت إلى أخلاقه بصلة . فالوزير أبو الفرج مثلاً من حسن السياسة وحزم التدبير بحيث يجمع بين الأضداد فيتآخى في عهده الحمل والذئب والظبي والأسد ! « والأستاذ الجليل » أبو طالب محمد بن أيوب من حدة الذهن وصفاء الطبع بحيث « تكفيه أولى قدحة من رأيه » . وشهاب الدولة منصور بن دبيس « عربي في نسبه وكرمه » « فارسي في سيرته ومنزله » . على أن هذه الملاحظات تقريبية لأنه ليس هناك ممدوح يرضى أن يمدح بما هو فيه أو بما يتظاهر به فقط وإرضاء الممدوح ضروري للحصول على الجائزة كما تعلم . ومهما يكن من شيء فهاك مثلاً من مدح مهيار :

يا ساكناً ثائر العزيمة مسّ الصّل من تحت لينه يثب
قد علم الملك إذ دعاك وحبل الرأي واه والشمل منشعب
أن قلوباً غشاً تميل مع الدولة أهواؤها وتنقلب
وأن سراً متى اصطفاك له أخلص ما في إنائه الذهب

لما تجلى وجه الحذار وليم ابن على غدره وخيف أب
رمى بك القصد سهم منجحة يسبق حرصاً حديده العقب
لم يثن فأل الشهور عزمته لا صفر عائق ولا رجب

• • •

سفرت فيها سفارة الليث لا يرجع إلا في كفه الطلب
لسعيه ما أهمه الدم واللحم ولكن لغيره السلب
حتى استقامت على تأودها وانتظمت في رؤوسها العذب

رثاؤه : بيد أنه إن كانت لشعر مهيار ذروة يجب أن نبلغها في الكلام عنه فهي رثاؤه . وليست مراثي مهيار كثيرة بالقياس إلى مدائحه فانها إحدى وعشرون مرثية بالضبط(١) بيتا تعد مدائحه بالمئات ولكنها لباب شعره وخيرة إنتاجه لأنها تعبر عن أصدق عواطفه وتمثل أرقى ما وصل إليه فنه من رعاية لوحدة الموضوع وعناية بترتيب الفكر وكفاية في استيفاء الغرض وقد يبدو غريباً أن مهيار مدح الناس طول حياته ثم لم يخرج بالمديح مما هو مألوف من تمهيد بالغزل وتطرق إلى شكوى الزمان وذم الناس أو الفخر وانتقال موصول أو مقتضب إلى الثناء والاطراء ولكنه نظم في فترات منقطعة طائفة يسيرة من المراثي فكانت واسطة عقده ومظهر شاعريته الأعلى إلا أنك لا تشعر

---

(١) اريد بمراثي مهيار تلك التي رثى بها من عز عليه من معاصريه . أما مراثيه لأهل البيت عليهم السلام فانها لا تدخل في هذه القائمة لأنها اشبه بالمدائح نظراً لأبتدائها بالنسيب وانتهائها بالمديح والرثاء معاً على أنه اذا كان لابد من أن أقول كلمة في هذه المراثي فهي في زعمي من متوسط شعر مهيار وما ظنك برثاء يبدأ بنسيب ؟

بشيء من الاستغراب إذا وقفت على سرّ هذه الظاهرة : فسبب تفوق مهيار في رثائه إخلاصه ! وأنت تعلم أن الشاعر لا يشب الوثبات الخالدة ولا يحلّق الى أوج شاعريته الا متى اندفع في تيار عواطفه وانفعالاته وشغل بها عن التفكير بالناس ، وبعبارة أخري إلا متى أخلص لموضوعه اخلاصاً لا تشوبه شائبة . وقد علمت أن مهيار لا يقول المديح الا للعطاء فلاحظ الآن أنه قلما نظم الرثاء إلا للوفاء ! ومعنى هذا أنه شاعر كبير في المديح ولكنه مصنوع ، وشاعر كبير في الرثاء ولكنه مطبوع . وهو من هذه الناحية يشبه البحتري الذي عاش قبله بنحو من ثمانين عاماً شبهاً قوياً ، فقد مدح هذا الشاعر آل حميد وأحسن مديحهم كما أنهم أحسنوا جزاءه ثم توالت عليهم النكبات فرثاهم بميميته الخالدة التي مطلعها « أقصر حميد لا عزاء لمغرم » فكانت هذه خير ما قال فيهم على الاطلاق . وانتظم في حاشية المتوكل على الله فظل يمدحه وينادمه نحواً من خمس عشرة سنة مدحه في أثنائها بعدد ضخم جداً من نفائس الشعر فلما كانت فاجعته التي شهدها بعيني رأسه رثاه برائيته التي قال عنها المبرد « ما قيلت هاشمية مثلها » وليس لهذا التحليق المنقطع النظير في الرثاء مع الاجادة في المديح إجادة معتادة سوى سبب واحد هو ما ذكره البحتري من أنه : « يمدح للعطاء ويرثي للوفاء »

والآن لننظر ماذا في مراثي مهيار على العموم ؟

في هذه المراثي خواطر وأفكار كثيرة مبتذلة منها ذم الدنيا والتزهيد في الحياة والقول بأنها ظل زائل وحلم كاذب ، ومنها التنويه بقوة الفقيد

الأدبية والمادية والزعم أنه لو كان من الممكن اتقاء خطر الموت بعلم أو عمل أو قوة بطش لاتقاه هو بما له من علم واسع وعمل صالح وبما تحت اشارته من خيل ملجمة وسيوف مصلتة ورماح مشرعة وغير ذلك ، ومنها تمني السقيا لتربة الفقيد وإهداؤه في ختام القصيدة أطيب التسليمات والتحيات ، ولكن الى جانب هذه الأقوال المكررة المألوفة نفثات حارة تنطوي على الاخلاص يصف بعضها مصيبة الناس بالفقيد وبعضها شخصيته ومواهبه ومناقبه ويعبر البعض الآخر منها عن شعور مهيار الخاص نحوه . وهذه النفثات النادرة المثال هي التي تعطي مراثي مهيار قيمتها الأدبية الممتازة . فمن تلك النفثات الملتهبة التي وصف فيها مهيار ما رأى من الفجائع التي أورت قلبه أسى وأجرت على لسانه نفائس الرثاء قوله في صدر ميميته التي رثى بها أستاذه الشريف .

من جنّب غارب هاشم وسنامها ... ولوى لؤيّاً فاستزل مقامها

وغزا قريشاً بالبطاح فلفّها ... بيد وقوّض عزّها وخيامها

وأناخ في مضر بكلكل خسفه ... يستام فاحتملت(١) له ماسامها

من حلّ مكة فاستباح حريمها

والبيت يشهد - واستحلّ حرامها

ومضى بيثرب مزعجاً ما شاء من ... تلك القبور الطاهرات عظامها ؟

. . . . . .

الدين ممنوع الحمى من راعه ... والدار عالية البنا من رامها ؟

أتناكرت أيدي الرجال سيوفها ... فاستسلمت أم أنكرت اسلامها ؟

---

(١) في الديوان ط . م (واحتملت) .

أم غال ذا الحسبين حامي ذودها قدر أباح(١) على الغدوّ سوامها ؟

. . . . . .

كلح الصباح بموته عن(٢) ليلة نفضت على وجه الصباح ظلامها
صدع الحمام صفاة آل محمد صدع الرداء به وحل نظامها
بالفارس العلوي شق غبارها والناطق العربي شق كلامها

* * *

وقوله في داليته التي رثاه بها أيضاً :

أقريش لا لفم أراك ولا يد
فتواكلي غاض الندى وخلا الندي
خولست فالتفتي بأوقص(٣) واسئلي
من بزّ ظهرك وانظري من أرمد
وهبي الدخول فلست رائد حاجة تقضى بمطرور ولا بمهند
خلاك ذو الحسبين أنقاضاً(٤) متى تجذب على حبل المذلة تنقد
قمر الدنا أضحت سماؤك بعده أرضاً تداس بحائر وبمهتدي
فاذا تشادقت الخصوم فلجلجي وإذا تصادمت الكماة فعرّدي
يا ناشد الحسنات طوّف فالياً(٥) عنها وعاد كأنه لم ينشد
إهبط الى مضر فسل حمراءها من صاح بالبطحاء يا نار اخمدي!

* * *

---

(١) في الديوان (ط . م) أراح والسوام : الأبل في مرعاها .
(٢) في الديوان (ط . م) (من ليلة) .
(٣) الأوقص : العنق القصير .
(٤) الأنقاض : جمع نقض وهو المهزول من السير ناقة كانت أم جملا .
(٥) فالياً : باحثاً .

وقوله من لامية رثى بها المفيد :

ما بعد يومك سلوة لمعلّل بمنىً(١) ولا ظفر بسمع معذّل

سوّى المصاب بك القلوب على الجوى
فيد الجليد على حشا المتململ

وتشابه الباكون فيك لم يبن دمع المحق لنا من المتعمّل

كنا نعيّر بالحلوم اذا هفت جزعاً ونهزأ بالدموع الهمل

فاليوم صار العذر للعاني أسى واللوم للمتماسك المتجمل

رحل الحمام بها غنيمة فائز ما ثار قط بمثلها عن منزل

كانت يد الدين الحنيف وسيفه فلأبكيّن على الأشلّ الأعزل

◆ ◆ ◆

وقوله في رثاء « عميد الجيوش » الصاحب أبي علّي :

يا مستضيم الملك أين الحامي يا جدب ما فعل السحاب الهامي؟

حرم الامارة كيف حل سلوكه من غير تلبية ولا إحرام

ما للعراق عقيب صحته اشتكى سقماً يجاذب من ذيول الشام

من غضّ من دار السلام وإنما(٢)
هي حين تعمر بيضة الاسلام

أأصيب بالشمس الضحى أم خولست فيها الليالي البيض بدر تمام

أم هل هوى بأبي عليّ نجمها رام تعوّد بالنجوم يرامي

◆ ◆ ◆

---

(١) في الديوان (ط ٠ م) « منّى ولا ظفرت بسمع معذل» ٠

(٢) في الديوان (ط٠م) « من غص في دار السلام وانما» ٠

وقبل أن أنتقل بك إلى مرحلة اخرى من هذا الحديث أحب أن ألفت نظرك الى هذه الألوان المختلفة التي يسبغها مهيار على هـذه النفثات : فوفاة الشريف الرضي نكبة تهم قريش عامة وآل النبي خاصة . ووفاة المفيد نكبة اسـلامية عامة . ووفاة عميد الجيوش نكبة سياسـية بحته .

والذي يهمني من هذا هو انطباق كلمات مهيار السالف ذكرها « على مقتضى الحال » كما يقول البلاغيون انطباقاً تاماً .

أما ما يصف من هـذه النفثـات منزلة الفقيد وفضله وأدبه وسـائر ما يمتاز به وصفاً أصيلاً رائعاً فانه موجود في أغلب مراثي مهيار إليـك منه قوله في أسـتاذه الشريف :

أبكيك للدنيـا التي طلقتها ... وقد اصطفتك شـبابها وعرامها(١)

ورميت غاربها بفضلة حبلها(٢) ... زهـداً وقد ألقت إليـك زمامها

. . . . . .

ولقـولة عوصاء أرتج بابهـا ... ففتحتـه لما ولجت خصامهـا

وقلائد قـذفت بحـارك درها ... وقضى لسانك رصفها ونظامها

هي آية العرب التي انفردت بها ... راعيت فيها عهـدها وذمامهـا

. . . . . .

حمّست حتى قيـل صبّ دماءها ... وغزلت حتى قيـل صبّ مدامهـا

---

(١) العرام : القوة .

(٢) في الديوان ط .م (بفضلة معرض) .

ماتت بموتك غير ما خلدته ... في الصحف اذ أمددته أقلامها
قد كنت ترضاني اذا سوّمتها ... تبعاً وأرضى أن تسير أمامها

◆ ◆ ◆

وقوله فيه من قصيدة أخرى :

رضي الموافق والمخالف رغبةً ... بك واقتدى الغاوي برأي المرشد
ما أحرزت قصباتها وتراهنت ... إلا ظهرت بفضلة من سؤدد
تبعتك عاقدة اليك أمورها ... وعرى تميمك(١) بعد لما تعقد
ورآك طفلاً شيبها وكهولها ... فتزحزحوا لك عن مكان السيد
أنفقت عمرك ضائعاً في حفظها ... وعققت عيشك في صلاح المفسد
كالنار للساري الهداية والقرى ... من ضوئها ودخانها للموقد

◆ ◆ ◆

وقوله في المفيد :

يا مرسلاً ان كنت مبلغ ميت ... تحت الصفائح قول حيٍّ مرسل
فلح الثرى الراوي فقل لمحمدٍ ... عن ذي فؤاد بالفجيعة مشعل
من للخصوم اللدّ بعدك غصةً ... في الصدر لا تهوي ولا هي تعتلي؟
من للجدال إذا الشفاه تقلصت ... وإذا اللسان بريقة لم يبلل ؟
من بعد فقدك رب كل غريبةٍ ... بكر بك افترعت وقولة فيصل ؟
. . . . . .

---

(١) التميم : جمع تميمة وهي خرزات تنظم في السير ثم تعقد في عنق الصبي اتقاء للعين .

من للطروس يصوغ في صفحاتها حلياً يقعقع كلما خرس الحلي ؟
يبقين للذكر المخلد رحمةً لك في فم الراوي وعين المجتلي
أين الفؤاد الندب غير مضعّف أين اللسان العضب(١) غير مفلل؟
نفدي به وتحز كلّ ضريبة ما كل حزة مفصل للمنصل

بقي أن نعرف وصف مهيار ما يشعر به من ألم ذاتي ناشيء عند فقد من رثى من عظماء عصره وعلمائه وأدبائه ، وهذا سهل لأنه لا تكاد تخلو مرثية من مراثي الرجل من أبيات كثيرة أو قليلة تعبر عن مثل هذا الألم الذاتي تعبيراً واضحاً قوياً . لكني أوثر أن أقتصر على مثال مطوّل واحد يخيل إلي أنه أبلغ وأروع ما جرى على لسان مهيار في هذا الباب . وروايته على طوله لا تسمح بايراد مثال آخر معه هذا المثال هو قوله في رثاء أحمد بن عبدالله الذي تقدمت له الاشارة :

سل الموت : هل أودعته من ضغينة تنقّم منها فهو بالوتر طالبي
له كل يوم حول سرحي غارة يشرّد فيها بالصفايا النجائب
سلافة إخواني وصفوة إخوتي(٢)
ونخبة أحبابي وجلّ قرائبي
فليت عفا عن أحمد فادياً له بمصرمة(٣) مما اقتنيت وحالب
أألآن لما اشتد متني بوده وردّت ملاء من نداه حقائبي
وجمّت لآمالي العطاش حياضه وكانت تحلّى عن نطاف المشارب
فجعت به غضّ الهوى حاضر الجدى
جديد قميص الود سهل المجاذب

---

(١) في الديوان «ط . م» : «الصعب» .

(٢) هكذا في الديوان (ط . م) وربما كان الصواب أصحابي أو خلاني لمكان (أخوة) من البيت .

(٣) المصرمة : الناقة كوي ضرعها فانقطع لبنها .

كأني على العهد القريب اعتلقته بطول اختياري أو قديم تجاربي

. . . . . .

فقيد بميسان استوت في افتقاده مشارق آفاق العلا بالمغارب

. . . . . .

تنافثوا عن جمر الغضا نادباته
كأن فؤادي في حلوق النوادب
بكت أدمعاً بيضاً ودمت جباهها
فتحسبها تبكي دما بالحواجب

. . . . . .

وكنت إذا ما الدهر شل معاطني(١)
دعوتك فاستنقذت منه سلائبي
ذخيرة أنسي يوم يوحشني أخي
وبابي إذا سدت علي مذاهبي

. . . . . .

سلام على الافراح بعدك إنها
-وإن عشت- ليست إربة من مآربي
اذا دنّس الحزن السلو غسلته
فعاد جديداً بالدموع السواكب
وإن أحدثت عندي يد الدهر نعمة
ذكرتك فيها فاغتدت من مصائبي
أداري عيون الشامتين تجلداً
وأبسم منهم في الوجوه القواطب
أريهم بأني ثابت الريش ناهض
وتحت جناحي جانفات(٢) المخالب

لا أريد أن أقول إن مهيار لم يسبق الى شيء مما ورد في هذه النفثات ولكني أدعي أنه أحس كلّ ما فيها وشعر به شعوراً تاماً حتى جرى على لسانه في غير ما تعمل ولا تكف . ولذلك فمن الحق أن نعتبر هذه النفثات جديدة في مجموعها أو شبه جديدة على أني لا أستبعد أن

---

(١) معاطن : جمع معطن وهو مبرك الابل حول الحوض .

(٢) جانفات : جائرات .

يكون مهيار قد ابتكر كثيراً من المعاني التي مرت بك كقوله :

تنافثوا عن جمر الغضا نادباته كأن فؤادي في حلوق النوادب

وكقوله :

بكت أدمعاً بيضاً ودمت جباهها فتحسبها تبكي دماً بالحواجب

وكقوله :

فان أحدثت عندي يد الدهر نعمة ذكرتك فيها فاغتدت من مصائبي

فاذا أضفت الى هذا ما أسبغ على هذه النفثات من جمال اللغة ولطف الأسلوب تبينت بوضوح أني لم أجازف كثيراً باحلال مراثي مهيار أول محل من شعره .

لغته وأسلوبه : وتسألني رأيي في لغة مهيار وأسلوبه فأقول لك : إنه احتذى في هذا مثال أستاذه الشريف الرضي ونسج على منواله فكان له صفاء ديباجته ورقة حاشيته ووضوح عبارته وخلو كلامه من الفضول والحشو . وملاءمة لغته لموضوعاته واعتداله في استعمال المحسنات البيانية . وقد مر بك من شعره ما يؤيد هذا كله تأييداً تاماً .

د - خاتمة

قلت لك مراراً عديدة إن مهيار تلميذ الشريف الرضي عنه أخذ وعليه تخرج . فلنتبين الآن أبلغ التلميذ مدى استاذه أم قصر عنه فلم يلحق له شأواً ولم يدرك له مدى ؟ .

لا شك أن غزل مهيار على رقة خياله ودقة معانيه دون غزل الشريف

بمراحل ، لأن العاطفة الصادقة التي هي مصدر جمال غزل الشريف غير موجودة فيه - والعاطفة الصادقة كما تعلم - أول مصادر الجمال في الغزل. ولا شك كذلك أن إخوانيات مهيار دون أخوانيات أستاذه فلست أعرف له قصيدة في هذا الباب تبلغ من نبل الشعور وسمو العاطفة ما تبلغه تلك البائية الفذة التى كتب بها الشريف الى أبي الحسن البتي والتي مطلعها :

أبا حسن أتحسب ان شوقي يقل على معارضة الخطوب(١)

ومعلوم أنه بعيد كل البعد عن أن يجاري الرضي في الفخر بل لعل بعض كلماته فيه يدعو الى الابتسام بدلا من الاعجاب ، من ذلك فخره في نونيته التي مطلعها : « أمن خفوق البرق ترزمينا الخ .. » ولكننا قد لا نخطيء اذا لاحظنا أنه لا يقل كثيراً عن استاذه اجادة للرثاء ومهارة فيه . أما في الوصف فقد تكون كفة مهيار هي الراجحة .

---

(١) لم أتحدث عن اخوانيات الشريف في اثناء كلامي على شعره لأن ناقداً معاصراً كتب عنها ما فيه كفاية . ولم اتحدث كذلك عن وصفه لسبب مماثل .

خاتمة الكتاب

الأدب العباسي ما له وما عليه

قلت لك عند الكلام على النثر العباسي انه نسج على منوال القرآن من حيث مذاهبه وأساليبه في الأداء . وعند الكلام على الشعر العباسي انه أنشيء على غرار الشعر الجاهلي من حيث صوره وأشكاله ، ومن حيث مقاصده وأغراضه في كثير من الأحيان . وأقول لك الآن ان النثر العباسي بقي بمكانه فلم يتقدم في مختلف العصور العباسية تقدماً يذكر بالنسبة الى ما كان عليه في القرن الأول للهجرة . فليس لابن المقفع ، ولا للجاحظ ، ولا للخوارزمي ، ولا لأحد غيرهم من كبار الكتاب العباسيين ما يضارع مختار خطب القرن الأول للهجرة ورسائله وحكمه ، خطورة معنى وبراعة مبنى . ولكن الشعر على علاته تقدم تقدماً لا بأس به ، فتحدث عن الحرب والسياسة والشؤون الاجتماعية والفردية بأسلوب أقوى ونفس أطول وتفصيل أتم ولغة أسهل وأجمل مما كان عليه قبل ظهور الدولة العباسية .

أما أثر الموالي في كل من الشعر والنثر فقد كان ضئيلاً ، ذلك أن هؤلاء الغرباء كانوا يتثقفون بالثقافة العربية ويصبغون عقولهم بالصبغة العربية الخالصة ، ويعملون طوعاً أو كرهاً على أن يكونوا عرباً في أفكارهم وعواطفهم كما كانوا عرباً في لغتهم .

وأنت تعلم أن بشاراً على شعوبيته كان يفاخر بأنه نشأ « في حجور

ثمانين شيخاً من فصحاء بني عقيل ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ »، وأن أبا نواس الذي لا يقل شعوبية عنه تخرّج على والبة بن الحباب الشاعر الكوفي الأسدي ، واستكمل ثقافته اللغوية في بادية بني أسد ودرس في البصرة دراسة عربية خالصة . وأن مهيار الديلمي ذهب في انتحال العروبة الى أبعد من هذا ، فادعى ايقاد النار تحت دياجر الليل للسارين ، ونحر الكوم العشائر لهم تشبهاً بأجواد البادية كما انتحل مظاهر الحب البدوي العذري ومميزاته وخصائصه . هذا الى أنهم لم يغيروا قافية ولم يستحدثوا وزناً ، ولم يصطنعوا أسلوباً خاصاً فضلاً عن أن يطرقوا موضوعاً جديداً ، أو يعالجوا غرضاً غير مألوف .

ومما ينبغي التنويه به لخير الأدب العباسي أن تأريخه عرف ثلة من كبار الشعراء في طليعتهم ابن المعتز وأبو فراس والشريف الرضي ، قرضوا الشعر للشعر ، وخدموا الفن للفن ، وتركوا في الوصف والرثاء والغزل والحكم والأمثال صفحات أصيلة رائعة يستطيع الأدب العربي أن يفاخر بها . على أن الشعراء التقليديين الذين تكسبوا بالشعر واتخذوه صناعة لا رسالة ، تركوا هم أيضاً غرراً ومحاسن لها من المزايا الأدبية والتاريخية ما يجعلها جديرة بالتقدير والثناء .

وليس معنى هذا أن نقلد أولئك أو هؤلاء فننتحل مقاصدهم وأغراضهم ونصطنع مذاهبهم وأساليبهم كائنة هذه ما كانت . كلا ! فان مهمتنا الآن هي أن ننهض بأدبنا نهضة قوية صادقة وان نجدده في موضوعاته وصوره

وأغراضه تجديداً يجمع بين الجرأة والاعتدال . ويجمع كذلك بين حسنات الماضي والحاضر وينبذ سيئاتهما على السواء . وقد فعلنا مثل ذلك في النثر وبقى أن نفعله في الشعر . ولكننا نقول الذي نقوله في شعراء السلف تقريراً للحقيقة وخدمة للتاريخ وتنويهاً بالدور الحسن الذي لعبوه في خدمة اللغة والأدب .

مصادر الكتاب

١ ـ ابن الرومي حياته من شعره للاستاذ العقاد . الطبعة الثانية ١٣٥٧ـ١٩١٨ .

٢ ـ ابو فراس الحمداني : للسيد محسن الامين العاملي : الطبعة الاولى ١٩٤١ ـ ١٣٦٠ .

٣ ـ ابو نواس : للسيد محسن الامين العاملي : الطبعة الاولى ١٩٤٧ .

٤ ـ اخبار ابي تمام لابي بكر الصولي : الطبعة الاولى ١٩٢٧ .

٥ ـ اخبار ابي نواس لابن منظور : الطبعة المصرية ١٩٢٤ .

٦ ـ ادباء العرب في الاعصر العباسية للاستاذ بطرس البستاني : الطبعة الاولى .

٧ ـ الادب العربي وتاريخه : للاستاذ محمود مصطفى الطبعة الثانية مصطفى البابي الحلبي ١٣٥٦ـ١٩٣٧ .

٨ ـ امراء البيان : للاستاذ محمد كرد علي : الطبعة الاولى

٩ ـ امراء الشعر في العصر العباسي : للاستاذ أنيس المقدسي : الطبعة الاولى .

١٠ ـ الاغاني : لابي الفرج الاصبهاني : طبعة مطبعة التقدم بمصر .

١١ ـ أمالي السيد المرتضى : الطبعة الاولى ١٢٢٤ هـ

١٢ ـ الاوراق للصولي : الطبعة المصرية ١٣٦٤ـ١٩٤٥ .

١٣ ـ البديع لابن المعتز : الطبعة المصرية ١٩٤٥ .

١٤ ـ بشار للمازني : طبعة مصر ١٩٤٤ .

١٥ ـ البخلاء للجاحظ : طبعة دار الكتب المصرية ١٢٥٨ـ١٩٣٩ .

١٦ ـ البيان والتبيين للجاحظ : طبعة مطبعة الفتوح الادبية بمصر ١٣٢٢

١٧ ـ تاج العروس الطبعة الاولى ١٣٠٦ .

١٨ - تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان : طبعة مصر ١٩١٣ .

١٩ - تاريخ الامم والملوك للطبري : طبعة المطبعة الحسنية بمصر .

٢٠ - تاريخ بغداد للخطيب البغدادي : طبعة مطبعة السعادة بمصر ١٣٤٩ .

٢١ - تطور الاساليب النثرية : للاستاذ أنيس المقدسي : الطبعة الاولى

٢٢ - حديث الاربعاء للدكتور طه حسين : طبعة البابي الحلبي ١٩٣٧ والمعارف ١٩٤٥ . ة

٢٣ - الحيوان للجاحظ : طبعة مطبعة البابي الحلبي بمصر .

٢٤ - خزانة الادب للبغدادي طبعة بولاق

٢٥ - ديوان المتنبي : طبعتي مطبعة صادر وعزام .

٢٦ - ديوان ابي تمام : طبعة مصر لسنة ١٩٤٢

٢٧ - ديوان ابي فراس : طبعة الدهان .

٢٨ - ديوان ابي نواس : طبعة المطبعة الحميدية بمصر ١٣٢٢ .

٢٩ - ديوان ابن المعتز : طبعة بيروت ١٨٩١ .

٣٠ - ديوان ابن الرومي : طبعتي كامل كيلاني الطبعة الاولى ١٩٢٤ ومحمد شريف سليم الطبعة الاولى ١٣٣٥ - ١٩١٧ .

٣١ - ديوان الشريف الرضي : طبعة بيروت ١٩١٠ .

٣٢ - ديوان المعاني لابي هلال العسكري : طبعة القاهرة ١٣٥٢ .

٣٣ - ديوان مهيار : طبعة دار الكتب المصرية ١٣٤٣-١٩٣٠ .

٣٤ - ديوان البحتري : طبيعة مطبعة هندية بمصر ١٣٢٩-١٩١١

٢٥ - ذكرى ابي الطيب بعد الف عام للدكتور عبدالوهاب عزام : طبعة مطبعة الجزيرة - بغداد ١٩٣٦ .

٣٦ - رسائل البلغاء لمحمد كرد علي : طبعة مصر ١٣٣١ - ١٩١٣ .

٣٧ - رسائل بديع الزمان الهمذاني : طبعة مطبعة هندية ١٣١٥-١٨٩٨

٣٨ - رسائل الجاحظ للسندوبي طبعة مصر ١٣٥٢-١٩٣٣ .

٣٩ - رسائل الخوارزمي : طبعة المطبعة العثمانية بمصر ١٣١٢ .

٤٠ - الروائع للبستاني : عدد ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ .

٤١ - زهر الآداب : طبعة المطبعة الرحمانية بمصر .

٤٢ - شرح ابن ابي الحديد لنهج البلاغة : طبعة دار الكتب الكبرى بمصر

٤٣ - الشعر والشعراء لابن قتيبة : طبعة مطبعة التقدم بمصر ١٣٢٢ .

٤٤ - طبقات الشعراء في مدح الخلفاء والوزراء لابن المعتز : طبعة مطبعة جامعة كمبردج ١٩٢٩ .

٤٥ - الصبح المنبي للبديعي : طبعة مطبعة الاعتدال بدمشق ١٣٥٠ .

٤٦ - ضحى الاسلام للدكتور احمد امين : الطبعة الاولى .

٤٧ - عبقرية الشريف الرضي للدكتور زكي مبارك : طبع بغداد ١٩٣٨

٤٨ - العقد الفريد : طبعة العريان ١٣٥٩-١٩٤٠ .

٤٩ - العمدة في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق : طبعة مطبعة السعادة ١٣٢٥-١٩٠٧

٥٠ - عمدة الطالب في انساب آل ابي طالب : طبع النجف ١٣٥٠ .

٥١ - فصول التماثيل في تباشير السرور لابن المعتز طبعة مصر ١٩٢٥

٥٢ - فهرست ابن النديم : طبعة المطبعة الرحمانية سنة ١٣٤٩ .

٥٣ - فوات الوفيات : طبعة بولاق ١٢٩٩ .

٥٤ - القاموس المحيط للفيروزبادي : طبعة المطبعة الحسنية بمصر ١٣٣٠ .

٥٥ ـ الكامل في التاريخ لابن الاثير : طبعة ١٢٩٠
٥٦ ـ الكامل في اللغة والادب للمبرد : طبعة مصر ١٣٥٦ـ١٩٣٧ .
٥٧ ـ كليلة ودمنة لابن المقفع : الطبعة المصرية الخامسة .
٥٨ ـ المجازات النبوية للشريف الرضي : طبعة مصر ١٣٥٦ـ١٩٣٧
٥٩ ـ معاهد التنصيص : طبعة المطبعة البهية ١٣١٦ .
٦٠ ـ مع المتنبي للدكتور طه حسين : طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٦
٦١ ـ معجم الأدباء لياقوت : طبعة مصر ١٣٥٧ـ١٩٣٨
٦٢ ـ مقامات الحريري : طبعة مصر ١٣٤٣ـ١٩٢٥
٦٣ ـ من حديث الشعر والنثر للدكتور طه حمين : طبعة مصر ١٩٣٦
٦٤ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والامم : طبعة حيدر آباد ١٣٥٦
٦٥ ـ الموازنة بين ابي تمام والبحتري للآمدي : طبعة مصر ١٣٢٩
٦٦ ـ الوزراء والكتاب للجهشياري : الطبعة الاولى .
٦٧ ـ وفيات الاعيان لابن خلكان : طبعة المطبعة الميمية بمصر ١٣١٠
٦٨ ـ يتيمة الدهر للثعالبي : طبعة دمشق .

الفهرست

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٢ ـ ٤
الباب الاول ـ في الكتاب المترسلين	
تمهيد في تأثر النثر العباسي بمذاهب القرآن وأساليبه ..	٥ ـ ٦
الفصل الاول ـ ابن المقفع	٧ ـ
حياته	٨ ـ ١٤
اخلاقه	١٤ ـ ١٦
آثاره	١٦ ـ
الأدب الصغير	١٦ ـ ٢٠
الأدب الكبير	٢٠ ـ ٢٣
كليلة ودمنة	٢٣ ـ ٣٢
رسالة الصحابة	٣٢ ـ ٣٣
لغته واسلوبه	٣٣ ـ ٣٨
سبب درسه	٣٨ ـ
مصدر شهرته	
خاتمة ـ الفصل في أمره	٣٨ ـ ٣٩
الفصل الثاني ـ الجاحظ	٤٠ ـ
حياته	٤٢ ـ ٤٦
صفاته	٤٦ ـ ٤٩

آثاره .. .. ٤٩ - ٥٠
أقسامها .. .. ٥٠ -
مساوئها .. .. ٥٠ - ٥٢
محاسنها .. .. ٥٣ - ٥٤
لغته وإسلوبه .. .. ٥٤ - ٥٨
عذره فيما يؤاخذ فيه من هنات .. .. .. ٥٨ - ٥٩
مثل من مختار كلامه .. .. ٥٩ - ٦١
خاتمة - مقارنة بينه وبين عبدالله بن المقفع .. .. ٦١ - ٦٢
الباب الثاني - في كتاب الاسجاع والمقامات
الفصل الاول - ابو بكر الخوارزمي .. .. .. ٦٣ -
حياته .. .. ٦٤ - ٦٧
صفاته .. .. ٦٧ - ٧٠
آثاره .. .. ٧٠ -
نشره .. ..
لغته واسلوبه .. .. ٧٠ - ٧١
فارسيته .. .. ٧١ - ٧٢
مثل من احاسن كتبه .. .. ٧٢ - ٧٥
شعره .. ..
مثل منه .. .. ٧٥ - ٧٧
خاتمة - غلبه النثر على ادبه .. .. .. ٧٧ -
الفصل الثاني - بديع الزمان الهمذاني .. .. .. ٧٨ -
حياته .. .. ٧٩ - ٨٦
صفاته .. .. ٨٦ - ٨٩

آثاره .. .. ٨٩ -
نثره .. ..
لغته واسلوبه .. .. ٨٩ - ٩١
مثل من مختار رسائله .. .. ٩١ - ٩٤
مقاماته .. ..
المقامة القزوينية .. .. ٩٤ - ٩٧
شعره .. ..
مثل منه .. .. ٩٧ - ٩٨
خاتمة - الفصل بينه وبين الخوارزمي .. .. ٩٨ - ٩٩
الفصل الثالث - الحريري .. .. ١٠٠ -
حياته .. .. ١٠١ - ١٠٤
صفاته .. .. ١٠٤ - ١٠٥
آثاره .. ..
مقاماته .. ..
راويتها .. ..
خاصته .. ..
بطلها .. ..
مميزاته .. .. ١٠٥ - ١٠٦
تنازعهما وتصافيهما .. ..
حظوة هذه المقامات لدى القدماء .. .. .. ١٠٦ - ١٠٧
شروحها .. .. ١٠٧ - ١٠٨
اهليتها لما نالت من الحظوة .. ..
قيمتها في العصر الحاضر .. .. ١٠٨ - ١٠٩

لغتها واسلوبها ١٠٩-١١١
احاسنها .. ..
مثل منها .. ..
المقامة الحرامية ١١٢-١١٨
خاتمة - الحريري والتاريخ ١١٨-
الباب الثالث - في شعراء القرن الثاني للهجرة
تمهيد في الشعر العباسي وتأثره بالشعر الجاهلي .. ١١٩-١٢٠
الفصل الاول - بشار بن برد ١٢١-
حياته ١٢٢-١٣٦
صفاته ١٣٦-١٤٠
شعره ١٤٠-١٤١
غزله ١٤١-١٤٤
مديحه ١٤٤-١٤٦
هجاؤه ١٤٦-١٥٢
رثاؤه .. ..
فخره ١٥٢-١٥٤
حكمه ١٥٤-١٥٦
خاتمة - مقارنة بينه وبين الحطيئة وجرير . هل كان مجدداً ١٥٦-١٥٧
الفصل الثاني - ابو نواس ١٥٨-
حياته ١٥٩-١٧٣
صفاته ١٧٣-١٧٤
شعره ١٧٤-١٧٦

غزله .. .. ١٧٦_١٧٨
مديحه .. .. ١٧٨_١٨٢
هجاؤه .. .. ١٨٤_١٨٦
خمرياته .. .. ١٨٦_١٩٣
خاتمة - الفصل في شاعريته وقدرته على التجديد .. ١٩٤_
الباب الرابع - في شعراء القرن الثالث للهجرة
الفصل الاول - ابو تمام .. .. ١٩٥_
حياته .. .. ١٩٦_٢٠٢
صفاته .. .. ٢٠٢_٢٠٥
مذهبه السياسي الديني .. .. ٢٠٥_٢٠٦
شعره .. .. ٢٠٦_٢٠٧
فخره .. .. ٢٠٧_٢١٠
وصفه .. .. ٢١٠_٢١٤
رثاؤه .. .. ٢١٤_٢١٦
مديحه .. .. ٢١٦_٢١٩
هجاؤه .. .. ٢١٩_٢٢١
لغته واسلوبه .. .. ٢٢١_٢٢٥
خاتمة - ما يفيد وما لا يفيد من شعره .. .. ٢٢٦_
الفصل الثاني - البحتري .. .. ٢٢٧_
حياته .. .. ٢٢٩_٢٣٧
اخلاقه .. .. ٢٣٧_٢٤١
رأيه في الدين والسياسة .. .. ٢٤١_٢٤٢
شعره .. .. ٢٤٢_

غزله .. .. ٢٤٢_٢٤٥
مديحه .. .. ٢٤٥_٢٥٠
رثاؤه .. .. ٢٥٠_٢٥٥
فخره .. .. ٢٥٥_٢٦٠
وصفه .. .. ٢٦٠_٢٦٩
هجاؤه .. ..
عتابه .. .. ٢٦٩_٢٧٠
فلسفته .. .. ٢٧٠_٢٧١
لغته واسلوبه .. .. ٢٧١_٢٧٤
خاتمة - أهمية شعره وفائدته .. .. .. _٢٧٥
الفصل الثالث - ابن الرومي .. .. .. _٢٧٦
حياته .. .. ٢٧٧_٢٨١
اخلاقه .. ..
شعره .. .. ٢٨١_٢٨٢
غزله .. .. ٢٨٢_٢٨٤
مديحه .. .. ٢٨٤_٢٨٨
هجاؤه .. ..
عتابه .. .. ٢٨٨_٢٩١
رثاؤه .. .. ٢٩١_٢٩٣
وصفه .. .. ٢٩٣_٢٩٥
لغته واسلوبه .. .. ٢٩٥_٣٠٠
خاتمة - ابن الرومي من حيث هو رجل ومن حيث
هو شاعر .. .. ٣٠٠_٣٠١

الفصل الرابع - ابن المعتز ٣٠٣-
حياته ٣٠٣-٣٠٧
صفاته ٣٠٧-٣١١
كتبه ٣١١-٣١٢
شعره ٣١٢-٣١٣
غزله ٣١٣-٣١٦
وصفه ٣١٦-٣٢٠
شعره السياسي ٣٢٠-٣٢٧
حكمه وخواطره ٣٢٧-٣٢٨
لغته واسلوبه ٣٢٨-٣٢٩
خاتمة - منزلته بين الشعراء ٣٣٠-٣٣١
الباب الخامس - في شعراء القرن الرابع للهجرة
الفصل الاول - المتنبي ٣٣٢-
حياته ٣٣٤-٣٥٥
صفاته ٣٥٥-٣٦٣
آثاره ٣٦٣-٣٦٤
غزله ٣٦٤-٣٦٧
فخره ٣٦٧-٣٦٨
وصفه ٣٦٨-٣٧٢
مديحه ٣٧٢-٣٨٠
هجاؤه ٣٨٠-٣٨١
عتابه ٣٨١-٣٨٢
رثاؤه ٣٨٢-٣٨٤
فلسفته ٣٨٤-٣٨٦

لغته واسلوبه	٣٨٦_٣٩١
خاتمة مقارنة بينه وبين ابي تمام والبحتري ..	٣٩١_٣٩٢
الفصل الثاني - ابو فراس الحمداني	٣٩٣_
حياته	٣٩٤_٤٠٣
اخلاقه	٤٠٣_٤٠٥
علويته	
شعره	٤٠٥_٤٠٦
غزله	٤٠٦_٤٠٨
مديحه	٤٠٨_٤١١
فخره	٤١١_٤١٣
اخوانياته	٤١٣_٤١٤
روملياته	٤١٤_٤١٧
لغته واسلوبه	٤١٧_٤١٩
خاتمة - منزلته بين شعراء الفروسية	٤٢٠_
الفصل الثالث - الشريف الرضي	٤٢١_
حياته	٤٢٢_٤٢٩
اخلاقه	٤٢٩_٤٣٠
كتبه	٤٣٠_٤٣٢
شعره	
غزله	٤٣٢_٤٣٧
رثاؤه	٤٣٧_٤٤٢
فخره	٤٤٢_٤٤٣
مديحه	٤٤٣_٤٤٤
لغته واسلوبه	٤٤٤_٤٤٩
خاتمة - منزلته بين شعراء اللغة العربية	٤٤٩_٤٥٠

الفصل الرابع - مهيار ٤٥١-
حياته ٤٥٢-٤٥٧
اخلاقه ٤٥٧-٤٦٠
تعربه ٤٦٠-٤٦٣
شعره ٤٦٣-٤٦٥
غزله ٤٦٥-٤٦٩
اخوانياته ٤٦٩-٤٧٢
وصفه ٤٧٢-٤٧٨
مديحه ٤٧٨-٤٨٠
رثاؤه ٤٨٠-٤٨٩
لغته واسلوبه .. ..
خاتمة - مقارنة بينه وبين استاذه الرضي ٤٨٩-٤٩٠
خاتمة الكتاب الادب العباسي ماله وما عليه ٤٩١-
مصادر الكتاب ٤٩٤-٤٩٧

جدول الخطأ والصواب

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٦	١٥	عذا	هذا
٨	٤	ما المقفع	أما المقفع
٩	الحاشية	الادب أنه	الادب العربي أنه
١٩	الحاشية	ج ٢ ص ٨٢	ج٢ ص٢٨٤
٢١	الحاشية الثانية	ص ١٩	ص ١١٩
٢٨	الحاشية الاولى	ص ١٨	ص ١١٨
٢٩	١٢	أن	لئن
٣٠	الحاشية	ص٣٩٦ - ٢٩٨	ص٣٩٦ - ٣٩٨
٣٥	الحاشية الخامسة	ص ١٩	ص ٢٩ - ٣٠
٣٦	الحاشية الاولى	ص ١٠	ص٩٠
٣٦	الحاشية الثالثة	ص ١٠١ - ١	ص١١١ - ١١٤
٣٧	الحاشية الرابعة	ص ١٠٣	ص١٣٠
٤١	الحاشية	ص ٩١	ص ٢٩١
٤٨	١١	فعاه	دفعاه
٤٨	١٤	ون	دون
٤٨	١٦	عي	دعى
٨٢	الحاشية الاولى	وكفك	كفاك
٨٣	١١	يلفح	يلقح
٨٧	الحاشية الاولى	ص ١٩١ - ٩٢	ص١٩١ - ١٩٢
٨٨	١٢	دن	دون
٨٨	١٣	ريت	رأيت
٩١	الحاشية الاولى	٢٠٠	٢٠٢

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٠١	١٢	الاسئلة الثلاث	الاسئلة الثلاثة
١٠٨	٩	برعة	براعة
١١١	٦	الجر	الجرس
١١٥	٣	نامت	نادمت
١٢٧	٨	لي	إلي
١٣٢	٥	رهم	درهم
١٣٢	٥	ورها	وروها
١٣٣	٤	ون	دون
١٣٦	٨	جما	حماد
١٣٧	١	وخبار	وأخبار
١٣٧	٢	قلها	أقلها
١٣٧	١٨	نواره	نوادره
١٣٨	١٥	بشا	بشار
١٣٩	١٣	يجزع	ونجزع
١٣٩	١٤	ري	روى
١٤١	١٠	أبها	أدبها
١٥٢	١٩	له	لك
١٥٤	٨	بحد	بجد
١٥٥	٥	بشا أ	بشاراً
١٥٦	١	ى صديقاً	صديقك
١٧١	٢	أدركني	أدركتني
١٨٢	١	تسبق	سبق
١٨٢	٢	البلغه	البالغة
١٨٥	٢	يعلموا	يعملوا

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٩٨	٢	الحظ	الحفظ
١٩٩	١٥	وظاهر	والظاهر
٢٠٣	٧	كثير الاحيان	كثير من الاحيان
٢٠٧	١١	اجتنبت	اجتنيت
٢٠٧	١٣	تسقي	تستقي
٢٣١	٩	اقتبها	اقتبسها
٢٣٣	٩	دولتها	دولتهما
٢٥٠	٧	منكنا	منكبا
٢٥٦	١٩	واشجهم	واشجعهم
٢٥٩	آخر الصفحة في الابيات	سفنه	سفينه
٢٦١	٧	هذيري	عذيري
٢٦٦	آخر الصفحة	فيصف لنا عظمه آل ساسان	فيصف لنا مرة عظمه آل ساسان
٢٧٠	١٨	في أيام عز واقناله	في أيام عزه واقباله
٢٧٦	بين أ - ج		ب - اخلاقه انحلالها
٢٧٨	١	لبث	ولبث
٢٨٨	آخر الصفحة	كل	كان
٢٩٠	يقرأ البيت وتمنيت ... الخ بعد البيت (كنت في شبهة) وقبل البيت (تالله) بدلاً من الترتيب الموجود في الصفحة المذكورة .		
٢٩٢	٢	قتلته	فتنته
٢٩٥	١٠	فتيليت	فنيلت
٢٩٦	١٤	فقد	وقد
٢٩٩	١١	مخاطبة الجمع	مخاطيته الجمع
٣٠٢	١٠	حيه	حبسه

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٠٢	٢٦	قهر الرباب	قصر الرباب
٣٠٩	٤	على الدهر	عن الدهر
٣١١	١١	فصال التماثيل	فصول التماثيل
٣٢٠	آخر الصفحة	المؤلمة	المؤلمة التي
٣٢٧	آخر الصفحة	لأنها	ولأنها
٣٣٤	السطر الاول من الحاشية	بأنهم	أنهم
٣٣٤	السطر الاخير من الحاشية	جعفى	جعف
٣٤٩	٢	وهو ولا يزيد	وهو لا يريد
٣٥٤	٣	أثاء	أثناء
٣٥٥	٣	٢٥٤	٣٥٤
٣٧٤	٢	وذلك	وذاك
٣٧٤	١٢	٢٧٤	٣٧٤
٣٨٩	٦	ننسها	نفسها
٤٠٩	آخر الصفحة	يحذف السطر الثاني من آخر الصفحة	
٤١٤	الحاشية الاولى (الشعر)	لدي النوم	لدي وللنوم
٤٢٥	٧	غبي	غي
٤٣٠	١١	يستخلصه	يستخلص
٤٣١	السطر الثامن من الحاشية	ولا لغيرها	ولا لغير
٤٣١	السطر الثاني عشر من الحاشية	الصرح	الشرح
٤٣٢	٨	للحجاح	للحاج
٤١٦	٣	اللغاغيد	اللغاديد
٤٣٧	أضف جملة أبي على آل عميد الجيوش وواواً الى أبي منصور المرزباني في الصفحة المذكورة سطر ١١		

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٤٤٧	السطر الاخير من الحاشية	الغيطا	الغيطان
٤٥٩	٣	وأفاهم	وأوفاهم
٤٦٣	٥	تأثرأ	أثرأ
٤٦٨	٧	فاحلا	فامحلا
٤٧٦	٦	شمحا	سمحاً
٤٧٧	٣	للباب	للثياب
٤٨٤	٥	لم	فلم
٤٨٦	١٢	فلح	فلج
٤٨٧	٤	نفدي	تفري
٤٨٨	السطر الرابع عشر	ولا تكف	ولا تكلف
٤٩٤	رقم ١٥	١٢٥٨ - ١٩٣٩	١٣٥٨ - ١٩٣٩

أهم كتب المؤلف المطبوعة

١ ـ تاريخ القضية العراقية (جزءآن ظهر في بغداد في سنتي ٩٢٣ و١٩٢٤) ٠

٢ ـ شعر كورني الغنائي (بالفرنسية طبع مونبيلية سنة ١٩٣٧) ٠

٣ ـ بعث الشعر الجاهلي (طبع بغداد ١٩٣٩) ٠

٤ ـ نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر (طبع ببغداد سنة ١٩٤٦) ٠

٥ ـ عصر القرآن (طبغ ببغداد سنة ١٩٤٧) ٠

٦ ـ الموشح في الأندلس وفي المشرق (طنع ببغداد ١٩٤٨) ٠

٧ ـ في الأدب العباسي ، هذا ٠

٨ ـ خطرات (الجزء الاول) طبع في بغداد ١٩٥٢ ٠

أهم كتب المؤلف المخطوطة

١ ـ البركان (ديوان شعر سياسي) ٠

٢ ـ همسات (ديوان شعر يحتوي على أغلب أنواع الشعر المعروفة) ٠

٣ ـ سوانح (مجموعة خطب ومقالات ومحاضرات في السياسة والاجتماع والأدب) ٠

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY